السبق التربوي

في

فكر الشافعي

(١٥٠ - ٢٠٤ هـ)

تأليف
بدر محمد ملك
خليل محمد أبو طالب

تقديم
دكتور عجيل جاسم النشمي

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب إشراقة مضيئة في عالم التربية وهو للامام الشافعي رضى الله عنه سبق عظيم في دنيا الفكر والتعليم إنه بغية المكتبة التربوية وسداد ثغرة في مجال تربية الناشئة وصنع الأجيال هذا الكتاب سيجد فيه الداعية طلبته والأديب رغبته والمعلم أمله والأب بغيته والطالب قدوته وأسوته هذا الكتاب لا يستغني عنه المجتمع ولا الأسرة ولا المدرسة والجهد الذي بذل فيه من إعداد للمراجع وجمع للمواضيع وغوص لاستخراج النصوص وقراءة متواصلة وكتابة متأنية استغرقت سنوات والقصد منه أولا وأخيرا مرضاة الله تعالى والتعاون في صنع فلذات الأكباد ونفع الناس من منطلق ما يحس به المسلم من واجب فعل الخير والتعاون على البر فإليك ياأخي القاريء هذا الكتاب فإن رأيت خيرا فمن الله وحده وإن عثرت على سقطه فمنا ومن الشيطان وليكن الصفح والرضا كرما منك ، وعين الرضا عن كل عيب كليلة ..

والله المستعـــان

السبق التربوي

في

فكر الشافعي

(١٥٠ - ٢٠٤ هـ)

تأليف

بدر محمد ملك

خليل محمد أبو طالب

تقديم

دكتور عجيل جاسم النشمي

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

للإتصال بالمؤلف

أ.د. بـــدر محمـــد ملك

@4bader111

bmalek227@gmail.com

www.badermalek.com

لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

آل عمران

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

القلم

قال رسول الله ﷺ : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء ، حتى الحيتان في البحر)

صحيح الجامع الصغير وزياداته ـ ج٢ رقم الحديث ٣٩١٣ .

إهـــــــداء

إلى الظامئين إلى رضاب العلم والمتعطشين إلى رحاب الثقافة وبحار المعرفة ..

إلى الطامحين إلى قمم الأخلاق والفضيلة والساعين إلى مناهل التزكية والتربية ..

إلى جيل اليوم .. إليك ياناصر بدر ويامحمد خليل وإلى إخوانكم وأخواتكم نهدي هذا الكتاب ..

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم: أ.د. بدر محمد ملك

"الْحَمْدُ لِلَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَكَمَا يَنْبَغِي لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ"[1].

وبعد، فإن لكل كتاب قصة ميلاد، وقصتي مع كتاب *السبق التربوي في فكر الشافعي* بدأت قبل أكثر من ثلاثين سنة حينما كنت أجلس على مقاعد الدراسة في جامعة الكويت إذ كتبتُ يومئذ أولى كلمات هذا السِّفر العزيز على قلبي، والذي استفاد منه عدد غير قليل من الفضلاء. لا زالت ذكرياتي حول بدايات تأليف كتاب *السبق التربوي* حاضرة في أعماقي كأنها جرت بالأمس القريب... دخلتُ جامعة الكويت لأستمتع بسماع ورؤية حوارات تربوية راقية، ومناقشات فكرية حامية محفزة للذهن والطموح معا. عجت الجامعة حينئذ بأفكار دينية وقومية وليبرالية ثرية تركت آثارها العميقة على البيئة الثقافة الكويتية التي وضعت بصمتها على المنظومة الفكرية لعالمنا العربي والإسلامي. ولقد شاهدت في بداية الثمانينات من القرن الماضي في الحرم الجامعي شخصيات مرموقة من مثل: فؤاد زكريا، وأحمد الربعي، وجواد رضا، ورجاء أبو علام، وسهام أبو عيطة... وعدد من العلماء والمفكرين والتربويين الذين تميزت حياتهم بالعطاء والثراء.

ولقد أكرمني الله سبحانه بالدراسة عند كوكبة من الأساتذة لهم مكانة راسخة في ذهني ومع مرور الوقت أشعر الآن بعظيم أثرهم، وكريم عطائهم، وصدق نصائحهم. من هؤلاء العظماء الذين أشعر اليوم بأثرهم العميق في فكري من جهة، وفي ممارستي لمهنتي من جهة أخرى: الأستاذ الدكتور محمد ناصر – أستاذ وعميد سابق لكلية التربية بجامعة بغداد، ورئيس سابق لقسم التربية بجامعة الكويت – جزاه الله خير الجزاء فقد كان حقا رجلا متميزا في فكره، وتوجيهاته، وشخصيته العربية الجادة المتجذرة في عالمي الأصالة والمعاصرة. درست عند هذا المربي الكريم مقرر أصول التربية ويومها قرر علينا كتاب *أصول*

---

[1] من مقدمة كتاب *اختلاف الحديث* للإمام مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الْمُطَّلِبِيُّ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

التربية للدكتور عبدالمحسن حمادة، وفصول من كتاب *الوعي التربوي* لجورج شهلا وآخرون ثم أخذت عنده مقرر تطور الفكر التربوي وقرر علينا عدة فصول من كتابه الضخم: *قراءات في الفكر التربوي* ، ويتكون الكتاب من مجلدين (١٢٠٠ صفحة تقريبا).

مع مرور الوقت وإلى اليوم لا زلت أحتفظ بجميع الكتب السابقة مع *مقدمة ابن خلدون*، وإنني أعتبر كتاب *قراءات في الفكر التربوي* لأستاذي محمد ناصر من الكتب الموسوعية المهمة لبناء عقلية تربوية عميقة. ذلك الكتاب بمثابة مجمع أنهر حيث يتضمن مختارات مقتبسة من كتابات فلاسفة التربية عبر القرون، ومزودة بمقدمة قصيرة عن حياة وفكر كل مفكر.

هناك في كلية التَّربية في منطقة كيفان رأيت الأستاذ الدكتور محمد ناصر يقف شامخا يحمل قلب معلم رائد، وفكر باحث ناقد ... كان شديد الاعتناء بأفكاره وألفاظه ومظهره... كانت تجربة جديدة لي مع معلم فذ لا أعرفه ... كنت مثل معظم الطلبة أشعر بهيبته، وقوة شخصيته، وسعة ثقافته، وحسن ادارته للفصل. تأملت في مسارات حياتي ولم أتوقع أنني مع مرور الوقت سأجد تدريجيا بصمات هذا الرجل المبارك عميقة الأثر في شخصيتي ... وهكذا قد يكتشف الطالب عظمة أساتذته عندما تهدأ الأمور، ويتخفف الواحد منا من مشاغل الحياة، وتقل منعطفات الفكر "فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ" (سورة الرعد: ١٧). الأفكار العميقة نقدرها بداية وقد لا ندرك أهميتها ونفاستها وعظمتها إلا بعد حين بسبب غفلتنا أو بسبب تشتت أفكارنا ونقص خبراتنا. المعلم الجيد يسكن في ذاكرتنا، ويشكل شخصيتنا، ويرسم معتقداتنا ولكن الوعي في البداية لا يُدرك ذلك الأثر الخالد إلا بعد حين، وعندها يكون الوعي الإنساني تخلص من الأفكار الهامشية "الزبد"، وتبقى الأفكار النافعة في حسه ووعيه وتمكث في الأعماق لتنير الآفاق. وفي هذا السياق التربوي يقول عالم النفس الأمريكي سكنر (١٩٠٤ – ١٩٩٠): "التربية هي القَدر الذي يبقى، والأثر الذي يكون معنا بعد أن ننسى ما تعلمناه".

إن المعلم البصير يكتشف المواهب ويوجهها بحكمة نحو وجهة جديدة تصقل الفكر وتنميه ... استفدت الكثير من منهج أستاذي محمد ناصر ومن أبرز ما تعلمته أن الطالب الذي يدرس الفكر التربوي يجب أن يقرأ مختارات مباشرة من كتابات الفلاسفة والمفكرين والمربين. ومن هذا المنهج التعليمي أحببت التعامل مع النصوص الأصيلة في محاولة لشرحها وتحليل مضامينها. يسع عقل الطالب الكثير فلماذا نقلل من شأن عقليته ونقدم له منهجا دراسيا مهلهلا ركيكا لا يرتقي بمداركه، ولا يوسع فكره، ولا يحقق طموحات المجتمع؟ الراصد لحركة الكتب الجامعية اليوم في عالمنا العربي يجد الكثير منها تعاني من سطحية الطرح، ومن انتشار المختصرات المخلة ، وشيوع المذكرات الهزيلة، وطغيان المصالح التجارية... ولقد آن الأوان أن نطعم مناهجنا التعليمية بكتب عميقة تؤسس لبناء عقلية راسخة قادرة على توليد الأفكار وتطويرها كما فعل الأستاذ الدكتور محمد ناصر مع طلبته.

بعد هذه التأملات السريعة في التعلم التدبري أعود مرة أخرى إلى تدوين ذكرياتي عندما كنت في مقرر تطور الفكر التربوي حيث اخترت لبحثي شخصية تربوية تراثية غير متوقعة وليست ضمن الشخصيات المقترحة. قررت عمل بحث عن الشافعي باعتباره مربيا ... وجاء البحث بعنوان "الآراء التَّربوية في ديوان الإمام الشَّافِعِيّ" وتمَّ تسليمه – في صباح يوم الثلاثاء ٢١ ربيع الآخر ١٤٠٧ هـ ، الموافق ٢٣ ديسمبر ١٩٨٦ م – للأستاذ الدكتور محمد ناصر الذي كتب مشكورا على غلاف البحث "بحث جيد يا حبذا لو أعدتَ النَّظر فيه وجعلته صالحاً للنشر في مجلة تربوية أو ثقافية". هذه الكلمات التوجيهية الوجيزة أعطتني حافزا لتحسين بحثي وتطويره ... نعم كانت كلمات أستاذي القدير طاقة ايجابية هائلة لا سقف لها ، وتحقق الحلم بعد ثلاث سنوات إذ طبعتُ كتاب *السبق التربوي* في طبعته الأولى في العام ١٩٨٩ م.

منذ الثمانينات من القرن الماضي انشغلت في القراءة المتأنية، والكتابة الواعية عن تراث الشَّافِعِيّ وتخرجتُ من الجامعة وأصبحت معلما في المرحلة المتوسطة ... وكانت فترة زمنية غنية في مسيرتي العلمية. وفي تلك الفترة يشاء الله سبحانه أن أصاحب المرحوم الشيخ خليل محمد أبو طالب – العالم الأزهري الوقور – وحينها كان إماما في مسجد صغير عند مستشفى الولادة ويخطب خطبة الجمعة في مسجد

الطب الإسلامي. اطلع الشيخ خليل أبو طالب رحمه الله على كتاباتي عن الإمام الشافعي واقتنع بأهميتها، وحثني على نشرها، وساهم في تهذيب العبارات، وتدعيم الأفكار، واستنباط العبر ومناقشة المسائل وتنظيمها في اطار خبراته العلمية والحياتية... كان شيخا جليلا حافظا لكتاب الله، يهرع الناس إليه لحل مشاكلهم واستشارته في شئون حياتهم، ووجدته رجلا فصيحا بليغا، محبا للعلم متبحرا فيه، مخلصا في نصائحه رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه، وبارك له في ذريته. كنا نختلف أحيانا في بعض المسائل ونتحاور كثيرا رغم فارق السن بيني وبينه مما أكسبني مهارات فكرية عديدة أهمها الصبر والتأني في الكتابة، ومحبة الجلوس في مجالس العلم ... وبينما نحن نتعاهد العلم ونصطفي من روائع التراث ما نشاء لفهم فكر الشافعي، تضخم حجم الكتاب بين أيدينا ... لهذا وجدتُ مشقة شديدة في متابعة المطبعة وتصويب الأخطاء إلا أن المشروع اكتمل وتحقق الحلم - لي وله - ومن شدة فرح الشيخ خليل بهذه المناسبة كتب قصيدة بليغة عن فكر الشافعي وضعتُها في الصفحات الأولى من كتابنا.

وفي هذا المسار وتحديدا في مسألة نشر الكتاب بجهود ذاتية واجهتُ صعوبة مالية في طباعة الكتاب حيث كانت تكاليف الطباعة يومئذ تعادل ضعف الراتب الذي كنت استلمه! ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أنني وجدت من زوجتي العزيزة؛ رفيقة الدرب: "أ. د. لطيفة حسين الكندري" الدعم الدائم، والتشجيع الصادق، والمؤازرة العملية ، كيف لا وهي التي تعينني في المكتبة وتشاركني في البحث عن المراجع والمصادر وتستخرج معي الأحاديث النبوية الشريفة من مظانها مما صبغ حياتنا بصبغة ثقافية رفيعة فجزاها الله خير الجزاء.

وهكذا ظهر كتاب *السَّبق التربوي في فكر الشافعي* ونُشر عام ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩ م عندما كنت أعمل في سلك التدريس في المرحلة المتوسطة وبعد بضع سنوات من البحث والكتابة. وقال أ.د. عجيل النَّشمي-عميد سابق لكلية الشَّريعة في جامعة الكويت – في تقديمه لكتابنا "إنَّه لم يخطر بالبال أو يجري في الخاطر، أنَّ إمامنا [الشَّافِعِيّ] له في علم التَّربية مدخل، بله أن يكون له سبق في قضاياه ومسائله ونظرياته. واعتبرت لأول وهلة إنَّ هذه دعوى يصعب تحقيقها وإثباتها فبدأت بقراءة الكتاب وأخذت أتنقل في ثناياه التَّربوية خاصة، فتكشف لي أنَّ الدَّعوى لها سند من الثُّبوت والصحة، فأجللت

الإمام وأكبرته وأيقنت أنَّ اللهَ حباه من الخير ما لم يَحْب غيره، وأنَّه ما زال كالشمس للدنيا حقا، وعافية للأبدان صِدقا، فما من عالِم سلف زمانه إلا تحررت مسائله ونفذت بضاعته، والإمام الشَّافِعِيّ ما زال الباحثون يكتشفون فريد دُرره، وجميل صنعه".

وبمجرد طباعة كتابنا *السبق التربوي* عرض الأستاذ خليفة عبدالله التُّونسي الكتاب في مُجلة البلاغ في عِدَّة حلقات واعتبر كتابنا محاولة من المحاولات الجادَّة لأسلمة العلوم وإبراز عظمة العطاء الإسلامي. استفتح التُّونسي سلسلته التعريفية بالكتاب بقوله "لماذا نُربي أجيالنا على موائد الغرب وتراثنا يكتظ بالعطاء الذي استوعب حضارات الأرض العظمى في نهر حضارته الدَّافق". وأما الأستاذة الفاضلة والمربية الكريمة: نسيبة عبدالعزيز المطوع فقد عَملت على استثمار الكتاب في المجالين؛ النَّظري والعملي على حد سواء ففي كتاب *مستحقات طالب العلم* ذكرت في مُقدِّمته أنَّها استعانت بكتاب *السَّبق التَّربوي في فِكر الشَّافِعِيّ* كمرجع أساسي لكتابها لأنَّها "وجدت أهمية تربوية كبيرة في هذا المرجع الطَّيب وقبول ممتاز من الحاضرين (أي لدوراتها التّدريبية).."، استخدمت الباحثة كتابنا السَّبق في دوراتها التدريبية للأمهات، وفي مقالاتها، وقامت بتلخيصه وأضافت إليه المزيد من الشَّواهد والأفكار. طبعت اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية التابع للديوان الأميري الكتاب المذكور كما نشرت احدى الصحف المحلية عدة حلقات أفردتها للتعريف بالكتاب.

واليوم بحمد الله هناك دراسات تربوية رصينة في المكتبة العربية تتناول الفكر التربوي عند الشافعي مما يشعرني بأنني بفضل الله انتقيت أثناء دراستي الجامعية زاوية خصبة تستحق النظر ولقد تحقق ما كنا ننادي به في توصيات دراستنا. ومن الدراسات الأكاديمية عن فكر الشافعي أذكر ما يلي:

أبو شوشة، محمد ناجح (٢٠٠٨م). *التراث التربوي في المذهب الشافعي*. مصر: العلم والإيمان.

علي، فاطمة محمد السيد (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م). *الفكر التربوي عند الإمام الشافعي*. رسالة مقدمة لكلية التربية للحصول عل درجة الماجستير بشبين الكوم: جامعة المنوفية.

الكندري ، لطيفة حسين وآخرون (٢٠١٠ م). المضامين التربوية في فكر الإمام الشافعي. جامعة سوهاج، *المجلة التربوية*، العدد ٢٨، يوليو ٢٠١٠ م.

ملك، بدر، والكندري، لطيفة (١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م). *تراثنا التربوي: ننطلق منه ولا ننغلق فيه*. ط٣، الكويت: مكتبة الفلاح.

الهمص، عبد الفتاح عبد الغني مصطفى (٢٠١٣م). ملامح التوجيه والإرشاد عند الإمام الشافعي: دراسة تحليلية لسيرته الذاتية. *مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية*، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين.

دراستي المضنية للجانب التربوي المضيء عند الامام الشافعي فتحت لي آفاقا رحبة حيث مارستُ كثير من مهارات البحث العلمي، وشجعتني على تتبع آراء عدد من المفكرين بمنهجية بحثية مقبولة علميا. لقد قمت مع أ.د. لطيفة الكندري بدارسة فكر عدد من المربين من مثل: أبو حامد الغزالي، ومحمد الغزالي، وعائشة عبدالرحمن "بنت الشاطئ"، والشيخ عبدالله النوري، والشيخ يوسف بن عيسى القناعي معلم الكويت الأول وحصلنا على جائزة الدولة التشجيعية تتويجا للجهود السالفة. وامتدت دراساتي مع أ.د. لطيفة الكندري لتضم دراسات عن الفكر التربوي لمشاهير علماء الغرب المعاصرين من مثل هاورد غاردنر.

لم أتصور عندما كنت طالبا في الجامعة أكتب بحثي عن الشافعي أنني سأقوم في المستقبل بتدريس مقرر تطور الفكر التربوي الإسلامي في المرحلة الجامعة وسيقوم الآلاف من طلابي وطالباتي بدراسة الأفكار التربوية للشافعي، وهذا من فضل ربي ثم من بركات ذلك المعلم البصير؛ محمد ناصر الذي شجعني على الكتابة في هذا الأمر. قال رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ."[١]

وهكذا وعلى ضوء ما سبق فإن مقدمة الطبعة الثانية هي وريقات انساق قلمي في كتابتها وتنسيقها لتروي قصة ميلاد كتاب قبل ٣٠ سنة. واليوم يحق لي أن أحتفل بالطبعة الجديدة بعد أن أصبحت البذرة - بحمد الله شجرة عظيمة - انتفع منها العامة والخاصة من أهل العلم. أكتب هذه المقدمة ليستفيد منها الطلبة فلا يقللوا من شأن أبحاثهم في الكليات الجامعية وغيرها، و "لا يحقرَنَّ أحدكُمْ شيئاً

[١] رواه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة.

من المعروفِ"، ولا ينساقوا خلف المكاتب التجارية التي تبيع الأبحاث وغيرها للطلبة حتى غدت السرقة العلمية تجارة رائجة، "وشر الناس من سرقا"! أكتب ما سبق لأرفع همم الطلبة والمعلمين ولأحثهم على الاجتهاد في أبحاثهم الدراسية والاستفادة من توجيهات أساتذتهم واثراء الميدان التربوي فكرا وتطبيقا. إن عبارات المعلم التشجيعية القصيرة النابعة من القلب لها آثارها الطيبة في حياة الطالب فقد تكون منطلقا له لحياة عامرة، وسيرة عاطرة.

وأخيرا فإن الطبعة الثانية (وهي طبعة الكترونية) لا تتضمن زيادات أو تصويبات وكل الذي عملته أنني وضعتُ مقدمة جديدة أحكي فيها قصة ولادة الكتاب بما فيها من ذكريات وعقبات ومبشرات. وهكذا يعود الكتاب إلى دنيا الثقافة، وفضاء أصول الفكر التربوي – بعد انقطاع – ولينتشر في عوالم الإنترنت بحيث يستطيع الوصول إليه، والاستفادة منه أكبر عدد ممكن من الباحثين والقراء الكرام.

اللهم بصرنا بما ينفعنا، ويسر لنا دروب الحياة الطيبة، والتربية القويمة، وتقبل منا صالح الأعمال، وتجاوز عن تقصيرنا يا أرحم الراحمين. وَصلى الله على نبينا مُحَمَّد خاتم الْمُرْسلين وعَلى آله وَصَحبه أَجْمَعِين، وآخِرُ دَعْوانا أنْ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

الأستاذ الدكتور: بدر محمد ملك

رئيس سابق لقسم الأصول والإدارة التربوية

كلية التربية الأساسية – الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب – الكويت

الخميس ٢٣ ذي القعدة ١٤٣٥ هـ – ١٨ سبتمبر ٢٠١٤م

تقديم الكتاب
للدكتور عجيل جاسم النشمي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين . وبعد فإن الإمام المطلبي محمد بن ادريس الشافعي المولود سنة خمسين ومائة ، المتوفي سنة أربع ومائتين ، حجة ثبت محدث مفسر فقيه أصولي لغوي .

منهل العلماء منذ القرن الثاني الهجري حتى يومنا هذا منهم من يرتشف من حوض علمه ، ومنهم من يغترف ، ومنهم من يعب منه عبا ، ولا غرو فهو (كالشمس للدنيا ، وكالعافية للناس ، فانظر هل لهذين من خلف، أو منهما عوض)[1] الامام الشافعي الذي ماترك علما نافعا إلا صنف فيه ونفع ، إما مبتكرا له وواضعا لاسسه ومبناه كعلم أصول الفقه أو مساهما في بناء أساساته ومفتقا لمغاليقه ومنيرا لدروبه كعلم أحكام القرآن أو مثريا لمسائلة ، ومرتبا فروعة على أصوله وفق قواعد الاستنباط المحكم ، والقول السديد كعلم الفقه الذي بالغ الامام في ميدانه حتى تشرف على قمته وغدا صاحب مذهب خالد على مر التاريخ . ولم يطلع أحد من أهل البلاغة والنظر على قوله إلاذهل لبيانه وفصيح لسانه وشهد له بما لا يشهد به لغيره فهو حجة في اللغة ، فصيح اللسان قوى الحجة والبيان . لما اطلع الامام الفقيه عبدالرحمن بن مهدى على كتاب الرسالة للامام الشافعي قال (أذهلتني لأنني رأيت كلام رجل عاقل فصيح ناصح ، فإني لأكثر الدعاء له)[2] .

وعالم هذا شأنه وفضله حرى بمن اقترب منه أن يغنم ويسلم . وقد اطلعت في آخر ما اطلعت عليه من كتب التربية على هذا الكتاب الموسوم بـ (السبق التربوي في فكر الشافعي) وقد شدني هذا العنوان لطرافته وجدته ، فرغم معرفتنا بتضلع الامام ومساهماته في شتى العلوم والفنون إلا انه لم يخطر بالبال أو يجرى في الخاطر ، أن امامنا له في علم التربية مدخل ، بله أن يكون له سبق في قضاياه ومسائله ونظرياته . واعتبرت لأول وهلة ان هذه دعوى يصعب تحقيقها واثباتها فبدأت بقراءة الكتاب وأخذت اتنقل في ثناياها التربوية خاصة ، فتكشف لي ان الدعوى لها سند من

---

(١) هذا قول الامام أحمد بن حنبل انظر : مقدمة الرسالة ص ٣ بتحقيق وشرح الشيخ أحمد محمد شاكر الطبعة الاولى ــ مطبعة مصطفى البابي الحلبى ١٣٥٧ ــ ١٩٣٨ مصر

(٢) المرجع السابق

الثبوت والصحة ، فأجللت الامام واكبرته وأيقنت ان الله حباه من الخير ما لم يحب غيره ، وأنه مازال كالشمس للدنيا حقا ، وعافية للابدان صدقا ، فما من عالم سلف زمانه الا تحررت مسائله ونفدت بضاعته ، والامام الشافعي مازال الباحثون يكتشفون فريد دره ، وجميل صنعه ، وأكبرت في ذات الوقت همة الباحثين الجليلين ، فقد بذلا من الجهد في جمع المادة وتحليلها وصياغتها ما لا يخفي ، وعززا نقولهما وتحليلاتهما بالمراجع الموثقة مع كثرة الجزئيات المتعددة وتنوعها والتي يصعب تتبعها دون عناء وتعب وجد واجتهاد ، ولكن عزاءهما أن هذا الجهد في سبيل سلعة غالية ، كيف لا وهي سلعة التربية عند الامام المطلبي محمد بن ادريس الشافعي ، فلاشك أن هذا المبتغي دونه كل جهد وتعب .

وأظن ان هذا عمل لم يسبقا إليه ، فلعله باكورة الغيث ، يفتق أبواب المنهج التربوي عند الامام ، ويدل الباحثين من بعدهما على مظان التتبع والاثراء في هذا الجانب التربوي . ويرشدهم الى موارد الشرب والغرف والنهل ، حتى يتوارد على معينه عشاق الفكر ورواد التربية ، ليكشف لهم الامام أوجه ومضامين التربية الاسلامية الرائدة .

ولما كان هذا العمل يكاد يكون مبتدءاً في بابه ، مفرداً في عنوانه فلاريب في احتياجه الى تصويب وتكميل واستدراك وتعديل ، وهذا دأب عمل البشر مهما سما وعلا ، ليبقي كتاب الله تعالى فريدا معجزا على مر الدهور .

فأرى ان الكتاب يحوجه الاستدراك فالعنوان أخص من المضمون ، فقد تضمن أبوابا لا يشملها عنوان الكتاب ، فآمل أن يتخفف من الأبواب الثلاثة الأولى لبعد إلتصاقها بموضوع الكتاب مما يمكن أن يختصر الى صفحات معدودة محدودة ، تكون مدخلا ميسرا ومهدا للموضوع ، أو تفصل عن الكتاب ولا يضيره ذلك .

كما أنني رغبت ان تكون التحليلات لعبارات الامام التربوية أكثر توسعا وتكثيفا ومقارنة ، لأنها صلب الموضوع ومبناه . كما أن لي بعض الملاحظات الشكلية التي آمل أن تستدرك في وقت لاحق .

وهذا لا يبخس العمل المتقدم قيمته ، فانه ما من عمل إلا ويكون فيه ما فيه . واسأل البارى تعالى أن ينفع بالكتاب قاريه ، وأن يكتب الأجر والمثوبة لصانعيه بقدر ما بذلا من جهد ، مع زيادة فضل لهما من الله (والله ذو الفضل العظيم) .

د. عجيل جاسم النشمي
استاذ مساعد بكلية الشريعة
جامعـة الكويت

الشافعي مربياً ومعلماً

مجد تسامى مدى الأجيال والحقب ... بدر تألق فوق الأنجم الشهب
التربوي الذي قد نال منزلة ... ما نالها أبدا في الفضل غير نبي
الشافعي ربيب العلم جامعة ... أكرم به علماً بالمكرمات حبي
العبقري الذي أضحت مناقبه ... منارة في سماء العلم والأدب
نبل وحلم وأخلاق وتربية ... وحكمة وبيان عَزَّ في الطلب
في الطب والفقه والافتاء نابغة ... وفي الأصول وفي التاريخ والنسب
وفي الحديث إمام حاذق فطن ... ثبت يحيط كالصيرف الأرب
ذؤابة المجد في الأبطال تعرفه ... وقمة الفهم في التدريس والكتب
حباه مولاه منذ صباه حافظة ... ياطيب ما حفظت للفاقة النجب
فاعجب لطفل وعى القرآن يحفظه ... في سن سابعة لم يعى من نصب
في روضة الشعر عند هذيل راوية ... وفي مرابعها يختال بالأدب
يعب من لغة للعرب ساحرة ... عصماء والنثر فيها رائق الحبب
مخايل النجب في عينية زاهية ... وروعة العلم قد واتته عن كثب
إن صال بالشعر فالأبيات ناطقة ... أو جال نثرا أتى بالمطرب العجب
كأنما اللؤلؤ المنثور منطقه ... في لجة الدرس أو في حومة الخطب
حياته صورة بالفضل مترعة ... أيامه أسوة للعلم والرتب
عمت مبادئه الدنيا بأجمعها ... سارت بشهرته الركبان بالعجب
وفي المدينة قد زاد الفتى شرفا ... مذ فاز من مالك بالمنهل اللجب
تاهت برحلته بغداد في ألق ... وراق معدنه في مصر كالذهب
في الحلقة ازدحم الطلاب في نهم ... تفجر العلم من جنبيه في صبب
إمَّا بدا الدرس فالأرواح مصغية ... كأنما الطير قد شدت على طنب
فمن أراد بلوغ العلم مجتهداً ... ففي ابن إدريس يحظى منه بالأرب
هذا المعلم فلنتبع بساحته ... خطاه بين ثقات العجم والعرب
طابت منابته واعتز محتده ... لأنه لرسول الله ذو نسب
فاخر به بين أهل العلم قاطبة ... التربوي الذي أوفى على السحب

خليل محمد أبوطالب

مقدمة

« الحمدُ لله الَّذي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ ، وجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِين كَفَرُوا برَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، والحمدُ لله الَّذي لَا يُؤَدِّي شُكْرُ نِعْمَةٍ من نِعَمِهِ إلَّا بِنعمَةٍ مِنْهُ ، تُوجِبُ عَلَىٰ مُؤَدِّى ماضِي نِعَمِهِ بأدَائها ، نِعمةً حادِثةً يجبُ عليه شكرهُ بها . ولا يَبْلُغُ الواصفونَ كُنْهَ عَظَمته . الذي هو كما وَصَفَ نفسَه ، وفوقَ ما يَصِفُهُ بِهِ خَلْقُهُ .

أحْمَدهُ حمداً كما ينبغي لِكَرَمِ وجهه وعِزِّ جَلَالِهِ . وأستعِينُهُ استعانةَ مَنْ لا حولَ له ولا قُوَّةَ إلا بِهِ . وأسْتَهدِيهِ بهُدَاهُ الذي لا يضِلُّ مَنْ أنْعَم بِهِ عليه . وأستَغْفِرُهُ لِمَا أزْلَفْتُ وأخَّرْتُ ، استغفارَ مَنْ يُقِرُّ بعبوديَّته ، ويعلمُ أنه لا يَغْفِرُ ذنبه ولا يُنْجِيه منهُ إلَّا هو . وأشْهَدُ أن لا إلٰهَ إلَّا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لِهُ ، وأنَّ مُحمداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ »[1] .

الامام الشافعي علم من أعلام الاسلام تخرج في مدرسة محمد ﷺ وتربى في جامعة القرآن ، ولقد منحه الله من الملكات والاستعدادات ما جعله يبرز في كل ميادين المعرفة حتى كان رحمه الله موسوعة علمية تمشي على الأرض . كان علماً في الفقهِ علماً في الشعر والعروض وعلوم العربية ، علماً في التفسير والحديث علماً في الطب علماً في الأصول ... ورغم أنه مات عن أربعة وخمسين عاماً فقد خلف من الآثار والكتب ما جعله بحق إماماً يقتدى وعلماً يحتذى .

ولقد مارس الشافعي التدريس وتصدر للتعليم وهو بعد دون العشرين وعاش حياته كلها بين تلاميذه ومريديه مما أكسبه خبرة عالية ودراية كبيرة في حسن العرض وقوة التأثير والبراعة في التدريس والمناظرة ، وأمثال الشافعي أساطين بيان وأئمة في ميدان التربية وكان يجب على الباحثين أن يسبروا غورهم وأن يمنح المربون من معينهم ، بيد أن من بيدهم توجيه التربية والتعليم أولعوا بأساليب الغرب وبهروا بأساتذته فاتجهوا نحو علمائه ونسوا في غمار ذلك أن هناك معينا لا ينضب وثراءاً لا يُحد في التربية والتعليم يتمثل في اولئك الذين تربوا على البيان الالٰهي والهدى النبوي .

---

(١) الشافعي ــ الرسالة ص ٧ ــ ٨ .

إن الله ربى محمداً ليربي به العرب ، وربى العرب ليربي بهم من بعدهم ، ولقد جاء الاسلام فأثرى الفكر البشري ثراءاً لم يعرفه العالم من قبل ولا يزال عطاؤه قوياً متجدداً على مدى الأيام .

ولا يخفى على أحد كيف أن الحضارة الغربية إنما هي نتاج الفكر الاسلامي وأنها مدينة له ، وأنها تتلمذت على يديه في الأندلس وفي مالطا وفي الشرق أيام الحروب الصليبية .

ولن ينسى الغرب أبداً فضل الاسلام والعرب عليه في كل ميادين العلوم والحضارة .

ولشدة إنبهار علماء التربية بالغرب عكفوا على دراسة نظرياتهم وأفكارهم في التربية ، وأهملوا علماء التربية الاسلاميين حتى لقد تساءل رجل من رجال التربية المعاصرين حينما سمع درراً من الشعر للامام الشافعي في التربية ، تساءل في عجب هل للامام الشافعي ديوان في الشعر ، فضلًا عن أن تكون له آراءٌ عظيمةٌ ، بهذا العمق في التربية ؟ وهذا السؤال العجيب من علم من أعلام التربية المحدثين كان سبباً مباشراً ، وحافزاً لبحثنا هذا وأن نتوجه إلى تراث الامام الشافعي لنجيب على هذا السؤال الذي يتبادر للوهلة الأولى من قراءة عنوان البحث . إنه سؤال يطرح نفسه على القاريء ولا ريب ، لأن ذلك السؤال نابع من خلو ميدان التربية وافتقاره وفراغ الكتب التربوية المعاصرة في الفكر والتطور والتاريخ التربوي من دراسة المفكرين التربويين الاسلاميين وما أكثرهم فضلا عن أن هذه المراجع لم تدرس الامام الشافعي كمفكر تربوي، مما كان سبباً في التوجه إلى هذا البحث ، أملًا في أن يكون خطوة أولى على طريق إبراز أعلام الفكر التربوي الاسلامي ، وتجليةِ تراثهم بحيث يكونون نماذج للقدوة في هذا الميدان . ولا عجب أن يكون للامام الشافعي آراء تربوية ، كرس حياته العلمية في سبيلها ، وعاش يطبقها قولًا وعملًا ، ومبدءاً وسلوكاً ، فكانت دائرة أعماله الحياتية اليومية ، نصحاً ، ومثلًا أعلى ، وموعظة ، ودروساً ، وتواضعاً للعلم ، وإقبالًا على المتعلمين ، وطلباً للحق بالبحث والمناظرة ، وصبراً جميلًا لا يناله الوهن ولا الكلل ، رغم طول المعاناة وشدة المرض . كان رائداً في ميدان التربية استقى منه ، وأخذ عنه ، من جاء بعده كالعلامة ابن خلدون والامام الغزالي وابن جماعة .. لقد عاش الشافعي في القرن الثاني الهجري وكون مدرسة تربوية ، تمثل التربية الاسلامية ، في صفائها ونقائها دونما تخبط في العقيدة ، أو شطحات

في الفكر كما كان يفعل إخوان الصفاء وغيرهم ..

وفي هذا البحث محاولة جادة ، لتسليط الضوء على التراث التربوي ، للامام الشافعي ، إذ نهضنا لجمع مادته ، واستقصاء آرائه ، التربوية المدبجة شعراً في ديوانه ، وكأنها اللاليء المضيئة ، والدرر المتفردة ، المبثوثة هنا وهناك في بطون أمهات الكتب التراثية . وفي أثناء عرض هذه الأفكار التربوية قمنا بمقارنتها بالنتاج التربوي المعاصر وذلك لتبرز قيمتها وأصالتها وتظهر عظمتها ونفاستها ، وليتبين للقاريء مدى تفردها وسبقها ، وبذلك يزداد وثوقا بتراثه ، ويقينا بأمجاده وأجداده . الذين آثر الأعداء عن عَمدٍ غمط حقهم وإهمال شأنهم ، وإبعاد الناشئة أن يتتلمذوا على يديهم ، وأن يغرفوا من معينهم الثَّر ، وتراثهم الخالد المجيد .

ويجب التنويه ، على أن هذه الدراسة لا تركز على الجانب الأدبي ، المتمثل في أبيات الامام الشافعي ، والواردة في هذا البحث فحسب ، بل ولا تعني بالجانب الشرعي والتاريخي و ... لأن البحث إنما يركز على الجانب التربوي ، ويعنى به من حيث أن الجانب التربوي هو موضوع هذا البحث ، وما الجوانب التاريخية والأدبية والشرعية التي يشار إليها ، والتي نضطر إلى إيرادها في بحثنا إلا لضرورة السير في هذا البحث ، حسبما يتطلب الأمر ويلزِم التنويه والاستشهاد ، ولكن ذلك ليس من أهداف البحث ومسائله .

والحق أننا وجدنا صعوبة كبرى في كتابة واعداد هذا البحث واقتضى ذلك منا قضاء سنين في قراءة ومراجعة الكتب والمؤلفات التي تعيننا في بحثنا هذا ، وذلك راجع الى حداثة الموضوع وأن المصادر والدراسات العلمية في هذا لجانب ليست مباشرة . وهي مع ذلك قليلة جدا إن لم تكن معدومة الى جانب أن الامام الشافعي أساسا لم يكتب آراءه التربوية في رسائل خاصة وفصول محددة .. وهناك سبب آخر أدى إلى صعوبة اعداد هذا البحث هو أن كتب التربية الحديثة أهملت الشافعي ، ولم تعتبره من كبار رجال التربية ، وذلك لاتجاه الباحثين في هذا الميدان إلى علماء الغرب ، إما عن جهل بمكانة الشافعي ، أو عن ظن بأن علوم التربية علوم حديثة ومن هنا لم يعدوا الامام الشافعي في عدادهم ، ومن ثم بقيت آراؤه حبيسة تراثه مبثوثه ومتناثرة في ثنايا ديوانه الشعرى المجموع ، وطى كتبه ورسائله ، فلم تمتد إليها يد الباحثين لتصنيفها وطرحها ، فباتت

رهينة النسيان والترك .

إن هناك من أشار إشارات عابرة إلى أن الشافعي رحمه الله من مفكري المسلمين العباقرة في الجانب التربوي لكنه لم يتطرق الى المفاهيم التربوية التي أثارها وذكرها ولم يهتم بتصنيفها وعرضها . وهناك من أكتفى بذكر بعض هذه المفاهيم بشكل عابر وفي سطور مختصرة[1] .

إن هذه الدراسة ، تهدف بالدرجة الأولى الى توجيه أنظار الباحثين في المجال التربوي ، إلى أن في تراثنا العلمي رجالًا بعيدى الشأو ، عظيمي القدر ، فرساناً لايشق لهم غبار أسهموا إسهاماً كبيرا في هذا الميدان ، وليس من الانصاف حينئذ أن يحتكر رجال التربية حديثاً البحث في بضع رجال من الشرق أو الغرب ، وكأن التاريخ لم ينجب سواهم .

إنها دراسة تهدف إلى إحياء تراث الشافعي رحمه الله ، في المجال التربوي ، على أمل أن تتوالى الدراسات المتخصصة لدراسة الأراء التربوية للإمام الشافعي ـــ وغيره من علماء التربية الاسلاميين وما أكثرهم ـــ وابراز أصالتها ، بشكل توسعى ومنهجي سواء في شعره أو في نثره ، أو في حياته في علمه وشخصه .

(١) أشار الشيخ عبدالله ناصح علوان الى اهتمام التربية الاسلامية بالعمل اليدوي حيث ركز على التعليم المهني وندد بالبطالة والكسل وحض على التكسب والعمل واستشهد في اظهار وتدعيم هذا الرأى بما قاله السلف وبقول الشافعي :

لنقل الصخر من قلل الجبال ... أحب إلى من منن الرجال

يقول الناس كسب فيه عار ... فقلت العار في ذل السؤال

تربية الأولاد في الاسلام ج ٢ ص ١٠٠٥ .

البـــــاب الأول

أصـالـة أم معـاصـــرة ؟

كثر الكلام في هذه الأيام عن الفكر العالمي والتراث الانساني وترددت مقولة تناولتها بكثرة أقلام الكاتبين ، هل الأنفع للانسان التمسك بالقديم والوقوف عند التراث الذي خلّفه السابقون ، وحصر النشاط الفكري في حدوده ودائرته ، وإعطاء الظهر لما يسمى بالفكر الحديث وعدم الاهتمام به ، أو النظر بعين الاعتبار إليه ، وهو ما يسمى عندهم بالأصالة ؟ أم هل الأجدى والأجدر بالانسان أن يهجر القديم ويقطع الصلة بالتراث ، وأن يهتم بالفكر الحديث ، بإدعاء أن الوقوف عند الموروث سبب تأخر هذه الأجيال وانحطاط الحضارة ، ودعوة إلى الرجوع قرونا إلى الوراء ؟ والحق أن كلا الرأيين مبتور منكور ، فان الفكر الانساني ، ليس وقفا على جيل دون آخر ، ولا على أمة دون أمة ، بل إن الفكر نتاج العقل الانساني ، على مدى الدهور والأزمان ، يأخذ منه ويعطى ويقبل منه ويضيف إليه ورحم الله شوقي إذ يقول :

لا تحذُ حَذوَ عصابـــةٍ مفتونـــــةٍ ... يجدون كل قديم شيءٍ منكـــــــرا
ولـــو إستطاعـــوا في المجامـــع أنكـــروا ... من مات من أبائهـــــم أو عُمِّـــــرا
من كل ماضٍ في القـــــديم وهَدْمِـــــهِ ... وإذا تقـــــــدم للبنايـــــــة قصَّرا
وأتى الحضارة بالصناعـــــةِ رثَّـــــــة ... والعلـــم نَزراً ، والبيـــانِ مُثرثـــــرا[1]

وحيث يقول :

وخُـــذ لغـــة المعـــاصر ، فهـــي دنيـــا ... ولا تجعـــــل لسان الأصل نسيـــــا
كما نقـــــل الغـــــرابُ فضَلَّ مشيـــــا ... ومـــا بلـــغ الجديـــدَ والا القـــــديما[2]

والرأى القويم ، الذي يتمشى مع منطق العقلِ وينسجم مع واقع الفكر الانساني ، هو الذي يوفق بين القديم والحديث ويجمع بين تراث الماضي ونتاج الحاضر ، وهو الرأى الوسط أو الاتجاه التوفيقي . ووقفة مع القضية أصالة أم معاصرة في الساحة العربية واستئناساً بالمراجع العلمية والتربوية في هذا الباب ، هل يعتبر مثل هذا البحث دعوة نكوصية ، تريد من التربية

---

(١) (٢) الشوقيات ج ١ ص ١١٨ ، .

الرجوع إلى الخلف ونبذ التراث الانساني الزاخر ، الذي هو حصيلة لروافد شتى .. في سبيل الاقدام أو الاقبال على بعض الافكار البالية ، في القدم ، والتي قدعفا عليها الزمن ؟ هذا سؤال يفرزه الواقع العربي الذي تتطاحن فيه التيارات الفكرية المتواجدة على الساحة العربية ، نتيجة التخلف والتبعية في أغلب ميادين الحياة حتي تمثلت تلك التيارات بإتجاهات ، إما أنها (تبالغ **في تمجيد الثقافة العربية الكلاسيكية وإنهم يفقدون أنفسهم في متاهات ومنطلقات الماضي**)[1] هذا الاتجاه الذي يضفي على التراث هالة من القدسية والتقليد والانقياد لذلك التراث **الانساني ، حتى أطلق عليه الاتجاه السلفي أو الأصولي ، وأحيانا الرجعي المتزمت . ونقيض** هذا الاتجاه ، إتجاه آخر يقابله مغاير له تماماً يدعو إلى التغريب (أي الأخذ بنمط الحياة الغربي ليس بالتأكيد في مجال الاقتصاد والتكنولوجيا فقط ، ولكن في الثقافة والفكر وطريقة الحياة وأشكال ومحتوى النظم **الاجتماعية**)[2] .

ويطلق على هذا الاتجاه بالاتجاه التحرري أو العلماني ، وهو الاتجاه الذي يرى أن الخلاص من أزمات الشرق ، إنما يكون بتبني النهج الغربي ، وأن لا سبيل للحاق بركب **الحضارة سوى أن (نحذو حذو العرب)[3] في التربية والتعليم ، وكل مجالات الحياة ،** وإذا فإن في مقابل إتجاه التقمص التام للتراث والالتزام الحرفي به فإن التيار المعاكس له يدعو للتجرد من كل ما هو ماضٍ ، وكل ما هو تراث ، وبذلك أصبح هناك صراع بين ما هو قديم وحديث وقد ظهر اتجاه ثالث ، وهو الاتجاه التوفيقي ، والذي يهدف **(للجمع بين الأصالة والتجديد وإلى رفض الانغلاق في الماضي)[4] ويعتقد أصحاب هذا الاتجاه (أن لا معاصرة دون أصالة)[5] .**

والاتجاه التوفيقي الوسطي ، هو الاتجاه الأمثل الذي يهتم بالماضي وتراثه ، ولا يقف عند ذلك ، بل يقوم بنخله وغربلته ، كما يسعى أيضا للانفتاح على التراث الانساني الحديث ، يأخذ منه مايخدمه ، وهذا الاتجاه كما يقول الدكتور محمد الجابري ، في دراسة لأدبيات تلك الاتجاهات الفكرية (ولقد وجدنا من حيث النظرة الاجمالية الشاملة أن

---

(١) د. حليم بركات ــ المجتمع العربي المعاصر ــ ص ٣٣٩ .
(٢) د. حيدر ابراهيم علي ــ التغير الاجتماعي والتنمية ــ ص٧٩ .
(٣) كمال محمد أبو المجد ــ حوار لا مواجهة ــ ص٣٩ .
(٤) د. حليم بركات مع مرجع سابق ــ ص٢٣٩ .
(٥) د. أكرم ضياء العمري ــ التراث والمعاصرة ــ ص١٣ .

الاتجاهات الغالبة في الشرق العربي المعاصر ، من فكرية واجتماعية وسياسية ، تندرج في مجملها تحت « الظاهرة التوفيقية »)[1] .

وهذا البحث إنما ينسجم ويتوافق مع الاتجاه التوفيقي ، في الاهتمام بالأصالة تلك الأصالة التي يقول عنها رجال التربية .. (يشكو الكثيرون من أهل الفكر والرأي فينا أننا نفتقد أصالتنا تدريجيا .. والحق أن الناظر في أوضاعنا الحاضرة يفتقد الأصالة في ميادين الحياة ، ومجالاتها .. في الاقتصاد .. في السياسة ، في الفلسفة في التربية ... إن شعورنا بافتقاد هذه الأصالة والمطالبة بها أمر ضروري ولازم إذا أردنا لانفسنا البقاء)[2] .

وربط تلك الأصالة بذلك التراث الحاضر وصولا بالتربية الشاملة ، إلى صنع أجيال متكاملة ، في التربية جمعت بين القديم والحديث ، وارتوت من كل روافد الفكر الانساني لأن تلك النظرة هي نظرة الاسلام الشاملة التي بدأها كتابه بأمر موجه إلى الرسول ﷺ وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب .. بكلمة اقرأ دونما تحديد لموضوعات القراءة فإن الأمر في قول الله لرسوله ﷺ مطلق ومعناه إقرأ كل شيء في هذا الوجود مستعينا ومبتدءا باسم الله .

ويؤيده أمر الرسول ﷺ لزيد بن ثابت بتعلم اللغتين العبرانية والسريانية . ونظرة الامام الشافعي لتراث السابقين . فإن انطلاقة الشافعي العلمية لم تمنعه من أن يأخذ من مقاتل بن سلمان وهو شيعي زيدي ولا ممن اشتهر بالاعتزال كابراهيم بن ابي يحيى .. لقد كان الشافعي (يطلب العلم أنى وجده ، لا يهمه الوعاء الذي حمله إليه ، إنما يهمه ما في الوعاء)[3] يقول الإمام الشافعي عن مغانم الأعاجم .. (وما وجد من كتبهم فهو مغنم كله وينبغي للامام أن يدعو من يترجمه فإن كان علما من طب أو غيره لا مكروه فيه باع كما يبيع ماسواه من المغانم وإن كان كتاب شرك شقوا الكتاب وانتفعوا بأوعيته وأداته فباعها ولا وجه لتحريقه ولا دفنه قبل أن يعلم ما هو)[4] .

---

(١) تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي ـــ ص٢٣١ .
(٢) د. فاخر عاقل ـــ التربية قديمها وحديثها ـــ ص٢١٨ ، ص٢١٩ باختصار وتصرف .
(٣) محمد أبو زهرة ـــ الامام الشافعي ـــ ص٤٨ .
(٤) الأم ج٤ ص٢٦٣ .

وصفوة القول أن هذه الدراسة ، ليست دعوة للأصالة ، فقط كما أنها ليست دعوة للمعاصرة فقط ، بل انها دعوة متكاملة للأصالة والمعاصرة معا وفي آن واحد من أجل بناء تربوي واجتماعي متكامل أقوم وأرفع .

الشعر واللغة في حياة الشافعي

كان الشعر من عناصر التربية في الحقبة التي عاشها الشافعي رضي الله عنه ، ولا عجب فإن رسول الله ﷺ يقول (إن من الشعر حكمة)[1] وقال أيضا (إن من البيان لسحرا)[2] . ذلك أن الشعر ديوان العرب ولقد أوصى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تعليم الأبناء وتربية الناشئة أن يرووا الشعر ويحفظوا إياه فقال علموهم الكتاب ورووهم الشعر والمغازي وحفظوهم الشعر . . (عن الأصمعي قال ماقطع عمر رضي الله عنه أمراً إلا تمثل ببيت من الشعر)[3] .

وكان رحمه الله كثيرا ما يسأل وفود القبائل عن شعرائهم ، وكانوا ينشدونه بعض أشعارهم وقد ينشدهم هو متعجبا مستحسناً ، ويقال أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة : (مُرْ من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأسباب)[4] والشافعي ابن بجدتها ، وفارس حلبتها ، فلقد عاش عشر سنين في قبيلة هذيل ، وحفظ شعرها وأدبها ، وروى عشرة آلاف بيت وهو يقيم بينها ، فلا بدع أن يكون للشعر في حياة الشافعي أثره العميق البعيد ، وأن يدرسه بعد ذلك للأجيال ، فلقد كان شعره سجلا وافيا وملخصا شافيا لكل حياته ، فضلا عن نظرياته التربوية وأفكاره العلمية وتجاربه العملية ، في ميدان التربية والتعليم ، كان الشعر والتربية في حياة الشافعي هو الجانب المتصل بموضوع هذا البحث إنه الجانب الذي يمثل حياة الشافعي كلها ، ويكون ترجمانا صادقا لهذه الحياة النشطة الغنية بالعمل الدؤوب ، في التربية والتعليم والمحاضرة والمناظرة والتأليف ، حتى كانت على صغرها نموذجا صادقا لنشاط هذه الشخصية الفارعة العملاقة ، في كل ألوان العلوم وميادين الفنون .

---

(١) صحيح البخاري ــ كتاب الأدب .
(٢) سنن أبي داود ــ كتاب الأدب .
(٣) عبدالرحمن بن الجوزي ــ تاريخ عمر بن الخطاب ص٢١٢ .
(٤) د. شوقي ضيف ــ تاريخ الأدب العربي (العصر الاسلامي) ــ ص٤٥ .

ونظرا لأن الشافعي تربى منذ نعومة أظفاره في بيئة علمية أدبية ودينية ، فقد نضحت تلك التربية على حياته كلها ما جعله متفرداً متميزاً في هذه الحقبة، وكان لوصفه التكويني ، وصفاته الخلقية ، أثر كبير في بناء شخصيته المتميزة ، فلقد كان الامام الشافعي رضي الله عنه (يخضب لحيته بالحناء وتارة بصفرة إتباعا للسنة وكان طويلا سائل الخدين قليل لحم الوجه خفيف العارضين طويل العنق طويل القصب أدم يخضب لحيته بالحنا قانئة وفي وقت بصفرة حسن الصوت عظيم العقل حسن الوجه حسن الخلق مهيباً فصيحاً إذا أخرج لسانه بلغ أنفه وكان كثير الأسقام. وقولهم طويل القصب قال الأصمعي هو عظم العضد والفخذ والساق فكل عظم منهم قصبة . وقولهم سائل الخدين أي رقيقهما مستطيلهما والقانئة بالهمزة هي شديدة الحمرة)[1] .

وعن شخصيته المتميزة قال الربيع (ومن كثرة ماكنت أرى البويطي يأسف على الشافعي وما فاته قلت له ياأبا يعقوب قد كان الشافعي محباً يقدمك على أصحابه وكنت أراك شديد الهيبة له فما منعك أن تسأله عن كل ما كنت تريد فقال لي : قد رأيت الشافعي ولينه وتواضعه والله ما كلمته في شيء قط إلا وأنا كالمقشعر من هيبته .. وكل من كان في زمن الشافعي كانوا يهابونه وقد رأيت هيبة السلاطين له)[2] (ولد رضي الله عنه سنة خمسين ومائة ، وقد قيل إنه ولد في اليوم الذي توفي فيه الامام أبو حنيفة ـــ حتى قيل ولد اليوم إمام ومات إمام والصحيح أنه ولد في السنة التي توفي فيها الامام أبو حنيفة ـــ وكانت ولادته بمدينة غزة وقيل بعسقلان وقيل باليمن والأول أصح ، وحمل من غزة إلى مكة وهو ابن سنتين فنشأ بها وقرأ القرآن الكريم ، وحديث رحلته إلى مالك بن أنس مشهورة .. وقدم بغداد سنة خمس وتسعين ومائة فأقام بها سنتين ، ثم خرج إلى مكة ، ثم عاد إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام بها شهراً ثم خرج إلى مصر ، وكان وصوله إليها في سنة تسع وتسعين ومائة ، وقيل سنة إحدى ومائتين . ولم يزل بها إلى أن توفي يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين ، ودفن بعد العصر من يومه بالقرافة الصغرى ، وقبره يزار بها بالقرب من المقطم رضي الله عنه)[3][4] .

---

(١) النووي ـــ تهذيب الأسماء واللغات ج١ ـــ ص٦٥ .
(٢) المرجع السابق ـــ ج١ ـــ ص٦٢ .
(٣) ابن خلكان ـــ وفيات الأعيان ـــ ج٤ ـــ ص١٦٥ .
(٤) ومن العجيب أننا في القرن العشرين وإلى الآن هناك رسائل بريدية تصل إلى ضريح الامام الشافعي تتضمن الشكاوي والطلبات حتى أصبحت ظاهرة تقدم فيها البحوث والدراسات !! انظر د. عبدالباسط محمد حسن ـــ اصول البحث الاجتماعي ص٤١٨ .

منذ البداية الأولى ، من حياة الشافعي كان التوجه نحو العلم رائده ، حيث أرسلته والدته إلى البادية ، كعادة العرب ،.. (وتنشئة الأولاد في البادية ليمرحوا في كنف الطبيعة ، ويستمتعوا بجوها الطلق ، وشعاعها المرسل ، أدنى الى تزكية الفطرة وإنماء الاعضاء والمشاعر وإطلاق الأفكار والعواطف)[1] .

وفي كنف الطبيعة ترعرع الامام الشافعي (وأقام في هذيل نحوا من عشر سنين)[2] تعلم منهم اللغة والشعر و ... ولغة هذيل (من اللغات التي نزل بها القرآن غير لغة قريش)[3] ولقد كان حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ يقول عن قبيلة هذيل (انهم أشعر القبائل العربية)[4] وحسان بن ثابت من الشعراء الذين لشهادتهم قيمة علمية وأدبية وكفى بهذيل عظمة أن يشهد لها شاعر الرسول ﷺ المؤيد بروح القدس .

ولقد هضم الشافعي اللغة وأصبح فيها حجة حتى أن الأصمعي علامة اللغة على جلال قدره وعلو منزلته في اللغة يقول (صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن ادريس الشافعي . وعن مصعب الزبيري قال كان أبي والشافعي يتناشدان الشعر ، فأتى الشافعي على شعر هذيل حفظاً .. وقال المبرّد كان الشافعي من أشعر الناس وآدبهم)[5] . وقيل من (زعم أنه رأى مثل محمد بن ادريس الشافعي في علمه وفصاحته ومعرفته وثباته وتمكنه فقد كذب)[6] وقال ابن هشام النحوي (الشافعي كلامه لغة يحتج بها)[7] ولقد كان أهل اللغة يختلفون إلى مجلس الشافعي ويرتادون حلقاته ودروسه لمجرد (سماع لغته)[8] لأنها اللغة (العربية الأصيلة التي لم تهجنها عجمة ولم يشنها تكلف فهي لغة أدب وشعر إلى جانب أنها لغة فقه وأصول ، يحفظ من شعر العرب ونثرهم .. ويعرف من عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ما لا يساميه فيه أحد)[9] .

وبذلك أصبح الشافعي إماما في اللغة ، فلا عجب أن نقرأ بعد ذلك في القاموس في بعض الأحيان كلمات .. (وهذه عن الامام الشافعي رضي الله عنه)[10] .

---

(١) محمد الغزالي ــ فقه السيرة ــ ص ٦٣ .
(٢) د. مصطفى السباعي ــ السنة ومكانتها في التشريع ــ ص ٦٣ .
(٣) مصطفى صادق الرافعي ــ اعجاز القرآن ص ٦٤ .
(٤) عبد الحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص ٣٨ .
(٥) ياقوت الحموي ــ معجم الأدباء ــ ج١٧ ص ٢٩٩ ــ ٣٠٠ ــ ٣١٢ .
(٦) ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ج ٤ ص١٦٥ .
(٧)(٨) ياقوت الحموي ــ معجم الأدباء ج ١٧ ــ ص ٢٩٩ .
(٩) أحمد حسن الباقوري ــ مع القرآن ص ٨٣ ، ص ٨٤ باختصار .
(١٠) عبدالحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص ٥٤ .

ولقد اعتبر الشافعي اللغة أساس سيادة الأمة واستقلالها ، كما أشار إلى أهمية اللغة في التعلم[1] .

ولقد أصاب الشافعي كبد الحقيقة في ذلك (فان المحافظة على اللغة وما فيها من ثمار العقل والقلب أحد الاسس التي يبنى عليها الشعب وحدته ، ومجده وفخره فإذا حرمت شعبا آدابه وعلومه الجليلة الموروثة ، فقطعت سياق تقاليده الأدبية والقومية حرمته قوام خصائصه ، ونظام وحدته وقدته إلى العبودية العقلية ، وهي شر من العبودية السياسية ، لان استعباد الجسم مرض يمكن داؤه ، ويرجى شفاؤه ، أما ، استعباد الروح فموت للقومية التي لا يقدر على إحيائها طبيب)[2] وقال الرافعي(وما ذلت لغة شعب إلا ذلّ)[3] .

وكما قال أمير الشعراء أحمد شوقي :

وصن لغـــــة يحق لها الصيـــــان فخير مظاهـــــر الأمم البيـــــان
وكان الشعب ليس له لسان غريبـــا في مواطنـــه مضيمـــا[4]

ويقول حافظ ابراهيم :

أرى لرجـــال الغـــرب عِزًّا ومنعـــةً وكم عز أقـــوامٌ بعـــز لغـــاتِ
أتـــوا أهلهـــم بالمعجـــزات تفننـــا فياليتكـــم تأتـــون بالكلمـــاتِ[5]

بل لقد اعتبر الشافعي رحمه الله اللغة أسمى من كل الاسس التي يحُافظ عليها ، لقد اعتبر تعلمها فرضا لأنها فوق كونها إمارة على استقلال الأمة وعزتها فهي السبيل لفهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف و(ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)[6] يقول رحمه الله (فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك)[7] وهكذا يسمو الشافعي

---

(١) انظر الرسالة للشافعي بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ص٤٩ ، ثم راجع التعليق في الهامش .
(٢) أحمد حسن الزيات ــ تاريخ الأدب العربي ــ ص ٤ .
(٣) مصطفى صادق الرافعي ــ وحي القلم ــ ج ٣ ص ٣٧٣ .
(٤) الشوقيات ج ٤ ص ٣٤ .
(٥) ديوان حافظ ابراهيم ج ١ ص ٢٥٤ .
(٦) راجع مجموع فتاوي شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ج ١٠ ص ٥٣٢ .
(٧) الشافعي ــ الرسالة ص ٤٨ .

باللغة ، (فيصير إدراكها واجباً عنده لا يصح تركه وطاعة يثاب عليها)[1] كما اعتبر الشافعي تعلم اللغة والشعر من أركان وشروط الاجتهاد والنظر في العلوم الشرعية فيجب أن يكون المجتهد (بصيراً باللغة بصيراً بالشعر)[2] (وليس يكفي أن يكون عارفاً بالشعر ، بل بصيراً به أشد البصر ، كما قال الشافعي رحمه الله والذي قاله الشافعي بعد قرن هو الذي جرى عليه في أول الاسلام)[3] .

ولا عجب أن يعرف عن الشافعي (فصاحة اللسان)[4] وأنه (شاعر مقل)[5] وللشافعي وثيقة قيمة حول (عناصر النظرية الشعرية في إطارها الاسلامي)[6] .. قال الامام الشافعي في حكم شهادة الشعراء (الشعر كلام حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه ، كقبيح الكلام ، غير أنه كلام باق سائر ، فذلك فضله على الكلام فمن كان من الشعراء لايعرف بتنقص المسلمين وأذاهم والاكثار من ذلك ولابأن يمدح فيكثر الكذب ، لم ترد شهادته . ومن أكثر الوقيعة في الناس ، على الغضب أو الحرمان ، حتى يكون ذلك ظاهرا مستعلنا ، وإذا رضى مدح الناس بما ليس فيهم حتى يكون ذلك كثيرا ظاهرا مستعلنا ، كذبا محضاً ردت شهادته ، بالوجهين ، وبأحدهما لو انفرد به ، وإن كان إنما يمدح فيصدق ويحسن الصدق ، أو يفرط فيه بالأمر الذي لايمحض أن يكون كذباً ، لم ترد شهادته . ومن شبَّب بإمرأة بعينها ليست ممن يحل له وطؤها حين شبب ، فأكثر فيها وشهرها وشهر مثلها بما يشبب ، وإن لم يكن زنى ، ردت شهادته ، ومن شبب فلم يسم أحدا لم ترد شهادته . لأنه يمكن ان يشبب بامرأته وجاريته . وإن كان يسأل به فسواء . وفي مثل معنى الشعر في رد الشهادة من مزق أعراض الناس وسألهم أموالهم فإذا لم يعطوه إياها شتمهم ..)[7] .

(وشعر الامام الشافعي وقصائده تميزت بالكلمة القوية المعبرة عن المثل والحكمة والقيم العظيمة حتى تحس وأنت تقرأ اشعار الامام الشافعي بأنك تأخذ خلاصة تجربة عظيمة ، مع الكتب الكثيرة والمطالعات المتعددة في شتى ألوان المعرفة وذلك من خلال

---

(١) عبدالحليم الجندي ــ الامام الشافعي ص ٢٨٥ .
(٢)(٣) مالك بن نبى ــ الظاهرة القرآنية ــ ص ٣٨ .
(٤) بطرس البستاني ــ أدباء العرب ــ ص ١٨٢ .
(٥) ابن النديم ــ الفهرست ــ ج ٤ ص ١٨٣ .
(٦) حكمت صالح دراسة فنية في شعر الشافعي ــ ص ٣٦ .
(٧) الشافعي ــ الأم ج ٦ ص ٢٠٧ .

سطور قليلة في قصيدة شعرية . والقارىء لشعر الامام الشافعي يتزود بالحكمة والموعظة الحسنة وعلى هدى كلماته يسير في الطريق الصحيح ، وينهج المنهج القويم في التعامل مع الناس ويتزود بالأخلاق الحميدة الكريمة التي تجعل منه انسانا متميزا يسعد بالدنيا ويعمل الخير من أجل الثواب في الاخرة ، وكلمات قصائد الامام الشافعي رضي الله عنه تدل دلالة أكيدة على تأثره الشديد وتعمقه الواضح في فهم القرآن الكريم وأحاديث رسول الله (ﷺ) وسيرته العطرة [1] .

ويقول الدكتور عبداللطيف كانوا (ومن فرط حبي واعجابي بأشعار الامام الشافعي فإنني دائما أرجع إلى ديوانه وأتعمق في بعض قصائده وأعيش مع كلماتها ومعانيها العظيمة التي تريح النفس المتعبة ، وتهديء روعها وتجعل العقل يفكر ويتأمل في كل شيء حوله .. لأن في كل كلمة معنى وفي كل معنى تجربة وخبرة وفي كل تجربة وخبرة مستفادة منهاجا سليما ، وطريقا صحيحا واضحا نسلكه في حياتنا)[2] . وبهذا لخص الدكتور عبداللطيف كانوا الخصائص المميزة في شعر الامام الشافعي رضي الله عنه .

ويصف الشافعي نفسه قائلا :

عندي يواقيت القريض ودُرُّه ... وعلى إكليل الكلام وتاجه
تربى على روض الرُّبا أزهاره ... ويرفُّ في نادي النَّدى ديباجه[3]

قال يونس بن عبدالأعلى كان الشافعي (إذا أخذ في العربية قلت هو بهذا أعلم وإذا تكلم في الشعر وانشاده قلت هو بهذا أعلم ..)[4] وقال عبدالملك بن هشام النحوي صاحب السيرة (طالت مجالستنا للشافعي ، فما سمعت منه لحنةً قط .. ولا كلمة غيرها أحسن منها)[5] وقال الجاحظ (نظرت في كتب النبغة الذين نبغوا في العلم ، فلم أر أحسن تأليفا من المطلبي ، كأن لسانه ينظم الدر)[6] يقول الشيخ أحمد محمد شاكر (فكتبه كلها مُثُلٌ رائعة في الأدب العربي النقيِّ ، في الذروة العليا من البلاغة ، يكتب على سجيته ، ويملي بفطرته ، ولا يتكلف ولا يتصنع ، أفصح نثر تقرؤه بعد القرآن والحديث ، لا يساميه قائل ولا يدانيه كاتب)[7] وقال دواد بن علي الظاهري (من تعلق بشيء من بيانه صار محجاجا)[8] .

(١)(٢) جريدة المسلمون ــ مجلة سعودية اسبوعية عدد(١٧٥) ص٧ .
(٣) ديوان الشافعي ــ جمعة وعلق عليه محمد عفيف الزعبي ص٣٢ .
(٤) ياقوت الحموي ــ معجم الأدباء ج١٧ ص٣٠٠ .
(٥ــ٧) مقدمة الرسالة للشافعي ص١٤ ، ص٣ .
(٨) النووي ــ تهذيب الأسماء واللغات ــ ج ١ ص٦٣ .

وقال الأصمعي .. (ثم رأيت محمد بن ادريس في وقت مالك وبعد مالك فرأيت رجلا فقيها عالما ، حسن المعرفة ، بين البيان ، عذب اللسان يحتج ويعرب لا يصلح الا لصدر سرير أو ذروة منبر وما علمت أنني أفدته حرفا فضلا عن غيره فلقد استفدت منه ما لو حفظ رجل يسيره كان عالما)[1] .

(١) الخطيب البغدادي ــ الفقه والمتفقه ــ ج٢ ــ ص٢٩

البرنامج اليومي في حياة الامام الشافعي

شخصية الامام الشافعي شخصية عظيمة ، انها في الحقيقة مدرسة متكاملة الجوانب متعددة المواهب ، متنوعة العلوم والمعارف ، فلقد عرف الناس الشافعي عالما ورعا وإماما تقيا وبحرا لجيا فانجذبوا إليه وأقبلوا عليه وحرصوا على حضور حلقاته والانتفاع بدروسه . كان وقته كله عطاءاً متجددا ، ونشاطا دائبا على مدار ساعات النهار ، من أوله إلى منتهاه ، فما ان يجلس في حلقته حتى يقبل عليه ويسرع إليه دارسوا القرآن والحديث والتفسير وأهل العربية والنحو والشعر حتى منتصف النهار من صلاة الفجر الى صلاة الظهر في مدارسة متواصلة ، ففي الجامعة الكبرى في الفسطاط جامع عمرو بن العاص كان الشافعي قطب الرحى ، ومحط الرحال وقصبة آمال الرجال ، له زاوية من زوايا ثمان تدرس فيها شتى العلوم والفنون وكانت زاويته رحمه الله أشهر هذه الزوايا وأعمرها بالطلاب . (إن من محاسن الاسلام ما غرسه في نفوس أتباعه من حب النظام والطاعة والانتظام فقد رباهم على ذلك في تشريعه ليسعد مجتمعهم ولتكون لحياتهم مظهر حضارة فذة)[1] .

والمسلم محاسب عن شبابه فيما قضاه ووقته فيما أمضاه ، ولذلك نظم الاسلام بتعاليمه أوقات الفرد المسلم ، في صلاته وصيامه وزكاته وحجه و .. واعتبر ذلك النظام مسؤولية ، تبين مدى جديته في استغلاله لوقته وحياته .

قال رسول الله ﷺ (لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه ما فعل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم انفقه ، وجسمه فيما أبلاه)[2] .

---

(١) أحمد عز الدين البيانوني — من محاسن الاسلام — ص١٢٨ .
(٢)صحيح الجامع الصغير وزياداته رقم الحديث ٧٣٠٧ — ١٠٧٧ ج٢ ج١

وقال ﷺ (اغتنم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك)[1] .

وقال ﷺ (على العاقل مالم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له ساعات ، ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله ، وساعة يخلوا فيها لحاجته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا الا لثلاث : تزود لمعاد ، أو مرَّمة لمعاش ، أو لذة في غير محرم)[2] .

من هنا عرف الشافعي رضي الله عنه قيمة الوقت وأدرك جدية الحياة ، وقال إن خير ما تعلمته (الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل)[3] .

والشافعي نموذج فذ (للحرص على استغلال الزمن فقد أمضى دقائق عمره في مثابرة وكفاح فيما ينفع الناس مضيفا إلى حصيلة الفكر الاسلامي رصيدا ثرا عجز عن تقديم ما يشبهه كثير من جهابذة عصره فاستحق احترام الاوساط المثقفة)[4] .

كان نمط التدريس في عهد الامام الشافعي أن يجلس الأستاذ في حلقته في المسجد عند عمود من أعمدته ويلتف حوله طلبته تقول المستشرقة زيغريد هونكه في ذلك (حلقة أبوابها مفتوحة لمن يشاء رجل كان أو امرأة ولكل الحق في سؤال الاستاذ ومقاطعته معارضا وكان هذا النظام أكبر دافع للاستفادة ، يدفعهم دائما للاعداد المتقن لدروسهم والتعمق فيها ، حقا لقد كان لأي متعلم الحق في أن يلقي ما شاء من محاضرات وأن يتخذ مجلس الاستاذ[5] ولكن الجمهور المثقف الواعي بنقده الدائم ويقظته ، كان يحمي تلك المجالس من أن يتسرب الى قيادتها مدع علم أو من لم تنضج ثقافته وتكتمل)[6] .

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزياداته رقم الحديث ٧٣٠٧ ــ ١٠٧٧ ــ ج٢ ج١ .
(٢)رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم . وقال صحيح الاسناد عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه .
(٣) ابن قيم الجوزية مدارج السالكين ــ ج ٣ ص ١٣٤ .
(٤)حكمت صالح .. دراسة فنية في شعر الشافعي ص ١٩ .
(٥) لم يكن الأمر بهذا التسيب وهذه السهولة حيث يمكن أن يقوم في الناس كل مدع علم ولكن كان يجب أن يجاز المعلم من قبل استاذه أولا فكل من يتصدر المجالس يجاز من أهل التخصص أولا . فالشافعي مثلا أجازه شيخه مسلم بن خالد ولولا تلك الاجازة لم يكن ليجرؤ على أن يتحدث .
(٦) شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٩٧ .

في جامع عمرو بن العاص (زوايا ثمان [1] وكانت تدرس فيها شتى العلوم أشهرها زاوية الامام الشافعي)[2] هناك تألق الشافعي وذاع صيته وبزغ نجمه وأصبح (قطب العلماء فيه)[3] كان يبدأ دروس القرآن بعد الفجر تيمنا بقوله عزوجل (إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ الاسراء

كان الشافعي رحمه الله يجلس في حلقته إذا صلى الصبح (فيجيئه أهل القرآن ، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه ، فإذا إرتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر فإذا ارتفع الضحى تفرقوا ، وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر فلا يزالون الى قرب انتصاف النهار ثم ينصرف رضي الله عنه)[4](ومعنى هذا أن الشافعي يظل قرابة ست ساعات يوميا يلقى (دروساً متصله ينتقل فيها من علم إلى علم ومن مادة إلى مادة ويظل ملازما مكانه وجموع التلاميذ تتوالى عليه يذهب جمع ليقبل آخر ويظل هكذا من بعد صلاة الفجر حتى تدنو صلاة الظهر)[5] فإذا أقبل الليل فللشافعي جدول آخر يتصل إتصالا وثيقاً بمنهجه في التربية والتعليم فكان رحمه الله (يقسم الليل ثلاثة أجزاء ثلثا للعلم وثلثا للعبادة وثلثا للنوم)[6]يشغل الثلث الأول بقراءة العلم والجد في تحصيله وإعداد مادته حتى قال رحمه الله (طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة)[7] .

والثلث الثاني للعبادة وكان يضع نصب عينيه دائما الآية القرآنية الكريمة (فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾) الشرح ، ثم يريح جسده المكدود في الثلث الأخير تلكم لمحة عابرة عن حياة الامام الشافعي الأدبية والتربوية ، بنينا عليها مادة بحثنا هذا وذكرنا فيها دقائق حياة الشافعي التي كرسها للعلم والتعليم .

---

(١) المقريزي ــ الخطط والاثار ــ ج ٢ ص ٢٥٥ .
(٢)د. عبدالله عبدالدائم ــ التربية عبر التاريخ ص ١٥٣ .
(٣) ابو زيد شلبي ــ تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ص ٢٤٣ .
(٤) ياقوت الحموى ــ معجم الأدباء ج ١٧ ص ٣٠٤ .
(٥) د. أحمد الشرباصى ــ الأئمة الأربعة ص ١٣١ .
(٦) الغزالي ــ احياء علوم الدين ــ ج ١ ص ٢٥ .
(٧) ابن قيم الجوزية ــ مفتاح دار السعادة ــ ج ١ ص ١٧٧ .

(مصطلحـــات البحـــث)

من اللازم ونحن نتكلم عن التربية عند الامام الشافعي ، ونظرا لأننا قد اتخذنا من ديوانه الشعري المتضمن لنظرياته التربوية في صدق وأمانة وفي إحاطة ووضوح أساسا لاستقراء افكاره واستخراج أرائه ونظرياته في التربية ، أن نتكلم عن معاني الشعر والديوان والتربية ، كمصطلحات تعرض لنا كثيرا في هذا البحث وحتى يكون القارىء على بينة من هذه المصطلحات فإن ذلك يقتضينا أن نلقي الضوء على معنى هذه الكلمات التي تتركز فيها ويدور حولها بحثا هذا ، وأول هذه المصطلحات الشعر .

الشعر نبع الشعور الفياض وقيثارة العاطفة الجياشة يتناغم مع الوجدان ويعتلج في الجنان فيهز النفوس بموسيقاه الرائعة ويطرب القلوب بأنغامه الساحرة ويبهر الروح بخياله المجنح ويسعد الأعماق بالابداع والتفنن وكلما أوغل في الخيال وغالى في الشعور والعاطفة كلما أخذ بالألباب واستولى على القلوب وقد قيل إن أعذب الشعر اكذبه ، أليس هو مادة الطرب وآلة الظرف والأدب وحافز العزائم والهمم وباعث على النشاط والكرم فان الابل إذا أنشدت بالحداء طربت وأسرعت في السير وأصبحت في خفة الطير ، وكذلك الانسان يسحره الشعر الشجى فيأتي بالمعجب الأبى . وها هو من أوتى جوامع الكلم وروائع الحكم (ﷺ) يستعمله في أوقات الشدة فتنطلق الهمم للبناء ويتنافس فيه للفداء والعطاء يحفر الخندق فينشد مع أصحابه :

والله لولا الله ما اهتدينـــــــا ولا تصدقنـــــا ولا صلينـــــــا
فأنزلـــن سكينـــــة علينـــــا وثـــبت الأقـــدام إن لاقينـــا
إن الألى قد بغـــــوا علينـــــا إذا أرادوا فتنـــــة أبينـــــا[1]

ويبني المسجد هو وأصحابه فيحفز هممهم ويثير نشاطهم وهو ينشد معهم :

اللهـــم لا عيش إلا عيش الاخـــرة فاغفـــر للانصار والمهاجـــرة[2]

فيردد أصحابه :

لئـــن قعدنـــا والـــرسول يعمـــل لذاك منـــا العمـــل المضلـــل[3]

(١ ــ ٣) محمد الغزالي فقه السيرة ص٣١٨ ، ص٣١٩ ، ص١٨٩ ، ص١٨٠ .

ولشدة اهتمام العرب بالشعر كانوا يخشون وقعه وأذاه ويتمنون رضاه ، وما كانوا يفرحون بشيء قدر أن ينبغ فيهم شاعر أو يولد فيهم ولد أو ينتج فيهم فرس، وربما صنع بيت من الشعر صنيعه في رفع قبيلة أو ضعة أخرى .

فقد روي أن الرجل من قبيلة « نمير » كان إذا سئل ممن الرجل ؟ فخم ألفاظه ومد صوته مفتخرا من «نمير » فهجاهم جرير فقال :

فغض الطـــــــــــرف إنك من نمير فلا كعبـــــا بلـــــغت ولا كلابـــــا

فجعل الرجل منهم بعد ذلك يخجل من أن ينتسب إليها .

(وبعكس ذلك قول الحطيئة :

قوم هم الأنـــف والاذنـــاب غيرهـــم ومـــن يساوي بأنـــف الناقـــة الذنبـــا

فقد رفع بني انف الناقة ، وجعلهم يفاخرون بقبيلتهم بعد أن كان الواحد منهم إذا سئل عن نسبه قال « قريعي » (من بين قريع وهو نسب آخر لهم)[1] .

ولأن العرب أمة أمية فقد قوى حفظها وأصبح الشعر ديوان علومها وأفكارها . ولا عجب حينئذ أن يكون شعر الشافعي ديوانا لأفكاره ونظرياته في التربية .

يعرف ابن خلدون الشعر فيقول (هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل باجزاء متفقة في الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها في غرضه عما قبله وبعده والجاري على أساليب العرب المخصوصة)[2] وقال أحمد حسن الزيات (هو الكلام الموزون المقفي المعبر عن الأخيلة البديعة والصور المؤثرة البليغة)[3] والشعر عند العرب كما يقول ابن قتيبة الدينوري .. (الشعر معدِن علم العرب وسفرُ حكمتها ، وديوانُ أخبارها ، ومستودعُ أيامها ، والسُّور المضروب على مآثرها ، والخندقُ المحجوزُ على مفاخرها ، والشاهد العدل ..)[4] والشعر كما يقول الصحابي الجليل شاعر الرسول ﷺ عبدالله بن رواحة رضي الله عنه (شيء يختلج في صدر الرجل ، فيخرجه على لسانه شعراً)[5] .

---

(١) ابو زيد شلبي ــ تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ص٢٥٣ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص٥٣٨ .
(٣) أحمد حسن الزيات ــ تاريخ الأدب العربي ــ ص٢٨ .
(٤) عيون الأخبار المجلد الأول الجزء الخامس ص١٨٥ .
(٥) د. سامي مكي العاني ــ الاسلام والشعر ــ ص٤٧ ، ص٨ .

قال أبو تمام :

ولــولا خلالٌ سنَّهــا الشعــر ما درى بغـاة النــدى من أيــن تؤتى المكــارِم[1]

والشعر في لغة الشعراء متنفس لهم :

يا شعــر أنت قمُ الشعــور ، وصرخــةُ الــروح الكئــيبْ

يا شعــــر أنت صدى نحيب القــــلب ، والصب الغــــريب

يا شعــــر أنت مدامــــع علــــقت بأهــــداب الحيــــاة

ياشعــــر أنت دمٌ تفجــــر من كلــــوم الكائنــــات[2]

وقال شوقي :

الشعــر دمــع ووجــدان وعاطفــــة ياليت شعري هل قلت الــذي أجــد

وقال المتنبي :

وفي الشعـر ما تهوى النفــوس استماعــه وفي الشعـر ما قد ضمـه خبــل حاطب[3]

ومن منطق إيمان الشافعي بتأثير الشعر في التربية وصنعه للأجيال في التعليم والتثقيف اتخذ من الشعر وسيلة لتثبيت هذه المباديء وتعميقها في نفوس طالبي العلم لقد كان للامام الشافعي مقطوعات شعرية هنا وهناك (وهي مقطوعات تبدو فيها القوة والجزالة وشرف الغرض الذي تقال فيه)[4] .

ولقد كان الشافعي يتعاطى من الشعر القليل الذي يؤدي غرضه ويحقق غايته .

(والشافعي شاعر مقل قريب المعاني سهل الأسلوب)[5] وإنما دفعه إلى ذلك أن الشعر لم يكن هدفا ولا غاية وإنما كان وسيلة لتقريب المعاني وكان شعره قليلا بقدر مايفي بهذا الغرض لأنه كان يرى الاكثار من الشعر مذموما وخاصة للعلماء وهو يبين ذلك فيقول :

ولــولا الشعــــر بالعلمــــاء يزرى لكــنت اليــوم أشعــــر من لبيــــد

وأشجــــع في الوغــــى من كل ليث وآل مهــــلب وبنــــي يزيــــد

ولــــولا خشيــــة الــــرحمن ربي حسبت النــاس كلهــم عبيــــدي[6]

---

(١) د. سامي مكي العاني ــ الاسلام والشعر ــ ص٤٧ ، ص٨ .
(٢) أبو القاسم الشابي ــ شاعر الحب والثورة ص٧٧ .
(٣) عبدالله بن محمد بن خميس ــ الشوارد ــ ج١ ص٤٩ .
(٤) د. أحمد الشرباصي ــ الأئمة الأربعة ص١٤٣ .
(٥) د. عمر فروخ ــ تاريخ الأدب العربي ج٢ ص١٧٢ .
(٦) ديوان الشافعي ــ محمد عفيف الزعبي ص٣٩ــ٤٠ .

وهذا يتمشى مع النظرية الاسلامية فها هو الامام البخاري يعقد بابا في صحيحه تحت عنوان باب ما يكره أن يكون الغالب على الانسان الشعر حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن .. (عن النبي ﷺ قال : لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً)[1] ورأى الشافعي في الشعر أنه (نوع من الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام)[2] .

قال الامام النووي (روينا باسناد حسن عن عائشة رضي الله عنها قالت : سئل رسول الله ﷺ عن الشعر فقال هو كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح)[3] .

ثاني هذه المصطلحات الدِّيوانُ (الدفتر يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء . والكتبة ومكانهم ومجموع شعر شاعر . وكل كتاب (ج) دواوين)[4] .

وقد غلب لفظ الديوان على مجموعة شعر كل شاعر حتى أصبح علماً بالغلبة فما يسمع انسان كلمة ديوان إلا وينصرف ذهنه مباشرة إلى ديوان الشعر الخاص بشاعر ما ، وقد اعتمدنا في بحثنا هذا في شعر الامام الشافعي على ديوانه الذي جمعه الاستاذ محمد عفيف الزعبي ثم على ما جمعه غيره في دواوين أخرى ..

وقد جرينا في بحثنا هذا على كتابة الأبيات الشعرية من ديوان الاستاذ محمد عفيف الذي جمعه ، على أن نشير على ذلك إلى الصفحة دون ذكر المرجع مرة أخرى بوضع رقم الصفحة في أسفله بين قوسين أما إذا كان من ديوان آخر أو مرجع آخر فننص على الصفحة مع المرجع معا .

ولما كان هذا البحث يهدف إلى التعرف على آراء الامام الشافعي في التربية ، من خلال شعره مدعما بنثره وسيرته العملية ، حتى يتم التوصل إلى آرائه التربوية إعتمدنا الأبيات الشعرية التي نسبت إليه في دواوينه ونظراً لما هو معروف (على أن هناك خلافاً لايزال قائما في نسبة كثير من الأبيات إلى أكثر من قائل)[5] فإننا اعتمدنا على ما روى من أبيات الشافعي سواء أصحت نسبتها إليه أم لا ، لأنه في النهاية قد تمثل بها أو استشهد بمضمونها فهي في محصلتها تدل على آرائه وأكبر دليل على ذلك أنه طبق مفاهيمها

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب .
(٢) القرطبي ــ الجامع لأحكام القرآن ج١٣ ص١٥١ .
(٣) النووي ــ الأذكار ــ ص٣٣٣ ــ ص٣٣٤ .
(٤) المعجم الوسيط باب دون .
(٥) عبدالله محمد بن خميس ــ الشوارد ــ ج١ ، ص٢٥ .

ومضامينها عمليا في تربيته لطلاب علمه من خلال نثره وسيرته العملية ومداومته على تطبيق المفاهيم التربوية على هؤلاء الطلاب . وليس من غرضنا في بحثنا هذا الخوض أو التدقيق في صحة نسبة الشعر إلى الامام الشافعي أو عدم نسبته فهذا أمر شائع في ميدان العلم . فكم نسبت أبيات إلى شعراء ثم نسبت في نفس الوقت إلى غيرهم وليس هذا هدفنا في هذا البحث . وسيرى القارىء نماذج لأخذنا لافكار ونظريات وقيم الامام الشافعي التربوية والتعليمية من أبيات مفصلة على مدى بحثنا هذا كله .

التربية أهم أغراض البحث لأنها الثمرة المرجوة والفائدة المقصودة من بحثنا هذا ، والتربية لغة يقال (ربا الشيء ، يَرْبُو رُبوًّا ورِباء : زاد ونما . وأربيته : نميته)[1] ويقصد بهافي إصطلاح علماء التربية تنمية المعارف والعلوم وتربية الاستعدادات ، والملكات التي تعين الانسان على تحصيل أكبر قدر ممكن من العلوم والمعارف ونجد أن التربية بمعنى التنمية في كل كتب الباحثين حيث أن التربية (زيادة ونمو للانسان ، نمو لعقله ، ولتفكيره ، ولنفسه ولروحه ، وجسده وهي أيضا بمعنى التنشئة)[2] إذ أن التنشئة تشمل التعليم والتمثل (والتعلم بحيث تصبح قيم ومعاييرُ الجماعة جزءاً من شخصية الفرد)[3] (وطالما أن التغير سنة الحياة ، فإن التكيف هو سنة التربية)[4] .

(إن الانسان جسم وروح ، وهو قلب وعواطف وجوارح ، لايسعد ولا يفلح ولا يرقى رقيا متزنا عادلا حتى تنمو فيه هذه القوى كلُّها نموًّا متناسبا لائقا بها ويتغذى غذاءا صالحاً)[5] (ودون هذا التوازن يُهدد كيان الانسان وحرمته ، ويفقد توازنه وينعكس ذلك على نفسه باضطرابها ، وعلى مجتمعه بالفوضى ، وتداخل الحقوق وضياع العدل والانصاف . والمتتبع لحاضر العالم المعاصر وما يعانيه من إضطراب وفوضى في كل مجال سيجد أن اختلال التوازن بين متطلبات روح وعقل وجسم هذا الكائن هو مكمن الداء ولن يجد له دواءاً إلا في منهج الاسلام لأنه الوحيد الذي يستطيع أن يخاطب الفطرة لأنه منهج خالق الفطر سبحانه وتعالى)[6] والتربية بشكل عام (جملة من الأفعال والآثار التي

---

(١) ابن منظور لسان العرب باب ربا .
(٢) د. عبدالمحسن حمادة ــ مدخل إلى أصول التربية ــ ص٤ .
(٣) د. ابراهيم عيسى عثمان ــ الأصول في علم الاجتماع ــ ص٩٥ .
(٤) د. محمود عبدالرزاق شفشق وآخرون ــ التربية المعاصرة ــ ص١٥ .
(٥) أبو الحسن الندوي ــ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ ــ ص١١٥
(٦) د. عجيل جاسم النشمي ــ البناء التربوي ــ ص٦١ .

يحدثها كائن انساني في كائن انساني آخر ، وفي الغالب راشد في صغير ، والتي تتجه نحو غاية قوامها أن نكون لدى الكائن الصغير استعدادات منوعة تقابل التي يعد لها حتى يبلغ طور النضج)[1] ويقول عالم التربية المعروف (جون ديوى) (إن التربية ليست إلا وسيلة راقية مهذبة لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعبٌ أو بلدٌ ، وتغذيتها بالاقتناع الفكري القائم على الثقة والاعتزاز ، وتسليحها بالدلائل العلمية إذا احتيج إليها ، ووسيلة كريمة لتخليد هذه العقيدة ونقلها سليمة إلى الأجيال القادمة وإن أفضل تفسير لنظام التربية هي أنها السعى الحثيث المتواصل يقوم به الآباء والمربون لانشاء أبناءهم على الايمان بالعقيدة التي يؤمنون بها والنظرة التي ينظرون بها إلى الحياة والكون ، وتربيتهم تربية تمكنهم من أن يكونوا ورثة صالحين للتراث الذي ورثه هؤلاء الآباء عن أجدادهم مع الصلاحية الكافية للتقدم والتوسع في هذه الثروة)[2] .

(كما يعني بها أيضا كل المؤثرات الموجهة التي يراد منها أن تصوغ كيان الانسان وتهدي سلوكه في كل نواحي الحياة جسدية كانت أم عاطفية أم أجتماعية أم فكرية أم فنية أم أخلاقية أم روحية ، فالتربية تشمل كل المنظمات والعوامل والأساليب والطرق التي تدخل في نطاق الفعاليات التهذيبية)[3] .

يقول الشيخ محمد الخضر حسين : (إن الأرواح لتنمو بالتربية اللطيفة كما تنمو الأجسام بالغذاء الصحيح ، ولنماء الجسم حد معلوم وغاية لا تتجاوز إذا أدرك شأوها أخذ في التقهقر إلى الوراء ، أما نماء الروح فموصول بحياة الانسان لا يقف إلا إذا خمدت أنفاسه وبارح مدرسة هذا العالم الكبرى)[4] .

ويقول الشهيد سيد قطب (إنني أؤمن بقوة المعرفة ، أؤمن بقوة الثقافة ، ولكني أؤمن أكثر بقوة التربية)[5] .

---

(١) رونية أو بير ــ التربية العامة ــ ص٢٧ .
(٢) د. عباس محجوب ــ نحو منهج اسلامي في التربية والتعليم ــ ص٥٧ .
(٣) المرجع السابق ص٥٨ .
(٤)(٥) محمد نور سويد ــ منهج التربية النبوية للطفل ــ ص٤ ، ص٣٤٣ .

(هيكـــل البحـــــث)

قلنا سابقا إن الامام الشافعي علمٌ من أعلام التربية والتعليم ورائد من روادها الأوائل وأن أفكاره ونظرياته طبقها عمليا وسجلها كتابة شعرا ونثرا وكان هو قدوة صادقة ومثلا أعلى يعطي بسلوكه وشخصه النموذج الحي في هذا الميدان الرحب ، ويمثل بأفكاره وتعاليمه منهجا متكاملا للآراء التربوية . ولقد يتبادر إلى ذهن الدارسين أن الشافعي قد جاء في المائة الثانية من هجرة الرسول ﷺ ولعلها فترة كان التعليم فيها على الفطرة ولم تكن الآراء التربوية قد فصلت وتنوعت حتى شملت كل ما يمكن عمله في هذا الميدان . خاصة وأن مؤسسات تكوين الأجيال كالبيت والمسجد والأسرة والمجتمع لم تكن قد انفصلت وتخصصت كعهدنا هذا بل كان البيت هو المدرسة الأولى وكان المسجد امتدادا لهذه المدرسة وكان المجتمع متمما لهذا الدور . والكل قائم على نهج واحد في ايصال المعلومات المتنوعة وتربية الاستعدادات والملكات المطلوبة لبلوغ الأجيال حد النضج والقدرة على التحصيل والاستيعاب وتنمية الانسان فكرا وعقلا وروحا وجسدا وثقافة وخُلقا وخَلقا . ناهيك بهذا النهم البالغ والاقبال الكبير والحب العظيم للعلم ، الذي كان ميدانا يتنافس فيه الطلاب ويتسابق فيه الرجال طلبا لرضاء الله وحبا في السبق وتفانيا في تحصيل العلوم والمعارف، باعتقاد أن هذه الجهود كلها عبادة لله رب العالمين.

قد يتبادر إلى البعض أن الشافعي لم يصل إلى هذه المدركات والمفاهيم التربوية بهذه القوة وهذا العمق والشمول بيد أن المطلع على تراث الشافعي يجد أن هذا المربي الكبير والمعلم الحاذق يعتبر بحق سبقا عظيما تمثل كل هذه المعاني فأخرجها منهجا متكاملا لمن جاءوا بعده وأخذوا منه .

ولكي نبرز هذه المفاهيم وصولا الى الهدف المنشود من هذا البحث رأينا التركيز على مجموعة من الأسئلة العامة تستوعب آراء الشافعي كلها وتمثل في جوهرها هيكل هذا البحث ، وهذه الأسئلة تستوعب الاجابة عنها معطيات واستخلاصات من مادة البحث وشواهده وهي في النهاية تمثل موضوع البحث . وسوف يجد القاريء أن في هذا البحث إجابات واضحة وتطبيقات صادقة لهذه الأسئلة .

١ ــ هل نجد في شعر الامام الشافعي ونثره آراءاً تربوية هامة ؟ وهل بقيت لهذه الآراء جديتها وأهميتها حاليا ؟

٢ ــ ما هي النماذج الشعرية والنثرية للامام الشافعي والمشتملة على هذه النظريات والآراء ؟

٣ ــ ما أوجه المقارنة بين آراء الشافعي التربوية وبين آراء علماء التربية قديماً وحديثاً ؟

٤ ــ إلى أي مدى كان اهتمام الشافعي بالتربية في حياته وسيرته ؟ وما مدى تأثير آرائه النظرية والعلمية ؟

٥ ــ هل ظاهرتا الشمول والموازنة في تنمية الانسان واحتياجاته المختلفة واضحتان في فلسفة الامام الشافعي التربوية ؟

(منهـــــج البحـــــث)

مما لاشك فيه أنه ليست هناك دراسة بلامنهج ، وإلا أصبحت هذه الدراسة مفتقدة إلى التنظيم ، محتاجة إلى التنسيق ووحدة الموضوع وأصبح القارىء والدارس يخبطان فيها على غير هُدى ، ودراستنا هذه تنهج المنهج (التحليلي التركيبي الاستنتاجي)[1] نعمد فيها إلى عرض نماذج مختارة من الشعر مصنفين لها للوصول الى فلسفة الشافعي التربوية وآرائه الهامة في هذا المجال . تلك الاراء التي لها (علاقة بشكل رمزى أو تمثيلي أو تشبيهي بالتربية)[2]

وذلك من خلال تحليل العوامل الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية ... وأثرها في تشكيل تلك الاراء . ولقد عمدنا إلى الاستقصاء فاستقينا شواهدنا وجمعنا تعليقاتنا ومقارناتنا من روافد عديدة وعلوم متنوعة من مراجع مختلفة منها القديم والحديث فمن رياض التراث الاسلامي إلى باحة علم النفس إلى جنان علم التربية مُروراً بعلم الاجتماع وترويحاً بروائع الشعر والأدب وفي الختام رصعنا بحثنا بآيات من القرآن الكريم وأحاديث معلمنا العظيم محمد بن عبدالله (ﷺ) فكانت هذه الباقة مما عبق أريجه وفاح شذاه من مروج التاريخ .

---

(١) (٢) د. أسامة أمين شموط ــ الفلسفة التربوية عند الفارابي ــ مجلة العلوم الاجتماعية ــ العدد الثالث ــ المجلد الثالث عشر ــ ١٩٨٥م ــ ص ١٨٠ .

البـــاب الثـــانـــي

مكانـــة العلـــم وفضلـــه

العلم قوام البشرية وجزء من كيانها لا تصلح إلا به ولا تقوم إلا عليه فحين خلق الله آدم ، ، وقال : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) البقرة ٣٠ كان لابد أن يعد هذا الخليفة لهذه الأرض اعداداً يمكنه من إدارتها وعمارتها والقيام بمنصب الخلافة فيها وهذا الاعداد يتركز في العلم . ولكى ندرك لزوم العلم لتلك الخلافة وحاجة الناس إليه فان الله تعالى لم يمنح الملائكة منه إلابقدر ما تُبلغ به البشر ، ولم يمنحه لآدم إلا حين أعد للحياة فوق هذا الكوكب حينئذ فقط وبعد هبوطه من الجنة حيث لا ضرورة له للعلم فيها لأن الله ضمن له مقومات الحياة في الجنة بما لايعوزه للعلم فقال له (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾) طه ، أما حين أهبط إلى الأرض فقط منحه الله من العلم ما يمكنه أن يزاول الحياة فقال سبحانه (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) البقرة ٣٢ــ٣٣ .

والعلم هو الاساس الذي يبنى عليه الاسلام كيانه والركيزة الاولى التي إرتفع فوقها صرحه العظيم . وكيف لا وباكورة الوحي التي افتتح الله بها كتابه الكريم إلى النبي (ﷺ) أمرٌ بالقراءة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾) العلق

ثم جاءت السورة الثانية لتبين عظمة العلم في القسم الذي بدأ الله به سورة القلم مقسماً بالدواة والقلم وما سطر بهما من علوم فقال سبحانه (نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾) القلم

والعجب العاجب ان هذا الأمر بالقراءة وُجه إلى النبي (ﷺ) قبل أن يخبر بالنبوة أو يكلف بالرسالة . فان الناظر في القرآن الكريم يجد أن محمداً (ﷺ) أمر بالقراءة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾) (نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾) ثم أمر بالعبادة (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾) المزمل

وكان في كل مرة يحكي لخديجة خوفه مما يأتيه فتقول له إنك لنبي هذه الأمة فيقول لها (ﷺ) مه ياخديجة ـــ كفى عن هذا ـــ ولم يعلم بالتكليف بالرسالة إلاحين نزلت السورة الرابعة (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢)المدثر

فقالت خديجة رضي الله عنها نم يااابن عم . فقال يا خديجة لقد ذهب أوان النوم ، إن الله أمرني أن أنذر الناس فانظر مكانة العلم في هذا الرسالة الخاتمة كيف بدأ الله به وأقسم بأدواته ليعلم ان الرسالة لاتبني إلا عليه . ودين هذا شأنه يجعل من القرآن كله كتابا يفتح مغاليق العلم ويخاطب العقل وينير الوجدان والفكر ويرتفع بالانسان إلى درجة عالية ومكانة رفيعة (هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢) الجمعة

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣) النساء .

دين هذا شأنه جاء ليحارب الخرافة ويقضي على الجهل والتقليد ويجعل من أبنائه جميعا تلاميذا في مدرسة الوحي حتى أن نبيه ﷺ قال : (طلب العلم فريضة على كل مسلم)[1] . ويقول الفقهاء لا عذر لجاهل في دار الاسلام ، لأن العلم في نظر الاسلام مفتوح للجميع إنه يجعل دماء العلماء كمداد الشهداء . ويجعل الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما فعل . قال ﷺ : (إن طالب العلم يستغفر له كل شيء ، حتى الحيتان في البحر)[2] .

إن العلم في نظر الاسلام فريضة محكمة وعبادة قيمة ، لأن الله تعالى لا يعبد على جهل أبداً. ويكفي دليلًا على اهتمام الإسلام بالعلم أن كتابه القرآن الكريم وعدد آياته على الراجح (٦٢٣٦) آية كلها تبحث في العلم ، ومع هذا فقد أورد (٧٦٣) آية تبحث صراحة في المعرفة والعلم وهو أكبر عدد من الآيات القرآنية تبحث في موضوع واحد من هنا (أدرك المسلمون حينما تربوا على الاسلام أن قضية الاهتمام بالناحية العلمية هي قضية تعبدية بالدرجة الأولى . وليس مجرد الحصول على شيء من القوة والغلبة أو التسلط في هذه الدنيا ، فحين يتعرف المسلم على بديع صنع الله تبارك وتعالى في هذا الكون فهو يتعرف على خالقه)[3] .

(١)(٢) الالباني صحيح الجامع الصغير وزياداته ج٢ رقم الحديث ٣٩١٣ ـــ ١٩١٤ . نظرا لاننا ارتضينا هذا الكتاب مرجعا أساسيا في بحثنا فإننا سنختصر هذا المرجع أثناء عرض الحديث والتعريف به من هذا الكتاب تحت رمز ص.ج.ص. مع رقم الجزء والحديث .

(٣) أنور الجندي ـــ الفكر الغربي ـــ ص٢٢٧ .

لا يوجد في التاريخ دين مثل الاسلام حرص على تعليم أبنائه ولا توجد ملة في العالم تحرص على تعليم تلامذتها مثل ملة الاسلام وهذا معترف به من قبل أعداء الاسلام قبل غيرهم فهذا الدكتور آرثر رآربري استاذ الدراسات الاسلامية بجامعة كمبردج يقول (للاسلام على الجنس البشري مآثر تدعو الى الاعجاب وتستدعي الشكران ولدينا مؤلفات عدة تصف ما أسهم به المسلمون في ترقية الفنون والآداب والعلوم والسياسة ومن الواضح أن المسلمين ماكانوا يصلون إلى تحقيق هذه الأهداف العلمية الرفيعة لولا حرصهم البالغ على التعلم والتعليم ذلك الحرص الذي تميزت به الشعوب الاسلامية من خلال تاريخه الطويل ...)[1] .

الشافعي من مدرسة الاسلام (ومن غير الاسلام إذا يدعو إلى العلم إذا لم يكن هو والاسلام هو الدين الذي اعتبر العلم فريضة)[2] . فالعلم حياة ورحمة بالنسبة لأمة لا إله إلا الله يقول الرسول ﷺ (ألا إن الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ذكر الله وماوالاه وعالم ومتعلم)[3] . يقول الامام الشافعي رحمه الله (من شرف العلم أن كل من نسب إليه ولو في شيء حقير فرح ومن رفع عنه حزن)[4] . وقال (كفى بالعلم فضيلة أن يدعيه من ليس فيه ، ويفرح إذا نسب إليه ، وكفى بالجهل شينا أن يتبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه)[5] .

والعلم في نظر الشافعي نور من الله وهبه لعباده . قال الشافعي :

شكـــوت إلى وكيـــع سوء حفظـــي فأرشدني إلى ترك المعـــــــــاصي
وأخبرني بأن العلـــــــــم نور ونـــــور الله لا يهدي لعـــــاصي[54]

ويروي الشافعي يقول كتب حكيم إلى حكيم : (قد أوتيت علما فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم)[6] والعلم في نظر الشافعي يرفع صاحبه وينيله شرف المكانة والمنزلة الرفيعة يقول :

---

(١) محمد نور سويد ــ منهج التربية النبوية للطفل ص٢١٩ .
(٢) د. عبدالرحمن علي الحجي ــ نظرات في دراسة التاريخ الاسلامي ص١١٢ .
(٣) ص. ج. ص ج١ ٣٤١٤ .
(٤) الغزالي ــ احياء علوم الدين ج١ ص١٠ .
(٥) الأصفهاني ــ حلية الأولياء ج٩ ص١٤٦ .
(٦) الغزالي ــ احياء علوم الدين . ج١ ص٢٥ .

رأيت العلم صاحبه كريم ولو ولدته آباء لئام
وليس يزال يرفعه إلى أن يعظم أمره القوم الكرام
ويتبعونه في كل حال كراعي الضأن تتبعه السوام
فلولا العلم ماسعدت رجال ولا عرف الحلال ولا الحرام[٧٤]

ان السبب في شرف العلم اسعاده للبشر إضافة الى أنه يقرب العبد من خالقه ومنه يعلم الحلال والحرام ، وكما يرى الشافعي أن العلم سبب السعادة في الدنيا والاخرة فلقد انتهى إلى ذلك الغزالي فيقول (فأصل السعادة في الدنيا وفي الآخرة هو العلم)[١] .

ولا عجب أن صارت محبة العلم دينا يدان به كما قال الامام علي كرم الله وجهه .

ولقد أشار الشافعي في الأبيات السابقة بأن نسب المرء بلا علم لا يغني عنه شيئا وأن أساس رفعة المرء علمه وفهمه ، والعجيب أن قائل هذه الأبيات ليس مغمورا في الناس بل هو في الذؤابة في النسب كما يقول الشاعر عنه :

الشافعي الالمعي محمد إرث النبوة وابن عم محمد

إن الكريم هو الذي ينفعه علمه وتقواه ويقربه إلى ربه (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) الحجرات١٣ .

روى الامام مسلم في صحيحه « كتاب الأدب » قال رسول الله ﷺ (ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه) .

ومن هنا لم يركن الشافعي رحمه الله إلى حسبه ونسبه وشرفه وصلته من الرسول ﷺ ومصاهرته حميدة بنت نافع حفيدة ذو النورين عثمان رضي الله عنه ، حيث إجتمع له علو نسبه ومصاهرته .

قال الامام الشافعي (الكفاءة في الدين لا في النسب)[٢] وهو القائل :

رأيت العلم صاحبه كريم ولو ولدته آباء لئام[٧٤]

وكأن لسان حال الشافعي يقول :

لسنا وإن احسابنا كرمت يوما على الاحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا

ففي نظر الشافعي أن روح الانسان وكيانه في تقواه وعلمه لا في أصله ونسبه إنه يقول :

وذات الفتى والله بالعلم والتقى إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته[٢٩]

إن العلم يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة ويمنحه النجاة والسلامة مع إشاعة حبه وطيب ذكره ومسارعة الناس في تكريمه وخدمته قال الشافعي :

العلم من فضله لمن خدمه أن يجعل الناس كلهم خدمه[٨٠]

وما أحرى الناس أن يسارعوا في اكتساب مفخرة العلم وعزه ، وأن يتنافسوا في طلبه وجمعه ، يقول الشافعي :

العلم مغرس كل فخر فافتخر واحذر أن يفوتك فخر ذاك المغرس
فلعل يوما إن حضرت بمجلس كنت الرئيس وفخر ذاك المجلس[٥٣]

وحسب العلم حياة يحرص الشافعي عليه وينصح به تلاميذه فيقول (من لا يحب العلم لا خير فيه ، ولا يكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة)[٣] .

وطلب العلم عبادة يقول الشافعي رحمه الله (ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم)[١] ويقول في تعظيم العلم (طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة)[٢] وقال : (من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم)[٣] وقال الرسول ﷺ (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب)[٤] وقال عليه أفضل الصلاة والسلام (فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة ..)[٥] .

وحاجة الإنسان الى العلم في نظر الشافعي أعظم من حاجة الإنسان إلى الطعام والشراب ، لقد غرس الشافعي ذلك في قلوب تلاميذه وحببهم إليه حتى قال تلميذه الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه (الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب ، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه في كل وقت)[٦] .

وهكذا ينبغي على المعلم أن يغرس في تلاميذه حب العلم ويوجد لديهم الدافع للحرص على طلب العلم . ولا يكون ذلك إلا بأن يعلم المتعلم فضل العلم ومكانته

---

(١) الغزالي ــ إحياء علوم الدين ج١ ص١٣ .
(٢) الأصفهاني ــ حلية الأولياء ج٩ ص٢٨ .
(٣) النووي ــ تهذيب الأسماء واللغات ج١ ص٥٤ .
(١)(٢) ابن القيم ــ مفتاح دار السعادة ــ ج١ ص١١٩ ، ص١٧٧ .
(٣) النووي ــ تهذيب الاسماء ص٥٤
(٤)(٥) ص. ج. ص ج٢ ٤٢١٢ــ٤٢١٤ .
(٦) ابن القيم ــ مفتاح دار السعادة ج١ ص٨١ .

وذلك ما يؤكد عليه علم نفس التعلم .. (ذلك لأن التعلم هو تغيير في السلوك ينجم عن نشاط يقوم به الفرد ، والفرد لا يقوم بنشاط من غير دافع)[1] .

وانظر الى الامام البخاري رحمه الله وإلى كمال عقله حيث يبدأ كتاب العلم فيعقد أول فصل فيه باب فضل العلم .

ولقد كان العرب يبدؤون بفضيلة المطلوب للتشويق إليه . قال القاضي ابو بكر العربي (بدأ المصنف ـــ اي البخاري ـــ بالنظر في فضل العلم قبل النظر في حقيقته ، وذلك لاعتقاده أنه في نهاية الوضوح ، فلا يحتاج إلى تعريف . أو لأن النظر في حقائق الأشياء ليس من فن الكتاب وكل من القدرين ظاهر ، لأن البخاري لم يضع كتابه لحدود الحقائق وتصورها ، بل هو جار على أساليب العرب القديمة فإنهم يبدؤون بفضيلة المطلوب للتشويق إليه ، إذا كانت حقيقته مكشوفة معلومة)[2] .

ومن منطلق الشافعي وفهمه لأهمية العلم وحاجة الانسان إليه مجد العلم وأوقف حياته كلها على طلبه وبذلها في نشره وتعليمه تقربا لمولاه وخالقه ، فلن نعثر على وصف للعلم وفضله وثمرته خير مما ذكره الامام الشافعي من أنه نور في الدنيا والآخرة يسعد الانسان ويقربه من الله سبحانه وتعالى .

(١) د. حسن ابراهيم عبدالعال ـــ فن التعليم عند بدر الدين بن جماعة ـــ ص١٦٣ .
(٢) ابن حجر العسقلاني ـــ فتح الباري ـــ ج١ ص٢٢٧ .

(حــق العلـــم)

لكل غال مهر ولكل جهد أجر ، وكلما كان الشيء رفيع المكانة عالي القدر كلما كان مهره غاليا .

قال الشاعر :

تهون علينـــا في المعـــالي نفوسنـــا ومن يخطب الحسناء لم يُغلِهـــا المهـــرُ

وكذلكم العلم لعلو منزلته ورفعة مكانته فمهره جهد مبذول وجهاد موصول وصبر ومعاناة في طلبة ، وتعب ومثابرة في تحصيله .

وقد قيل اعط العلم كلك يعطك نصفه وإن أعطيته نصفك أعطاك ربعه وأن أعطيته ربعك لم يعطك شيئا .

إن العلم كما قلنا نور ينير ظلمات الجهالة ويبدد الخرافة والوهن ويقتل التقليد الأعمى والمحاكاة الضالة ويسعد بجماله وجلاله قلوب المتعلمين خاصة إذا صحبه صدق النية وخلوص القصد لله رب العالمين . وقد قال أحد العلماء نحن في لذة لو عرفها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف .

ومن هنا كان للعلم قدره وعلو كعبه .

وإنا لواجدون هذه المعاني كلها وتلك الحقائق التربوية جميعها في شعر ونثر وحياة الشافعي فهو يرى أن طالب العلم وحامله يجب عليه أن يصونه ويغالي به ويضعه في مكانه اللائق الرفيع تماماً كما يصون عرضه ودمه فإن العلم روح الانسان وحياته ووجوده فيقول :

العلـــم من فضلـــه لمن خدمـــه أن يجعـــل النـــاس كلهـــم خدمـــه

فواجب صونـــه عليـــه كما يصون في النـــاس عرضه ودمـــه

فمـــن حوى العلـــم ثم أودعـــه بجهلـــه غير أهلـــه ظلمـــه[٨٠]

وكان كالمبتنـــى البنـــاء إذا تم له ما أراده هدمـــه[١]

---

(١) السبكي ــ طبقات الشافعية الكبرى ــ ج١ ص١٥٩ .

إن عليه أن يبذل العلم ويمنحه لمن يجد في طلبه ويسعى في تحصيله ويرغب في الانتماء إليه ولا يقدمه لمن لا يعرف قدره ولا يدرك منزلته ومكانته ولا يتشرف بالانتساب إليه .

قال الشافعي :

ولا تعطين الرأى من لايريده فلا أنت محمود ولا الرأى نافعه[1] .

إن الجاهل لايميز بين الصحيح من السقيم ولا المفيد من الضار أو كما قال الشافعي :

أصبحت مطرحاً في معشر جهلوا حق الأديب فباعوا الرأس بالذنب[19]

إن المصلح الفاقه يُذكر إن نفعت الذكرى ويعظ من له استعداد للسماع إليه (وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ) الأنعام ٥١ .

هذه القاعدة التربوية العظيمة أخذها الشافعي من القرآن الكريم واستمد فكرتها منه وصاغها باسلوبه الحكيم فوجه المعلم كيف يختار الأرض الكريمة والتربة الصالحة المهيئة وكيف ينتقي البذرة الصالحة المعطاءه للخير قبل ان يشرع في الزراعة حيث يضمن بذلك النماء والثمار فهو يرى ان على المعلم ان لايضع إرشاده ونصحه وعلمه عند من يزدريه أو يستهين به أو يتخذه طريقاً للدنيا والكسب بل عليه أن ينتقي ويختار من يقدر العلم ويحترمه حتى يؤتى العلم ثماره يانعه وتلك القيمة التربوية انما يدركها من يعتبر التعليم رسالة لاتكليفا ... ورحم الله شوقي إذ يقول كاد المعلم ان يكون رسولا ! إن الشافعي في ذلك يحقق نصيحة استاذه الامام مالك الذي يقول (لا ينبغي للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيقه ، فانه ذل واهانة للعلم)[2] والعلم يؤتى ولا يأتى . ولقد طبق الشافعي نصيحة استاذه في حياته العلمية فحينما دخل مصر ورأى إعراض من خالفوه في الرأى أنشد قائلًا :

أأنثر درا بين سارحة البهم وانظم منثورا لراعية الغنم

لعمرى لئن ضيعت في شر بلدة فلست مضيعا فيهم غرر الكلم

لئن سهل الله العزيز بلطفه وصادفت اهلا للعلوم وللحكم

بثثت مفيدا وأستفدت ودادهم وإلا فمكنون لدى ومكتتم

ومن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم[75]

---

(١) ديوان الامام الشافعي ــ جمعه وشرحه نعيم زرزور ص ٧٨ .

(٢) د. أحمد الشرباصي ــ الأئمة الاربعة ص ٩٧ .

وقد روى عن سيدنا عيسى عليه السلام قوله : (لاتطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئا ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها فان الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لا يريدها شر من الخنزير)[1] قال ابن حزم (نشر العلم عند من ليس من أهله مفسد لهم ، كإطعامك العسل والحلواء من به احتراق وحّمى)[2] كما أوجب الشافعي بذل العلم لأهله يرى ان العلم يحول بين أصحابه وبين أن يمنعوه من طالبيه فحينما طلب الشافعي من محمد بن الحسن استعارة كتاب المغازي لم يلبي له محمد بن الحسن طلبه في الحال .. فكتب إليه الشافعي :

قل للـــــــذي لم تر عيـــــــــ ـنُ من رآه مثلَـــــــــــــــــهُ
ومـــــــــــــن كأن من رآ هُ قد رأى من قبلـــــــــــــــه
العلـــــــم ينهى أهلـــــــه أن يمنعـــــــوه أهلـــــــــه
لعلـــــــــه يبذلـــــــــه لأهلـــــــــه لعلـــــــــه

وأوجب الامام الشافعي أن يكون طالب العلم عزيزاً غير ذليل[3] وأن يكون المعلم كذلك يمنح علمه ويقدمه وهو في كرامة وعزة وإباء ، يقول الشافعي رحمه الله :

ولـــــولا خشيـــــة الـــــرحمن ربى حسبت النـــاس كلهـــم عبيـــدى.[4]

وحينما طلب منه الحضور لعرض مسألة في العلم قال (من حق العلم أن يؤتي إليه)[4] إن شعور العالم والمتعلم بحق العلم عليهما واكرامه لهما يجعلهما في مكان من الهيبة والوقار ويجعل لهما في النفوس قدرا من الاعزاز والاكبار . قال الشاعر :

ولـو أن أهـــل العلـــم صانـــوه صانهم ولـــو عظمـــوه في النفـــوس لعظمـــا[5]

في سنن الدارمي ان سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام كان يقول : (لاتمنع العلم من أهله فتأ ثم ولا تنشره عند غير أهله فتجهل وكن طبيبا رفيقا يضع دواءه حيث يعلم أنه ينفع)[6] قال الامام الشافعي العلم جهل عند أهل الجهل كما أن الجهل جهل عند أهل العلم)[7] .

(١) ابن كثير ــ البداية والنهاية ــ ج ١ ص ٩١ .
(٢) ابن حزم ــ الاخلاق والسير ــ ص ٢٢ .
(٣) حكمت صالح ــ دراسة فنية في شعر الشافعي ص ٢٦٧ .
(٤) ابن حجة الحموى ــ ثمرات الاوراق في المحاضرات ج ١ ص ١٤٠
(٥) محمد فوزي العنتيل ــ التربية عند العرب ــ ص ٢٨ .
(٦) سنن الدارمي ج ١ ص ١٠٦ .
(٧) الخطيب البغدادي ــ الفقيه والمتفقه ــ ج ٢ ص ٧٦ .

(طبيعـــــة العلـــــم)

من طبيعة العلم الاحاطة والشمول ، إنه بحر لجي واسع لا حدود له وليس لأحد الاحاطة أبدا بمعلوماته إلا لعلام الغيوب جل شأنه فهو سبحانه (وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾) طه ، وما سوى الله فعلمه ضيق محدود وصدق الله (وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾) الاسراء ، والبشرية مهما اتسعت معارفهم وتنوعت علومهم فهيهات هيهات أن يدركوا من المعلومات إلا بقدر قطرة على ابرة أنزلت بحراً وصدق الله (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) لقمان ٢٧ .

وإن كان العلم مادة التعلم فإن طبيعة العلم وخصائصه تحدد طبيعة التعلم وكيفيته ، وفي هذا القرن الذي نعيشه تظهر مشكلة التغير السريع وانفجار المعلومات كقضية بارزة يصفها علماء الغرب بأنها قضية معقدة[1] .. فإن انطلاق الحضارة ، وتسابق الأمم في ميادين العلوم والمعارف في عصر تقدم الصناعة وظهور آلات التصوير والطباعة مع مزيد اهتمام بدراسة كل مايقع تحت العين وما يظهر في الحياة ، وحرص كل أمة على أن تسبق الأخرى خاصة في ميدان تكنولوجيا السلاح ، والحرب أدى ذلك كله إلى سيولة البحوث العلمية وتدفق الانتاج العلمي مما جعل من المحال على متخصص في علم ما من العلوم أن يتابع كل ما يكتب أو يؤلف أو يذاع في الاذاعات المسموعة والمرئية . أو يناقش في المؤتمرات أو يحاضر به في المنتديات وإذا كان هذا حال المتخصص فما بالك بموقف غيز المتخصص ، لقد كان إلى عهد قريب يمكن التخصص في مجال ما من مجالات العلم في علم واحد ولكن الطفرة العملاقة التي ظهرت في ميدان التسابق في العلوم والتنافس في الفنون جعل كثرة البحوث وسيولة المعارف تفضي إلى عدة تخصصات متفرعة وتحت كل جزئية أو مسألة واحدة تندرج مسائل متنوعة وقضايا متفرقة فعلى سبيل المثال (كان الطبيب منذ عهد قريب يتخصص بالعين ، على أنها جزء من الجسد ، له تخصص واحد ، إلّا أن تقدم العلم أثبت أن دائرة العين أكبر من هذا بكثير ، فنشأت

---

(١) انظر زهير الكرمي ــ العلم ومشكلات الانسان المعاصرة ــ ص٢٨٥ الى ص٢٩٣ .

في الجامعات عدة تخصصات في دراستها ، ثم تبين لدى المفكرين والباحثين من الأطباء ، أن عقل الانسان قاصر عن هذا أيضا ، ولذلك ضيقت دائرة التخصص إلى أن أصبح الطبيب يتخصص بطبقة من طبقاتها ليتمكن نوعا ما من الاحاطة بما فيها من العجائب)[1] يوجز الامام الشافعي طبيعة المعارف التوسعية بشكل دقيق وعميق حين يقول :

كلمـــــا أدبنـــــى الدهـــــــر أراني نقص عقلي
وإذا ما ازددت علمـــــــــا زادني علمـــــــــا بجهلي[2]

ويعلق الاستاذ حسن سعيد الكرمي على تلك الأبيات قائلا (وهذا مع العلم بأن الشافعي كان من أعلم أهل زمانه وأكثرهم فطنة)[3] ويضع الأستاذ الزعبي أبيات الشافعي هذه تحت عنوان « تواضع العلماء » وهي وإن كانت تدل على ذلك فإنها بالدرجة الأولى تصور حقيقة العلم الشمولية وطبيعته التوسعية . فكلما ازداد المتعلم توغلا في العلم وإقبالا عليه كلما تفتحت أمامه آفاق مجهولة أكبر بكثير جدا مما كان يعرفه ومما كانت تعرفه الأجيال ، وهذا ما عبر عنه الماوردي من خلال تجربته الذاتية حيث يقول (ومما أنذرك به من حالي ، أنني صنفت في البيوع كتابا ، جمعت ما استطعت من كتب الناس ، وأجهدت فيه نفسي وكددت فيه خاطري ، حتى إذا تهذب واستكمل ، وكدت أن أعجب به ، وتصورت أنني أشد الناس اضطلاعا بعلمه ، حضرني وأنا في مجلسي أعرابيان ، فسألاني عن بيع عقداه في البادية ، على شروط تضمنت أربع مسائل ، لم أعرف لواحدة منهن جوابا ، فأطرقت مفكرا ، وبحالي معتبرا . فقالا : ماعندك فيما سألناك جواب وأنت زعيم هذه الجماعة ؟ فقلت : لا . فقالا : واها لك ، وانصرفا ، ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من أصحابي ، فسألاه ، فأجابهما مسرعاً بما أقنعهما ، وانصرفا عنه راضين بجوابه ، حامدين لعلمه ، فبقيت مرتبكا ، وبحالهما وبحالي معتبرا . واني لعلى ماكنت عليه في تلك المسائل الى وقتي ، فكان ذلك زاجر نصيحة ، ونذير عظة ، تذلل بهما قياد النفس ، وانخفض لهما جناح العجب ، توفيقاً منحته ، ورشداً أوتيته)[4] .

---

(١) د. محمد حسن هيتو ــ الدين والعلم ــ ص١٣٠ .
(٢) حسن سعيد الكرمي ــ قول على قول ــ ج٣ ص١٠
(٣) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ــ ص٥٩ .

وقد قال الشعبي : (العلم ثلاثة أشبار ، فمن نال منه شبرا شمخ أنفه ، وظن أنه ناله . ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه ، وعلم أنه لم ينله ، وأما الشبر الثالث فهيهات ، لا يناله أحد أبداً)[1] وصدق الله الذي يقول(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾) يوسف وما ذكره الماوردي تحدث عنه أحد علماء الغرب المحدثين معبرا أيضا عن تجربته الذاتية (وعندما تزايد علمي ومعرفتي بالاشياء من الذرة إلى الأجرام السماوية تبين لي أن هناك كثيرا من الأشياء التي لم تستطع العلوم أن تجد لها تفسيرا أو تكشف النقاب عن اسرارها)[2] في ظل هذه الطبيعة للعلوم من حيث توسعها وتنوعها واضطرادها يوما بعد يوم يبرز سؤال هام .. ماموقف طالب العلم ؟ في عمق وتحديد للجواب يجيب الشافعي على هذا السؤال فيقول :

لن يبلغ العلم جميعا أحد لا ولو حاوله ألف سنة
إنما العلم عميق بحره فخذوا من كل شيء أحسنه[3]

بهذه اللمسة الذكية وبتلك الدقة القوية يحدد الشافعي موطن الداء وفي براعة الطبيب الحاذق والمربي الواعي يصف الدواء فالعلوم والمعارف عنده لا حصر لها وليس لأحد مهما أوتي من طول العمر وقوة التحصيل الاحاطة بها وقد أوجز الشافعي التعبير عن هذه القضية بصدر بيته « إنما العلم عميق بحره » بعد قوله « لن يبلغ العلم جميعا أحد » وتلك طبيعة العلم المعهودة والتي بينها القرآن في قوله الله عزوجل (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾) الاسراء .

وقدم الشافعي رحمه الله حل القضية في قوله « فخذوا من كل شيء أحسنه » .

فالشافعي يرشد المعلمين والقائمين على أمور تربية النشء إلى تيسير العملية التعليمية بالأخذ من أسس ونتاج كل علم فالعلوم يخدم بعضها بعضاً وحينئذ يتسنى لطالب العلم الالمام بالجوانب المهمة في كل مجال من مجالات العلوم .

ومن هنا كان الشافعي يوجه تلاميذه ومريديه فيقول (احرص على ما ينفعك)[4]

---

(١) المرجع السابق ص ٥٩ .
(٢) د. محمد حسن هيتو ــ الدين والعلم ص ٦٤ .
(٣) ديوان الشافعي نعيم زرزور ص ١٠٥ .
(٤) ابن عبد ربه الاندلسي ــ العقد الفريد ــ ج ٣ ص ٢٧ .

ليأخذ المتعلم (من كل علم طرفا)[1] ويختار من كل علم أحسنه (ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ) الزمر١٨ .

وقد قيل للشافعي متى يكون الرجل عالما فقال (إذا تحقق من علم فعلمه وتعرض لسائر العلوم فنظر فيما فاته فعند ذلك يكون عالما)[2] إذ كلما اتسع علم الشخص وارتقى تحصيله وكثرت وتنوعت معارفه كلما أدرك مدى جهله الكبير بما لم يحط به وفي هذا المعنى قال أحدهم :

يانفس خوضي بحار العلم أو غوصي ... فالناس ما بين معموم ومخصوص
لا شيء في هذه الدنيا يحيط به ... إلا إحاطة منقوص بمنقوص[3]

وقال ابو نواس :

فقل لمن يدَّعي في العلم فلسفةً ... حفظت شيئا ، وغابت عنك أشياء[4]

وما أصدق قول ابن عباس رضي الله عنهما :

ماأكثر العلم وما أوسعه ... من ذا الذي يقدر أن يجمعه
إن كنت لابد له طالبا ... محاولا فالتمس أنفعه[5]

(١) عبد الرحمن بن الجوزي ــ صيد الخاطر ــ ص٢١٣ .
(٢) الغزالي ــ احياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٦ .
(٣) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ــ ص ٢٦ .
(٤) ديوان أبي نواس ص ١٠ .
(٥) القرطبي ــ جامع بيان العلم وفضله ــ ص ٢٠٢ .

(طبيعـــة المتعلـــــم)

الطالب أو المتعلم له طبيعة خاصه ، فطره الله عليها وله استعدادات وملكات أودعها الله فيه وهذه الطبيعة وتلك الاستعدادات تختلف من شخص لآخر وعلى ضوئها تتحدد طرق التعليم وموضوعاته بالنسبة له فيستلهم المعلم بحسه الواعي وحذقه للعملية التعليمية رغبة الطالب واتجاهه وعليه يحدد طِلبته واحتياجاته ، كما يستلهم أفضل الوسائل لتعليمه وتهذيبه فإن الناس ليسوا على مستوى واحد من الذكاء والاستعدادات .

ان العملية التعليمة والحركة التربوية لاتكون ناجحة وتؤتى ثمارها دون فهم لتلك الطبيعة ولاشك أن المتعلم جزء وركن من العملية التعليمية ، وبقدر وضوح الفهم لتلك الطبيعة تصبح المخرجات التعليمية ناجحة ونافعة للارتقاء بالمتعلم . قديما عالج الفلاسفة طبيعة النفس البشرية من ناحية استعدادها للتعلم وقبولها للتربية والتغيير وإكسابها ، أنماطا من السلوك الطيب والأخلاق الفاضلة فمنهم من ذهب إلى أن نفس الانسان مطبوعة على الشر فلا يؤثر فيها تعليم ولاتربية ولا تكسب خلقا ولا سلوكا ، ومنهم من قال ان النفس الانسانية خيرة بطبيعتها ، ومنهم من قال أن النفس البشرية كالصفحة البيضاء أو كالخامة اللينة الطيعة تستطيع أن تشكلها كما تشاء وتكسبها ما تريد لأنها تحمل بين جنباتها استعدادات الخير واستعدادات الشر . والحق ان هذا الرأى هو أصدق الآراء في هذه القضية فنحن نرى رأى العين ما تحدثه التربية والتعليم من تغيير في الاجيال والأمم والأفراد ، ويكفي دليلا صادقا على هذا نقلة العرب إبان ظهور الاسلام وكيف حولهم بتعاليمه وتربيته من أمة ضائعة لايقام لها وزن إلى أمة أمسكت قيادة العالم واصبحت اماما للبشرية بعد فترة زمنية وجيزة من نزول الاسلام . يؤيد ذلك الرأى في فهم الطبيعة البشرية قول الله عزوجل (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾) الشمس .

وقول المصطفى (ﷺ) (انما العلم بالتعلم ، وانما الحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يُعطه ، ومن يتق الشر يُوقَّهُ)[1] بل لقد أمكن بالتدريب المتواصل والتعليم المستمر

(١) ص . ج ص. ج ١ ٢٣٢٨ .

اكساب مجموعة من الحيوانات المتوحشة كالاسد والنمر والفيل والكلب وخاصة كلب البحر فضلا عن القردة والنسانيس ... أمكن اكسابها عادات وتقاليد تختلف تماما عما كانت عليه فأصحبت أليفة للانسان تطيعه وتأتمر بأوامره وتأتى بما يعلمه اياها من تمارين رياضية ورقصات وأعمال يعيى الانسان نفسه عن الاتيان بها ، فإذا كان هذا عمل التربية والتعليم في الحيوانات التي لاتفكر ولا تعقل فما ظنك بالانسان العاقل المفكر الأريب الذكى اللبيب ؟

لقد شاع الخلاف في الاوساط العلمية عن دور الوراثة والبيئة الطبيعية وعن دور كل ذلك في مدى التأثير في الانسان وتبين أنه يولد جاهلا ثم يكتسب العلم عن طريق التعلم بالتلقى وبذل الجهد والمعايشة للمعلم فيقول الامام الشافعي موضحاً أثر هذه العوامل في الانسان :

تعلم فليس المرء يولد عالما ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وان كبير القوم لاعلم عنده ... صغير إذا إلتفت عليه الجحافل
وإن صغير القوم إن كان عالما ... كبير إذا ردت إليه المحافل(٧٠ - ٧١)

قيل للشافعي رحمه الله (أخبرنا عن العقل يولد به المرء ؟ فقال : لا ! ولكنه يلقح من مجالسة الرجال ومناظرة الناس)[١] ويؤيد هذا ماذهب إليه العلامة ابن خلدون من بعد الشافعي إذ يقول : (الانسان جاهل بالذات عالم بالكسب)[٢] كما يؤيده ابن مسكويه في قوله (النفس مستعدة للتأديب صالحة للعناية)[٣] ويلتقي مع هؤلاء في نفس النظرية الماوردي إذ يقول (اعلم ان النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة ، لا يستغني محمودها عن التأديب ولا يكتفي بالمرضى منها عن التهذيب)[٤] وهم جميعا مع النظرة القرآنية في قول الله عزوجل (وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾) النحل إن الشافعي يصوغ تلك الظاهرة التربوية ويوضح تلك الحقيقة التي تقول (لايولد المرء عالما)

---

(١) الاصفهاني ــ رحلية الاولياء ج ٩ ص ١٢١ .
(٢) مقدمة أبن خلدون ص ٣٦٥ .
(٣) ابن مسكوبة ــ تهذيب الاخلاق في التربية ص ٤٨ .
(٤) الماوردي ــ ادب الدنيا والدين ــ ص ١٩٧ .

ويسرح هذه العبارة الدكتور محمد الربيعي فيقول (فالطفل يولد بعبقرية متوازنة ومواهب متكاملة أو قابليات كامنة وقدرات اجتماعية مثيرة لايظهر أي منها إلا عندما يمنح فرصا متكاملة للنمو ولتصل بعدئذ إلى أعلى مستوياتها عند توفر الظروف البيئية المثلى)[1] أي أن للانسان قابلية فطرية للتكيف فهو مزود بوسائل وقنوات للتعلم من سمع وبصر وفؤاد .

ويقول أوليفه أبول عالم التربية .. (فالانسان لا يولد إنسانا بل يصبح إنسانا بالتوجيه والتربية)[2] والفرق بين العالم والجاهل كما يقول الامام الشافعي رحمه الله (أن العالم يسأل عما يعلم فيثبت ما يعلم ، ويتعلم ما لا يعلم ، والجاهل يغضب من التعلم ويأنف من التعليم)[3] .

والناس إزاء التعليم ليسوا سواءا ففيهم الذكي الألمعى سريع الفهم والتحصيل وفيهم قوى الحافظة سريع الالتقاط والتسجيل ومنهم ذو البديهة الحاضرة الذي يملك رقة الخاطر ، ومن له من رفاهة الحس وقوة الشعور ما يجعل له قوة خاصة في إنتخاب المعلومات واختيار المتناسبات ومنهم المتوسط في التحصيل العادى في اكتساب المعلومات ومنهم من هم أقل من المتوسط إلى غير ذلك .

إن هذه الفروق الفردية هي من الأهمية في العملية التعليمية بمكان ويجب ان تراعي وأن يصنف المتعلمون على غرارها كما يحدث الآن في البلاد المتقدمة كأميركا وغيرها ... ومنذ أربعة عشر قرنا وضح نبى الاسلام تلك الفروق وبين أنه يجب مخاطبة الناس على قدر عقولهم وهو القائل مبينا استعدادات الناس واختلافهم في التعليم وتحمل العلم (إنما أنا مبلغ ، والله يهدي وإنما أنا قاسم والله يُعطي)[4] وقال ﷺ (إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة)[5] وقال ﷺ (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة)[6] وها هو (ﷺ) يبين الفروق الفردية في الفهم ويصورها تصويراً غاية في الدقة .. فيقول (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضا ، فكان منها نقية قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ ، والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت

---

(١) د. محمد الربيعي ــ الوراثة والانسان ــ ص١٦٢ .
(٢) د. عبدالمحسن حماده ــ اصول التربية ــ ص٥٩ .
(٣) الذهبي ــ سير أعلام النبلاء ــ ج١٠ ــ ص٤١ .
(٤)(٥)(٦) ص.ج.ص. ــ ج١ / ٢٣٤٧ ، ٢٣٣٢ ، ج٢/ ٦٧٩٧ .

الماء ، فنفع الله بها الناس شربوا منها ، وسقوا ورعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماءاً ، ولا تنبتُ كلأً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلمِ وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)[1] والإمام الشافعي يوضح تلك الطبيعة وأثرها في مضمار التعليم وما يترتب على هذه الفروق فيقول :

والنـــاس يجمعهـــم شمل ، وبـــينهم ... في العقـــل فرق وفي الآداب والحسب
كمثـل ما الـــذهب الابريـــز يشركـــه ... في لونـه الصفـر ، والتفضيـل للـذهب[19]

وقوله :

خلـــقت العبـــاد لما قد علـــمت ... ففـــي العلـــم يجري الفتـــى والمسن
فمنهم شقـــــي ، ومنهم سعيـــــد ... ومنهم قبيـــــــح ، ومنهم حسن
على ذا منـــنت ، وهـــــذا خذلت ... وذاك أعـــــنت وذا لم تعـــــن[83]

كما يشير الشافعي الى تلك الفروق وإلى تفاوت الأفراد في الفهم والتحصيل والتعليم فيقول في كتابه الرسالة عن العلماء : (هم درجات فيما وعوا منها)[2] ويقول في موضع آخر (إني أجد أهل العلم قديماً وحديثاً مختلفين في أمورهم)[3]. يقول يونس بن عبد الأعلى (كان الشافعي يكلمنا بقدر ما نفهم عنه ، ولو كلمنا بحسب فهمه ما عقلنا عنه)[4] .

(١) ص.ج.ص. ــ ج١ / ٥٨٥٥ .
(٢) الشافعي ــ الرسالة ــ ص٤٣ .
(٣) الشافعي ــ الرسالة ــ ص٥٦٠ .
(٤) الأصفهاني ــ حلية الأولياء ــ ج٩ ــ ص١٣٦ .

(طبيعة عمل المعلم)

المعلم للتلميذ أب روحي ينمي عقله ويربي فكره ويصقل مداركه ، ويرقى بمشاعره وأحاسيسه ويطبع اتجاهه وتصوره ، وإذا كان الأب سببا في وجود الانسان بجسمه فالمعلم هو الذي يصنع سموه الروحي وعقله الواعي ويرتقي به صعدا في أنماط السلوك الطيب والخلق الرفيع ويعايشه بتربيته له وتعليمه إياه ، معطيا له القدوة الحسنة حتى يصل به إلى أن يكون إنسانا عاقلا وكائنا اجتماعيا وعضوا نافعا مضيئا مستعليا عن غرائز البهائم وشهوات الأنعام ، وبهذا يفضل المعلم الأب من الدم واللحم فشتان بين من ينمي جسمه ومن يربي عقله . وقد رجح كثير من الحكماء حق العالم ، على الوالد ، حتى قال بعضهم :

يافاخرا للسفاه بالسلف ... وتاركا للعلاء والشرف
آباء أجسادناهم سبب ... لأن جعلنا عرائض التلف
من علم الناس كان خير أب ... ذاك أبو الروح لا أبو النطف[1]

بل أن المعلم يكاد يصل الى مرتبة الانبياء والرسل لأنه ينتظم في سلكهم ويؤدي وظيفتهم ، لقد دخل رسول الله ﷺ المسجد يوما فرأى مجلس علم ومسجد ذكر فقال إني مع هؤلاء ومع هؤلاء إلا أن الله بعثني معلماً (والمصطفى ﷺ يعرف وظيفته ــ إذ هو معلم ــ ويستشعر مسئوليته التعليمية التي حملها إياه ربه سبحانه وتعالى عندما يقول : الا ان ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني . ويدرك صحابته رضوان الله عليهم أجمعين أنه ﷺ معلم حيث يصفه أحدهم بقوله : مارأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه)[2] .

وفي هذا المعنى يصور شوقي في روعة وجمال فضل المعلم وطبيعة عمله فيقول :

قم للمعلم وفه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا

---

(١) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ــ ص٥٥ .
(٢) د. عبدالفتاح جلال ــ من الأصول التربوية في الاسلام ــ ص٨ .

أعلـمت أشرف أو أجـل من الـذي ... يبني ، وينشيء أنفساً وعقولا ؟!
سبحـانك اللهـم خير معلـم ... علمت بالقلم القرون الأولى
أخـرجت هذا العقـل من ظلماتـه ... وهديتـه النـور المبين سبيلا
وطبعتـه بيـد المعلـم تارة ... صدييء الحديـد ، وتـارة مصقـولا
أرسلت بالتـوراة موسى مرشدا ... وابـن البتـول فعلـم الانجيـلا
وفجـرت ينبـوع البيـان محمـدا ... فسقـى الحديث وناول التنزيـلا[1]

ان البنوة الحقيقية بنوة الروح ، بنوة القيم ، بنوة العمل الذي يكون ثمرة طبيعية ونتيجة حتمية للجهود التعليمية ، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم وهو يرد على نبي الله نوح عليه السلام حينما تملكته عاطفة الأبوة فقال الله لنوح (قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ) هود٤٦ فإذا لم ينتفع الانسان بالتربية ولم يهذبه العلم فهو إلى البهائم أقرب قال الحسن رحمه الله (لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم)[2] وذلك راجع الى أن التعليم (هو الذي يميز الكائنات العاقلة من الكائنات غير العاقلة)[3] . ان التعليم (هو عملية تحويل الكائن العضوي الى كائن اجتماعي)[4] .

والذين لا يستغلون حواسهم بمن سمع واع وبصر راء ولسان متكلم وفؤاد يخزن المعلومات ويزيل الغشاوات ، الذين لا ينمون مداركهم باستخدام تلك الوسائل والأجهزة التي أنعم الله بها عليهم في العلم والمعرفة هم في الواقع كالبهائم ، انهم كما قال الله تعالى : (لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ) الأعراف١٧٩ .

(لقد وضع مُربِّيان أمريكيان هذه الفكرة في قالب خيالي قائلين : لو انتقل سكان الكرة الأرضية إلى المريخ ، تاركين ورائهم الأطفال الصغار ثم عادوا إليهم بعد عشرين عاما لوجدوهم قطيعا من البهائم)[5] .

يصور الامام الشافعي رحمه الله طبيعة عمل المعلم مع تلاميذه فيشبه المعلم بالراعي

---

(١) الشوقيات ج١ ص١٤١ .
(٢) الغزالي ــ الأحياء ج١ ص١٢ .
(٣) جورج أم غازدا وآخرون ــ نظريات التعلم ــ ج٢ ص١٥ .
(٤) د. ابراهيم عيسى ــ الأصول في علم الاجتماع ــ ص٩٥
(٥) جورج شهلا وآخرون ــ الوعي التربوي ــ ص٢٣

الشفيق الذي يعتز به المتعلمون ويتبعون خطواته وهم يحسون بحاجتهم الملحة لهذا الراعي فيقول :

ويتبعونـــــــــــــــه في كل حال كراعـــــي الضأن تتبعـــــــه السوام(٧٤)

بهذا التشبيه الرائع يوجز الشافعي دور المعلم بعبارة بليغة لطيفة فالمتعلم في نظره بحاجة فعلا لمرشد يعايشه ويتبعه ويقتدي به فيغرس فيه مع العلم مجموعة من الفضائل والأخلاق يتحول بها المتعلم من كائن عضوي إلى كائن اجتماعي يجد في العلم ذاته ويحقق به انسانيته . بالعلم وحده يحس الانسان بحياته الحقيقة الطيبة .

يقول الشافعي :

وذات الفتـــى والله بالعلـــم والتقـــى إذا لم يكونـــا لا اعتبـــار لذاتـــه(٢٩)

إن عمل المعلم في نظر الشافعي يتركز في سياسة الطفل وتربيته وتزكية نفسه واكتشاف قدراته ومواهبه وابرازها وصقلها واعانته على النبوغ والتفوق مبكراً فيها وهذا فوق كونه يرتفع بالانسان عن مرتبه الحيوان وهي عملية صعبة ودقيقة فانها تحتاج الى يقظة واعية وطول صبر وأناة يقول الماروردي (وينبغي للعالم ان يكون له فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يتحمله بذكائه ، أو يضعف عنه ببلادته ، فإنه أروح للعالم ، وأنجح للمتعلم)(١) ولقد كانت هذه الحقيقة سمة العلماء الأوائل فقد كان لهم من حدة الفراسة والالهام ما يجعلهم يستطيعون التميز بين طلابهم من حيث استعدادهم للعلم ... حين رأى الامام مالك رحمه الله تلميذه الشافعي للمرة الأولى توسم فيه الخير وقال له (اني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا ، فلا تطفئه بظلمة المعصية)(٢) .

وكذلك كان للشافعي من هذه الفراسة النصيب الاوفى ، يحدثنا تلميذه الربيع بن سليمان فيقول كنا عند الشافعي إذ جاءه رجل برقعه فنظر فيها وتبسم ، ثم كتب فيها ودفعها إليه . قال : قلنا يسأل الشافعي عن مسألة لاننظر فيها وفي جوابها ؟ فلحقنا الرجل وأخذنا الرقعة فقرأناهاوإذا فيها :

---

(١) الماوردي ــ ادب الدنيا والدين ــ ص٦٦ .
(٢) ابن قيم الجوزية ــ الجواب الكافي ــ ص٦٠ .

سل المفتـــي المكـــي هل في تزاور وضمـــه مشتـــاق الفـــؤاد جنـــاح

قال : وإذا إجابة تحت هذا البيت :

أقـــول : معـــاذ الله ان يذهب التقـــي تلاصق أكبـــــــــادٍ بهن جراح

قال الربيع فأنكرت على الشافعي أن يفتى لحدث بمثل هذا . فقلت ياأبا عبدالله تفتى بمثل هذا شابا ؟ فقال لي : ياأبا محمد هذا الرجل هاشمي قد عرَّس هذا الشهر — يعني شهر رمضان — وهو حدث السن ، فسأل هل عليه جناح أن يقبل أو يضم من غير وطء ؟ فأفتيته بهذه الفتيا . قال الربيع فتتبعت الشاب فسألته عن حاله فذكر لي أنه مثل ما قال الشافعي . فما رأيت فراسة أحسن منها . وانظر إلى فراسه الامام الشافعي حينما قال لتلميذه (الربيع) أنت راوية كتبى ، وبالفعل كان رأى الشافعي سديداً ونظره بعيدا في تلميذه فقد كان بحق راوية كتبه .

يقول الشافعي وهو يبين طبيعة التعليم بالنسبة للمعلم (سياسة الناس أشد من سياسة الدواب)[1] وقال رحمه الله (الذي يحتاج إليه الناس من المرَّمة ، أكثر مما يحسب ، وإن الدواب لتراض فتستقيم)[2] .

إذا كان المعلم في نظر الشافعي كالراعي بالنسبة للغنم والماشية فليس ذلك لتقليل من أهمية المعلم أو حط من شأنه . كلا . كلا ! بل هو تشريف وأى تشريف ان سيد الخلق محمد (ﷺ) رعى الغنم وكانت تلك سنة الله في الانبياء جميعاً أن يعدوا لقيادة البشرية تدريبا برعاية الغنم أولا حتى يتدربوا ويتمرسوا حين يربوها بالصبر والحلم والرحمة والسكينة واليقظة وحسن الرعاية والتواضع ، فيرتادون بها الأرض الطيبة المخضرة ويوردونها الماء البارد العذب ، يحملون صغارها ويرحمون ضعيفها وكبارها ، ويطلبون لها الظلال الوارفة ويريحونها وقت القيظ ويحمونها من عادية الذئب ويذودون عنها كل شر .. من هنا يقول (ﷺ) (ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم ، وأنا كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط)[3] .

---

(١) القارى — الأسرار المرفوعة — ص ٢٢٥ .

(٢) البيهقي — مناقب الشافعي — ج٢ ص٨٦ .

(٣) ض. ج. ص. — ج٢ /٥٥٨١ .

يقول الشيخ الصابوني (والحكمة في رعاية الغنم من جهة الأنبياء والمرسلين هي ليتعودوا على السكينة والتواضع ، وليكون ذلك مقدمة لسياسة الأمة وقيادتها كما يقود الراعي غنمه ، ويتعهدها بما يصلح شأنها وهكذا الأنبياء الكرام انتقلوا من رعاية الغنم الى قيادة الأمم)[1] .

كان البويطي تلميذ الشافعي يرسل إلى زميله في طلب العلم الربيع بن سليمان ويطلب منه أن أحسن خلقك لاصحابنا الذين في الحلق ، والاحتمال منهم ويذكره بأبيات معلمهم الشافعي :

أهين لهم نفسي واكرمها بهم ولا تكرم النفس التي لا تهينها[79]

وكان الشافعي أنشد تلك الأبيات وهو يعلم تلاميذه في صحن المسجد والشمس فوق رأسه رضي الله عنه . فكان تواضعه هذا سببا في اكرام نفسه وها هو تلميذه الربيع يحكي عن هيبة الشافعي ووقاره في نظره فيقول : (والله ما جرؤت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي هيبة له)[2] .

ومن درر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ووصاياه الخالدة قوله : (تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه وتواضعوا لمن تعلمون ، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم)[3] .

ومن طبيعة عمل المعلم مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين .. فكل أعطى ومنح من الاستعدادات والمواهب ما يخالف الاخر وصدق رسول الله ﷺ (كل امريء مهيأ لما خلق له)[4] (كل ميسر لما خلق له)[5] .

والمعلم الناجح هو الذي يكتشف هذه المواهب مبكرا ويوجهها الوجهة الصحيحة لتؤتي ثمارها وعليه أن يبسط المعلومات والموضوعات لطلابه وتلاميذه بأسلوب يفهمه الكل وبشكل يستوعبه الجميع ومن هنا كان الشافعي استاذا وقدوة فذا في هذا الميدان ينزل الى مستوى المتعلمين ويكلم الناس على قدر عقولهم وينزلهم منازلهم .. وبذلك

---

(١) محمد علي الصابوني ــ النبوة والانبياء ــ ص١٨٥ .
(٢) عبد الحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص١٨٣ .
(٣) عباس محمود العقاد ــ عبقرية عمر ــ ص٢٥٢ .
(٤)(٥) ص.ج.ص. ــ ج٢/ ٤٥١١ ــ ٤٥٦١ .

شهد له معاصروه قال أحدهم : (لو رأيت الشافعي وحسن بيانه وفصاحته التي كان يتكلم بها معنا في المناظرة لم يقدر أحد على قراءة كتبه لفصاحته ، وغرائب ألفاظه غير أنه كان في تأليفه يوضح للعوام)[1] .

(١)الذهبي ــ سير اعلام النبلاء ــ ج١٠ ــ ص٧٤ .

(طبيعة التعلم)

أسلفنا من قبل أن العلم يحتاج إلى همم الرجال وجلادة الأبطال وطول السعي والكلال بصبر دؤوب وقلب عاشق أريب ومن طلبه بغير ذلك طلب المحال وصدق الله إذ يقول (انا سنلقى عليك قولا ثقيلا . ان ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا) المزمل٥ ــ ٦ .

من هنا يصف الشافعي طبيعة التعليم وما يجب أن يبذل في سبيل اكتسابه ومن أجل تحصيله ليكون الطالب على بينه من أمره عالما بمعالم دربه قبل أن يلج فيه فيقول :

بقدر الكد تكتسب المعالي ومن طلب العلا سهر الليالي
ومن رام العلا من غير كد أضاع العمر في طلب المحال
تروم العزا ثم تنام ليلا يغوص البحر من طلب اللآلي[1]

ويقول :

اصبر على مر الجفا من معلم فإن رسوب العلم في نفراته[29]

فالتنقل والسفر والبحث والنصب والسهر ، والاختلاف الى الشيوخ وتدوين العلوم والتفرغ لمتابعة الدروس والعيش الطويل في البادية ، كل ذلك في حياة الشافعي جعله يقف على طبيعة التعلم متلمسا كافة جوانبه فيصور عملية التعليم بأنها عملية شاقة يتساقط دونها الكثير وصدق القائل :

سموت للمجد والساعون قد بذلوا جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا
فسابقوا المجد حتى مل أكثرهم وعانق المجد من أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وصدق الله إذ يقول (لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ) آل عمران٩٢ .

---

(١) ديوان الامام الشافعي ــ نعيم زرزور ــ ص٩١ .

نعم إن إنفاق الوقت والمال والجهد سبب نيل العلا في نظر الشافعي وان فكره الثاقب ووضوح الرؤية لديه مع معاناته في طلب العلم جعلته يصل إلى نتيجة حتمية تقول إن كل أمر عظيم وخطب جسيم لابد أن يكون طريقه وعرا وشاقا ومحفوفا بالشدائد والصعاب ، يقول الشافعي :

كيف الوصول الى سعاد ودونها قلل الجبال ودونهن حتوف
والرجل حافية ولا لي مركب والكف صفر والطريق مخوف[٦١]

إنها ليست نظرة تشائمية ولكنها في الواقع نظرة واقعية فالانسان إنما خلق ليعمل وليبذل جهده كله .

وانظر الى التعبير القرآني وهو يوضح ما ينبغي ان يكون عليه النشاط الانساني فيؤثر التعبير بالكدح وهو يعني العمل القوي الدائم (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ) الانشقاق .

ومرة أخرى يبين ان الانسان يعمل في مكابدة شاقة ومجاهدة شديدة فيقول سبحانه (لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ) البلد هذه طبيعة الحياة والعلم نورها ودستورها فيجب أن يكون كذلك (خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ) الأعراف ١٧١ (يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ) مريم١٢ (وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ) الأعراف١٧٠ .

وهكذا فلا ينال طالب العلم مبتغاه إلا بعد جهد جهيد فبقدر المشقة تكون الثمرة ويحصل الأجر . يقول ﷺ (ما خرج رجل من بيته يطلب علما ، الا سهل الله له طريقا إلى الجنة)[١] ألا إنه لا مكان للتمني والتواكل في نفس المتعلم بل نشاط وبذل وعمل وعطاء . يخفف منه ويسهل له محبة كبيرة للعلم وشوق إليه وإقبال عليه .

(١) ص. ج. ص. ج٢ / ٥٦١٧ .

(محبـــة العـــلم)

من المعلوم أن من مستلزمات التعليم صعوبة ومشقة السير فيه وبذل الغالي والرخيص لتحصيله وقد قيل :

ومـــــن طلب العلـــــوم بغير كد سيدركهـــا متـــــى شاب الغـــــراب

بيد أن هذا لا يعني أن يتجرع العلم كالعلقم بل إن من أوجب الواجبات على المعلمين أن يبينوا للناشئة جماله وأن يغرسوا في القلوب محبته وأن يذيقوهم بأساليب التربية الواعية لذته وحلاوته حتى يعشقوا تلقيه ويتوقوا لتحصيله ويشعروا بالسعادة الغامرة في مزاولته واكتسابه فيملك عليهم لبهم ويستولي على جوارهم وقلوبهم ويحسوا بأن العلم أصبح كيانهم ووجودهم فيزداد عليه إقبالهم وتشتد في طلبه رغبتهم ونهمهم وفي الحديث (منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا)[1] ان الطالب يغدو وهو يسعى إلى العلم سعي العاشق المتيم يحرص عليه ولا يستطيع فراقه وتلك حالة يذوقها فعلا من أشرب حلاوة العلم على يد معلم يحسن التعليم ويعتبره رسالة وعبادة . وذلك يهون على الطالب وعورة الطريق ومشقة التعليم ويبعد عنه نوازع الكسل والتثبيط .

ولنستمع للشافعي وهو يعبر في روعة رائعة وبراعة فائقة عن مدى سعادته واستمتاعه بالعلم وهو يسهر على تنقيحه وأي لذة يجدها في ذلك فيقول :

سهـــري لتنقيـــح العلـــوم ألـــذ لي من وصل غانيـــة وطـــيب عنـــاق
وصريـــر أقلامـــي على صفحـــاتها أحلى من الـــدوكاء والـــعشاق
وألـــذ من نقـــر الفتـــاة لدفهـــا نقـــري لالقـــى الرمـــل عن أوراقي
وتمايلي طربـــا لحل عويصة في الـــدرس أشهـــى من مدامـــة ساق
وأبـــيت سهـــران الدجـــا وتبيتـــه نومـــا وتبغـــى بعـــد ذاك لحاقي[63-64]

---

(١)ص. ج. ص. ج٢ /٦٦٢٤ .

ورحم الله شوقي إذ يقول :

عنـــد أهـــل العلـــم للعلـــم مذاق فإذا فاتك هذا فافتـــــــــــــراق[1]

تلكم هي المحبة الصادقة التي تملأ أعماق الشافعي حين مزاولته للعلم فأين منها هذه اللذات التافهة ، والمحبة الكاذبة التي تغشاها الأوهام ويتلوها الحرام لأصحاب النفوس الضعيفة والهمم الخوارة ؟! انها تقودهم إلى الهاوية وتنتهي بهم إلى الهلاك والبوار . ألا ما أبعد البون بين لذة الامام الشافعي ولذة معاصرة أبي نواس الذي يقول :

يارب مجلس فتيـــــــــان سموت له ، والليـــل محتـــبس في ثوب ظلمـــــاء

لشرب صافيـــــة من صدر خابيـــــة تغشى عيـــــون نداماهـــــا بلألاء

كأن منظرهـــا ، والماء يقرعهـــــا ديبـــاج غانيـــة ، أو رقـــم وشاء[2]

أما لذة الشافعي (فهي لذة معنوية وسعادة عقلية وروحية)[3] لا يعرفها الا من ذاقها ، ولا يشعر بها إلا من طعمها (وهي الشهوة التي يدوم بها الطلب ، ولا يسرع إليها الملل)[4] .

(ومن النادر أن نشعر بالتعب والسأم عندما نقوم بشيء مثير ومفرح)[5] .

قال ابن حزم (لذة العاقل بتمييزه ، ولذة العالم بعلمه ، ولذة الحكيم بحكمته ، ولذة المجتهد لله ـــ عزوجل ـــ باجتهاده ، أعظم من لذة الآكل بأكله والشارب بشربه ، والواطيء بوطئه ، والكاسب بكسبه ، واللاعب بلعبه ، والآمر بأمره ، وبرهان ذلك أن الحكيم والعاقل والعالم والعامل واجدون لسائر اللذات التي سمينا ، كما يجدها المنهمك فيها ، ويحسونها كما يحسها المقبل عليها ، وقد تركوها وأعرضوا عنها ، وآثروا طلب الفضائل عليها ، وإنما يحكم في الشيئين من عرفهما لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر)[6] .

إن حب الطالب للعلم من شأنه أن يذلل له الكثير من الصعاب وها هو الشافعي

---

(١) الشوقيات ـــ ج٤ ص٣٦ .
(٢) ديوان أبي نواس ـــ ص٦٤ .
(٣) ابن قيم الجوزية ـــ مفتاح دار السعادة ـــ ج١ ص١٤٢ بتصرف .
(٤) الماوردي ـــ أدب الدنيا والدين ـــ ص٥٣ .
(٥) دايل كارنيغي ـــ دع القلق وابدأ الحياة ـــ ص٢٤٤ .
(٦) ابن حزم ـــ الاخلاق والسير ـــ ص١٣ .

يصف محبته للعلم فيقول (فجعلت لذتي في هذا العلم وطلبه حتى رزقني الله منه ما رزق)[1] .

وحلاوة العلم جعلت عبدالرحمن بن الجوزي يدلي بدلوه ويصور مذاقه وما يحس به فيقول (ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل)[2] وحينما سمع الشافعي عن الامام مالك بن أنس بالمدينة المنورة ، وعرف عظم مكانته كان يقول (واشوقاه إلى مالك)[3] . فلما قدم المدينة أقبل على مالك وهو يحمل بين جنبيه حبا كبيرا للاغتراف من علمه والأنس بقربه . وكان محمد بن الحسن استاذ الشافعي وتلميذ أبي حنيفة إذا سهر الليالي وانحلت له المشكلات يقول (أين أبناء الملوك من هذه اللذات)[4] .

إن حبهم للعلم نقلهم من عالم المادة الجامدة إلى عالم المثل والقيم السامية السامقة ، التي لا يعيش في ظلها ورحابها الا عمالقة الفكر ، ولا ينعم في كنفها وحماها الا الجهابذة الاعلام وخاصة الانام .. وها هو الشافعي رحمه الله يضع بعض خواطره وشوراده في جانب ويضع الدنيا وما فيها في جانب أو ميزان آخر فيرجح ويختار الأول دون تردد ..

قال الامام الشافعي (استنبطت البارحة آيتين فما أشتهي باستنباطهما ، الدنيا وما فيها ..)[5] .

اذا صادف العلم في قلب المتعلم منذ البداية هوى وميلا تمكن من قلبه أي تمكن وعظم عنده وصدق القائل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وحينئذ تهون على المتعلم كل المصاعب والعقبات ويرخص في سبيله كل ما يبذل من تضحيات (قال اسماعيل بن يحيى المزني : قيل للشافعي : كيف شهوتك للعلم ؟! قال

---

(١) البغدادي ــ تاريخ بغداد ــ ج٢ ص٥٩ .
(٢) عبدالرحمن الجوزي ــ وصايا ونصائح لطالب العلم ــ ص٢٩ .
(٣) ابن حجة الحموي ــ ثمرات الأوراق ــ ج١ ص٢٣٦ .
(٤) الزرنوجي ــ تعليم المتعلم في طريق التعلم ــ ص٨٣ .
(٥) الشافعي ــ أحكام القرآن ــ ج٢ ص١٨٠ .

اسمع بالحرف مما لم أسمعه ، فتود أعضائي أن لها اسماعا تنعم به مثلما تنعمت أذناي . قيل له : كيف حرصك عليه ؟! ، قال حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال . قيل له : فكيف طلبك له ؟! قال : طلب المضلة ولدها ليس لها غيره)[1] فالخطوة الأولى للتعلم تبدأ في ترغيب المتعلم في العلم وفضله وإثارة حبه له حتى يصبح للعلم عنده لذة لا يمكن فراقها وحلاوة لا يقدر على نسيانها فإن العلم أساس السعادة في نظر الشافعي « فلولا العلم ماسعدت رجال » .. وهو كذلك ذات الانسان وكيانه فلا يعقل أن يكره الانسان نفسه التي بين جنبيه :

وذات الفتى والله بالعلم والتقى إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته[29]

ولا عجب حينئذ ان يجعل الامام الشافعي العلم للمتعلم كعرضه الذي يجب أن يصونه ، ودمه الذي يجب أن يحميه :

فواجب صونه عليه كما يصون في الناس عرضه ودمه[80]

(الجد والمثابرة)

الصبر في طلب العلم والجد والمثابرة من أقوى الوسائل وانجح الطرق لاكتسابه وتحصيله ، إنه يتطلب علو الهمة وقوة العزيمة وصادق التوجه يقول الامام علي رضي الله عنه (قدر الرجل على قدر همته)[2]. وقال الزرنوجي (والرأس في تحصيل الأشياء الجد والهمة)[3] ويبين الامام الشافعي رحمه الله قيمة الجد في تقريبه العلم وفتحه مغاليق المعرفة :

(والجد) يدني كل أمر شاسع والجد يفتح كل باب مغلق[65]

يقول شوقي :

وإن ترم المظاهر في الحياة فرمها باجتهادك والثبات

وخذها بالمساعي باهرات تنافس في جلالتها النجوما[4]

---

(١) محب الدين الخطيب ــ مع الرعيل الأول ــ ص٦٥ .
(٢) الامام علي ــ نهج البلاغة ــ ص١٤٩ .
(٣) الزرنوجي ــ تعليم المتعلم ــ ص٦١ .
(٤) الشوقيات ــ ج٤ ص٣٢ .

(لقد كان الشافعي اعظم مثل لتلقي العلم وإلقائه ، وعبادة الله به ، فليس لتفانيه في تحصيله حدود جغرافية)[1] فمن غزة إلى مكة الى المدينة الى بغداد الى اليمن .. إلى مصر . (ولقد قضى عمره كله يسعى إلى العلم سعيا حثيثا يقوم الليل النهار له قال أبو يوسف « العلم شيء لا يؤتيك بعضه إلا أن تؤتيه كلك» ويقول جون دالتون بعد ثلاثة عشر قرناً إذا كنت نجحت أكثر من غيري فبسبب خاص بي ـــ سبب واحد ـــ هو المثابرة أو كما يعبر توماس أديسون « في العبقرية إلهام بقدر واحد في المائة . أما التسعة والتسعون ـــ فهي من المثابرة » . وظاهر أن الواحد هو الذي يعطي سائر المائة « مزايا العبقرية » ولكل فضل . والله لا يضيع عمل عامل)[2] .

وعلى التلميذ كما يقول الشافعي رحمه الله أن (لا يكون رخي البال فإن مدارك العلم صعبة لا تنال إلا بالجهد والاجتهاد)[3] .

وانظر الى الامام الشافعي يصف همته العالية فيقول :

أمطري لؤلؤا جبال سرنديب وفيضي آبار تكرور تبرا
أنا ان عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست اعدم قبرا
همتي همت الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا[42]

ومن علامات الجد والمثابرة ، الاعتماد على النفس وخاصة في ميدان العلم فبقدر حاجة المتعلم إلى معلم يرشده إلى مايعمل ويضع في يده مفتاح الفهم الصحيح للعلم بقدر حاجته إلى الاستقلال في البحث والاعتماد على النفس يقول الشافعي :

ماحك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك[68]

ونتائج الدراسات الميدانية تؤكد أن (التدريب القائم على الاعتماد على النفس أدى إلى وجود حاجة مرتفعة للانجاز)[4] .

وحول أثر دافع الانجاز على سمات الشخصية تبين (أن الأشخاص ذوي دافع الانجاز المرتفع يميلون الى التصرف بطرق معينة مميزة لهم ، فهم يهتمون بالتفوق لذاته لا للثواب

---

(١)(٢) عبدالحليم الجندي ـــ الامام الشافعي ص١٩٠ .
(٣) الخطيب البغدادي ـــ الفقيه والمتفقه ـــ ج٢ ص٢٩ .
(٤) د. رجاء محمود أبوعلام ـــ علم النفس التربوي ـــ ص٢١٦ .

الذي قد يجلبه . ومثل هؤلاء الأشخاص لا يعملون بجد لأن المال سوف يقدم لهم في مقابل عملهم ، كما أنهم يؤدون ما يسند اليهم من أدوار لما قد يكون بها من فرص التفوق ، وليس لما قد تجلبه لهم من مركز ، كما أنهم يهتمون بالعمل من أجل الجماعة لا من أجل أنفسهم فقط . وهم يختارون شركاءهم في العمل من بين الأشخاص الجادين في عملهم وليس من أصدقائهم . وهم يفضلون المواقف التي يلتزمون فيها بالمسئولية الشخصية كنتيجة لأعمالهم)[1] . لذلك كان لزاما على المربي أن يغرس هذا الاستعداد دائما في تلاميذه ، وعندما يصبح الاعتماد على النفس وحب الانجاز نابع من دافع داخلي قوي من ذات الفرد نفسه سوف يستمر عمله ويزيد نشاطه ويثمر اجتهاده ، ولن تستطيع المعوقات الخارجية ان توقف تلك المسيرة لأنها مسيرة ذاتية . (فمن الواجب على المربين والمعلمين أن يعملوا دائما على ترغيب الطلاب في التعلم ، وعلى اعلاء همتهم ، وزيادة حماستهم ، فإن تقوية رغبتهم في التعلم من أهم عوامل نجاحهم .. ويحسن أن يقضي المدرسون في بدء كل درس بعضا من الوقت في شرح الغرض من الدرس ، وتوضيح أهميته ، وبذلك يثيرون الاهتمام بين المتعلمين ويحفزون رغبتهم ، ويهيئون انتباههم . وذلك أفضل كثيرا من الدخول مباشرة في تفاصيل الدرس دون أن تسبق ذلك فترة توجيه وتحفيز)[2] .

(١) المرجع السابق ص٢١٨ .
(٢) د. محمد عثمان نجاتي ــ على النفس في حياتنا اليومية ص١٥٥ .

تلخيص عام لطبيعة التعلم

يوجز الامام ابن قيم الجوزية ما سبق ذكره من صعوبة التعلم ، وما ينبغي على المعلم عمله لتيسير هذه الصعوبة من محبة العلم وبذل الجهد والمثابرة في التلقي فيقول : فالمكارم منوطة بالمكاره والسعادة لايعبر إليها إلا على جسر المشقة فلا تقطع مسافتها إلا في سفينة الجد والاجتهاد ، قال مسلم في صحيحه : قال يحيى بن كثير لاينال العلم براحة الجسم ، وقد قيل من طلب الراحة ترك الراحة .

فيـاوصل الحبيـب أمـا إليـه بغير مشقـة أبـدا طريـق

ولولا جهل الأكثرين بحلاوة هذه اللذة وعظم قدرها لتجالدوا عليها بالسيوف ولكن حفت بحجاب من المكاره وحجبوا عنها بحجاب الجهل ليختص الله لها من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم)[1]

أهمية التربية في القدرة على التغيير

مهما أسهب الانسان في الحديث عن التربية والتعليم ودورهما في تحقيق السعادة للبشرية كما يقول الامام الشافعي .

فلـولا العلـم ما سعـدت رجـال ولا عـرف الحـلال ولا الحـرام(٧٤)

فلن يستطيع أن يوفيهما قدرهما فإن للتربية والتعليم بليغ الأثر وعظيم الخطر في إسعاد البشرية وإعطائها رشحات ندية وقبسات من نور يميز المرء على ضوئها الخير من الشر ويعرف الصواب من الخطأ وتتضح أمامه معالم الأمور في الحياة فيبصر الحلال من الحرام وبالتربية والتعليم يقيم الناس موازينهم على الحق والعدل ، والسلام والجمال . ويبنون عليها أمجادهم ويحققون لأنفسهم ولمجتمعهم كل مايريدون من رفعة وعلو . والشافعي يرى أن للنفس البشرية قدرة خلاقة في ميدان التربية ويعطيها مكانة عالية بالاعداد

(١) ابن قيم الجوزية ــ مفتاح دار السعادة ــ ج١ ص ١٠٩ .

والتغيير . انها قدرة مبدعة تستطيع باعدادها لأفراد المجتمع وإكسابهم الدربة والمهارة أن تُعمر الكون وتُسعد البشر وبخاصة إذا ربت الأجيال على حب العمل والتنافس في الخلق والابداع والتصنيع والانتاج ، وباعدت بينهم وبين البطالة والكسل اللذين يدمران الحياة ويقتلان الاستعدات والمواهب والملكات . وبالتجربة الواقعية نرى ان الانسان هو الذي يسعد نفسه بنشاطه الدؤوب وعمله المتواصل وإخلاصه في خدمة المجتمع وهو الذي يشقيها بكسله وقعوده وضعفه وتخاذله وتوكله وهل المجتمع إلا مجموعة أفراده ؟ فإن نشطوا للعمل ووالوا الانتاج بهمم حية وعزائم طموح سعد المجتمع ونال مكانتة بتقدمه وإن كانت الاخرى ضاع كيانه وذهبت ريحه وحمل نتائج قعوده وتبعات كسله جزاء ما كسبت وجنت يداه وصدق القائل :

ومـــن لم يعانقـــه شوق الحيـــاة تبخـــر في جوهـــا واندثـــر

والحق انه ليست هناك حتمية تفرض على الانسان الضعف والركون بل ان ضعفه من نفسه يقول الامام الشافعي رحمه الله :

نعـيب زماننـا والعـيب فينـا ومـا لزماننـا عيب سوانـا
ونهجـو ذا الزمـان بغير ذنب ولـو نطـق الزمـان لنـا هجانـا
ولـيس الـذئب يأكل لحم ذئب ويـأكل بعضنـا بعضا عيانـا[٨٢]

وهما لا يبخسان الانسان حق عمله أبدا يقول الشافعي :

تحكمـوا فاستطالـوا في تحكمهـم وعمـا قليـل كأن الأمـر لم يكـن
لو أنصفـوا ، أنصفـوا لكـن بغـوا فبغـى عليهم الدهـر بالاحـزان والمحن
فاصبحـوا ولسان الحال ينشدهـم هذا بذاك ولا عتب على الزمـن[٨٢-٨٣]

والشافعي يرى أن الانسان مختار هو الذي يبنى ويُعمر وهو الذي يهدم ويدمر ، وبيده لواء الهناء ومعول الشقاء وهو صاحب الأمر والاختيار (إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾) الانسان . فهو يستطيع أن يسمو بنفسه ويحقق ذاته وانسانيته ويلبي حاجاته ويحقق السعادة لمجتمعه كما يستطيع ان يكون كلا على نفسه وسوط عذاب على مجتمعه . وما أشقى الانسان إذا وهنت إرادته وخارت انسانيته فسقط في وحل البهيمية ان الذئب لا يأكل أخاه أما الانسان فإن شواهد كثيرة من الواقع على مر الازمان أثبتت أنه إذا فقد نور العلم العلم وتهذيب التربية ونضب معينه من الأخلاق الكريمه فإنه لا يبالي

من قتل أخيه الانسان والتفنن في تعذيبه وأكل ماله وظلمه وتحريقه وتدميره ، فكم أشاع من خراب وحروب متواصلة ؟ وكم صنع من أسلحة دمار كيماوية وذرية ونووية ... ؟ صنعت القلق والترقب والخوف الذي استولى على القلوب وأثار الهلع في النفوس وأصاب الانسان بأمراض التوتر والأعصاب وأشاع فيها الضغط وأمراض القلوب ... والحق ان هذه المسؤولية الكبرى التي يتحمل الانسان تبعاتها ويدفع حياته وأمنه ثمنالها سببها الأول والأخير ، بعده عن نور العلم الحقيقي الذي يجعله ذا ثقة شديدة بالله فيملأ قلبه طمأنينة ورضا ويشيع في اعماله أمنا وسلاما ، وبعده عن التربية الايمانية التي تجعل منه رسول سلام فخير الناس أنفعهم للناس كما يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام[1] وصدق الله إذ يقول (فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) النساء ٦٢ .

(وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) القصص ٢٨ أما إذا اتجه الانسان للخير وفق له وأعين عليه وجنى ثمار عمله خيراً وبركة (لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) يس ٣٥ من هنا ندرك ان للرقي والتقدم والتجديد والتغيير أسبابا يجب الاهتمام بها كما يقول الامام الشافعي :

تبغـــى النجـــاة ولم تسلك طريـــــقتها إن السفينـــــة لا تجري على اليـــــبس[51]

إنها سنن كونية ونواميس إلهية تسلم مقدماتها إلى نتائجها وليست حتميات اقتصادية أو بيئية أو بيولوجية ... وهذا هو المبدأ التربوي الذي ينص على ان القدرة على التغيير والاصلاح نابع من ذات الفرد وبدافع من إرادته يُبن ذلك قول الله تعالى (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ) الرعد ١٣ .

من طلب العلا سهر الليالي ومن رام حاجة سعى لها وبذل جهده في طلبها والشافعي يؤمن بالتغيير عبر التربية والعمل وللتربية في نظره خطرها فهي قوة خارقة بها نجوب الفضاء ونعمر الثرى ونحن إذا ربينا أبناءنا على التطور والتقدم في ميادين العلم والانتاج أخذت الأمة مكانتها وإذا أصاب الخور أمة ففقدت ثقتها وركنت إلى القعود وتعللت بالأقدار فلسوف تبقى هذه الأمة رهينة ضعفها وانحطاطها لان فقد الثقة هو (من اشد الأمراض الاجتماعية وأخبث الأفات الروحية لا يتسلط هذ الداء على انسان إلا أودى به

---

(١) انظر ص . ج . ص ج ١ ٣٢٨٩ .

ولا على أمة إلا ساقها إلى الفناء وكيف يرجو الشفاء عليل يعتقد بحق أو بباطل ان علته قاتلته؟ وقد أجمع الأطباء في الأمراض البدنية على أن القوة المعنوية هي رأس الأدوية وأن من اعظم عوامل الشفاء إرداة الشفاء)[1] بناء على ذلك يجب الاعتقاد بقدرة الانسان على التغيير عبر التربية كما يجب ان يشعر الفرد وتشعر الأمة ان ضعفها في الحقيقة انما هو بسبب تقاعسها عن أداء دورها المنوط بها كما قال الامام الشافعي رحمه الله (هذا بذاك ولا عتب على الزمن) وإنه لمن الصواب اعتبار التربية أساساً لسعادة الفرد والمجتمع كما يقول ابن المقفع (ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى الأدب ، الذي هو لقاح عقولنا ، فإن الحبة المدفونة في الثرى لاتقدر ان تطلع زهرتها ونضارتها إلا بالماء الذي يعود إليها من مستودعها)[2] كما ان التربية بالنسبة للأمة حياة فإذا لم تكن فالموت المحقق ، أو كما يقول فيلسوف الاسلام محمد إقبال (وإن التعليم هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحى ثم يكونها كما يشاء ، ان هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيرا من أية مادة كيميائية ، هو الذي يستطيع أن يحول جيلا شامخا إلى كومة تراب)[3] يلتقى الامام العلامة تقي الدين ابن تيمية مع الامام الشافعي في قدرة التربية على التغيير واسعاد البشر ..

يقول الدكتور ماجد عرسان (الاساس الذي تقوم عليه فلسفة التربية عند ابن تيمية هو ان العلم النافع أساس الحياة الرشيدة الفاضلة والعمل بهذ العلم هو الذي يقيم هذه الحياة ويمنحها البقاء والاستمرار . وبدون ذلك تطبع حياة الانسان بالضلال الذي هو العمل بغير علم)[4] .

(١) شكيب أرسلان ــ لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ــ ص ١٤٩ .
(٢) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ص ١٩٨ .
(٣) د. عجيل جاسم النشمي ــ البناء التربوى ــ ص ٤٤ .
(٤) د. ماجد عرسان الكيلاني ــ الفكر التربوي عند ابن يتمية ــ ص ٧١ .

ثمـــرة العلـــم وغايتـــــه

إن لكل انسان (غاية أساسية من حياته تدور عليها أفكاره أو تتجه نحوها أعماله ، وتتركز حولها آماله ، وهي التي يسمونها (المثل الأعلى) ومتى سمت هذه الغاية وعلت صدرت عنها أعمال سامية مجيده ، وانطبعت نفس صاحبها بصورة من الجمال الروحى ، وحدت به إلى الكمال دائما حتى يأخذ فيه بالنصيب الذي قُدر له)[1] .

وهذا في الواقع هو هدف التربية فإن من المسلم به أن التربية لا تهدف الى زيادة الحصيلة المعرفية للفرد وليست هي نوعا من الترف ، بل الغرض من التربية هو ايجاد الفرد الصالح في سلوكه ، الناجح في عمله فهدفها الاصلي هو كما قيل (فمن أهم غايات التربية هي صناعة الفرد اجتماعيا)[2] إنها تهيئة الفرد وإعداده على أن ينتفع بهذه التربية ويجني ثمارها بتطبيق أفكارها إذ أن (ثمرة العلم العمل بالمعلوم)[3] ومن ثم كان ﷺ يقول (اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع أعوذ بك من هؤلاء الأربع)[4] وقال ﷺ (سلو الله علماً نافعاً ، وتعوذوا بالله من علم لا ينفع)[5] وقال الشافعي :

حسبـــــي بعلمـــــي إن نفـــــع ما الـــــذل إلا في الطمـــــع
من راقب الله رجـــــــــع ماطـــــار طير وارتفـــــع
إلا كـــما طـــار وقـــــع

ويحدد الشافعي رحمه الله الغرض من التعليم والغاية من التربية في ازدياد الهدى وعدل السيرة وحسن الخلق فيقول :

إذا لم يزد علـــم الفتـــى قلبـــه هدى وسيرتـــه عدلا وأخلاقـــه حسنـــا
فبشره أن الله إولاه نقمـــــــة يساء بها مثـــل الـــذي عبـــد الوثنـــا[6]

---

(١) حسن البنا ــ المأثورات ــ ص٧ .
(٢) د. عبدالمحسن حماده ــ أصول التربية ــ ص٥٩ .
(٣) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ــ ص٦٢ .
(٤)(٥) ص.ج.ص. ــ ج١/ ١٢٩٧ ــ ٣٦٣٥ .
(٦) ديوان الشافعي ــ نعيم زرزور ــ ص١٠٥ .

إن هذا يعني (أن العلم الصحيح يقود إلى قناعة إيمانية واطمئنان وجداني وإقرار منطقي يقرب إلى الله على جناح الورع والتقوى ، ولاشك أن غاية غايات العلم الوصول إلى الحقيقة التي يعرف بها الإنسان ربه ، ويكشف بها نفسه)[1] حقيقة أن علم المرء يزيد قلبه هدى ويملأ حياته نورا ذلك أن (العلم مهما كان نوعه ومجاله إذا طلبه صاحبه بتجرد وموضوعية ، يقوده إلى ربه ، ويدعوه للايمان به ، ويحضه على عبادته ، ويزيده من خشيته . وما من عالم طلب العلم بهذه المواصفات ، وتفاعل معه بقلبه وروحه وكيانه ، الا وقد ازداد ايمانا بربه ، وخشية له ، والتزاما لأوامره . العلم يدعو للايمان والخشية ، فإذا لم يحقق أصحابه هذا في حياتهم فهم المقصرون)[2] .

ومن أقوال عبدالله بن عباس رضي الله عنه (طلبنا العلم للدنيا ، فدلنا على ترك الدنيا)[3] والشافعي رضي الله عنه يرى أن التربية والتعليم تخلق الفرد السوي الذي يتكامل في شخصه الجانب الروحي والنفسي والمادي معا ، وكما أن الامام الشافعي أشار إلى الأثر الخارجي والمظهر المرئي للانسان عبر أخلاقه فإنه اهتم اهتماما كبيرا بالجانب الباطني ذلك الجانب الذي يحاول المربون حديثا الاهتمام به بعد أن رأوا انكباب الناس على الجانب المادي وخطره على المجتمع ولقد توافر جهد المربين على هذا الجانب الباطني لأن القلب إذا ما اهتدى وفر على المجتمع كثيرا من الجهود كالمراقبة والمحاسبة والمتابعة الدائمة لكل شاردة وواردة لأنه أصبح قلبا موصولا بالله شاهدا عليه أينما كان ومن هنا اعتبر الشافعي التقوى أساس العزة فهو يقول (من لم تعزه التقوى فلا عز له)[4] .

إن تزويد الطالب بالتقوى واستمساكه بها من أهم غايات التربية ، فالله تعالى يقول (وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ) البقرة ١٩٧ . وليس معنى الاهتمام بالجانب الروحي إغفال الجانب المادي الملموس وإهماله ولكن التربية السوية تعتبره الشق الآخر للتربية بحيث لا يطغي أحدهما على الاخر فالانسان جسم وروح .. وان غاية التربية في النهاية هي تعديل سيرة وسلوكيات واخلاقيات المتعلم بحيث تزيده هذه الأخلاق

---

(١) حكمت صالح ــ دراسة فنية في شعر الشافعي ــ ص١٥٥ .
(٢) د. صلاح عبد الفتاح الخالدي ــ تصويبات في فهم بعض الايات ــ ص٢٠٠ .
(٣) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ــ ص٦٦ .
(٤) القزويني ــ مفيد العلم ومبيد الهموم ــ ص١٩٥ .

حسنا . وتقويم هذا إنما يكون بملاحظة آثار التربية ونتائج المعرفة والتثقيف على سلوكه وتصرفه فإن كانت النتيجة أرتقاءا في سلوكه واعتدالا في تعامله وتكيفا حسنا مع محيطه الذي يعيش فيه دل ذلك على فعالية تلك النوعية من التربية ، لأن البذرة الطيبة التي تغرسها التربية يجب أن تثمر الهداية والاستقامة والعدل وحسن الخلق وماغاية الرسالة الاسلامية في محصلتها بكل عقيدتها وعباداتها وتشريعاتها سوى ذلك فالله تعالى يقول (لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ) آل عمران١٦٤ ويقول ﷺ : (انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[١] وقال : (البر حسن الخلق)[٢] وقال ﷺ : (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا)[٣] .

(ومن الواضح أن الانسان الاخلاقي هو الذي يسخر اكتشافاته في سبيل أخيه الانسان . وان اساليب الدمار والخراب والفتك والتدمير التي نسمع بها في عالمنا المعاصر لم تكن بحاصلة لو أن في قلوب ذويها مثقال ذرة من خلق)[٤] وصدق الشاعر أذ يقول :

وإذا أصيب القـــوم في أخلاقهـــم فأقـــم عيهم مأتما وعويـــلا

والشافعي يقرن العلم بالخلق والتقوى وذلك أن العلم (الذي يبعد القلب عن ربه علم فاسد ، زائغ عن مصدره وعن هدفه ، لا يثمر سعادة لصاحبه ولا الناس ، انما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار ، لأنه انقطع عن مصدره . وانحرف عن وجهته ، وضل طريقه الى الله)[٥] .

والحق ان المسلمين قد انتبهوا منذ القدم إلى علاقة التقوى والخلق بالعلم فعندما (أقام المسلمون علم الكيمياء عرفوا محاذيره واخطاره في الوقت الذي عرفوا فيه منافعه ولذلك حددوا تناوله في حدود الدين والخلق وحذروا من أن يعرف اسرار الصنعة رجل لا يخاف الله ولا يخشاه ووصايا جابر بن حيان في هذا الصدد أكبر وثيقة على نظرة المسلمين الى العلم)[٦] ولعمري أن ماأصاب العالم من الحروب من تدمير وخراب في الحربين

---

(١) موطأ مالك كتاب حسن الخلق .

(٢)(٣) ص. ج. ص. ج١ / ٢٨٨٠ ــ ١٢٣٠ .

(٤) د. محمود أحمد السيد ــ معجزة الاسلام التربوية ص٧٢ .

(٥) سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ ج٥ ص٢٦٣٣ .

(٦) د. محمد ابو الغيط الفرت ــ د. محمد رواس ــ العقيدة الاسلامية في مواجهة المذاهب الهدامة ص٢٣ .

العالميتين الأولى والثانية وغيرها من الحروب من تدمير آلاف المدن وقتل مئات الملايين من البشر واهلاك الحرث والنسل واستعمال الأسلحة الذرية في ضرب مدن اليابان واستعمال الاسلحة البيولوجية والكيماوية .. وغيرها وغيرها إنما وقع بسبب خروج العلم من ميدان الدين والخلق وتمرده عليهما .

حين انتقل من المسلمين الى الاوروبيين والغربيين ممن لا يدينون بدين ولا يعتزون بخلق . وأخيرا انتبه علماء التربية إلى الأخطار الناجمة عن إبعاد العلم عن التقوى والخلق وذلك حينما (بدأت صيحات كثير من التربويين الغربيين اليوم تدعو مسيرة التربية للتوقف . فقد كثر الساقطون والمشوهون تربويا وعقليا وسلوكيا . وبدأ نتاج ذلك ينعكس على بنية الشباب وفكره وتصوره وفعاليته ولياقته ، وبدت التقارير مخيفة مرعبة في خطها البياني الهابط بانحدار شديد سريع . وبدا للعيان من التجربة التربوية التي أسس بناءها تلك الأسماء اللامعة المرموقة التي كان مجرد قول أحدهم يعني الصواب الذي **ما بعده زيادة لمستزيد ، تبين من التجربة أنها خواء وسراب**)[1] **إنه الحصاد المر لالغاء** الاخلاق والضمير المقترن بالدين .

يرى جان لوك أن (غرض التربية ـــ في نظره ـــ أخلاقي)[2] إذ أنه أكد على تكوين الرجل النبيل ولكن أية أخلاق يريدها ؟ أهي أخلاق الأمس أم اخلاق اليوم ؟! أم اخلاق الغد ؟! ما الميزان الخلقي والمعيار التربوي الذي يزن به مفكروا الغرب ؟! أهي أخلاق الطبقة الكادحة أم الطبقة الراقية ؟ .. وهنا مفترق الطريق بين المفاهيم التي يطرحها الشافعي رحمه الله بوضوح والمبنية على أرضية منضبطة وبين مفاهيم علماء الغرب واتباعهم أصحاب النظريات الغامضة والمبنية على أساس وهمي وضعيف وصدق الله (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾) التوبة (أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ تبارك .

كانت التوصية الأولى في المؤتمر الثالث لوزراء التربية والتعليم العرب في الكويت عام ١٩٦٨م (ضرورة بناء فلسفة التربية والتعليم في الوطن العربي على الايمان بالله والمثل

(١) د. عجيل حاسم النشمي ـــ البناء التربوي ـــ ص١٧ .

(٢) د. محمد ناصر ـــ قراءات في الفكر التربوي ج١ ص٢٨٩ .

العليا للامة العربية ، وان يكون هذا الايمان مصدرا للسلوك العام والخاص للفرد والمجتمع)[1] لأن الخلق والدين أساس العلم .

(بـــين العـــلم والعمـــــل)

من الوصايا الخالدة للامام جعفر الصادق لأحد مريديه (اطلب العلم باستعماله)[2] (إذ أن تطبيق العلم على العمل له فائدتان كبيرتان أولاهما تثبيت المعارف وثانيهما الحصاد الذي ينتج عن العلم)[3] .

(ذكر ابن مسعود رضي الله عنه أن جيل الصحابة الأول كانوا يتعلمون العشر من الآيات ثم لا يتجاوزوهن حتى يعرفوا معانيهن ويعملوا بها)[4] ومن الحكم الجميلة قول أحد الحكماء (لا خير لك ان تعلم مالا تعلم ولما تعمل بما قد علمت فإن مثل ذلك مثل رجل احتطب حطبا فحزم حزمة ثم ذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى)[5] . وفي عبارة بليغة موجزة بين الشافعي ما سبق ذكره في قوله (العلم ما نفع ليس العلم ما حفظ)[6] ومن الملفت للنظر أن يختتم الشافعي أبياته التي حدد فيها غاية التربية بوصف عالم السوء بالمشرك « عابد الوثن » حيث يقول :

إذا لم يزد علـــم الفتـــى قلبـــه هدى وسيرتـــه عدلا وأخلاقـــه حسنـــا
فبشره أن الله أولاه نقمـــــــــة يساء بها مثـــل الـــذي عبـــد الوثنـــا

ذلك أن مآلهم ومصيرهم واحد في النهاية ، فكلاهما موعده النار وبئس القرار !

واذا كانت غاية التربية التهذيب فإن مقياس العلم العمل يقول الامام الشافعي :

إن الفقيـــه هو الفقيـــه بفعلـــه ليس الفقيـــه بنطقـــه ومقالـــه
وكـــذا الرئـــيس هو الرئـــيس بخلقـــه ليس الرئـــيس بقومـــه ورجالـــه

---

(١) د. عجيل جاسم النشمي ــ البناء التربوي ــ ص٩ ص١٠ .
(٢) محمد الغزالي ــ ركائز الايمان ص١٦٨ .
(٣) عطية صقر ــ نظرات في التربية الاسلامية ص١٥ .
(٤) د. عباس محجوب ــ اصول الفكر التربوي في الاسلام ص١٧٢ .
(٥) ابن كثير ــ البداية والنهاية ج٢ ص١٢٨ .
(٦) الذهبي ــ سير اعلام النبلاء ج١٠ ص٨٩ .

وكـــذا الغنـــي هو الغنـــي بحالـــه ليس الغنـــي بملكـــه وبمالـــه[٦٩]

إن العلم والعمل متلازمان ولا يفترقان والشافعي يرى أن الايمان تصديق وعمل فيقول :

شهـــــــــدت بأن الله لارب غيره وأشهـــد أن البـــعث حق وأخـــلص

وأن عرى الايمان قول مبين وفعـــل زكـــي قد يزيـــد وينـــقص[٥٤]

وصدق رب العـزة (وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣) العصر

(تلخيـــص عـــــام)

يمكن ايجاز كل النقاط التي سبق أن ذكرها الشافعي للغاية من التربية وهي في مجملها غاية التربية الاسلامية (والغاية التي ترمي اليها رسالة الاسلام تزكية الأنفس وتطهيرها عن طريق المعرفة بالله وعبادته وتدعيم الروابط الانسانية واقامتها على أساس من الحب والرحمة والاخاء والمساواة والعدل ، وبذلك يسعد الانسان بالدنيا والاخرة)[1] وبذلك يكـون الشافعـي قد حدد غاية التربية تحديدا متكاملا من فهم للاسلام ، دين التربية الكاملة (فلم يكن هدف التربية عند المسلمين دنيويا محضا كما كان عند اليونان والروم مثلا ، ولم يكن دينيا محضا كما كان عند المسيحية في الصدر الأول ، وإنما كان دينيا ودنيويا معا ، فقد كانوا يرمون الى اعداد الفرد المسلم للدنيا والاخرة)[2] عملا بقول الله تعالى ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ القصص ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ البقرة وهنا مفترق الطريق بين المناهج الوضعية وبين المنهج الرباني حيث أن الأول يعمل لايجاد ساق واحدة للانسان كي يمشي عليها ! وفي وصية الامام الشافعي رحمه الله مثالا صادقا لكيفية الجمع بين الدنيا والاخرة فهو يقول لأحد طلابه (لا تسكنن بلدا لا يكون فيه عالم يفتيك عن دينك ، ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك)[3] وقال رحمه الله (من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم)[4] .

---

(١) سيد سابق ــ فقه السنة ــ ج١ ص١١ .
(٢) د. عبدالرحمن عميرة ــ منهج القرآن في تربية الرجال ص١١ .
(٣) الرازي ــ آداب الشافعي ومناقبه ص٣٢٢ .
(٤) النووي ــ تهذيب الأسماء واللغات ــ ج١ ص٥٤ .

البـــاب الثـــالـــث

منبـع العلـوم ومشكـاة الهـدى

القرآن الكريم دستور الله الخالد الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ فصلت .

إنه وثيقة السماء تنزل بها الروح الأمين على قلب رسولنا الكريم لتكون رسالة الهدى ودعوة الحق للانسانية جمعاء من لدن جاء بها النبي الأمين (ﷺ) إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ الاعراف ١٥٨ . ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ . الانبياء .

إنه سجل صادق للرسالات الأولى والأنبياء السابقين واساس متين لكل ما احتاج إليه البشر وما يحتاجون من علوم ومعارف ماعاش الناس على هذا الكوكب .

أما السنة فهي البيان لهذا الكتاب العزيز توضح مشكلة وتفصل مجمله ، وكما قال شيخ الاسلام ابن تيمية (فالسنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه)[1] وهي مع ذلك امتدادٌ للوحي القرآني ومتمم لمراد الله من هدية أعطيها الرسول (ﷺ) مع القرآن بوحى من الله عزوجل فهو (ﷺ) لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ النجم

يقول (ﷺ) (ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ...)[2] ويقول (ﷺ) لعبدالله بن عمرو بن العاص (اكتب فو الذي نفسي بيده مايخرج منه إلاحق)[3] وأشار (ﷺ) إلى فيه ويقول الله عزوجل ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ النساء ١١٣ فالكتاب هو القرآن والحكمة هي السنة ، وقال الامام ابن قيم الجوزية في تفسيره للآية السابقة (وأما الحكمة المقرونة بالكتاب فهي السنة كذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة)[4] قال الشافعي في الرسالة (فكان مما ألقى في روعه سنته ، والحكمة

---

(١) العقيدة الواسطية ص ١١ .

(٢)(٣) ص.ج.ص ج١ ٢٦٤٣ ، ١١٩٦ آ

(٤) التفسير القيم ص ٢٢٧ . انظر ايضا الشافعي ــ أحكام القرآن ــ جمعه البيهقي ج١ ص ٢٧ ــ ٣١ .

التي ذكر الله وما نزل به عليه كتاب فهو كتاب الله وكل ماجاءه من نعم الله ... فقد **بين الله أنه فرض فيه طاعة رسوله**)[1] . .

وقد جاء الرسول (ﷺ) معلما لهم يقول الله عزوجل (وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ) البقرة ١٥١ والعلم الذي جاء به القرآن والسنة هو العلم الصادق ومن سماته العصمة والشمولية والصلاحية المطلقة والربانية الكريمة . والامام الشافعي رحمه الله يبين في اسهاب خصائص هذا المنهج الرباني الكامل وكيف أنه حوى كل مبادىء علوم الكون فيقول (وأنزل عليه كتابه فقال (وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) فصلت ٤١ ــ ٤٢ فنقلهم من الكفر والعمى إلى الضياء والهدى . وبين فيه ما أحلَّ مناً بالتوسعة على خلقه ، وما حرم لما هو اعلم به من **حظِّهم في الكف عنه في الآخرة . وابتلى طاعتهم بأن تعَّبَدهُم بقولٍ وعمل ، وإمساك عن** محارم حَماَهُمُوها ، وأثابهم على طاعته من الخلود في جنته ، والنجاة من نقمته ، ما عظُمت به نعمتهُ ، جل ثناؤه . **وأعلمهم ما أوجب على أهل معصيته من خلاف ما أوجب لأهل** طاعته . ووعظهم بالاخبار عمن كان قبلهم ، ممكن كان أكثر منهم أموالا وأولاداً ، وأطول أعماراً ، وأحمد آثاراً . فاستمتعوا بخلاقهم في حياة دنياهم ، فأذاقهم عند نزول قضائه **مناياهم دون آمالهم، ونزلت بهم عقوبته عند انقضاء آجالهم، ليعتبروا في أنُفِ الأوان، ويتفهموا بجلية البيان، وينتبهوا قبل رين الغفلة، ويعلموا قبل انقطاع المدة، حين لا يعتب** مذنب ، ولاتؤخذ فدية ، وتجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء **تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً فكلُّ ما أنزل في كتابه ــ جل ثناؤه ــ رحمة وحجة ، علمه** من علمه ، وجهله من جهله ، لايعلم من جهله ولا يجهل من علمه . والناس في العلم طبقات ، موقعهم من العلم بقدر درجاتهم في العلم به فحُق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه ، والصبر على كل عارض دون طلبه ، واخلاص النية لله في استدراك علمه ، نصًّا واستنباطا ، والرغبةُ إلى الله في العونِ عليه ، فإنه لايدرك خير إلا بعونه .

فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصًّا واستدلالًا ، ووفقه الله للقول والعمل بما

---

(١) ص ١٠٣ ــ ١١٤ .

علم منه فاز بالفضيلة في دينه ودنياه ، وانتفت عنه الرِّيبُ ، ونَوَّرَت في قلبه الحكمُة ، واستوجب في الدين موضع إلامامة فنسأل الله المبتدىء لنا بنعمه قبل استحقاقها ، المديمها علينا ، مع تقصيرنا في الاتيان على ما أوجب به من شكره بها ، الجاعلنا في خير أمة أخرجت الناس ، أن يرزقنا فهما في كتابه ، ثم سنة نبيه ، وقولا وعملا يؤدى به عنا حقه يوجب لنا نافلة مزيده فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها . قال الله تبارك وتعالى (كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾) ابراهيم

وقال (وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾) النحل

وقال (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾) النحل

وقال (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾) الشورى.[1]

والحق ان الشافعي قد أفاض وأجاد في تصوير هذه الوثيقة التربوية التي حث فيها على طلب العلم الشرعى وأوضح خصائصه وفضائله وبين أنه طريق واضح للفلاح في الدنيا، والفوز في الآخرة . يوجز الامام الشافعي رحمه الله مهمة القرآن الكريم ودوره العظيم في هذه الكلمات ... فيقول (وكتاب الله البيانُ الذي يُشفى به من العمى)[2].

(١) (٢) الشافعي ــ الرسالة ــ ص ١٧ الى ص ٢٠ .

أهـــــم العلـــــوم

سبق أن أوردنا نظرية الامام الشافعي رحمه الله في طبيعة العلوم وتعددها وقوله :

لن يبلغ العلم جميعا أحـد لاولـو حاولـه ألـف سنـه
انما العلـــم عميـــق بحره فخـذوا من كل شيء أحسنـه[1]

وكان رحمه الله يقول : إذا كثرت الحوائج فابدأ بأهمها . وعن الطبيعة التوسعية للمعارف والعلوم قال :

كلمـــا ادبنـــى الدهـــ ـرُ أرانى نقص عقلى
وإذا ماإزددت علمـــــا زادنى علمـــــا بجهلى [70]

وهنا يبين الشافعي بعض العلوم الأساسية والتي لاغنى عنها أبداً لمن أراد صلاح الدنيا وفلاح الآخرة ، والمراد بالعلوم الشرعية علوم القرآن والحديث وما فيهما مما يتصل بالعقائد والعبادات والأخلاق وقد قال (ﷺ) (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)[2] قال الامام الشافعي في تعريفه للفقه (الفقه معرفة النفس مالها وما عليها .. وما العلم إلا العمل به والعمل به ترك العاجل للآجل)[3] وقال (ﷺ) (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[4] والامام الشافعي يعتز إعتزازاً كبيراً بحملة حديث رسول الله (ﷺ) ويذكر فضلهم في نقل هذا العلم وحفظه فيقول إذ رأيت رجلا من أصحاب الحديث فكأنما رأيت رجلًا من أصحاب رسول الله (ﷺ) جزاهم الله خيراً حفظوا لنا الأصل ، فلهم الفضل . ويقول :

كل العلوم سوى القرآن مشغلة إلا الحديث وعلم الفقه في الدين
العلم ماكان فيه قال حدثنا وما سوى ذاك وسواس الشياطين[88]

وليس يعنى ذلك ان الشافعي يهمل العلوم الأخرى ويقلل من شأنها ... كلا ، ولكنه

(١) ديوان الامام الشافعي ــ نعيم زرزور ص ١٠٥ .
(٢) ص ج ص ج ٢ ٦٦١١ .
(٣) جاسم محمد الياسين ــ العلم بين يدى العالم والمتعلم ــ ص ١٧ .
(٤) ص ج ص ج ١ ٣٣١٩ .

يعتبر علوم الشريعة هي الأصل وأما العلوم الأخرى فهي تبع وخادم لهذا الأصل ، ولقد كان الشافعي نفسه يدرس هذه العلوم بمسجد عمرو بن العاص بالفسطاط فيدرس اللغة والأدب والشعر والطب ... ويعتبرها وسيلة ، ويعتبر علوم الشريعة هي الغاية والأصل ويبين أن هذه العلوم التي مهما بلغت لا تملك اسعاد البشر في الدنيا ولا في الآخرة كعلوم الشريعة . قال الشاطبى (واتفق اهل الشرائع على أن علوم الشريعة أفضل العلوم ....)[1] .

ولشدة تمكن الشافعي من أساليب التعليم وفنون التربية يضع تعريفه للعلم وكيف يتم تقسيم العلوم وماحكم تعلم هذه العلوم والاختلاف فيها في قالب سؤال وجواب ليصبح المتعلم وقد تم له استعداده للتلقى وشدة شوقه للجواب بعد سؤال فيتمكن من قلبه أيما تمكن ، فلنعش مع الشافعي وهو يقول في باب العلم من كتاب (الرسالة) (فقال لي قائل ما العلم ؟ وما يجب على الناس في العلم ؟ فقلت له : العلم علمانِ : علم عامةٍ لايسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله . قال : ومثل ماذا ؟ قلت : مثل الصلوات الخمس ، وأن لله على الناس صوم شهر رمضان وحج البيت إذا استطاعوه ، وزكاة في اموالهم ، وأنه حرم عليهم الزنا والقتل والسرقة والخمر ، وما كان في معنى هذا ، مما كلف العباد أن يعقلوه ويعلموه ويعطوه من أنفسهم وأموالهم ، وأن يكُفُّوا عنه ، ماحرم عليهم منه ، وهذا الصنف كله من العلم موجود نصا في كتاب الله ، وموجودٌ عاماً عند أهل الاسلام ، ينقله عوامهم عن من مضى من عوامهم ، يحكونه عن رسول الله ، ولايتنازعون في حكايته ولا وجوبه عليهم . وهذا العلم العام الذي لايمكن فيه الغلط من الخبر ، **ولا التأويل ، ولا يجوز فيه التنازع . قلت له : ما ينوب العباد من فروع** الفرائض ، وما يخص به من الأحكام وغيرها ،مما ليس فيه نصٌّ كتاب ، ولا في أكثره نص سنة ، وإن كانت في شيء منه سنة فانما هي من أخبار الخاصة ، لا أخبار العامة ، وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياساً . قال : فيعدوا هذا ان يكون واجبا وجوب العلم قبله ؟ أو موضوعا عن الناس علمه ، حتى يكون من علمه مُنْتَفِلًا ومن ترك علمه

---

(١) الشاطبي ــ الاعتصام ــ ج٢ ص٢٤٠ .

غير آثم بتركه ؟ أومن وجه الثالث ، فتوجدناه خبرا أوقياساً ؟ فقلت له : هو من وجه ثالث .

قال فصفه واذكر الحجة فيه ، مايلزم منه ، ومن يلزم ، وعمن يسقط ؟ فقلت له : هذه درجة من العلم ليس تبلغها العامة ، ولم يكلفها كل الخاصة ، ومن احتمل بلوغها من الخاصة فلا يسعهم كلهم كافة أن يعطلوها ، وإذا قام بها من خاصتهم من فيه الكفاية لم يَحْرَجْ غيره ممن تركها ، إن شاء الله ، والفضل فيها لمن قام بها على من عطلها ...)[1] ثم يستشهد الشافعي بقول الله تعالى (وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) التوبة ١٢٢ ثم يقول الشافعي (وغزا رسول الله وغزى معه من أصحابه جماعة وخلف أخرى ، حتى تخلف علي بن أبي طالب في غزوة تبوك ، وأخبرنا الله ان المسلمين لم يكونوا لينفروا كافة (فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ) فأخبر أن النفير على بعضهم دون بعضٍ ، وأن التفقُّه إنما هو على بعضهم دون بعض)[2] ثم يلخص رحمه الله ما سبق ذكره ويخرج بخلاصة وافية وحكم صائب فيقول (وكذلك ماعدا الفرض في عُظْمِ الفرائض التي لايسع جهلها . والله اعلم . وهكذا كل ما كان الفرض فيه مقصوداً به قصد الكفاية فيما ينوبُ ، فإذا قام به من المسلمن من فيه الكفاية خرج من تخلف عنه من المأثم. ولو ضيعوه معاً خفت ان لا يخرج واحد منهم مطيق فيه من المأثم، بل لا أشك إن شاء الله ، لقوله(إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) التوبة ٣٩)[3] وعلى ضوء هذه القاعدة الشاملة الواضحة النابعة من فقه وفهم الامام الشافعي رحمه الله للقرآن والسنة وغاية التشريع الاسلامي ، يمكننا أن نرتب العلوم عامة حسب أهميتها وحاجة المجتمع لها ومدى توفر المختصين بها . وما انتهى إليه الشافعي تابعه فيه الغزالي حيث بدأ في منهجه بتقسيم العلوم إلى قسمين :

(١ــ العلم الذي هو فرض عين . العلم المفروض فرض كفاية)[4] .

ومن العلوم التي تمسك بها الشافعي رحمه الله وأكد على تعلمها علم لسان العرب

---

(١) (٢) (٣) الشافعي ــ الرسالة ــ ص ٣٥٧ الى ص ٣٦٦ باختصار .

(٤) د. محمد جواد رضا ــ الفكر التربوي الاسلامي ــ ص ١٢٠ .

وكان له فيه النصيب الأوفي والقدح المعلى ويقول الامام الشافعي (فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب مابلغه جَهدهُ ، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك. وما إزداد من العلم باللسان ، الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته ، وأنزل به آخرَ كتبه ، كان خيراً له ، كما عليه يتعلم الصلاة والذكر فيها ، ويأتي البيت وما أمر باتيانه ، ويتوجه لما وجه له . ويكون تبعا فيما افترض عليه وندب إليه ، لامتبوعا .)[1] ويعلق العلامة احمد محمد شاكر على تلك الفقرة من كلام الشافعي مشيراً إلى سبق الشافعي واعتباره اللغة من مقومات عزّ الأمة وتقويم شخصيتها واستقلالها فيقول (ويكون في ذلك كله تبعاً لامتبوعاً)[2] فلنقرأ قوله (في هذا معنى سياسي وقومي جليل لأن الأمة التي نزل بلسانها الكتاب الكريم ، يجب عليها ان تعمل على نشر دينها ، ونشر لسانها ، ونشر عاداتها وآدابها بين الامم الأخرى ، وهي تدعوها إلى ما جاء به نبيها من الهدى ودين الحق ، لتجعل من هذه الأمم الاسلامية أمة واحدة ، دينها واحد ، وقبلتها واحدة ، ومقومات شخصيتها واحدة ، ولتكون أمة وسطاً ، ويكونوا شهداء على الناس ، فمن أراد ان يدخل في هذه العصبة الاسلامية فعليه أن يعتقد دينها ، ويتبع شريعتها ، ويهتدى بهديها ويتعلم لغتها ، ويكون في ذلك كله كما قال الشافعي رضي الله عنه تبعاً لا متبوعاً)[3] وبينما يرى الشافعي ان تعلم اللغة العربية والتوسع في علومها والتفنن في آدابها من الأهمية بمكان نجد ابن خلدون يرى أن اللغة العربية وآدابها من العلوم الآلية التي يجب ان لاتتوسع فيها الأنظار ولاتفرع فيها المسائل . ويوافقه هذا الرأى ابن حزم فيرى ان علوم اللغة كالشعر وما جرى مجراه من العلوم التي (لا كبير خير فيها)[5] .

علم الطب من العلوم الانسانية التي لاغنى عنها بحال ولقد جاء الاسلام فأسهم فيها اسهاماً كبيراً ففي نصف آية وضع سبحانه وتعالى اساس الوقاية في قوله (وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟) الاعراف ٣١ .

---

(١) الشافعي ــ الرسالة ص ٤٩ .
(٢) (٣) المرجع السابق .
(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٠٥ .
(٥) ابن حزم ــ الاخلاق والسير ــ ص ٦٨ .

وهذا رسول الله (ﷺ) يضع الاساس الاول لعلم الطب حين يأمر قائلا (ياعباد الله تداووا ، فان الله لم يضع داءاً إلا وضع له دواءاً . غير داء واحد : الهرم)[1] وهذا الحديث يعتبر بحق اعظم قاعدة للاتجاه إلى الطب والعمل على تشخيص الداء والبحث في علاج الامراض واستخراج الأدوية المطلوبة والمناسبة لكل داء كما قال (ﷺ) (لكل داءٍ دواءٌ، فإذا أصيب دواء الداء بريء بإذن الله تعالى)[2] يقول الشافعي في هذا العلم (لست أعلم بعد الحلال والحرام انبل من الطب . إلا ان أهل الكتاب قد سبقونا عليه)[3] والشافعي رضي الله عنه يتحسر على العرب ويتألم لفقدان الطب من بين أيدهم واستئثار اليهود والنصارى به فيقول وكله أسى (ضيعوا ثلث العالم ووكلوه إلى اليهود والنصارى)[4] يعنى علم الطب . ولقد حفظ الشافعي من طب العرب الكثير (ولقيه طلبة الطب في الفسطاط فوجدوا عنده من المعرفة في علومهم ما أطمعهم في أن يخصص لهم وقتا يأخذون فيه عنه علوم الطب ، فأشار إلى الفقهاء وهم واقفون ينتظرونه في ظل الجدار من جامع عمرو بن العاص فقال : وهل ترك هؤلاء من الوقت ما أتفرغ به لكم ؟)[5]

وأخرج أبو نعيم عن طريق ابن حسين البصري : سمعت طبيباً مصرياً يقول : ورد الشافعي مصر فذاكرنى بالطب حتى ظننت أنه لايحسن غيره ... ومن كلام الشافعي في الطب وتحذيره عن بعض ما يصيب الانسان بالتعب واتخاذه المبادرة في تحذير الناس ما (حفظ عنه في منثور كلامه كنهيه عن أكل الباذنجان بالليل وأكل البيض المسلوق بالليل وكان يقول عجبا لمن يتعشى بيضاً وينام كيف يعيش وكان يقول عجبا لمن يخرج من الحمام ولا يأكل كيف يعيش وكان يقول عجباً لمن يحتجم ثم يأكل كيف يعيش يعنى عقب الحجامة وكان يقول احذر ان تشرب لهؤلاء الأطباء دواءا لا تعرفه وكان يقول لاتسكنن ببلدة ليس فيها عالم ينبئك عن دينك ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك وكان يقول لم أر شيئا أنفع للوباء من البنفسج)[6] (وقال الشافعي رحمه الله تعالى : اربعة تقوي البدن أكل اللحم ، وشم الطيب ، وكثرة الغسل من غير جماع ، ولبس الكتان ، وأربعة

---

(١) (٢) ص ج ص ج ٢ ٧٩٣٤ ــ ٥١٦٤ آ

(٣) (٤) الذهبي ــ سير اعلام النبلاء ــ ج ١٠ ص ٥٧ .

(٥) محب الدين الخطيب ــ مع الرعيل الأول ــ ص ٦٤ .

(٦) ابن القيم ــ مفتاح دار السعادة ــ ج٢ ص٢٢٠ .

توهن البدن : كثرة الجماع ، وكثرة الهم ، وكثرة شرب الماء على الريق ، وكثرة الحامض ، وأربعة تقوى البصر : الجلوس تجاه الكعبة ، والكحل عند النوم ، والنظر إلى الخضرة ، **وتنظيف المجلس ..)[1] ومن العجيب أن هذه الآراء مازالت تحتفظ بالكثير** من مصداقيتها الطبية وعلى سبيل المثال ماذكره ابن القيم والسيوطى عن الشافعي قوله (لم أر للوباء أنفع من البنفسج يدهن به ويشرب) وحديثا وبعد معرفة الأجزاء الطبية لهذا النبات والمواد الطبية الفعالة منها تبين أن هذا النبات له عدة استعمالات طبية مفيدة سواء **عبر الدهان والتكميد والغسول أو غبر الشرب بجرعات[2] ...**

من العلوم التي يجب على المعلمين والمربين الاهتمام بها وتنشئة الأجيال عليها علوم الابدان وهو ما يطلق عليه حديثا التربية الرياضية أو التربية البدنية ، ويتردد على الالسنة كثيرا الحكمة القائلة العقل السليم في الجسم السليم . وقد ربى الاسلامي أبناءه على الاهتمام المتواصل بتقوية الابدان وسلامة الاجسام وصلابة البنية . روى مسلم في **كتاب القدر قوله (ﷺ) (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير)[3] (ففي كل مؤمن خير وبركة ، ولكن قوي الجسم والقلب أحب إلى الله لأنه أنشط وأجرأ وأمضى عزماً في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو أكثر عملا وأنفع للعباد)[4] .**

وما الصلاة التي أمر الاسلام بآدائها في أوقات محددة بحركات منضبطه خمس مرات في اليوم إلاتمارين رياضية متكاملة منظمة ، الهدف منها بعد عبادة الله عزوجل تدريب أجساد المسلمين على القيام والقعود والركوع والسجود ، فتحرك الأيدي لأعلى في **الاحرام وانثناء الجذع في الركوع وكذلك في السجود مكرراً ذلك مرات ومرات ، للقيام،** إن ذلك من شأنه اعطاء اعضاء الجسم مرونة وقوة فان تكرار هذه الحركات يعتبر من اعظم انواع الرياضة المقوية للجسم والمانعة له من تصلب الظهر والتواء الاعضاء كما يقول خبراء هذا الاختصاص ... ومن هنا كان أول أمر وجه إلى الرسول (ﷺ) عن طريق الوحي بعد القراءة والتعليم القيام في الليل في صلاة يُربى أصحابها على تحمل الاعباء

---

(١) ابن القيم ــ الطب النبوي ــ ص٤٢٨ .
(٢) انظر مقامات السيوطي ــ تحقيق د. عبدالغفار سليمان البنداري ــ محمد السعيد بن بسيوني ــ ص٩١ الى ص٩٤ .
(٣)(٤) منصور على ناصف ــ التاج الجامع للأصول ــ ج٤ ص٢٧٩ .

الجسام بأجسام قوية (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ المزمل

ولقد كان الرسول (ﷺ) يتخذ من المسجد ميدانا للتدريب والتربية فقد أنزل الأحباش إلى المسجد وقاموا يتدربون في ساحته بالسيوف والدرق وكان يأمر أصحابه أن يتباروا في الرمي فيقول (ارموا بنى إسماعيل فان اباكم كان راميا ..)[1] عن رسول الله (ﷺ) أنه قال (كل شيء ليس من ذكر الله لهو ولعب ، إلا أن يكون أربعة : ملاعبة الرجل امرأته ، وتأديب الرجل فرسه ، ومشى الرجل بين الغرضين ، وتعليم الرجل السباحة)[2] .

وهذا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يقول علموا أبناءكم الرماية والسباحة ومروهم **أن يثبوا على الخيل وثبا. في إحدى الغزوات خرج مع رسول الله (ﷺ) الصحابي رافع بن خديج وكان ضعيف البنية فأجازه (ﷺ) وردَّ غلاماً صغيراً قوياً ، فتألم الغلام وذهب يقص على أبيه ما حدث . وانطلق به والده إلى رسول الله (ﷺ) وقال يارسول الله أترد** ابنى وتقبل رافعا وابنى يصرع رافعا فأمرهما رسول الله (ﷺ) أن يتصارعا فصرع الغلام رافعاً فأجازه الرسول (ﷺ) وقبل خروجه للغزو . أليس في هذا إجازة من رسول الله (ﷺ) للمصارعة الهادفة لتقوية الاجسام للجهاد ؟ ولئن اهتمت مناهج التربية المعاصرة بهذا الفن فان الشافعي ابن المدرسة الاسلامية كان صورة حية ومثلا رائعا للطالب الذي **تمثل هذا سلوكاً واقعياً ، وللمدرس الذي حض تلاميذه بمزيد من الاهتمام والحرص على أن** يتربوا على فنون التربية البدنية . فنشأ رحمه الله في بادية هذيل وشب مع اقرانه على الوان الفروسية واتقان الرماية وهما قمة الفنون التربوية لتنمية الأجساد في هذا العصر ، ولا **عجب فليس (في هذيل الأشاعر ، أورام ، أو شديد العدو)[3] هناك تناسب وتناسق** بين النمو الجسدي وبين النمو العقلى ، وهو ما آمن به الشافعي بالفعل ... ولقد كان الامام الشافعي يقول (ما أفلح سمين) وكان يتعجب من العالم السمين !! لقد كان الشافعي **رحمه الله مغرماً بالتربية الرياضية والتنشئة البدنية إلى حد بعيد ، برز فيها وأجاد فنونها وتفوق**

(١)(٢) ص.ج.ص.ج١ ٩١١ ج٢ ٤٥٣٤ .

(٣) الجاحظ ــ البيان والتبيين ــ ج١ ص١٠٤ .

أيما تفوق ، كان فارساً لايشق له غبار يشار إليه بالبنان ويعرفه أهل ذلك الزمان وكان يأخذ بأذنه وأذن الفرس والفرس تعدو .. أما في الرمي فحدث عنه ولاحرج كان يرمى **من السهام عشراً تصيب كلها يقول الشافعي كانت نهمتي في شيئين ، في الرمي وطلب** العلم ، فنلت من الرمى حتى كنت أصيب من العشرة عشرة .. ولا يكفي الشافعي ان يعرف تلاميذه حبه للرياضة أو ان يحث أصحابه على التفوق فيها وممارستها دائما بل كان يسر جداً ويفرح حين يرى من يهتم بهذه الفنون ويتفوق فيها . في مصر بينما كان الشافعي رحمه الله يسير مع تلميذه المزني يوما (إذ مر بهدف فإذا برجل يرمى بقوس عربية ، وكان حسن الرمى فأصاب سهاما ، قال الشافعي أحسنت وبرك عليه ــ اي قال له بارك الله عليك ــ ثم قال لتلميذه المزنى : ما معك ؟ قال ثلاثة دنانير . قال اعطه إياها **واعذرني إذ لم يحضرني غيرها**)[1] .

اي ذوق رياضي ذلك الذي يبلغ به من الاعتزاز بالرياضة الى ان يعطي جائزة لهذا الرجل الذي يراه مصادفة لأول مرة ثم يعتذر أن ليس معه إلا هذه الدنانير الثلاثة . لقد كان يريد أن يعطي الرجل جائزة كبيرة . ان هذا الموقف ان دل على شيء فانما يدل على حبه للرياضة البدنية والتدريب على فنون القتال فانها مفيدة للجسم والذهن معاً ، ففيها تجتمع قوة التركيز مع قوة الساعد في الرمى . وفي تشجيعه على الفروسية وركوب الخيل كان يدرب ابنه محمداً بنفسه فيقول له اركب دابتى فيركبها فيقول له اقبل وأدبر فيفعل . فيقول (انى أراك عليها ليقا . خذها فهي لك)[2]

في الهواء الطلق يمتحن الامام الشافعي ابنه كيف يمسك بزمام فرسه وينطلق بها وهو يحكم قيادتها ويختبره كيف يفربها ويكر ويصول ويجول ، وقد إنعقد فوق رأسه نقع الغبار ولاغرو ان هذا الشبل من ذاك الاسد ومن شابه اباه فما ظلم . أوليس هو ابن الشافعي ؟ أو ليس هو نتاج تربية ذلك المربي الكبير الذي أغرم بالرياضية كما يقول هو عن نفسه .. وعاش طول حياته وهو مثل فذيهتم بتربية الجسم ويعرف فضل ذلك على النشاط العقلي ... وشتان بين هذا الذي أشرف بنفسه على تعليم تلاميذه بفعله وقوله

---

(١) عبدالحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص ٤٣ .

(٢) عبدالحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص ٤٣ .

وبين رواد التربية الغربيين وغيرهم الذين كان حظهم منها ان كتبوا سطورا واشارات عابرة عنها . من جانب آخر (هل رأيت من علماء الشريعة الاسلامية من يدخل في ميادين السباق : سباق العدو ، أو سباق الخيل ، أو السيارات والطائرات ؟ حتى الأعمال الحرة كالنجارة والحياكة والبناء . يرى بعض العلماء في تعاطيها حطا من قدرهم بين الناس ، حتى أصبح أكثر العلماء إلا من رحم الله يتصفون بصفة معينة وهيئة معينة ولبسة معينة يعجب الناس اشد العجب إذا رأوا العالم خرج عن ذلك السمت التقليدي الذي ألفوه ! ألا نجد في سيرة الرسول (ﷺ) أنه سابق اعرابيا على ناقته القصواء فسبقه الاعرابي ؟ ألم يأمر الرسول (ﷺ) الجيش ان يتقدمه ثم سابق عائشة زوجته في غزوتين ، **مرة سبقته ومرة سبقها ؟ وها نحن نرى صحابيين يتسابقان في سباق يعتبر من سباق المسافات الطويلة بإذن الرسول (ﷺ) وذلك في مرجعهم من غزوة الغابة ..**)[1] .

إن الشافعي يرى في مزاولة الرياضة وتكوين الناشئة بالتربية البدنية وسيلة لا غاية .. فالرياضة لا تزاول لنفسها كما يفعل في أجيالنا هذه ، ولكنها تزاول أولا لتكوين الجسم السليم وصولا الى الفكر الناضج السليم .

وثانيا هي مرحلة تأتي بعدها مرحلة مستقبلية ألا وهي التربية العسكرية وهي تركز على الرماية والفروسية لأنهما أساس الفنون العسكرية وذلك يؤدي إلى هدف هذه الأمة فهي أمة لها هدف وغاية ومناط بها حمل رسالة هي رسالة الاسلام العالمية يقول الشافعي رحمه الله .. اللعب (ليس من صنعة أهل الدين ولا المروءة)[2] .

والشافعي يحترم العقل الانساني ويترفع به أن يضيع في دراسة علوم وهمية ومعارف خرافية ، ويسفه العلوم التي تدعي الغيب والتنجيم كما آمن ارسطو فقال (ان النجوم مساكن للالهة وانها تعرف الغيب)[3] وحين رد ابن حزم على القدماء هذا الزعم وهو الذي انكب على الفقه الشافعي وتتلمذ عليه فإنما كان يوضح رأي استاذه ومعلمه الامام

---

(١) د. عمر سليمان الأشقر ــ مواقف ذات عبر ــ ص١٣٤ ــ ١٣٥ .
(٢) الشافعي ــ الأم ــ ج٢ ، ص٢٠٨ .
(٣) انور الجندي ــ الفكر الغربي ــ ص٧٢ .

الشافعي الذي رد عليهم بعنف أشد حين قال :

خبرا عنـــــي المنجـــــم أني كافـــر بالـــذي قضتـــه الكـــواكب

عالـــمٌ أن ما يكـــون ومـــا كان قضاء من المهيمـــــن واجب[٢٥]

يقول ابن حزم (ان النجوم أجسام حجرية وأنها لا نفوس لها تحى ولا عقول لها تفكر وهي لا تعلم الغيب)[١] .

وقيل أن هارون الرشيد سأل الامام الشافعي عن علمه بالنجوم فقال اني لأعرف منها البري ، والبحري ، والسهلي والجبلي ، والفيلق والمصبح ، وما تجب معرفته .. والسبب في وضوح فكرة الامام الشافعي عن علم التنجيم توضحه الباحثة الالمانية زيغرد هونكه وذلك في معرض حديثها عن هذا العلم عموما فتقول (وعلى هذا فإن دراسة علم **التنجيم قد صارت حاجة ضرورية بعد الاسلام . لأن الله تعالى هو الذي أوحى إلى الأنام** بتأمل السماء . فباسمه درست حركات النجوم والأفلاك وباسمه أيضا كانت فاتحة المخطوطات العلمية جميعا . وهذا لعمري ، هو ما تمتع به العربي دون غيره ، قبل أن تعرفه المسيحية الغربية . وقد كانت ثقافتهم العلمية الوافرة سببا من الأسباب التي حفظتهم من الوقوع في مستنقع الشعوذات الباطلة . لهذا كله ، فإنه لم يكن لعلم التنجيم عند العربي الواقعي النزعة أي معنى سحري خطير ، كما أن هذا العلم ما كان ليمنح العرب قوى سحرية خارقة ، على حد زعم الأوروبيين الذين كانوا ينسبون ـــ خطأ ـــ الى **مخطوطاتهم ما ليس فيها ، وقد ركبهم الذعر ، واعتصم الخوف في قلوبهم ..)**[٢] **وهي تضيف في موضع آخر (لا جرم أن علم التنجيم قد وصل ، بفضل إلتفات العرب إليه ، الى عصره الذهبي ، في وقت كان فيه علم الفلك يحبو كالطفل على الأرض ، ويخطو خطواته الأولى)**[٣] .

كان الشافعي رحمه الله نسابه واسع المعرفة بعلم الانساب وكان خليقا به ذلك أنه **عاش في عصر كانت القبائل تعتز فيه بأنسابها وتحفظ هذه الأنساب أبناءها وقد اشتهر من** العرب الكثير ممن لهم باع واسع في هذا العلم كان منهم الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه .. ومنهم الخليفة الثاني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولقد

---

(١) انور الجندي ـــ الفكر الغربي ـــ ص٧٢ .

(٢)(٣) شمس العرب تسطع على الغرب ـــ ص١٦٧ ، ص١٦٩ .

اوصى ابنه عبدالرحمن قائلا له يابني : (انسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك .. فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه ، ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقاً ولم يغترف أدباً)[1] .

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال : (تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإن صلة الرحم محبة في الأهل ، مثراة في المال ، منسأة في الأثر)[2] .

ذكروا أن أحد علماء الانساب في العراق تحدث مع الشافعي في هذا العلم (فوجده من كبار العلماء فيه ، فلما طال بينهما الحديث قال له الشافعي : مثلي ومثلك لا يليق بهما أن يتحدثا في انساب الرجال من قبل آبائهم ، فتعال نتحدث عن انسابهم من قبل أمهاتهم)[3] ولا يخفى أن الإلمام أو المعرفة بهذا النوع من العلم ولو بمقدار بسيط من شأنه أن يعطي الفرد وخاصة المعلم فرصة لتكوين علاقات اجتماعية قوية ومتينة بينه وبين الناس عامة وبين طلابه وذويهم خاصة ، مما ينعكس أثره الايجابي على العملية التعليمية وسيرها حيث يصبح المعلم فيها مرتبطا بشبكة من العلاقات الاجتماعية المتفاعلة في متابعة الحركة التعليمية بجميع عناصرها ..

والشافعي يرى عدم اقتصار الطالب على علم واحد فالعلوم يخدم بعضها بعضا ويتمم بعضها بعضا ، والاقتصار على علم واحد له مضاره فهو يحث من أراد تعلم الفقه مثلاً أن يقرنه بالتصوف الصحيح وينوه إلى أن الفقه والتصوف متلازمان فيقول :

فقيها وصوفيا فكن ليس واحدا ... فاني وحق الله إياك أنصح
فذلك قاس ، لم يذق قلبه تقى ... وهذا جهول ، كيف ذو الجهل يصلح[4]

فالفقيه يلقي ضوءا في القضية ويعطيها حكمها الفقهي أما الصوفي فيرطب العاطفة الدينية ويرققها برشحات من الخوف من الله وتقواه والتقرب إليه فكلاهما يكمل الاخر ، ولا غرو أن يبين الشافعي لنا بأنه يؤمن بأن تعدد الروافد لتكوين الثقافة أمر ضروري لابد منه فهو يقول (من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر في الفقه نبل قدره ، ومن نظر في اللغة رق طبعه ، ومن نظر في

---

(١) د. سهام الفريح ــ الوصايا في الأدب العربي القديم ــ ص٦٦ .
(٢) ص. ج. ص. ــ ج١/ ٢٩٦٥ .
(٣) محب الدين الخطيب ــ مع الرعيل الأول ــ ص٦٤ .

الحساب جزل رأيه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه)[1] بهذا المنهج الشامل يصور الامام الشافعي رحمه الله كيف تربى المدارك والملكات ويكّونُ الفرد والمجتمع المتكامل ثقافياً وعلميا . لقد كان رحمه الله موسوعة علمية متنقلة حوى كل علوم عصره ولم يقتصر على علم معين أو تخصص بذاته حتى قال معاصروه (كان الشافعي إذا أخذ في العربية قلت هو بهذا أعلم وإذا تكلم في الشعر وانشاده ، قلت هو بهذا اعلم وإذا تكلم في الفقه قلت هو بهذا أعلم ..)[2] .

ولاعجب حينئذ ان يبكر في صبيحة كل يوم من قبل الفجر إلى الظهر وهو غارق بتدريس العلوم والفنون لأهل زمانه ، فكان كما قال شوقي :

فخذ سُبلا إلى العلياء شتى وخلِّ دليلك الدين القويما
وضنَّ به ، فإن الخير فيه وخُذهُ من الكتاب وما يليه
ولا تأخذه من شفتي فقيه ولا تهجر مع الدين العلوما[3]

وهنا يجب التنوية على ان تصنيف العلوم على هذا النحو ، فقه وتصوف وشعر وطب وحديث وحساب .. إنما هو تصنيف وضعناه بقصد غرض البحث بحيث لايمس فكر الشافعي من قريب أو من بعيد ، فقد كان رحمه الله عالما وأديبا وشاعراً ومفسراً أوفقيها و ... وكان موسوعة علمية متكاملة لعلوم أهل زمانه ، فكل العلوم التي ينتفع بها البشر توفر على دراستها واستيعابها لأنه يعتبر دراستها عبادة تقربه من ربه وتسعد الفرد والجماعة والأمة ... ويمكن أن نستخلص من فكر الشافعي ما يلي :

ان كل علم يزيد القلب هدى ويزيد سيرة الفتى عدلا وأخلاقة حسنا هو علم نافع ينبغي طلبه والسعي إليه وكلما تعددت تلك العلوم كلما هذبت أكثر من ملكة وإدراك عند المتعلم وكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ارووا من الشعر أعفه ، ومن الحديث أحسنه ، ومن النسب ما تواصلون عليه وتعرفونه به ، فرب رحم مجهولة قد عرفت فوصلت ، ومحاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق وتنهى عن

---

(١) د. أحمد الشرباصي ــ الأئمة الأربعة ــ ص١٢٧ .
(٢) ياقوت الحموي ــ معجم الأدباء ــ ج١٧ ص٣٠٠ .
(٣) الشوقيات ــ ج٤ ، ص٣١ .

مساويها)[1] هكذا عرف عمالقة وعباقرة هذه الأمة أهمية معيار قياس كل علم وأثره على التعلم ، وهو ما يوجزه الفقيه الشافعي ابن حزم الأندلسي حيث يقول (أجلّ العلوم ما قربك من خالقك تعالى ، وما أعانك على الوصول إلى رضاه)[1] .

(١) د. سهام الفريح ــ الوصايا في الأدب العربي القديم ــ ص٦٦ .
(٢) ابن حزم ــ الأخلاق والسير ــ ص٢٢ .

(المنهـــج العلمـــي فـــي التفكيـــر)

(عـــوائـــق التفكيـــر)

نظراً لاتساع رحاب العلم وشمول دائرته بكل ما هو معلوم فان على العالم والمتعلم تحديد المراد تعلمه وتنظيم المعلومات التي يريد الحصول عليها ودراستها وذلك باتباع منهاج واضح يوضح بعناية فائقة قضاياها ، ويحدد معالمها بدقة فيكون الطريق السليم للتفكير الموحد المنظم في علم بعينه وذلك كله من أجل الوصول إلى لب الحقائق وجوهر القضايا وتحديد المشكلات التي تواجه العالم والدارس لامكان التغلب عليها وذلك توقيا من الوقوع في الخطأ وحماية من التردي في الزلل وأمنا من الخروج من وحدة الموضوع واختلاط المعلومات وتركيزا واعيا على مواطن البحث والنظر . ولاشك في ان مشكلات الحياة عديدة وهي تشغل الناس وتؤرق البشرية توقعها في الحيرة وتدفعها إلى التفكير في حلول راشدة لهذه المشكلات ولاسبيل إلى ذلك إلا إذا استمسك الباحث بمنهج سليم يوضح المشكلة ويبين أبعادها ويمكن من النظر فيها ثم يقدم الحلول والعلاج ونمط التفكير وكيفيته يحددان مدي تكيف الفرد مع معطيات ومجريات الأحداث اليومية في حياته وحياة الأخرين وتبين موقفه تجاه هذه المشكلات ، والأزمات والقضايا المستجدة على ساحة الفكر .

وقبل الخوض في مقدمات المنهج العلمي وأركانه ونتائجه ينبغي التطرق باهتمام بالغ إلى أن هناك عوائق تعترض التفكير العلمي الصحيح ، وهي عوائق تجعل المتعلم يشاهد القضية في ظل جو ضبابي يمنع من وضوح الصورة . وكم عانت الانسانية من تلك العوائق ولازالت حتى اليوم تعاني منها في مجال التفكير . ومن أهم تلك العوائق الايمان بالفكر الاسطوري أو الفكر الخرافي الذي ليس له من الواقع أدنى نصيب وكذلك الالتزام بالأفكار الذائعة والمشهورة دون بحث أو تمحيص . وكم يتسرب الى تلك الأفكار من خرافات وأوهام .. فهي تروى عن أصحابها بشيء من الثقة في حين أن من آفاتها

جنوح الخيال وتلذذ الرواة بصنع البطولة وقد قيل « وما آفة الأخبار الا رواتها » والتسليم المطلق لتراث الآباء والأجداد ، ومن شأنه أن يفضي الى التقليد الأعمى وتسفيه كل فكر يدعو الى الاجتهاد والتجديد .

ولعل أخطر هذه العوائق هو تقديس آراء بعض الأشخاص من غير المعصومين والتسليم بها دون نقد أو مناقشة أو تمحيص . والايمان بالصدفة وعدم البحث في الأسباب الظاهرة التي تؤدي الى يقين واقعي وعدم الايمان بقدرة العقل البشري على الابتكار والابداع . والمتتبع لتاريخ المجتمعات البشرية يرى أن أغلب تلك العوائق المذكورة كانت هي العلل والأمراض التي أصابت تلك المجتمعات فجعلت منها شعوبا عديدة تعيش في ظلام الجهل وذل العجز لعدة قرون .

ولا عجب أن نجد عالما كالامام الشافعي يشخص بثاقب فكره وواسع علمه وصادق تجربته بالتعليم والتعليل هذه العلل فيهاجم الفكر الاسطوري الخرافي الذي يتبع الأوهام ويشذ عن الحقائق ويطلق العنان للخيال الكاذب ويحرم التفكير من التأمل الصادق ويؤمن بالخرافة كمنهج للبحث والتحليل فيقول الشافعي رضي الله عنه :

خبرا عني المنجم أني ... كافر بالذي قضته الكواكب
عالمٌ أن ما يكون وما كان ... قضاء من المهيمن واجب[٢٥]

وشتان بين الفكر المتطور المبدع والحر المتفتح الذي صنعه الاسلام بناء على إيمانه بالعقل وتربيته على البحث والفكر مما أوجد بيئة متنورة وبين ما عاشت عليه اوروبا في العصور الاسلامية الأولى . ان الفرق يظهر جليا حينما نرى معاصر الامام الشافعي أمير المؤمنين هارون الرشيد الذي فتحت في عهده وعهد اسلافه ابواب العلوم والثقافة على مصاريعها والذي كان مع هذا يحج عاما ويجاهد في سبيل الله عاما وكان مما قيل فيه .. قول ابي المعالي الكلابي :

فمن يطلب لقاءك أو يرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طمر ... وفي أرض الترفه فوق كور
وما حاز الثغور سواك خلق ... من المتخلفين على الأمور[١]

---

(١) ابن كثير ــ البداية والنهاية ــ ج١٠ ص٢٠٣ .

أهدى أمير المؤمنين هارون الرشيد رحمه الله الى ملك الفرنجة الامبراطور « شارلمان » ساعة دقاقة تدار بالماء فلما وضعت في قصره وسمع دقاتها فزع وظن أن بها جنا . فانظر الى ثمرة هذه القصة التي تبين مدى التقدم العلمي لدى المسلمين مقارنا بعهد التخلف والظلام لدى الفرنجة حتى فزع امبراطورهم من هذا الاختراع النافع وهذا يدل على السبق العلمي للمسلمين والذي تتلمذ عليه علماء الغرب حتى برزوا وتقدموا .

وبنظرة يسيرة نرى مدى الفارق الشاسع بين عمل العقل في ميدان الابتكار والتجديد وبقائه رهن الفكر الاسطوري الخيالي. لقد خلق الانسان في أحسن تقويم وفضله الله على جميع خلقه ، بهذا العقل المفكر المدبر المبتكر المبدع وجعل هذا العقل طريقا لعمارة الكون بالتفكير الدائم كيف يديره كما أمر الله وكيف يستغله في استعمار الحياة فيخرج كنوزها وذخائرها ويبني ويزرع ويستثمر أديمها وإن عليه أن يحترم هذا العقل فيرتفع به على أن يسلم بكل ما يأتيه ، أو يعتقد بتلك الأفكار الموروثة والمنتشرة بين الناس فإنه من طبيعة النفس أنها تميل الى ما ألفته وما تعودت العيش معه صحيحا كان أو غيره والله تعالى يقول : (وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) المؤمنون ٧٠ ــ ٧١ والناس ليسوا ميزانا للحق والصواب أو محكا لمعرفة الخير والشر فإن مناط ذلك كله راجع الى الحق الذي أودعه الله في الانسان باستعمال عقله وبالرجوع إلى قوانين الله عزوجل أما اتباع الناس بدون إعمال للفكر فهو إلغاء للعقل وكفر بهذه النعمة التي أنعم الله بها على هذه البشرية وصدق الله العظيم (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾) النحل والانسان السوي لا يترك زمام أمره وخير دنياه وآخرته بيد غيره ، والشافعي رضي الله عنه يقول :

ولست بإمعـــــة في الرجـــــال أسائـــــل هذا وذا ما الخبر ؟
ولكنـــــي مدره الأصغريـــــن جلاب خير وفـــــراج شر[٤٩]

والحق لا يعرف بالكثرة أبدا ، يرى الشافعي أن حديث الرسول ﷺ إنما (يثبت بنفسه لا بعمل غيره من بعده)[١] وهذا يعني (وجوب العمل بالحديث الصحيح وإن لم يعمل به أحد)[٢] .

---

(١)(٢) الألباني ــ تمام المنة في التعليق على فقه السنة ــ ص٤٠ــ٤١ أيضا ص١٠٤ .

إن الشافعي رحمه الله في احترامه للعقل واعتزازه لحريته في البحث والنظر يحذر تلاميذه من التقليد الأعمى الذي لا يستند إلى حجة ولا يسعفه دليل أو يقبله عقل فإن في ذلك حجب لنعمة العقل وضياع لعبادة التفكير ولقد عهد الشافعي إلى أصحابه وتلاميذه أن لا يقلدوه أو يقلدوا غيره ممن يصيبون كما يخطئون فالعصمة للانبياء وحدهم من دون البشر .

عندما أردا المزنى تلميذ الشافعي كتابة مختصر لكتاب استاذه الشافعي (الأم) قال في المقدمة(اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن ادريس الشافعي مع اعلامية نهيه عن تقليده وتقليد غيره)[1] وكان الشافعي رحمه الله يقول لتلاميذه (كل ما قلت لكم فلم تشهد عليه عقولكم وتقبله ... فلا تقبلوه فإن العقل مضطر إلى قبول الحق)[2] والناظر في كتب الشافعي كلها يجد أنه كان دائما يقرن كلامه بالدليل ... إما آية قرآنية .. أو حديث نبوى أو بيت أو ابيات من الشعر أو الآثار الأخرى ... كما كان رحمه الله يوصى طلبته في نصائحه الطبية فيقول (احذر ان تشرب لهؤلاء الأطباء دواءاً لا تعرفه)[3] إن داء التلقيد داء عضال وغالبا لاينجو منه إلا من عصم الله ولذلك يكثر التحذير منه والتنفير من نتائجه ومن العجب أنه برغم تحذير الامام الشافعي رحمه الله منه وتنبيه تلاميذه بالابتعاد عنه ، إلا أنهم وقعوا فيه تحت تأثير نظرة الثقة التامة في استاذهم الشافعي فقد ذكر العلامة محمد أحمد شاكر ان الامام الشافعي رحمه الله أخطأ في تلاوة آية كما أخطأ في وجهة الاستدلال بها وبرغم تداول الكتاب بين أيدي العلماء والقراء طوال هذه القرون لم يقف أحد منهم على هذا الخطأ . وذلك بسبب تقليدهم وتقديرهم لاستاذهم وثقتهم المطلقة فيه .[4] .

ذلك ان هذا البلاء بلاء التقليد الأعمى يصيب العلماء قبل الجهال وإذا كنا على ابواب القرن العشرين والدعوة إلى الاستقلال الفكرى والتحرر العقلي في كل مكان ،

---

(١) مختصر المزنى ص ١ .
(٢)الرازي ــ آداب الشافعي ومناقبه ــ ص ٩٢ باختصار .
(٣) ابن القيم ــ مفتاح دار السعادة ــ ج٢ ص ٢٢٠ .
(٤) انظر الرسالة للشافعي تحقيق أحمد محمد شاكر ص ٧٣ .

فإنه لمما يدعو للاسف والحسرة أننا نجد الانبهار القوى والتقليد الأعمى لحضارة الغرب إجتاحت فعمت كل طبقات المتعلمين والمثقفين ولم ينجو منها إلا القليل لقد أصبح ديدن الجيل وصار ظاهرة خطيرة ربت في اعماق الناشئة الانهزام الداخلي والاحساس بالتبعية وأطلقوا عليه التغريب تارة والتحديث أو التقدمية أخرى .. وذلك راجع إلى الافتتان المشوش والاتجاه الأعمى وعلى حد تعبير العلامة ابن خلدون (المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب) .

وياليت شعرى ماذا دهى المثقفين والمفكرين وفيهم من ينظر إليهم نظرة التفوق والقيادة في العلم كأساتذة الجامعات وعمالقة الكتاب ... حتى أصبحوا مولعين ومغرمين بكل ما يأتي (به الشرق أو الغرب مادام ممهوراً بخاتم التقدم ولو كان تقدما في طريق الرذيلة ، أو خاتم التحلل ولو كان تحللا من الفضيلة)[1] وما أروع الشافعي حين يوصي تلاميذه في هذا المعنى ويُوصى أصحابه بإتباع الحق وقبول السنة ، إذا ظهرت على خلاف قوله وأن يضرب بقوله حينئذ عرض الحائط ، وكان يقول في كتبه (لابد أن يوجد فيها ما يخالف الكتاب والسنة لأن الله تعالى يقول (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾) النساء [2] .

فوالله إنا قد وجدنا في عصرنا هذا من يروج لكتابه بكل الوسائل فلله در الامام الشافعي وهو من هو فيحذر مما كتبه وسطره !! وما أعظمه حين يمجد الحق على أي لسان ظهر ولو كان لسان خصمه فيقول رحمه الله (ما ناظرنى أحد فباليتُ أظهرت الحجة على لسانه أو على لساني)[3] فأي شيء أبلغ وأوقع في النفس من هذا القول العظيم ... نعم إن الحق أولى بالاتباع . لقد كان الشافعي رحمه الله دائم التحذير لاتباعه من الطلاب أن يلتفتوا إلى كلام الناس فيقول لهم : (احرص على ماينفعك ودع كلام الناس فانه لاسبيل من ألسنة العامة)[4] .

---

(١) د. محمد حسن هيتو ــ الدين والعلم ــ ص ٣ .

(٢) ابن رجب الحنبلي ــ الفرق بين النصحية والتعيير ص ٩ .

(٣) قال الامام المزني : قرأت كتاب الرسالة على الشافعي ثمانين مرة فما من مرة إلا وكان يقف على خطأ فقال الشافعي : هيه أبى الله أن يكون كتابا صحيحا غير كتابه .

(٤) ابن عبدربه ــ العقد الفريد ــ ج٣ ص٢٧ .

نعم لقد كان رحمه الله حربا على التقليد وأهله بقدر ما كان رائدا في الاجتهاد والتجديد ولقد وضع بسبق وجداره أسس وأصول الاجتهاد الصحيح . حين حدد الامام الشافعي بتجربته الثرية في ميدان التربية والتعليم عوائق التفكير العلمي نجده يضيف إليها عائقا خطيرا ذلك هو التأثر بالهوى ويبين دور هذا الهوى في عرقلة المسيرة العلمية والبحث الصحيح والتفكير السليم إذ أنه داء فتاك خطير ولاحساس الجميع بخطورته كثر الكلام فيه والتحذير منه قال الشاعر :

ياعاقـــلا أردى الهوى عقلـــه مالك قد سدت عليك الأمور
أتجعـــل العقـــل اسير الهوى وانما العقـــل عليـــه أمير

وقال آخر :

إذا كنت تبغـــي الـــرشاد محضا في أمـــر دنيـــاك والمعـــاد
فخالـــف النـــفس في هواهـــا إن الهوى جامـــع الـــفساد[1]

وقال آخر :

ندمت على ما كان منـــي ندامـــة ومن يتبـــع ما تشتهي النـــفس ينـــدم[2]

وقال أمير الشعراء :

واعص في أكثر ما تأتي الهوى كم مطيـــع لهوى النـــفس هوى[3]

وانظر الى عاقبة الهوى في قوله عزوجل (يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾) ص . وفي سنن الدارمي عن مجاهد أنه قال :

(ماأدري اي النعمتين علي أعظم أن هداني للاسلام أو عافاني من هذه الأهواء)[4]

وانك لواجد آثار هذه التوجيهات العلمية في آثار الامام الشافعي فيقول :

خف الله وارجـــوه لكـــل عظيمـــة ولا تطـع النـــفس اللجـــوج فتندمـــا[5]

وانظر في اعجاب كيف يعمل الامام الشافعي رحمه الله على تجنب الهوى وإيثار الحق

---

(١)(٢) ابن كثير ــ البداية والنهاية ج١٠ ص١٤٤ .
(٣) الشوقيات ــ ج٤ ص٣٨ .
(٤) سنن الدارمي ج١ ص٩٢ .
(٥) ديوان الامام الشافعي ــ نعيم زرزور ص٩٧ .

عليه حتى في نظره في الجزية على أهل الكتاب من العرب فأبو يوسف تلميذ الامام أبو حنيفة يرى أن لا تجب الجزية على العربي من أهل الكتاب فإن في ذلك صغار على العربي وهوان له أما الشافعي فيترك هذا الرأي ويجيز غيره وصولا الى الحق الخالص من الهوى ويؤيد رأيه فيقول : (إنما الجزية على الأديان لا على الانسان ولولا أن نأثم بتمني الباطل وددنا أن الذي قال أبو يوسف كما قال وأن لا يجرى صغار على عربي ولكن الله عز وجل أجل في أعيننا من أن نحب غير ماقضى به والله أعلم)[1] .

ونظرا لما للحالة النفسية من أثر على التفكير واصدار الاحكام يوصي الشافعي زوجته أن لا تحدثه في حالة الغضب فيقول :

خذي العفو منـــي ، تستـــديمي مودتي ولا تنطقـــــي في سورتي حين أغضب[2]

ولقد توسع الشافعي رحمه الله في ذكر الآثار الخارجية على الفهم وصحة التفكير ودقة الحكم فيقول في كتابه الأم (حديث رسول الله ﷺ يدل على أن لا يقضي الرجل وهو غضبان وكان معقولا في الغضب تغير العقل والفهم فأي حال جاءت عليه يعلم هو من نفسه تغير عقله أو فهمه امتنع من القضاء فيها فإن كان إذا اشتكى أو جاع أو اهتم أو حزن أو بطر فرحا تغير لذلك فهمه أو خلقه لم أحب له أن يقضي وإن كان ذلك لا يغير عقله ولا فهمه ولا خلقه قضى فأما النعاس فيغمر القلب شبيها بغمر الغشى فلا يقضي ناعسا ولا مغمور القلب من هم أو وجع يغمر قلبه .. وأكره للقاضي الشراء والبيع والنظر في النفقة على أهله وفي ضيعته لأن هذا أشغل لفهمه من كثير من الغضب وجماع ما يشغل فكره يكره له وهو في مجلس الحكم أكره له . ولو اشترى أو باع لم انقض البيع والشراء لأنه ليس بمحرم وإنما كره لئلا يشغل فهمه)[3] ومن خوفه من تأثير الحاجة والضغوط الاقتصادية على سلامة الحكم يقول الشافعي رحمه الله (لا تشاور من ليس في بيته دقيق فإنه مُدَلِّهُ العقل)[4] .

---

(١) الشافعي ــ الأم ــ ج٧ ص٣٦٩ .
(٢) حكمت صالح ــ دراسة فنية في شعر الشافعي ص٨٩ .
(٣) الشافعي ــ الأم ــ ج٦ ص١٩٩ .
(٤) مناقب الشافعي ــ البيهقي ج٢ ص٢١٣ .

ما سبق ان تتبعناه وحللناه وصنفناه من عوائق التفكير العلمي ومثبطاته تمشيا مع منهجنا الذي ذكرناه في المقدمة من تتبع كل ما له صلة وثيقة ببحثنا من نظريات الامام الشافعي سواء نص عليها شعرا ونثرا أو استنتاجا من كتبه وآثاره ، نجد الامام الشافعي رحمه الله قد استنبط واستمد كل حقائقه العلمية من القرآن الكريم وتوجيهاته فالله عز وجل حين يذم الكافرين وينكر عليهم التقليد الأعمى للآباء وإهدار العقل وعدم التفكير في الوصول الى الهدى المطلوب منهم يقول سبحانه (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) البقرة ١٧٠ وعن الهوى وكيف أن في اتباعه الضياع وفي مخالفته الهدى والفلاح يقول الله سبحانه (فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾) النازعات

أما الصنف الأول فإنهم قد عطلوا حواسهم عن العمل ومن ثم ازدروا بعقولهم وصدق الله (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾) البقرة أما الذي اتبع هواه وانجرف معه فقد ضل وظلم نفسه (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾) القصص

ومن طبيعة النفس البشرية اتباع الظن والميل إلى هوى النفس والله العليم الخبير يسجل ذلك فيقول (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾) النجم ٢٣ وما أصدق الحكم الصادر عن حقيقة مدعومة بالدليل الواضح والبرهان الصادق (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ) الانبياء ٢٤ .

٧٨

المنهج الصحيح للتفكير

وإذا تحرر العقل من تلك العوائق الهوى ، التقليد ، الظن ... تصبح الرؤية واضحه والطريق في مراحل البحث والتعليم ميسوره . فإن التمهيد لانطلاق العقل في ميدانه وتهيئة المناخ العلمي له لحمايته من الوقوع في تلك الأخطاء والعوائق يوطيء إلى السير في منهج سليم ويوصل في النهاية الى ثمار علمية قيمة .

ووسائل إكتساب المعرفة وأدوات التحصيل العلمي هي الحواس من السمع والبصر واللمس والشم والفؤاد ثم اجتماع الاخبار وتظاهرها على مايمكن رؤيته أو سماعه . من هنا يحدد الامام الشافعي إكتساب المعرفة ويبين أنها تأتى من وجوه ثلاث اعتمادا منه على قوله تعالى (إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا) الاسراء ٣٦

وقوله عزوجل (إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾)الزخرف واستدلالا بقول الله عزوجل على لسان اخوة يوسف عليه السلام (ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾) يوسف يقول الامام الشافعي بعد ذلك (ولايسع شاهدا أن يشهد إلا بما علم والعلم من ثلاثة وجوه منها ماعاينه الشاهد فيشهد بالمعاينة ، ومنها ما سمعه فيشهد ما أثبت سمعا من المشهود عليه ، ومنها ما تظاهرت به الاخبار مما لايمكن في أكثره العيان وتثبت معرفته في القلوب فيشهد عليه بهذا الوجه ...)[1] هذه هي قنوات وأدوات المعرفة والتي توصل إلى اليقين ، لا يأخذ بكلام الناس ولا يميل إلى الهوى أو جموع الناس ويبتعد عن التقليد الاعمي وموروث الأجيال إنما ينطلق مما عرفه وعاينه ، أو سمعه واختبره فان العلم أمانة ومن هنا يقول الشافعي رحمه الله (فالواجب عل العالمين أن لايقولوا إلا من حيث علموا)[2] أما الظن والهوى وغيرها فهي آفات لا تفيد العلم ولا تغني عن الحق شيئاً بل هي تعيق التفكير

---

(١) الشافعي ــ الأم ــ ج٧ ص ٩٠ .
(٢) الشافعي ــ الرسالة ص ٤١ .

الموضوعي يقول الشافعي (أما بعضهم فقد أكثر من التقليد والتخفيف من النظر والغفلة والاستعجال والرياسة ....)[1] **والإمام الشافعي يبين أن النظر والتدقيق أساس المنهج الصحيح في التفكير والبحث فيقول :**

إذا المشكـــــلات تصديـــــن لي كشفت حقائقهـــــا بالنظـــــر[48]

ويقول القزويني عن النظر والاستدلال واهميتهما الكبرى في الوصول الى العلم اليقيني (اعلم ان النظر قانون الاستدلال في الأمور ، وحاكم العدل ، وقاضي الصدق ، ومعيار الشريعة ، ومحك الحق والباطل ، وبريد المعرفة وسلطان الحقيقة ، وبرهان الشريعة ... فالنظر رأس السعادة عند أهل الدنيا والدين ، وقاعدة الأمور وأساس التدابير ، وصحة الاعتقاد ، وخلاصة التوحيد ، في ناحية النظر . كما أن أساس الكفر والشرك في ناحية التقليد)[2] **ويقول أيضا في حقيقة النظر (حقيقة النظر هو الفكر في حال المنظور فيه لمعرفة حكمه ، وقيل هو فكر القلب في شاهد يدل على غائب ...)**[3] .

إن القرآن الكريم وهو كتاب العلم الصادق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يحفز الانسان حفزاً ويثير فيه أشواق النظر والبحث والإعتبار ويحثه بقوة إلى التأمل وإعمال العقل في كل ما تقع عليه عينه وكل مايحيط به في الأرض أو في السماء وانظر إلى الاستفهام الدافع للهمم والباعث للعزائم وقد فتحت أمامها أبواب العلم على مصاريعها **كي تنطلق في هذا الميدان بدون أن تعرف له حدوداً أو قيوداً** (أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ) الاعراف ١٨٥ (سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ) فصلت ٥٣ (أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾) ق (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾) الغاشية بل إن القرآن الكريم يأمر أتباعه بالنظر والاعتبار أمرا يقتضي وجوب البحث فيقول (قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ) النعكبوت ٢٠

---

(١) الشافعي ــ الأم ــ ج٧ ــ ص٢٧٣ .

(٢)(٣) القزويني ــ مفيد العلوم ومبيد الهموم ــ ص١٩ ، ٢٠ .

(فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨)
الطارق (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا
وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ۝٣٢) عبس

ان الآيات التي تحض على النظر في الكون وبدائع صنع الله كثيرة زادت عن (٧٥٠ آية)[١] في مقابل ذلك نجد أن في (العبادات بأنواعها نحو ١٤٠ آية وفي الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وارث ووصية وحجر وغيرهما نحو سبعين آية وفي المجموعة المدنية من بيع وإجارة ورهن وشركة وتجارة ومداينة وغيرها نحو سبعين آية . وفي المجموعة الجنائية من عقوبات وتحقيق جنايات نحو ثلاثين آية وفي القضاء والشهادة وما يتعلق بها نحو عشرين آية)[٢] .

يقول الشافعي رحمه الله (استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكرة)[٣] .

ويقول الشاعر :

إذا المرء كانت له فكـــــــــــرة ففـــــــــــي كل شيء له عبرة[٤]

يقول الشافعي رحمه الله (صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور والعزم في الرأي سلامة من التفريط ، والندم والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور **قبل أن تقدم) .**

وقال أيضا : (الفضائل أربع إحداها الحكمة وقوامها الفكرة)[٥] .

ومن ركائز الفكر الصائب وصولا إلى الحق ، المشاورة وفيها يقول الشافعي (أحب للقاضي أن يشاور ولا يشاور في أمره الا عالما بكتاب وسنة وآثار وأقاويل الناس وعاقلا يعرف القياس ولا يحرف الكلام ووجوهه ولا يكون هذا في رجل حتى يكون عالما

---

(١) انور الجندي ــ الفكر الغربي ــ ص٢٢٧ .
(٢) عبدالوهاب خلاف ــ خلاصة التشريع الاسلامي ــ ص٢٧ ــ ٢٩ .
(٣) ابن القيم ــ مفتاح دار السعادة ج١ ص١٨٠ .
(٤) المرجع السابق ج١ ص١٨٠ .
(٥) الغزالي ــ إحياء علوم الدين ــ ج٤ ص٤١٢ .

بلسان العرب ولا يشاوره إذا كان هذا مجتمعا فيه حتى يكون مأمونا في دينه لا يقصد إلا قصد الحق عنده)[2] .

قال الماوردي (وينبغي أن تكثر من إستشارة ذوي الألباب ، لا سيما في الأمر الجليل ، فقلما يضل عن الجماعة رأي ، أو يذهب عنهم صواب)[3] ومن ثم كان إجماع العلماء على مسألة من أجل الحكم فيها من منهج الائمة الأربعة بعد الكتاب والسنة مباشرة .

قال الشاعر :

خليلي ليس الرأي في صدر واحد أشيرا علي بالذي تريان

والامام الشافعي يرى أن الحقائق يجب أن تعتمد على دليل حتى تصل إلى اليقين ولا يعتورها الشك وهو لذلك لا يعتبر الاجتهاد صحيحا الا بالاعتماد على دليل يستمد من القرآن أو السنة **فيتحرى الصحة فيما يكتب وينقل من مسائله عليه يقول رضي الله عنه** (وقد رويت أحاديث مرسلة عن النبي ﷺ في العقوبات وتوقيتها تركناها لانقطاعها)[4] ويطلب من القاضي ان يتمسك بطلب الدليل وأن يعتز به فإن في ذلك ضمان وأي ضمان والرسول ﷺ يقول (البينة على المدعي ، واليمين على المدعى عليه)[5] .

لذلك يقول الشافعي (وإذا تحاكم الى القاضي اعجمي لا يعرف لسانه لم يقبل الترجمة عنه الا بشاهدين عدلين يعرفان ذلك اللسان لا يشكان فيه فإن شكا لم يقبل ذلك عنهما وأقام ذلك مقام الشهادة فيقبل فيه ما يقبل في الشهادة ويرد فيه ما يرد فيها)[1] وإن من سمات العالم الا يسلم بحقائق لم تثبت عنده يقينا ولم تتأكد لديه أدلتها ولا حق له أن يبني حكمه على أساس لا يعرفه معرفة علمية قال الشافعي : (وإذا تناقد الخصمان بينهما وحجتهما عند القاضي ثم مات أو عزل أو ولى غيره لم يحكم حتى يعيدا عليه حجتهما

---

(١) الشافعي ــ الأم ــ ج٦ ص٢٠٣ .
(٢) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ــ ص٢٦٣ .
(٣) الشافعي ــ الأم ــ ج٦ ص١٤٥ .
(٤) ص.ج.ص ج١ / ٢٨٩٧ .
(٥) الشافعي ــ الأم ــ ج٦ ص٢٠٤ .

وبينتهما ثم يحكم)[1] وإذا كان الامام الشافعي قد احترم العقل وأوضح له الطريق السليم الصحيح الذي يفلح فيه ويبدع إذا ماتبعه فإنه لم يطلق له العنان في كل المعلومات فللعقل حدود يجب أن يقف عندها ولا يتجاوزها بحال وكيف يخوض بعالم ليس هو بأهل له ولم يحط به خبرا .

ان قدرة العقل على التأمل والنظر ليست مطلقة بل إن له ميدانا يعمل به فإذا تخطاه كبا وتعثر يقول الشافعي : (ان للعقل حدا ينتهي إليه كما أن للبصر حدا ينتهي إليه)[2] إن العقل وحده لا يمكن أن يكون الطريق الوحيد إلى المعرفة والعلم يقول ل ديوبلدب قان دالين (لم يتوصل الانسان بعد الى منهج كامل للبحث عن الحقيقة رغم التحسينات التي أدخلها على اساليبه)[3] ثم يضيف أن هذا الرأي ليس رأياً شخصياً له حيث (تدل المناقشات الحية التي تظهر في المجلات العلمية ، على أن العلماء لم يصلوا بعد الى اتفاق على الحدود التي يمكن أن يطبق فيها المنهج العلمي)[4] يؤيد هذا الواقع ويبين مدى دقة الامام الشافعي رحمه الله وهو يقدر هذه الحقيقة في مثله السابق ما (تؤيده التجربة العلمية الان ، فالعين البشرية مثلا ينحصر مدى إدراكها فيما بين الموجات الضوئية التي طولها (٠,٠٠٠٠٧) والموجات الضوئية (٠,٠٠٠٠٤) من السنتيمتر ، وهي الموجات المحصورة بين اللون الأحمر واللون البنفسجي ، وهي لا تدرك بعد ذلك شيئا مما تحت الأحمر ...)[5] .

وهكذا يزيدنا العلم وثوقا بأن العقل له حد وطاقة مقدرة (كما تحطمت فكرة ان الاسلوب العلمي هو الاسلوب الوحيد الناجح لاكتساب المعرفة عن الحقيقة .. وقد أعلن عشرات من العلماء البارزين بمنتهى الثقة حقيقة مؤداها ان العلم لا يقدم للناس سوى معرفة جزئية عن الحقيقة .. وقد علت اليوم صيحة أن للعلم حدودا)[6] لذلك يجب (ان نحترم الادراك البشري بالقدر الذي اراده الله له من التكريم في مجاله الذي

---

(١) المرجع السابق ج٦ ص٢٠٤ .
(٢) ديوان الامام الشافعي حققه اسماعيل اليوسف ص٣٦ .
(٣) مناهج البحث في التربية وعلم النفس ــ ص٥٥ .
(٤) المرجع السابق ص٥٥ .
(٥) د. محمد محمد حسين ــ حصوننا مهددة من الداخل ــ ص٤٩ ، ص٥٠ .
(٦) انور الجندي ــ الفكر الغربي ــ ص١٤٤ انظر أيضا وحيد الدين خان ــ الدين في مواجهة العلم ص٦٩ .

يحسنه ــ ثم لا نتجاوز به هذا المجال ــ كي لا نمضي في التيه بلا دليل . الا دليلا يهجم على ما لا يعرف من مجاهل الطريق .. وهو عندئذ أخطر من المضي بلا دليل)[1] .

وإذا كان مفكروا الغرب في نهاية القرن التاسع عشر قد اعترفوا بنقص المنهج العلمي الحديث فقد سبقهم الامام الشافعي منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا . وهو يقرر أن للعلم مصدراً آخر أجل وأثبت وأعظم من العقل وأن هذا المصدر هو الأصل والعقل خادم ومتمم له يعمل في ضوء إرشاداته وتعاليمه وذلك المصدر هو الوحى الالهي فهو بعصمته يرشد العقل ويوجهه .

والشافعي يقول :

لم يفتإ الناس حتى احدثوا بدعا ... في الدين بالرأى لم يبعث بها الرسل
حتى أستخف بحق الله أكثرهم ... وفي الذي حملوا من حقه شغل[2]

وهنا نخرج من فكر الامام الشافعي رحمه الله بنتيجة تقول محصلتها (إن مصدر العلم والمعرفة بالنسبة للانسان :

١ ــ المولى سبحانه وتعالى بما يوحيه للرسل ويطلب إليهم أن يبلغوه البشر .

٢ ــ العقل البشري الذي ينظر ويفكر ويتدبر في الكون بمن فيه وما فيه)[3] إذا وكما يقول الشاطبي (فعلى العقول ان لاتستقل بادراك مصالحها دون الوحى)[4]

إن الوحى الالهى (لايلغي دور العقل الانساني ، وايجابيته في فهم الوحى والاستنباط منه والقياس عليه وملىء ما سكت عنه من فراغات تشريعية . ان وجود النص الالهى المقدس ، ليس عائقاً للعقل عن التحليق والابداع فقد ترك الوحى للعقل مجالات عديدة يثبت فيها ذاته ، ويبرز قدراته)[5] .

والواقع ان منهج التفكير الإلهي والبشري لاينفصلان وهذا ما توصل إليه حديثا علماء الغرب وأن العقل البشري لا يملك منهجا متكاملا للبحث العلمي وتلك النتيجة صحيحة ونافعة بالنسبة لهم انهم بالغوا جدا وغالوا في تقديس العقل في البداية واقتصروا عليه وحده في

---

(١) سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ ج٢ ص ٧٢٣ .
(٢) د. محمد خلف الله ــ مفاهيم قرآنية ــ ص ١٤٠ .
(٣) الشاطبي ــ الاعتصام ــ ج٢ ص ٤٧ .
(٤) يوسف القرضاوي ــ الخصائص العامة للاسلام ــ ص٦٢ .

اغلب ابحاثهم وعلومهم ضاربين بعلوم الدين عُرض الحائط .

أما الشافعي رحمه الله فانك تقف في كتبه على الجوانب التشريعية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية ... وكيفية تقنينها وفق المنهج العلمي بشقيه الالهي والبشري فهو رضي الله عنه يقف حيثما وقف النص وينطلق حيثما يُسمح بذلك .

لقد أعطى الشافعي العقل مكانته الصحيحة فلم يصل به في التمجيد حدا يصبح فيه إلها من دون الله يشرع ويملك كل شيء ويفتح كل أمر ولم يرهقه بتحميله مالا يطيق ولم يحط من قدره وقدرته على الابداع يقول فخر الدين الرازي مصورا المهمة الكبرى التي قام بها الشافعي في مجال الجمع بين العقل والنقل أو الشق الالهي والشق البشري (الناس كانوا قبل زمان الشافعي فريقين : أصحاب الحديث وأصحاب الرأى ، أما أصحاب الحديث فكانوا حافظين لأخبار رسول الله (ﷺ) إلا أنهم عاجزين عن النظر والجدل ، وكلما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأى سؤالا أو اشكالا ، سقط في أيديهم عاجزين متحيرين ... وأما أصحاب الرأى فكانوا أصحاب النظر والجدل ، إلا أنهم كانوا عاجزين من الاثار والسنة ... وأما الشافعي رضي الله عنه فكان عارفا بسنة رسول الله (ﷺ) محيطا بقوانينها ، وكان عارفا بآداب النظر والجدل ، قويا فيه ، وكان فصيح الكلام ، قادرا على قهر الخصوم بالحجة الظاهرة ، وآخذا في نصرة أحاديث رسول الله (ﷺ) وكل من أورد عليه سؤالا أو اشكالا أجاب عنه بأجوبة شافية كافية ، فانقطع بسببه استيلاء أهل الرأى على أصحاب الحديث)[1] ومحمد بن عبدالحكم أحد تلاميذه يقول (لولا الشافعي ماعرفت كيف أرد على أحد ، وبه عرفت ما عرفت ، وهو الذي علمني القياس ، رحمه الله فقد كان صاحب سنة وأثر وفضل وخير ، مع لسان فصيح طويل ، وعقل صحيح رصين)[2] .

وقال الامام أحمد رحمه الله (مازلنا نلعن أصحاب الرأى ويلعنوننا ، حتى جاء الشافعي فمزج بيننا)[3] ولقد كان الامام أحمد من أهل الحديث .

الشافعي عبقرية فذة متكاملة ، قال الامام أحمد بن حنبل (ما مَسَّ أحد محبرة ولا قلما الا وللشافعي في عنقه منه)[4] .

---

(١) د. أحمد الشرباصي ــ الأئمة الأربعة ــ ص ١٣٣ .

(٢)(٣) الامام محمد ابو زهرة ــ الشافعي ــ ص ٣٤ .

(٤) ديوان الامام الشافعي ــ محمد عفيف الزعبي ــ ص ١٢ .

ولا نحسب أن الامام أحمد بن حنبل يبالغ بهذه الشهادة في حق أستاذه فأحمد بن حنبل كان عالما ورعا لايخشى في الله لومة لائم وموقفه الصلب من قضية خلق القرآن مع خلفاء بنى العباس وما ترتب عليها من جلد وسجن حتى عرض عليه عمه أن يلين قليلا ليخفف عليه العذاب فأبى خوفا من الله عزوجل ، أكبر شاهد على قوة وصدق رأيه في أستاذه . ولو أننا راجعنا أقوال الباحثين والمنصفين لعرفنا بحق ثمار المنهج الذي أرسى قواعده الشافعي رحمه الله وآثاره العظمية على من جاءوا بعده . في مسند الامام الشافعي يبين لنا وللدارسين كيف وفق بين العقل والنقل وكيف طبق أسس وقواعد النقل والضبط للسنة النبوية المطهرة ، وكان بسبقه في هذا الميدان رائدا من رواد هذا العلم الذي أعتبر في تاريخ الفكر البشري مفخرة للمسلمين في دقة منهجهم العلمي . عرف الشافعي أحوال الرجال وعلل الحديث وإتصال السند وآمن أن متن الحديث بلا سند كبيت بلا عمد ، فتعهد علم الحديث بالتمحيص والتثبيت وهو علم لم يعرف له التاريخ مثيلا في دقته الدقيقة وأمانته الكاملة عند غير المسلمين يقول الشهيد صبحى الصالح (وبلغ بالمحدثين حسهم النقدي ذروة لا تسامى حين لاحظوا أن المعاصرة حجاب فكرهوا التحديث عن الأحياء كأنهم يخشون أثر الحب في حسن الظن وأثر الكره في اساءة الظن بالمروى عنه ، فلا تكون أسس الجرح والتعديل سليمة ولا صحيحة .

قال ابن الحكم ذاكرت الشافعي يوما بحديث وأنا غلام ، فقال من حدثك به ؟ فقلت : أنت . فقال : ما حدثتك به من شيء فهو كما حدثتك وإياك والرواية عن الأحياء)[1] انما يعرف الفضل لأهل الفضل ذووه ، فلننظر ما يقول العلماء عن إنجازات الشافعي في الحديث ومنزلته الفارعة في علومه واجادته التامة في علم الجرح والتعديل ذلك العلم الاسلامي المحض يقول الزعفراني (كان أهل الحديث رقودا حتى جاء الشافعي فأيقظهم فتيقظوا)[2] وقال محمد بن الحسن ــ الحنفي ــ (إذا تكلم أصحاب الحديث فبلسان الشافعي)[3] إن المنهج العلمي في تفكير الشافعي هو الذي جعل آراء

---

(١) د. صبحي الصالح ــ علوم الحديث ومصطلحة ــ ص ١٣٦ .
(٢) ابن خلكان ــ وفيات الاعيان ــ ج٤ ص ١٦٥ .
(٣) الاصفاني ــ حلية الاولياء ــ ج٩ ص ٩١ .

الشافعي في السير تعتبر بحق (أول توطيد منظم عرفه العالم للقانون الدولي)[1] كما يقول فازيليت . أما العلامة المجدد أبو الحسن الندوى فيقول (إن الشافعي يعد من الأفذاذ والنوابغ الذين أنجبتهم الانسانية فقها وأمانة واخلاصا وكفاية ، ترك ثروة فقهية وقانونية لا تعادلها ذخيرة فقهية في العالم والتي لاتزال مرجعا ومادة واسعة للتشريع لهذا العصر وهي خدمة تدين لها الأمة ويدين لها العالم لقد ترك الشافعي ثروة علمية وخلف تراثا فقهيا ينوء بالمجامع العلمية والمؤسسات الكبيرة في هذا العصر)[2] .

وحول تركة الامام الشافعي العلمية يحدثنا الاستاذ المستشار عبدالحليم الجندي فيقول (بلغ انتاج الشافعي أعظم قدر من الفخامة . قيل انه ألف ١١٣ كتابا في التفسير والفقه والأدب وغير ذلك وقيل ١٤٢ كتابا وفي معجم ياقوت الحموى والفهرست لابن النديم ثبت مؤلفاته ... و (الأم) برواية الربيع بين أيدنا . وهو يقع وحده في مجلدات سبعة ضخمة . كأنها أعمال فرقة كاملة من الأئمة ! ويزيد عمله اجلالا ان يؤلفها في مدة قصيرة ، بالنسبة لحياة الأئمة الثلاثة الاخرين . ويزيدها قصراً طول ما قضاه منها طلبا للعلم في شبابه بمكة وهذيل والمدينة وعملا في اليمن ، وأسفاراً مضنية فوق أديم الصحراء في آسيا وأفريقيا)[3] ولقد ذهل المستشرق ابن الورد عندما قام بجمع واستقصاء ما ورد عن الامام الشافعي رحمه الله (لقد إستقصى في بعض مباحثه سبعين مسألة فقهية استنبطها الامام الشافعي من حديث النية)[4] فقط ! إن الشافعي أول من تكلم في القياس ضابطا لقواعده مبينا أسسه .

وفي مجال التشريع الاسلامي ومصادره قرر الشافعي ان الاجماع حجة (والاجماع عند الشافعي ان يجتمع علماء العصر على أمر فيكون اجماعهم حجة فيما أجمعوا عليه)[5].

ولقد اعتبر الشافعي من جهابذة العلماء الذين كشفوا عن حقيقة الاجماع فكان رائدا في هذا المجال دون منازع[6] أسس الامام الشافعي الاجتهاد وأرسى قواعده وكان رحمه الله رائدا عبقريا وداعية فذة في إعمال الفكر والنظر ونبذ التقليد ، وقد وضع أصول

---

(١) د. شاكر مصطفى ــ دولة بنى العباس ــ ج٢ ث ٢٦٣ والسير ما يتعلق أو يبحث في احكام الحرب والصلح والموادعة والامان ومعاملة الاسرى ... .

(٢) ابو الحسن الندوي ــ رجال الفكر والدعوة في الاسلام ــ ج٢ ص٨٨ باختصار وتصرف .

(٣) عبدالحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص ١٩٦ .

(٤) د. صبحي الصالح ــ علوم الحديث ومصطلحة ــ ص ٦٠ .

(٥) ابو زهرة ــ الامام الشافعي ــ ص ٢٨٠ .

(٦) انظر محمد عبدالله دراز واخرون ــ الاسلام الصراط المستقيم ــ ص ٢٥٤ .

الاجتهاد . وفي كتبه وبخاصة كتابه الرسالة يرى الدارس كيف وضع الشافعي أصول الاجتهاد وضبط أصول الفقه وكان أول من حدد هذه الأصول بلاشك وله فضل السبق والتفرد في هذا الميدان الذي أقام صرحه على دعائم المنهج العلمي الواضح حيث يتعاون النص مع العقل ... يقول الشافعي (فاذا طلبوها مجتهدين بعقولهم وعلمهم بالدلائل ، بعد استعانة الله والرغبة إليه في توفيقه فقد أدوا ما عليهم)[1] .

ولم يطلق الشافعي العنان للاجتهاد في كل علم لكل طالب بل بين أن هناك شروطا ومؤهلات يجب ان تتوفر فيمن يتصدى للاجتهاد ومن ثم وضع معيار التمكن في العلوم العربية وحدد شروط المجتهد في الالمام الواسع بالعلوم الشرعية والبصر النافذ في علوم القرآن والحديث فقال (لايحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلا عارفا بكتاب الله ، بناسخه ومنسوخه وبمحكمة ومتشابهه ، وتأويله وتنزيله ، ومكيه ومدنيه ، وما أريد به وفيما أنزل ثم يكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله (ﷺ) بالناسخ والمنسوخ ؟ ويعرف من الحديث ماعرف من القرآن ، ويكون بصيراً باللغة ؟ بصيراً بالشعر وبما يحتاج إليه للعلم والقرآن ويستعمل هذا مع الانصاف وقلة الكلام ، ويكون بعد هذا مشرفاً على إختلاف أهل الأمصار ؟ وتكون له قريحة[2] بعد هذا ؟ فإذا كان هكذا فله أن يتكلم ويفتي في الحلال والحرام وإذا لم يكن هذا فله أن يتكلم في العلم ولا يفتي)[3] ومن شدة احترامه للعقل ومكانته يقول رحمه الله (لا يجوز للمجتهد أن يقلد مجتهدا آخر)[4] ومن ذلك يتضح لنا أن الشافعي (لم يكن ليتحرج من التجديد بل كان يتعشقه تعشقا ، وقد سرى ذلك إلى شاعرتيه ، حتى كان في معية الخارجين على النهج الفني التقليدي لما تعارف عليه القدماء في بناء القصيدة العربية ثم ان اسلوبه في الشعر تجسد في خصوصية تعكس شخصيته وموقفه الفكره المتفتح فانفرد باسلوب متميز ذي ملامح تجعله على رأس المدرسة الحكمية في الشعر الأدبي)[5] .

---

(١) الشافعي ــ الرسالة ــ ص٥٠٣ .
(٢) قدرة على الاستنباط .
(٣) الخطيب البغدادي ــ الفقيه والمتفقه ــ ج ٢ ــ ص١٥٧ .
(٤) حكمت صالح ــ دراسة فنية في شعر الشافعي ــ ص١٧ .
(٥) المرجع السابق ص١٨ .

بين الشافعي عملية الاجتهاد وأوضح بموضوعية النتيجة المترتبة عليها :
(١ ــ إنها توجب العلم العميق إيجابا ولا تعمل إلا على أساسه .

٢ ــ تستغل الحرية الكاملة والنزاهة الخالصة والخبرة الدقيقة والمشاهدة الموضوعية والتجربة الواقعية والتمييز بين المشتبه ، والاستماع إلى الغير ، وخاصة عن مخالفته ، وبلوغ غاية الجهد والفهم لا الحفظ .

٣ ــ توجب العمل بالنتائج على من وصل إليها وتنهاه عن تقليد غيره)[١] وبهذا يفتح الشافعي باب الاجتهاد وهو يؤمن بحرية الاختلاف الموضوعي ، (ولما أطلق الشافعي الاجتهاد الاسلامي على أساس العلم بالقرآن والسنة ، وبالمنهج الموضوعي الذي جهد جهده في ضبطه ، يسر للعقول الاسلامية طريقة علمية قرآنية ، للاعتبار والاستخلاص تستوي في ذلك العلوم الاجتماعية ومنها الفقه والتشريع والعلوم الرياضية والتطبيقية والطبيعية وبهذا يسر على الفقهاء أن يتفقهوا بحرية ، وللعلماء الطبيعيين والتجريبيين أن يكونوا أحراراً في تجاربهم)[٢] إن الاجتهاد هو ثمرة طبيعية لأصول الفقه ولقد كان الامام الشافعي رائد هذا العلم دون منازع و(الذي يعد بحق المنهج الحقيقي لأصول البحث العلمي والعقلي)[٣] فتح الامام الشافعي أمام البشرية (أبواب الحركة والتغيير والاجتهاد في إطار القوانين الضابطة لحركة الفكر والحضارة)[٤] وعلم أصول الفقه الذي أسسه الشافعي ــ ثم سار الغزالي على نهجه في كتابه (المستصفى) وكذلك الشاطبي في كتابه (الموافقات) جعل العالم (الأصول لا يبحث عن الأدلة الجزئية ، ولا فيما تدل عليه من الأحكام الجزئية وإنما يبحث في الدليل الكلي وما يدل عليه من حكم كلي ليضع قواعد كلية لدلالة الأدلة كي يطبقها الفقيه على جزئيات الأدلة لاستثمار الحكم التفصيلي منها)[٥] يقول الشاطبي (أصول الفقه إنما معناها استقراء كليات الأدلة حتى تكون عند المجتهد نصب عين وعند الطالب سهلة الملتمس)[٦] .

---

(١)(٢) عبدالحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ .
(٣)(٤) د. محسن عبدالحميد ــ المذهبية الاسلامية والتغيير الحضاري ــ ص ٣٥
(٥) عبدالوهاب خلاف ــ علم اصول الفقه ــ ص ١٤ .
(٦) الشاطبي ــ الاعتصام ــ ج١ ص ٣٨ .

وبذلك يكون الشافعي هو المؤسس الفعلي للمنهج العلمي ، ورائد الفكر الاستقرائي والمنهج التجريبي في البحث والذي يقوم على (الاستقراء بحصر كل الحالات الجزئية التي تقع في اطار فئة ، ويقرر ما توصل إليه في نتيجة عامة)[1] ويعتبر فرانسيس بيكون كما يقال رائد هذه المدرسة حيث ان بيكون هاجم بعنف (منهج العصور الوسطى في استخلاص النتائج من مقدمات مسلم بصحتها . فقد كان يرى ان الانسان لاينبغي أن يجعل نفسه عبدا لافكار الآخرين . وآمن بأن الباحث يجب ان يدرس الطبيعة بنفسه بعناية ، ويصدر نتائج عامة على اساس الملاحظة المباشرة ، بدلا من أن يقبل المقدمات ـــ (التعميمات ـــ النظريات ـــ) التي وصلت إليه من السلطات على أنها حقائق مطلقة)[2] هذا هو المنهج العلمي الذي رسمه الشافعي وسار على خطاه علماء المسلمين ثم ترجم روجر بيكون روح هذا المنهج وأخذ يدندن حولها وسار على خطاه فرانسيس بيكون بعد روجر بيكون بقرابة ثلاثة قرون !! علم أصول الفقه هو كما قال الشيخ مصطفى عبدالرزاق (آية العبقرية العربية ، وهو أدل على فكرنا وأصالة بحثنا من الفلسفة الاسلامية لأنه نتاج اسلامي خالص رائع)[3] يشرح هذه العبارة الدكتور فيليب حتى مؤكدا كلام الشيخ مصطفى عبدالرزاق (وعلم الفقه الاسلامي فريد من نوعه ، بمعنى أنه عربي أصيل وليس كالرياضات والطب وغيرها من العلوم التي تعتبر دخيلة ، **فلم يكن للفرس أو الشعوب الأوروبية أي أثر فيه ، ولم يتبع في اسلوبه علما آخر نسج على منواله . ومؤسس علم الفقه لم يكترث بالفلسفة اليونانية ..)**[4] .

وفي موضع آخر يضيف الدكتور فيليب حتى في إنبهار واعجاب بهذه العبقرية العملاقة المتكاملة فيقول (الامام الشافعي ، العالم الديني ، والشاعر ، والمعلم ، والفقيه ، والرجل القديس ، وضع أصول الفقه على اساس علمي لايضاهيه في شموله ، واحاطته اي نظام فقهي آخر ، هذا النظام الفقهي نظم العلاقات بين ملايين المؤمنين

---

(١)(٢) ديوبولد ب قان دالين ـــ مناهج البحث ـــ ص٤٧ ، ص٤٨ .
(٣) محمد الغزالي ـــ علل وأدوية ـــ ص٢٠٠ .
(٤) د. فيليب حتى ـــ صانوا التاريخ العربي ـــ ص٢٤٠ .

وبين خالقهم ، وبينهم وبين سائر الناس)[1] ان هناك اجماعا من المستشرقين والباحثين الغربيين منهم والشرقيين على ان الامام الشافعي واضع علم اصول الفقه هذا العلم الاسلامي البحت والذي يعصم الباحث إذا ما سار على منهاجه ان يقع في الزلل وهذه شهادة مستشرق آخر هو المستشرق المجري جولد تسيهر فيقول (أظهر مزايا محمد بن ادريس انه وضع الاستنباط الشرعي من أصول الفقه ، وحدد مجال كل أصول من هذه **الأصول ، وقد ابتدع في (الرسالة) نظاما للقياس العقلي الذي ينبغي الرجوع إليه في** التشريع)[2] .

لم يصل الشافعي إلى ما وصل إليه من مكانة سامية في قلوب المسلمين وعقول المنصفين إلا من خلال منهج علمي وعقلي سليم فكانت ثماره آثاره الخالدة وبرغم مضي القرون مازالت آراء إلامام الشافعي الاجتماعية والتربوية والسياسية والتشريعية والأدبية .. مناراً يقصده العلماء ومأدبة للفقهاء وقصرا منيفا للناظرين وبحرا عميقا للباحثين ، إنها كنوز زادت العلم والمعرفة نورا وتنوعا ، هذا هو الشافعي وأثره في المنهج العلمي العالمي المعاصر ، إن الشافعي ظاهرة علمية فريدة في تاريخ العلم والانسانية .

تعليق : إن المنهج العلمي الذي رسمه الشافعي للتفكير هو في حقيقته إمتداد للنظرة الاسلامية في إقامة المنهج العلمي الواقعي المتكامل يبين الامام الشهيد سيد قطب سمات ذلك المنهج فيقول (والعقيدة الاسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة . فلا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾) الاسراء .

وهذا الكلمات القليلة تقيم منهجا كاملا للقلب والعقل يشمل المنهج الذي عرفته البشرية حديثاً جداً ، ويضيف إليه إستقامة القلب ومراقبة الله ، ميزة الاسلام على المناهج العقلية الجافة ! فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الاسلام الدقيق ومتى استقام القلب والعقل على هذا

---

(١) المرجع السابق ص ٦٤٩ .

(٢) انظر ترجمة الامام الشافعي بقلم مصطفى عبدالرزاق من كتاب الأم ج١ ص٣٢ .

المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة .

ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل . ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب، والعلوم . والأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعتها الكبرى ، ويجعل الانسان مسؤولا عن سمعه وبصره وفؤاده ، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد ... إنها أمانة الجوارح والعقل والقلب أمانة يسأل عنها صاحبها ، وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعاً . أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الانسان رواية ، وكلما أصدر حكما على شخص أو أمر أو حادثة .

(ولا تقف ماليس لك به علم) ولا تتبع مالم تعلمه علم اليقين ، وما لم تتثبت من صحته : من قول يقال ورواية تروى . من ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل . ومن حكم شرعى أو قضية اعتقادية وفي الحديث (إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث) وفي سنن ابى داود (بئس مطيه الرجل : زعموا) وفي الحديث الآخر : (إن أفرى الفرى أن يُري الرجل عينيه ما لم تريا : وهكذا تتضافر الآيات والاحاديث على تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل الذي لايأخذ العقل وحده بالتحرج في أحكامه ، والتثبت في استقرائه ، إنما يصل ذلك التحرج بالقلب في خواطره وتصوراته ، وفي مشاعره وأحكامه ، فلا يقول اللسان كلمة ولا يروى حادثة ولا ينقل رواية ، ولايحكم العقل حكما ولايبرم الانسان أمرا إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحتها (إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ) الاسراء ٩ حقا وصدقا .)[1] .

(١) سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ ج٢ ص ٢٢٢٧ .

البـــــاب الـــرابـــــع

الاستعدادات الفطرية والاجتماعية لطلاب العلم

سيرا مع منهج الامام الشافعي في التربية ، ووصولا إلى خطته المحكمة وتجربته العلمية الرائدة سبق أن صنفنا موضوعات عدة إستخلصناها من تراثه وقبسناها من أنوار فكره . ولقد تنوعت تلك الموضوعات فأبرزنا فيها بهدى من الامام الشافعي رضي الله عنه أهمية العلم وفضله وآثاره الطيبة على الفرد والمجتمع وشروطه وحقه كما تكلمنا وبحثنا عن أهم هذه العلوم ومصدرها ونحن بذلك نهدف إلى تأصيل أسس العلم وتوطيد قواعد البناء التربوي وذلك يسلمنا بعد معرفتنا ما ينبغي تعلمه إلى سؤال طالما تردد عبر القرون ، والواقع ان علم التربية يشمل على اقسام عديدة وتخصصات متنوعة كأصول التربية وعلم النفس التربوى والمناهج الدراسية والوسائل التعليمية ... وغيرها وهذه كلها روافد تصب في جدول واحد وتتجه نحو غاية واحدة مؤداها في النهاية : كيف نتعلم ؟ والهدف الوصول لهذا السؤال والاجابات كثيرة متنوعة حينا ومتباينة حينا آخر وأحيانا متكاملة ، فكل يعالج الاجابة من زاوية خاصة ، لقد خلف علماء التربية تركة عظيمة ظهرت عبر الكتب والمجلدات والأبحاث المستمرة في كل عصر ومصر ، وهي أبحاث تمثل دوائر تحوم حول ذلك السؤال وكأنه مركز الدائرة لها : كيف نتعلم ؟ ولعلنا نصيب **جانباً كبيراً من التوفيق والصواب إذا قلنا أن ذلك السؤال في مجمله هو أساس علم التربية** الذي يحمل في ثناياه إجابات هي في الواقع مفاتيح لكثير من القضايا التربوية الهامة ، كيف نتعلم ؟ سؤال رغم صغره ووجازته حير الجهابذه من العلماء حتى أو قف الكثير منهم حياته لمجرد المحاولة للاجابة عليه ومن المضحك أنه غالباً ماتكون تلك الاجابات التي جاءت بعد جهد جهيد طلاسما ورموزا زادت المسألة تعقيدا فحيرت اللاحقين وزادتهم غموضا . وخليق بالامام الشافعي المعلم المربي والذي عرك التعليم طول حياته واستطاع بقدرته الفائقة ان يعالج المسائل الكلية والأصولية التي تمس جوهر القضايا التربوية ، وان فكره المتوقد واهتمامه الكبير منصب في علاج تلك القضايا خليق به أن يجيب على هذا السؤال . فقد كتب المجلدات وسود الكثير من الكتب وأملى على تلاميذه ما شاء من تقارير فقدم الجواب علميا وعمليا فأراح واستراح يقول رحمه الله :

أخـــي لن تنـــال العلـــم إلا بستـــــة سأنبـــيك عن تفصيلهـــــا ببيـــــان
ذكاء وحـــــرص ، واجتهاد وبلغـــــة وصحبـــة استـــاذ وطـــول زمـــان[٨١]

فيما مضى بيَّن الشافعي وسائل العلم وأدواته العامة ــ الحواس والعقل ــ ومن قبل ذلك ومن بعده الوحى الالهي فانه أصدق طرق العلم وأثبتها . والآن يبين الامام الشافعي كيف يستعمل الانسان هذه الوسائل مستفيدا من تلك الطرق في التعليم كما يبين الاستعدادات الفطرية المساعدة للحواس والمهيئة لهذه المعلومات للعقل والمثبتة لها في الحافظة والمصنفة لها في الذاكرة والمعدة لها كي يمكن الانتفاع بها عند الحاجة إليها . ففي إيجاز يشبه الاعجاز وذكاء وعبقرية أجاب الشافعي عن السؤال الآنف الذكر ولخص تجاربه الذاتية وخبراته العلمية وقدراته التربوية في هذين البيتين فكانا بيانا واضحا وعلاجا شافيا لأهم القضايا التي حيرت الباحثين وأجهدت العلماء فكم من عالم خاض غمار هذه القضية فغرق فيها وشغل يومه وأسهر ليله ولم يقدم الجديد المفيد ؟ ولكن الشافعي يصل إلى مراده بيسر وسهولة وقوة ووضوح ومن أقرب الطرق وكأن لسان حاله يقول كما قال المتنبي وهو يفتخر بأنه شاعر مطبوع على قول الشعر لايكده القريض ولا تتعبه القوافي ولا تتأبى عليه شاردة ولا واردة وانما تواتيه سهلة طيعة :

أنـــام ملء جفـــوني عن شواردهـــــا ويسهـــر الخلـــق جراهـــــا ويختصم

(وهنا يبرز تبصر الشافعي بقضايا منهجية هي في الحقيقة من صميم الإعداد التربوي والتنشئة التي ترتكز على أسس ذات نزعة علمية ، في وضع المؤثرات التي تتحكم فيها الظروف آنذاك وحاجاته (أي الاعداد التربوي ــ فقد اشترط الشافعي ستة عناصر للعملية التعليمية الصحيحة في إقامة منهجه التدريسي ، وهي الذكاء .. الحرص .. **الاجتهاد .. البلغة .. صحبة استاذ .. مضافاً إليها عنصر الزمن وهذه العناصر أكد عليها** علم النفس التربوي الحديث)[١] يروى الخطيب البغدادي بسنده عن الامام الشافعي أنه قال (يحتاج طالب العلم إلى ثلاثة خصال أولها طول العمر ، والثانية سعة اليد ، والثالثة الذكاء . قال الشيخ ابوبكر الحافظ رحمه الله : قلت أما طول العمر فإنما يقصد به دوام الملازمة للعلم وأراد بسعة اليد ألايشتغل بالاحتراف وطلب التكسب ، فإذا استعمل

---

(١) حكمت صالح ــ دراسة فنية في شعر الشافعي ــ ص١٢٥ .

القناعة أغنته عن كثير من ذلك)[1] .

الذكاء ملكة فطرية واستعداد باطني ونعمة من نعم الله الكبرى على الانسان وقد قيل ذكاء المرء محسوب عليه . إنه الفطنة التي هي إحدى الصفات الأربع التي تميز بها معلموا البشرية الأنبياء عليهم السلام وهي الصدق والامانة والتبلغ والفطانة ، قال الشاعر في وصف الرسول ﷺ :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بداهته تنبي عن الخبر[2]

وهو يختلف بين الناس قوة وضعفا والرسول ﷺ يقول (إنما أنا مبلغ ، والله يهدي ، وإنما أنا قاسم ، والله يعطي)[3] .

إنه القدر الأدنى من الاستعداد الفطري للتلقي الذي به يستطيع الانسان أن يعرف الاشياء ويميز بينها ولما لهذه الملكة من فضل في سرعة الفهم وقوة التحصيل فإن على الناس أن يصقلوا تلك المواهب وينموها حتى ينتفعوا بها ، إن الذكاء قوة متهيئة كامنة مستعدة لقبول العلم فإذا لم يوهب الانسان القدر الأدنى من الذكاء أصبح عاجزا عن التعليم ولاقى معاناة شديدة في تحصيل العلم وقعد عن تحصيل أقرانه في الطلب ومن هنا ندرك مدى أهمية الذكاء لطالب العلم وحاجته إليه في متابعة التعليم في شتى مراحله (وتؤيد التجارب العامة بطبيعة الحال ما نتوقعه نظريا من أن هناك علاقة بين الذكاء وتعلم المواد الدراسية)[4] .

يقول الامام الشافعي وهو يصور الذكاء بالأرض الطيبة يوضع فيها البذر فتخرجه طيبا ناميا فيقول (الطبع[5] أرض ، والعلم بذر ولا يكون العلم إلا بالطلب ، فإذا كان الطبع ماثلا[6] زكا ريع العلم وتفرعت معانيه[7]) ، وصدق الشاعر إذ يقول :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

ولكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح والعلوم[8]

---

(١) الخطيب البغدادي ــ الفقيه والمتفقه ــ ج٢ ص٩٤ .
(٢) الجاحظ ــ البيان والتبيين ــ ص٢٣ .
(٣) ص.ج.ص. ــ ج١ / ٢٣٤٧ .
(٤) د. حسن ابراهيم عبدالعال ــ فن التعليم عند بدر الدين بن جماعة ــ ص١٨٧ .
(٥) الطبع : الذكاء . (٦) ماثلا : حاضرا . (٧) البغدادي ــ الفقيه والمتفقه ــ ج٢ ص٩٥ .
(٨) ديوان المتنبي ــ ص٢٣٢ .

أما الحرص فهو سلاح الطالب في كفاحه وحاجته إليه في طلب العلم كحاجة المسافر لزاده ومتاعه ، والحرص يتمثل في اعتزاز الطالب بالعلم وتمسكه به وإقباله عليه وخوفه أن يضيع شيء منه فهو يقبل عليه إقبال النهم ويحرص عليه حرص الشحيح على ماله ، ويسعد به أشد من سعادة عشاق الشهوات واللذائذ ويحبه حبا لا يعدله بعد حب الله ورسوله شيء . فتلك علامات حرص الطالب على العلم ومن ثم كان الشافعي رحمه الله يقول (وجعلت لذتي في هذا العلم وطلبه)[1] ومن علامات الحب الصادق للعلم وأهله السعي الحثيث لطلبه والبحث عنه في مظانه وافراغ الجهد في إكتسابه ودرسه وابتغائه عند رجاله يقول الشافعي لأهل الحديث وهو من هو في هذا العلم (أنتم أعلم بالحديث منى ، فإذا كان الحديث صحيحاً ، فأعلمونى كوفيا كان ، أو بصريا ، أو شاميا ، حتى أذهب إليه إذا كان صحيحاً)[2] وكم رحل الشافعي وجاب البلاد في طلب العلم وتعلم على يد الكثير من العلماء والشيوخ وحين سئل رحمه الله عن حرصه على طلب العلم قال (حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال)[3] .

وهذا الحرص هو الذي جعل الشافعي يصل الليل بالنهار بحثا ومناظرة ومدارسة ومحاورة يتقلب بين التعليم والكتابة حتى استوى عنده الليل والنهار ولم يعد يفكر بشيء سوى العلم .

أما الاجتهاد ففي اللغة (بذل الجهد واستفراغ الوسع في تحقيق أمر لا يكون إلا بكلفة ومشقة)[4] وفي الاصطلاح (بذل الجهد في استنباط الحكم الشرعي من دليله على نحو يحس فيه العجز عن المزيد)[5] فالاجتهاد سعي لطلب العلم مع تحري الدليل دون التقيد بقول بشر كتب عليه القصور وقد سبق أن ذكرنا أن الشافعي نفى عن أقواله هالة القداسة والتسليم ، وحض طلبته على الاجتهاد وفق القواعد والمؤهلات المطلوبة للاجتهاد وبقدر الإلمام وانه رحمه الله قال (لا يجوز للمجتهد أن يقلد مجتهداً آخر)[6] وهو في ذلك يضع نصب عينه قول الرسول ﷺ (إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد)[7] .

---

(١) البغدادي ــ تاريخ بغداد ــ ج٢ ص٥٩ .
(٢) الرازي ــ آداب الشافعي ومناقبه ــ ص٩٥ .
(٣) محب الدين الخطيب ــ مع الرعيل الأول ــ ص٦٥ .
(٤)(٥) د. علي أحمد السالوس وآخرون ــ دراسات في الثقافة الاسلامية ــ ص٢٦٣ .
(٦) حكمت صالح ــ دراسة فية في شعر الشافعي ــ ص١٧ .
(٧) ص.ج.ص. ــ ج١ / ٤٩٣ .

هذا الحكم النبوي الكريم والذي يقدر الجهد المبذول في سبيل طلب الحق ويعطيه حقه من الأجر ولاينظر إلى النتيجة حتى ولو كانت خاطئه ، انما ينظر فقط إلى الجهد المصاحب لصدق التوجه وخلوص القصد وحسن النية فيمنح صاحبه الأجر على الاجتهاد ولو أخطأ ، لم نجده في مذهب من مذاهب البشر ولم نسمع به على لسان مفكر شرقي أو غربي وانما هو ميزة من ميزات الاسلام الذي يمنح على المقاصد والنيات وما أكثرها . ومفخرة للنبى الأمى (ﷺ) فانظر كيف يحفز الاسلام طلاب العلم ويدفعهم للانطلاق وقد فتح لهم ابواب العلم على مصاريعها وآفاق التأمل والتدبر على رحابتها وشمولها ، وحق للعقل أن يأخذ طريقه في البحث والتفكر والنظر وهو مبارك الخطو مضمون الأجر فالله لايضيع أجر من أحسن عملا . وبهذا التوجيه النبوي كثرت منارات العلم في الرحاب الاسلامية وتألق منها مع الشافعي وقبله منارات أربع أولئك هم أصحاب المذاهب الاربعة الذين ملؤا الدنيا علما وأدبا وفقها ـــ وغيرهم كثير ـــ وكان الشافعي الفارس الُمعْلَمْ رائد أصول الفقه وقائد ركب التعليم والتربية واستاذا مجتهدا مجددا إنتهى إليه فضلهم وجمع في كتبه أدبهم وعلمهم . إن هناك ظاهرة تسترعى الانتباه وتدعو إلى التقدير وهي أن الشافعي رضي الله عنه كتب أفكاره في التربية وسجل آرائه العلمية استلهاما مباشرا من القرآن العظيم وسنة الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام . فلم يرجع فيها لاراء السابقين ولم يطلع على كتب الأولين أو يتوفر على نتاج علماء التربية فجاءت آراؤه التربوية من سجيته إجتهادات متميزة للغاية تدل دلالة قاطعة على أنه رحمه الله كان بحق سباقا في الاجتهاد ومنارا للتجديد سواء في رحلته وسعيه للعلم أو في فكره وأسلوبه ، ففي منهجه بذل كل الاسباب لتذليل الصعاب وإنارة الالباب وهذا عين الاجتهاد لتدريب كل سالك وتعليم كل طالب . أما غير الشافعي فيكفي الباحث ان ينظر في آثارهم ليرى أنهم رحمهم الله إما ان يكون مصنفا لأقوال الاخرين وجامعا لافكارهم فإذا إرتقى أحدهم فهو إنما يبنى آراءه ويقتبس أفكاره منهم . ونظرة في كتب علماء التربية كالغزالي وابن حزم والقرطبي وابن جماعة والماوردي والبغدادي ترينا مدى الأخذ وخاصة من الامام الشافعي رحمه الله وكثرة الاقتباس منه وأشهرهم في ذلك الامام الغزالي رحمه الله .

والبلغة ويقصد بها الشافعي رحمه الله أن يكون لدى طالب العلم من القوت ما يكفيه

يشغله عنه أو معوق يحول بينه وبينه فينبغي لطالب العلم أن يقبل بكل همته ونشاطه عليه ومن هنا يجب أن يكون عنده من قوت يومه مالايشعر معه بالحاجة وما يمنعه من التبذل والسؤال وذلك بالحد الأدني من المعيشة وليس معنى هذا أن يكون المتعلم غنيا فإن الامام الشافعي رضي الله عنه أثناء طلبه العلم كان فقيرا ولكنه لم يكن معدما بل كان عنده من القوت القدر الذي لم يشغله عن الطلب . والشافعي يبين ذلك فيقول (لايطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء يفلح)[1] .

ويبين الشافعي رحمه الله أن الحاجة تشغل الطالب وتخرس اللبيب وتعيي الحكيم فيضرب المثل بلقمان الحكيم الذي يقول الله عنه (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ) لقمان١٢ فبين أن لقمان لو شغل بهم العيال وابتلي بالفقر لما استطاع التفرقة بين التين والبقل يقول رحمه الله :

لا يدرك الحكمة من عمره ... يكدح في مصلحة الأهل
ولا ينال العلم الا فتى ... خال من الأفكار والشغل
لو أن لقمان الحكيم الذي ... سارت به الركبان بالفضل
بلى بفقر وعيال لما ... فرق بين التين والبقل[2]

وقال ابن هندول :

ما للمعيل وللمعالي إنما ... يسعى إليهن الوحيد القادر
والشمس تجتاب السماء وحيدة ... وأبو بنات النعش فيها راكد[3]

لقد ادرك علماء التربية حديثا دور الجانب الاقتصادي وأثر الظروف المادية في طلب العلم فإنه (يمكن اعتبارها هي الأخرى من أسباب التأخر الدراسي إذ ينشأ عنها نقص في الغذاء والكساء وضيق المسكن وعدم صلاحيته ونقص وسائل الراحة وعدم ملاءمة وسائل الاستذكار وما يؤديه نقص التغذية من سوء الحالة الصحية ومن نقص القدرة وضعف الطاقة وانخفاض القدرة على الجهد اللازم)[3] يصف عبدالرحمن بن الجوزي

---

(١) عبدالحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص٢٥ .
(٢) البغدادي ــ الفقيه والمتفقه ــ ج٢ ص٩٣ .
(٣) د. رجاء محمود أبو علام ــ د. نادية محمود الشريف ــ الفروق الفردية ــ ص٢١٥ .

حالة طالب العلم الفقير وما يعتريه حين يهتم بالكسب ويستبعد أن يجتمع همه لطلب العلم وقد تشتت أموره بين الكسب والعلم وبخاصة إذا تزوج ثم رزق الأولاد فيقول (هيهات ان يجتمع الهم مع التلبس بأمور الدنيا خصوصا الشاب الفقير الذي ألف الفقر فإنه اذا تزوج وليس له من الدنيا اهتم بالكسب وبالطلب من الناس فتشتت همته ، وجاء الأولاد فزاد الأمر عليه يرخص لنفسه فيما يحصل إلى أن يلتبس بالحرام ومن يفكر فهمته ما يأكل وما ذلك ، فأي قلب يحضر له وأي هم يجتمع ؟ هيهات والله لا يجتمع الهم والعين تنظر الى الناس والسمع يسمع حديثهم ، واللسان يخاطبهم والقلب متوزع في **تحصيل ما لابد منه**)[1] .

إن أسعد الناس من له قوت دارّ ــ أي يدر عليه بانتظام ــ (بقدر الكفاية لا من منّ الناس وصدقاتهم وقد قنع به . وأما إذا لم يكن له قوت يكفي فالهمُّ الذي يريد اجتماعه في تلك الأمور يتشتت ويصير طالبا للتحيل في جمع القوت فيذهب العمر في تحصيل قوت البدن .. والنفس اذا احرزت قوتها اطمأنت فإذا لم يكن له مال اكتسب بقدر كفايته **وقلل الغلو ليجمع بين همه وضرورته**)[2] .

ويلخص ابن قيم الجوزية مراد الجوزي والشافعي فيقول (فإن العلم صناعة القلب وشغله فيما لم تتفرغ لصناعته وشغله لم تنلها)[3] . والدراسات الاجتماعية تثبت تلك الحقائق وتقرر أن الطبقة الكادحة آناء النهار المجهدة في ظلام الليل البهيم تلك الطبقة المسحوقة غالبا (ما يتمتع أصحابها بهبوط في المستوى التعليمي)[4] بشكل أكبر من أقرانهم الذين ينعمون ويرفلون بما لذ وطاب ويلبسون فاخر الثياب ويقتنون كل احتياجاتهم بسهولة ويسر ، وذهبت بعض الدراسات الاجتماعية والتربوية إلى أبعد من هذا حين تعمم تلك الحقيقة على المجتمعات بأسرها ، وعلى سبيل المثال يرى بعض الباحثين (ان الأمية لا تشكل مشكلة عالمية بقدر ما هي مشكلة خاصة بالبلدان المتنامية)[5] **التي تعاني من الفقر . قال الإمام الشافعي رحمه الله :**

وأحـــق خلـــق الله بالهمِّ امـــرؤ ذو همة يبلى برزق ضيـــــــــق

---

(١) عبدالرحمن بن الجوزي ــ وصايا ونصائح لطالب العلم ــ ص٦١ .
(٢) عبدالرحمن بن الجوزي ــ صيد الخاطر ــ ص٣٥٩ باختصار .
(٣) ابن قيم الجوزية ــ مفتاح دار السعادة ــ ج١ ص١٤٢ .
(٤) د. معن خليل عمر ــ نقد الفكر الاجتماعي ــ ص١٦ .
(٥) د. أحمد صيداوي وآخرون ــ الانماء التربوي ــ ص٨٦ .

وما أروع قول الرسول ﷺ (من أصبح منكم آمنا في سربه معافي في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها)[1] . ولقد حذر الشافعي من أثر الجوع في القضاء وقال : (لا تستشيروا أحداً لا يكون في بيته دقيق فإن عقله زائل)[2] .

ولقد تغيرت صورة التعليم تغيرا كاملا وكثرت مؤسساته حتى أصبح من الناس من تقعده حاجته عن إتمام دراسته خاصة إذا كان التعليم يتطلب سفرا للخارج أو ابتعاثا لجامعات في بلاد أجنبية أن اليأس يقتل أمثال هؤلاء فيستسلمون فكأن لسان حالهم كما قال المتنبي :

والهجـــر أقتـــل لي مما أراقبـــه أنـــا الغريـــق فمـــا خوفي من البلـــلِ[3]

وما أكثر المحرومين من هذا الصنف في المجتمعات العربية ونحن نقول ان هناك حلولا وافية شافية لكثير من قضايا أمتنا ذكرها الشافعي ، تعالج هذه القضايا الجوهرية والمصيرية وآراؤه في ميدان التربية حين تعرض يحسبها المفكرون أفكار معاصر لقضية معاصرة .

إن آراء الشافعي مع مرور الزمن تزداد جمالا ونصاعة وتشتد الحاجة إليها أكثر فأكثر فهو يعالج فقر طالب العلم علاجا جذريا حين يجعله من مصارف الزكاة يقول الدكتور الشيخ القرضاوي (وإذا أخذنا بمذهب الشافعي الذي يدخل ابن السبيل[4] من يريد سفرا ولا يجد نفقة واعتبرنا ما رجحناه من أن يكون هذا السفر في مصلحة معتبرة للاسلام وللجماعة المسلمة أمكننا أن نجد في عصرنا صورا كثيرة لهذا الصنف من الطلاب النابهين والصناع الحاذقين ، والفنيين المتقنين ، وغيرهم ممن يحتاجون الى بعثات للخارج للتخصص في علم نافع أو للتدريب على عمل منتج يعود أثره بالخير على الدين والأمة)[5] .

ويقول الدكتور عباس محجوب (نرى أن علماء الفقه قد جعلوا لطالب العلم المتفرغ

---

(١) ص.ج.ص. ــ ج٢/ ٦٠٤٣ .
(٢) الغزويني ــ مفيد العلوم ومبيد الهموم ــ ص٢٩٥ .
(٣) ديوان المتنبي ــ ص٣٣٦ .
(٤) قال الشافعي (وابن السبيل من جيران الصدقة الذين يريدون السفر في غير معصية فيعجزون عن بلوغ سفرهم إلا بمعونة على سفرهم) ــ أحكام القرآن ــ ج١ ــ ص١٦٦ .
(٥) د. يوسف القرضاوي ــ فقه الزكاة ــ ج٢ ــ ص٦٨٤ .

له والذي قد تعذر عليه الجمع بين الدراسة والعمل جعلوا له نصيبا في الزكاة بقدر ما يعينه على أداء مهمته وذلك لأن طالب العلم ينتفع المسلمون بعلمه)[1] .

والواقع أن المسلمين فهموا هذه الحقيقة فتنافسوا في وقف الأراضي الزراعية والعقارات الكثيرة والأموال الوفيرة لطلاب العلم في تركيا ومصر والزيتونة في تونس وكنت تجد في الأزهر اروقة مخصصة لسكنى طلاب العلم من المصريين والعرب وغيرهم وهناك الرواق الشامي والرواق العراقي والرواق التركي والرواق العباسي والرواق الصعيدي . وكانت تعطى النفقات المتواصلة (الجراية) للطالب ويطلق عليه اسم المجاور ، أي الذي يتفرغ لطلب العلم مجاورا للأزهر ويظل في جواره هذا ، تعطى له الكتب والمراجع والملابس والطعام والشراب من هذه الأوقاف حتى يتم تعليمه ويعين عالما في الأزهر أو في أحد فروعه ويأخذ أيضا راتبه ومستحقاته من هذه الأوقاف .. وكانت هذه الميزة تكسب العلماء قوة أدبية وشجاعة نادرة جعلتهم يقولون الحق ويجهرون به في وجه الحكام ولا يخشون في الله لومة لائم . وقد أراد خديوي مصر زيارة الأزهر يوما فذهب ومعه حاكم بريطاني ووقف على إحدى الحلقات والشيخ يلقي درسه وهو يمد رجليه ولم يتحرك من مكانه أو يغير وضعه والخديوي والحاكم البريطاني واقفان فتألم الحاكم البريطاني وأوعز للخديوي أن يرسل إلى هذا الرجل بصرة من المال كي يحاول أن يكفكف من اعتزازه بنفسه ويقوم احتراما للخديوي إذا وقف على الحلقة ولكن الشيخ في إباء وعفة قال لمن وصل إليه بالصرة ردها إلى مولاك وقل له إن الذي يمد يده لا يمد رجليه !!

محبة أستاذ : الأستاذ هو الركن الركين والاساس المتين الذي لا غنى عنه أبدا في العملية التعليمية فهو الأسوة لتلاميذه والقدوة لطلابه والمثل الأعلى لمريديه يربيهم بأخلاقه وسلوكه وسمته ووقاره ، كما يعلمهم بقلمه ولسانه وفكره وبيانه وقديما قيل : من لا شيخ له لا علم له . وهل الرسل الكرام عليهم السلام إلا معلمون للأمم ؟ وهذا خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام يقول : (إنما أن لكم بمنزلة الوالد أعلمكم)[2] والله تعالى يقول

---

(١) د. عباس محجوب ــ أصول الفكر التربوي في الاسلام ــ ص١٧٣ .
(٢) ص.ج.ص. ــ ج١/ ٢٣٤٦ .

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) آل عمران ١٦٤ (حتى كان منكم الكتاب والعلماء والحكماء والقادة في جميع العلوم والمعارف وقد كانوا من قبل بعثته لفي ضلال مبين)[١] .

والوسائل المعينة كالكتب والمناظرات والرحلات لا تغني عن المعلم أبدا فهي نتاج فكره وخلاصة رأيه فالمعلم (هو الفارس الذي يغرس في الأمة سمو الخلق وحسن التربية ، ونور العلم والمعرفة ، وإن أحدا لا يقوم بدوره ، وإن كل عامل أو موظف ، أو مفكر أو أديب أو فنان إنما هو نتاج المعلم أولا ولذلك صدق شوقي إذ يقول :

قم للمعلم وفه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا[٢]

قال الشاعر واصفا أهمية دور المعلم :

ولا بد من شيخ يريك شخوصها ... فتعرفها بالاسم والعين أقطع

والا فنصف العلم عندك حاصل ... ونصف إذا حاولته يتمنع

وقال آخر :

أمدعيا علما ولست بقاريء ... كتابا به يسهل الحزن

أتزعم ان الذهن يوضح مشكلا ... بلا موضح ؟ كلا لقد كذب الذهن

(إن المشتغلين بالتربية يقولون بعد دراسة وخبرة ومعاناة ان المعلم هو العمود الفقري في عملية التربية ، وهو الذي ينفخ الروح ويجرى في عروقها دم الحياة مع أن في مجال التعليم والتربية عوامل شتى ولكن يظل المعلم هو العصب الحي للتعليم)[٣] والركن الذي لا يمكن الاستعاضة أو الاستغناء عنه ومهمات تطورت اجهزة التعليم ووسائله وتغيرت نوعية دور المعلم ومهامه إلا أن ذلك لا يعني وجود بديل للمعلم أبدا .

أدرك هذا المعنى الشافعي وسبق إليه في قوله (من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام)[٤]واذا اعتمد الطالب في تعليمه على الكتب فقط ولم يتلق على استاذ حرم الاستفادة

---

(١) محمد محمود حجازي ــ التفسير الواضح ــ ج١ ص١٢١ .
(٢) حسن أيوب ــ السلوك الاجتماعي ــ ص٤٤٧ .
(٣) د. يوسف القرضاوي ــ ثقافة الداعية ــ ص٦ .
(٤) د. حسن ابراهيم ــ فن التعليم عند بدر الدين بن جماعة ــ ص٢١٧ .

من الأسئلة وأجوبتها والمناظرة وفوائدها والتفاعل مع المعلم بالأخذ والرد والمحاورة بينهما فإن روح المعلم تضفي استزادة في المعرفة علما بأن الكتب تحتاج الى زيادة أيضاح أو إيجاز في معنى كان لا يحتاج إلى الاسهاب ، وتلك أمور لا يمكن أخذها الا عن استاذ فضلا عن ان العصمة ليست الا للانبياء وكل كلام يؤخذ منه ويرد وقد يكون في الكتب أخطاء بحاجة الى تصحيح كما نوه اليه **الشافعي رحمه الله**(١) .

ولقد صحب الشافعي مجموعة من الشيوخ لازمهم وتتلمذ على أيديهم وأخذ العلم عنهم وتلك نتيجة حتمية لتنقلاته ورحلاته الكثيرة في العلم ولقد جاء الفخر الرازى باسماء بعض شيوخه فقال (اعلم ان مشايخه الذين روى عنهم كثيرون ونحن نذكر المشهورين منهم والذين كانوا من أهل الفقه والفتوى انهم تسعه عشر ، خمسة مكية ، **وستة مدنية ، وأربعة يمانية ، وأربعة عراقية ، أما الذين من أهل مكة فهم سفيان بن** عيينه ومسلم بن خالد الزنجي ، وسعيد بن سالم القداح وداود بن عبدالرحمن العطار وعبدالحميد بن عبدالعزيز بن أبى زواد . وأما الذين من أهل المدينة فمالك بن أنس ، وابراهيم بن سعد الانصارى ، وعبدالعزيز بن محمد الداروردى ، وابراهيم بن أبى يحيى الأسامي ، ومحمد بن أبى سعيد بن أبى فديك ، وعبدالله بن نافع الصائغ ، صاحب ابن أبى ذؤيب .

أما الذين من أهل اليمن فمطرف بن مازن ، وهشام بن يوسف قاضي صنعاء ، وعمر بن أبى سلمة صاحب الأوزاعي ، ويحيى بن حسان صاحب الليث بن سعد ، وأما الذين من أهل العراق فوكيع بن الجراح ، وأبو أسامه حماد بن أسامة الكوفيان . واسماعيل بن **علية ، وعبدالوهاب ابن عبدالمجيد البصريان**)(٢) .

ولا عجب أن أثرت كثرة الاساتذة علم الشافعي، ونضحت تعاليمهم له وتربيتهم إياه وتثقيفهم لفكره على علمه فكان موسوعة علمية وذلك يؤكد معنى تربوياً مؤداه أن تعدد المعلمين يدل على تعدد التخصص المتعمق والدراسة المتبحرة في علم كل واحد منهم فهذا شيخ في العقيدة وآخر في اللغة وثالث في الفقه وهكذا .. يتشكل فكره رحمه الله من عصارة رحيق علم الجميع وينصهر في بوتقته فيخرجه شهدا متفردا ومن ثم كان الشافعي

---

(١) انظر الحافظ ابن رجب الحنبلي ــ الفرق بين النصيحة والتعيير ــ ص٩ .
(٢) أبو زهرة ــ الامام الشافعي ــ ص٤١ .

متميزا في علمه متقدما سائر شيوخه وهكذا ايضا ينبغي ان يكون التعليم مقدما للجديد المتنوع فيكون العقل المستنير والفكر المتميز أما أن تكون المناهج نسخا مكررة لعقلية واحدة فذلك جمود وتحجر يقف بالاجيال حيث هي ان لم يؤخرها إلى الوراء إن كثرة الأساتذة وتعدد الشيوخ والتخصصات يعطى معنى تربويا آخر ، هو ان يعرف الطالب بدراساته على هؤلاء مدى قدرة المعلم ففوق كل ذي علم عليم وهو حين يتلقي على استاذ واحد يرى القضايا من زاوية واحدة وذلك يسلم إلى أحادية التفكير وضيق الأفق **فلا يستطيع معرفة الخطأ الذي يقع فيه استاذه وجل من لا يخطيء . ففي سنن الدارمي** يذكر عن ايوب قال (إذا أردت ان تعرف خطأ معلمك فجالس غيره)[1] .

طول زمان : لاشك ان العلم يحتاج الى صبر وآناه ومثابرة وموالاه وان الخطة التعليمية إذا احكم تخطيطها يحتاج تنفيذها إلى الزمن الطويل والوقت الكافي لكي تظهر آثارها وتؤتى نتائجها وثمارها ذلك أنه من سنة الحياة ونواميس الكون ان لكل شيء أجلا **معلوماً ووقتاً محدداً ولا يمكن أن أبدأ قطف الثمار قبل أوان نضجها ومن الأمثال العربية التي تضرب بتعجيل النتائج (تزبب قبل أن يتحصرم) أي أراد أن يكون زبيبا قبل أن يمر بمراحل النمو الطبيعي فالعنب قبل أن يكون زبيباً يمر بمرحلة التحصرم . يذكر أن أحد** تلاميذ أبى حنيفة ـــ ولعله أبو يوسف القاضي ـــ اعتزل مجلس شيخه واتخذ له مجلسا يدرس فيه ونما ذلك إلى أبى حنيفة وقال لتلميذ آخر أعطاه مجموعة من المسائل مع أجوبتها إذهب إلى ابى يوسف في مجلسه واعرضها عليه فلما عرضها عليه أدرك مدى جهله بها ووقف متعجبا من تسرعه واستعجاله قبل ان يكمل تعليمه فرجع الى أبى حنيفة فقال له تزببت قبل أن تتحصرم أي أنك تصدرت المجلس قبل أن تستكمل تعليمك . وفي طول الزمن معنى الاجتهاد المتواصل والسعى الدؤوب والجهد المتتابع والبذل الدائم قبل الوصول إلى الغاية وذلك يؤدي حتما إلى استقرار المعلومات في الذاكرة وتثبيتها لكثرة تكرارها في الذهن وهو ما أكده الإمام الشافعي في غير ما موضع من كتبه وأشعاره فمن طلب العلا سهر الليالي .

---

(١) سنن الدارمي ـــ ج١ ـــ ص١٥٣ .

يتحدث علماء النفس عن دور الفترة الزمنية وطولها في ثبات المعلومات في ذهن المتعلم (لأن وضوح الصور أو غموضها يخضع إلى حد كبير لقصر أو طول هذا المدى الزمني)[1] ولا يمكن بحال من الأحوال (إغفال عنصر الزمن في استقرار الذاكرة الطويلة المدى في الجهاز العصبي المركزي خلال الدقائق القليلة الأولى عقب أي خبرة إذ يلزم الأمر لاستقرار الذاكرة أو توثيقها في الخلايا العصبية مدة معينة من الزمن)[2] . إن فائدة الزمن حينئذ هو إعطاء الذاكرة فرصة متأنية يمكنها فيها أن تتشرب المعلومات على مهل فتستقر وترسخ فيها فهي (خلال فترة الفراغ بين تكرار المادة .. ينشغل العقل الباطن بتوثيق ترابط الأفكار)[3] .

ومن الحقائق الثابتة والمهمة التي عرفها رجال التربية أن الطلاب (الذين يرهقون ادمغتهم بالحفظ قبل الامتحانات العامة يتعبون اجسامهم وعقولهم معا . والثمرة الوحيدة التي يجنونها من وراء ذلك هي النسيان السريع[4]). ان الحفظ في زمن قصير وعلى عجل (مثل هذا الحفظ يكون وقتيا)[5] سرعان ما يزول وينسى وقديما قيل (لا تأخذ العلم جملة فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة)[6] .

وللزمن عند الشافعي أهمية كبرى يوصي باستغلاله والاقتصاد فيه فيقول :

تبين زمـــــــانك ذا واقـــــــتصد فإن زمانك هذا عذاب[7] .

يقول الشافعي (صحبت الصوفية ، فما انتفعت منهم الا كلمتين ، سمعتهم يقولون الوقت سيف . فإن قطعته والا قطعك . ونفسك إن لم تشغلها بالحق ، والا شغلتك بالباطل)[8] .

ان الشافعي نموذج فريد (للحرص على استغلال الزمن ، فقد امضى دقائق عمره في

---

(١) د. فواد البهي السيد ــ الاسس النفسية للنمو ــ ص١٤٤ .
(٢) د. عزت سيد اسماعيل ــ علم النفس الفسيولوجي ص٧٥٧ .
(٣) دايل كارنيغي ــ فن الخطابة ــ ص٥٥ .
(٤) جميل صليبا ــ علم النفس ــ ص٤١٥ .
(٥) د. فاخر عاقل ــ علم النفس ــ ص٤١٥ .
(٦) القرطبي ــ جامع بيان العلم ــ ص١٦٨ .
(٧) ديوان الامام الشافعي ــ نعيم زرزور ــ ص٣٠ .
(٨) ابن قيم الجوزية مدارج السالكين ــ ج٣ ص١٣٤ .

مثابرة وكفاح فيما ينفع الناس ، مضيفا الى حصيلة الفكر الاسلامي رصيدا ثرا عجز **عن تقديم ما يشبهه كثير من جهابذة عصره فاستحق احترام الأوساط المثقفة**)[1] .

ولأهمية عنصر الزمن عند الشافعي حرص الحرص كله عليه فكانت حياته مثلا حيا وتطبيقا واقعيا متميزا لتلك الأهمية فلقد مات رحمه الله عن أربعة وخمسين عاما ومع ذلك فقد ترك للأجيال تراثا وفيرا وآثارا واسعة فاقت عمره الزمني وأربت على حياته فها هو تلميذه الربيع يوضح ضخامة الجهد العلمي الذي بذله في أربع سنين قضاها في مصر فيقول : (أقام الشافعي هاهنا في الفسطاط أربع سنين ، فأملى ألفا وخمسين ورقة وخرج كتابه الأم ألفي ورقة وكتاب السنن وأشياء كثيرة كلها في أربع سنين وكان مع ذلك عليلا شديد العلة وربما خرج الدم وهو راكب حتى يملأ سراويله وخفه ــ يعني من **البواسير** ــ)[2] .

ويحث الشافعي على استغلال زمن الشباب فإن فيه الحيوية الكاملة والقوة الكامنة فيقول :

أأنعم عيشا بعدما حل عارضي طلائع شيب ليس يغني خضابها
وعزة عمر المرء قبل مشيبه وقد فنيت نفس تولى شبابها[3]

وينبه الشافعي إلى سرعة الزمن وسيره الحثيث وانه انفاس معدودة :

ياواعظ الناس عما انت فاعله يامن يعد عليه العمر بالنفس[51]

ويحسن بنا بعد هذا العرض أن نلم خيوطه ونجمع عناصره وشروطه خاصة إن بعض هذه النقاط لم نعرضها من قبل وكأنى بالماوردي يضع لنا فصلًا مختصراً يذكر فيه ما عرضنا ثم يضيف إليه ما يتمم ما قصدنا فيقول : (وأما الشروط التي يتوفر بها علم الطالب ، وينتهي معها كمال الراغب مع ما يلاحظ به من توفيق ، ويمد به من المعونة ، فتسعة شروط الأول : العقل الذي يدرك به حقائق الأمور . والثاني : الفطنة التي يتصور بها غوامض العلوم . والثالث : الذكاء الذي يستقر حفظ ما تصوره وفهم ما علمه . والرابع : الشهوة التي يدوم بها الطلب ولا يسرع إليها الملل . والخامس : الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلف الطلب . والسادس : الفراغ الذي يكون معه التوفر ، ويحصل به الاستكثار . والسابع : عدم القواطع

---

(١) حكمت صالح ــ دراسة فنية في شعر الشافعي ــ ص١٩ .
(٢) محب الدين الخطيب ــ مع الرعيل الأول ــ ص٦٤ ، ص٦٥ .
(٣) ديوان الامام الشافعي ــ نعيم زرزور ــ ص٣١ .

المذهلة من هموم واشغال . وأمراض والثامن : طول العمر واتساع المدة ، لينتهي بالاستكثار إلى مراتب الكمال . والتاسع : الظفر بعالم سمح بعلمه ، متأن في تعليمه فإذا استكمل هذه **الشروط التسعة فهو أسعد طالب وأنجح متعلم**)[1] .

واذا كان الماوردي قد اسهب وفصل فإن الأسكندر ، وقد كان محبا للعلم ذواقه للحكمة في زمنه لخص تلخيصا شديدا حين قال « يحتاج طالب العلم الى أربع : مدة ، وجدة ، وقريحة ، وشهوة ، وتمامها في الخامسة : معلم ناصح) .

(١) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ــ ص٥٣ .

حفـــظ المعلـومـــات

ما أعظم وأبدع وأروع صنع الله في الانسان فان من نعم الله عليه ان أمده بقدرات وفيرة وجهزة بملكات عظيمة تعينه على إدراك المعلومات وتساعده على تحصيلها وتيسر له تنسيقها وتصنيفها وتمكنه من حفظها واستظهارها ثم اخراجها وابرازها عند الحاجة إليها . إنها أجهزة غاية في الدقة تبرز بحق صورة الإعجاز الإلهي في صنع الانسان في اروع صورة وأعظم آياته ، أجهزة من دم ولحم تستقبل الأشياء وتدرك المعلومات وتنظم المدركات وتفرق بين المتناقضات وتحفظ بقانون تداعي المعاني منسقة منظمة فما أشبها ببنك للمعلومات يستقبلها صراف ماهر في الذاكرة يقوم بوضع كل معلومات مع أختها من نوعها وجنسها ثم يودعها الخزانة وهي الحافظة لتستقر فيها في مأمن إلى ان يحين وقت الحاجة إليها . إن الانسان اليقظ الوجدان ، المفتوح القلب ليدرك عظمة الخالق وبراعة الصانع عزوجل في هذه العجائب فلا يملك إلا ان يهتف من أعماقه سبحان المبدع تبارك الله رب العالمين . ألا ما أحوج الانسان إلى النظر المتبصر وهو يرى كيف تختزن هذه المدركات عبر هذه الأجهزة لكثير من العلوم والمعارف والأحداث والتجارب وكيف عرف وتعلم الكثير الكثير مما كان يجهله وطوع الزمن لاعادة هذه العلوم والمعارف وتلك الأحداث والذكريات على مدى تاريخ البشرية كلها .

ولقد قدر بعض اخصائيي الحاسبة الالكترونية المعلومات المخزونة في ذاكرتنا (إنها تعادل بليون مليون قطعة معلومات باستعمال لغة الحاسبة الالكترونية)[1]

والتاريخ البشري سجل للوقائع ونافذة تطل منها الاحداث المخزونة في عقل الانسان فيستفيد الكثير منها متى شاء ومن خلال هذه القوى الذاكرة الحافظة استطاع سلفنا الصالح رضي الله عنهم أجمعين أن يحفظوا لنا ديننا بفضل الله عزوجل الذي منح هذه الأمة على يد نبيها (ﷺ) من القوى الحافظة ما لم يعطها لأمة من الأمم ذلك أن هذه الأمة أمة أمية لاتكتب ولا تحسب كما أخبر عنها نبيها (ﷺ) فعوضها الله عزوجل الذكاء الخارق والحفظ الثابت وأعطاها الكتاب العزيز الذي يربى ملكة الحفظ وينمى استعدادات الذكاء والفهم ويصقل المدارك استعدادا لابلاغ كلمة الله عزوجل الذي

---

(١) د. محمد الربيعى ــ الوراثة والانسان ــ ص ١٦٢ .

يقول (ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ) الأنعام ١٢٤ إن معجزة القرآن الكريم أنه أعجز أمة أمية بلغت في الحفظ المتين والفهم العميق والقدرة على التعبير عن خوالج النفس وأحاسيس الفكر ومشاعر الاعماق درجة البيان الساحر العجيب والفصاحة النادرة الدقيقة فلقد كانت لهم من سرعة الحفظ ورهافة الحس والقدرة على الإبانة عن مكنونات النفس ماجعل الشاعر منهم يرتجل القصيدة الطويلة إرتجالا .

وكان لكل شاعر راوية يحفظ كل شعره فلا تندّ عنه كلمة وكان الخطيب أو المفاخر يقف في النادي أو في السوق أو في المحفل فيلقي عفو البديهة ولحظة الخاطر ما يملك على الناس أسماعهم ويأسر قلوبهم . ولقد كان من هؤلاء علماء النسب الذين يحفظون القبائل بأفخاذها وبطونها ويعرفون مفاخرها ومثالبها كل ذلك محفوظ في الصدور لا مكتوب في السطور لأنهم أمة أمية فلما جاء القرآن الكريم بهرهم وأخذهم من أنفسهم وأعجز بيانهم وأعيى فحولهم فخروا له سجدا وقالوا ما يقول هذا بشر ... وهذا نبى الاسلام (ﷺ) لشدة حرصه على القرآن وحفظه وخوفه أن يتفلت منه شيء كان إذا قرأه جبريل أسرع بالترديد وراءه أو معه مخافة أن ينسى شيئا منه فطمأنه القرآن وقال له ربه (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾) القيامة وقال له (وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾) طه ١١٤ ولا عجب حينئذ أن نجد في أمة الاسلام رجالا إختصهم الله لحفظ دينه وحماية شريعته فمنحهم قوة نادرة وعجيبة في الحافظة من أمثال إلامامين الشافعي والبخاري رضي الله عنهما ... دخل البخاري بغداد وهو شاب دون العشرين فاستصغره علماء بغداد وأرادوا إمتحانه لما سمعوا عنه من قوة حفظه وتثبت حديثه فجاؤوه بمائة حديث قد غيروا سندها وبدلوا رجالها وضللوا في سلسلة رواتها لكنه رحمه الله ببراعته الفائقة أرجع كل حديث إلى أصله فصحح سنده وعدل رجاله وسوى سلسلة رواته فأعجبوا بقوة حافظته وبهروا بشدة تمكنه وأقروا له جميعاً بالامامة ومما يذكر في العصر العباسي ان شاعرا قصد أميرا لمدحه طلبا للجائزة وكان هذا الأمير معروفا بالبخل وله غلام وجارية أما الغلام فكان من قوة حفظة يحفظ كل مايسمعه من أول مرة وكانت الجارية تحفظ ما تسمعه من المرة الثانية وكان الأمير يحفظ ما يسمع في المرة الثالثة . فلما فرغ الشاعر من قصيدته قال له الأمير ما جئتنا بجديد فهذا الشعر قد مدحنا به من قبل !! قال الشاعر : كيف ووالله ما سمعته من قبل وإنما هو من شعري ؟ فقال الأمير ياغلام اقبل ... أنشد هذا الشاعر القصيدة التي تحفظ فأنشده الغلام إياها ثم قال ياجارية

انشدى هذا الشاعر القصيدة التي تحفظين فأنشدته إياها .

فقال الأمير للشاعر أما يكفيك هذا ؟ فأنشده إياها . فخرج الشاعر مفحماً يشك في نفسه ويظن أن غيره قد قال فعلا تلك القصيدة !! وفي زماننا هذا نعرف الكثير من علماء السنة كانوا يحفظون الكتب الستة عن ظهر قلب ... نعم فعبر حفظ المعلومات وعبر نقلها استطعنا أن نقف على الكثير من أمجاد أمتنا ومن أثار أجدادنا ومن روائع علومنا وكأنا فقدنا أعلامها بالأمس القريب . إن مما إمتازت به هذه الأمة إهتمامها بالحفظ فلم يكن لها ما تسجل به تراثها وعن طريق الحفظ حفظ لنا الشعر والنثر الجاهلي الذي لم يسجل أغلبه إلا في العهد العباسي كما حفظ لنا من النثر الخطب والمفاخرات والمساجلات وأنساب العرب أما في العصر الاسلامي فقد أصبح للحفظ مكانة أسمى وأعظم حظى بها القرآن الكريم فكان يتلقى جيلا بعد جيل من حفظ في الصدور وكتابة في السطور حتى جاء عصرنا هذا فانضم الى الحفظ والكتابة التسجيل الصوتي للقرآن الكريم وصدق الله عزوجل إذ يقول (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩) الحجر.

وكما حظى القرآن بهذه الرعاية وهذا الحفظ من الله عزوجل حظيت السنة بذلك أيضا ، فتلقاها جيل عن جيل ووضعت فيها ولها علوم كانت من مفاخر هذه الامة ولم تحظى بها أمة من الأمم ، علوم وضعت أصولها واكتملت قضاياها في رحاب الاسلام كعلم مصطلح الحديث وعلوم الجرح والتعديل وأصول الفقه . ولا ننسى ما للبيئة الصحراوية من أثر عظيم في تقوية الذهن وصفاء القريحة وقوة الذاكرة فإن الشمس المشرقة والسماء الصافية والأرض المتمدة التي يطلق فيها النظر فلا يحجبه شيء ، إن في ذلك انماء للأعضاء والمشاعر واطلاق للأفكار والعواطف وفيها تتسع المدارك مع حقائق الكون ويصفو الفهم ويملك قوة التصور الحر والتفكير المطلق وطبع الفطرة النقية على قوة الذاكرة وحدة الذكاء كما لا يخفى على الباحث الدور الذي قام به العلماء وخاصة علماء الحديث والسير إذ حفظوا لنا هذا التراث الضخم بشكل لم تعرف له البشرية مثيلا في الدقة والأمانة وصحة النقل . فقد كان (للحفظ مكانة عند سلفنا بنوا عليه موضوعاتهم وأبحاثهم خاصة في علم الحديث عرفوا سيء الحفظ وأنواعه وحكم روايته)[1] وما كتاب الشافعي في الحديث ـــ مسند الامام الشافعي ـــ إلا ثمرة طيبة من تلك الدوحة الباثقة والشجرة المباركة . ولقد كان للحفظ في علوم الحديث درجات

(١) د. محمود الطحان ـــ تيسير مصطلح الحديث ـــ ص ١٢٥ .

يتفاوت فيها العلماء ، وكانت الدرجات العلمية توضع للعالم على قدر حفظه وتثبته وقوة تحصيله طولا وعرضا (وأهل الحديث مراتب ، أولها : الطالب وهو المبتدىء فيه . ثم الحافظ وهو الذي أحاط علمه بمائة ألف حديث ، متنا وإسناداً ، وأحوال رواته جرحا وتعديلًا وتاريخاً . ثم الحجة وهو الذي أحاط علمه بثلاثمائة ألف حديث)[1] .

ولا عجب ان كان للحفظ في حياة الشافعي دور كبير في صقل مواهبه وتهذيب ملكاته وتوسيع مداركه ، فقد حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين ، وناهيك بحفظ القرآن الكريم خاصة في هذا السن المبكرة من اكساب ملكة الحفظ قوة راسخة . وحفظ موطأ الإمام مالك وهو ابن عشر سنين وحفظ من شعر هذيل وحدها عشرة الاف بيت على الأقل . وحفظ كما قال (أروى لثلاثمائة شاعر مجنون) وعرف من أحوال العرب ونسبهم الكثير وكان لكل ما حفظ أثره في سلامة تفكيره وقوة حجته ورقة بيانه وسمو منزلته حتى نبغ في كل علوم عصره . وللحفظ ذكريات قديمة في ذاكرة الامام فقد أعفى بسببه في طفولته مكافأة له من شيخه على قوة حفظه وسرعة تحصيله ، من أجر التعليم ورسوم الدراسة ويروى الشافعي فيقول : كنت أنا في الكتاب أسمع المعلم يلقن الآية فأحفظها أنا ، ولقد حفظت جميع ما أملى ، فقال لى ذات يوم ما يحل لى أن آخذ منك شيئا . وكان الشافعي وهو بعد طفل صغير يقوم مقام المعلم حتي يحضر ويأخذ مكانه إذا غاب مقابل هذا الاعفاء الذي منحه إياه المعلم وهذا إن دل على شيء فانما يدل على ان الشافعي كان شخصية كبيرة منذ صغره يعرف ذلك واثقا من نفسه .

فكيف يقوم مقام المعلم ويجلس لتحفيظ التلاميذ من لا يملك شخصية قائدة ، وحقا قيل المرء حيث يضع نفسه (إن إيمان الشافعي ورغبته الأكيدة في الاغتراف من بحور العلم والمعرفة وثقته بنفسه واعتماده عليها بعد الله ، كل ذلك جعله ذا حافظة قوية لا يقع بصره على كلمة إلا حفظها ، وقيل فيه انه كان يغطي الصفحة اليسرى وهو يحاول حفظ اليمنى . حتى لا تقع عينه على كلمة في تلك الصفحة فيحفظها قبل أن يتم حفظ الصفحة اليمنى)[2] يقول المفكر الروماني كونتليان (إن قوة الذاكرة هي الدليل الأوثق للطفل .. فينبغي أن تكون قوية في التلقي وأمينة في الاحتفاظ بالانطباعات التي تلقتها)[3] ويقول ان خلدون موضحاً الدور التربوي للحفظ من الارتقاء بالمحفوظ وصقل الملكات (وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من

---

(١) انظر مقدمة فتح الباري ــ للاستاذ طه عبدالرؤوف سعد ــ مصطفى محمد الهواري ــ السيد محمد عبدالمعطي ــ ج١ ، ص٧ .
(٢) ديوان الامام الشافعي ــ حققه وقدم له اسماعيل اليوسف ــ ص٨ .
(٣) د. محمد ناصر ــ قراءات في الفكر التربوي ــ ج١ ــ ص٢١٩ .

بعده ثم إجادة الملكة من بعدها)[1] ويعلل ذلك فيقول (فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملكة الحاصلة لان الطبع إنما ينسج على منوالها وتنمو قوى الملكة بتغذيتها)[2] ويضرب بعض الأمثلة (فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر ، وملكة الكتابة بحفظ الاسجاع والترسيل والعلمية بمخالطة العلوم والادراكات والابحاث والأنظار ، والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخريج الفروع على الأصول ، والتصوفية الربانية بالعبادات والأذكار)[3] .

ولقد اهتم علماء التربية منذ عهد بعيد بتنمية هذه الملكة فإن الحفظ اساس الفهم والدراية كما يقول ابو العتاهية :

من منح الحفظ وعى ومن ضيع الحفظ وهم

وقد ذكروا ان الشافعي رحمه الله كان في رحلة للعلم وزودته أمه ببعض الدراهم وكان يحمل مجموعة من القراطيس مكتوب فيها من العلم ما لم يحفظه بعد ، فخرج على القافلة التي كان فيها جماعة من قطاع الطرق أخذوا منه الدراهم والقراطيس فبكي الشافعي رضي الله عنه فسأله رئيسهم لماذا تبكي ؟ قال لهذه القراطيس التي أخذتموها قال اتبكي على فقدك القراطيس ولا تبكي على فقد الدراهم ! قال نعم فأمرهم أن يعطوه القراطيس فأسرع الشافعي في حفظها وكانت هذه الحادثة سببا في أنه رحمه الله كان يحفظ كل ما يقع في يده مخافة أن يفقده ثم قال رحمه الله :

العلم ليس ما حوى القمطر ما العلم إلا ما حواه الصدر

في التربية الاسلامية يكون الحفظ من المسلمات الأولى على كل مسلم ومسلمة ويصبح واجبا عليهما أن يحفظا من الايات القرآنية والأدعية النبوية والشعائر القولية على الأقل ما يعينهما على أداء الصلاة والوفاء بالعبادة وقد وضع الرسول (ﷺ) قواعد الحفظ وبين لأصحابه كيف يداومون على مراجعة القرآن الكريم وتعهده بالمداومة على تلاوته وترتيله فإن في تركه اسراع بنسيانه فيقول مصورا لهذا المعنى (تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيا من قلوب الرجال من الابل من عقلها)[4] وقال عليه السلام (تعلموا كتاب الله وتعاهدوه وتغنوا به ، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلتا من المخاض في العقل)[5] .

---

(١)(٢)(٣) ابن خلدون ــ مقدمة ابن خلدون ــ ص ٥٤٢ .

(٤)(٥) ص.ج.ص.ج١ ٢٩٥٦ ــ ٢٩٦٤ .

ويبين أن الحافظ الماهر بالقرآن مع الكرام البررة ، والذي يقرأ وهو يشتد عليه له أجران وكما أمر (ﷺ) بالحفظ فقد حذر من الترك المؤدي إلى النسيان فمن حفظ شيئا من كتاب الله ثم نسيه فهو نعمة ضيعها ويحشر يوم القيامة مصابا بالجذام ... قال رسول الله (ﷺ) (مامن رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقى الله يوم يلقاه وهو أجذم) رواه الامام أحمد وعن أنس رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) قال (عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنبا اعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها) أخرجه الترمذي وأبو داود . من كثرة توجيهات علماء الأمة بالحرص على حفظ العلم وعدم نسيانه فان نسيان العلم كبيرة قال الزهري (آفة العلم النسيان وترك المذاكرة)[1] وقال الحسن (غائلة العلم النسيان)[2] في ميدان التربية ظهر حديثا اتجاهان أحدهما يرى أن التعليم يجب ان يسير على نمطه القديم من التركيز على الحفظ ويقولون (من حفظ المتون حاز الفنون) والاتجاه الآخر وهو الأقوى تأثيرا يرى التركيز على الفهم وإعمال العقل . وهؤلاء هاجموا النمط الذي يرتكز على الحفظ دون فهم أو اهتمام بالاعتبارات الأخرى كميول الطلبة ونشاطهم . والحق ان كلا الاتجاهين ناقص وأن كلا من الحفظ والفهم متمم للآخر وان الفهم دون حفظ للقواعد والنصوص أكثر اسراعا الى النسيان . وبالتجربة الواقعية في ميدان العلم والتربية وجد أن النجاح المطلوب دائما يسير في ركاب الذين يقيدون ما يفهمون بالحفظ وتلك وجهة سبق إليها الامام الشافعي رضي الله عنه فهو لا يرى تعارضا بين الاتجاهين والعلاقة بينهما في نظره علاقة تكامل لا تناقض ويرى ان الحفظ وسيلة لا غاية فيقول (العلم ما نفع ليس العلم ما حفظ)[3] والامام علي رضي الله عنه يقول (إعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل)[4] أما ابن مسعود رضي الله عنه فيقول (كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة)[5] ولقد سئل الإمام الشافعي رحمه الله عمن يحمل العلم دون تفهم له وتفقه فيه فقال (هذا مثل حاطب ليل يقطع حزمة الحطب فيحملها ولعل فيها أفعى تلدغه وهو لا يدري)[6] وكان رحمه الله يفرق بين من يحفظ دون فهم والذي يحفظ بفهم فيقول (ومن كان عالما بما وصفنا بالحفظ لا بحقيقة المعرفة فليس له أن يقول أيضا بقياس ،

---

(١)(٢) سنن الدرامي ج١ ص ١٥٠ .
(٣) الذهبي سير اعلام النبلاء ج١٠ ص ٨٩ .
(٤) نهج البلاغة ص ١٨٥ .
(٥) الماوردي ــ ادب الدنيا والدين ص ٤٥ .
(٦) الرازي ــ ادب الشافعي ــ ومناقبة ــ ص ١٠٠ .

لأنه قد يذهب عليه عقل المعاني)[1] ويقول (قد يحمل الفقه غير فقيه ، يكون له حافظا ولا يكون فيه فقيها)[2] .

(ليس العلم ما خزنته الدفاتر وانما العلم ما خزنته الصدور)[3] ويقول الماوردي مصورا مصدر تلك الآفة (وربما اعتنى المتعلم بالحفظ ، من غير تصور ولا فهم ، حتى يصير حافظا لالفاظ المعاني ، قيما بتلاوتها وهو لا يتصورها ولايفهم ما تضمنته ، ويروى بغير روية ، ويخبر من غير خبرة ، فهو كالكتاب الذي لا يدفع شبهه ، ولا يؤيد حجة)[4] والواقع أن العلوم كثيرة وان الانسان يحار ماذا يحفظ منها وماذا يترك وكيف وعلى أي أساس يحدد ما ينبغي حفظه ؟ وهنا نجد الشافعي وقد انبرى يزيل هذه الحيرة ويفتح آفاقاً جديدة ويضع قانونا ضابطا في غاية الدقة والروعة فيقول (وكل مالم يكن فيه حكم فاختلاف اللفظ لا يحيل معناه)[5] وقال أيضا (وما أخذ حفظا فأكثر ما يحترس فيه منه إحالة المعني)[6] .

إنها قاعدة عظيمة ، وفائدة جليلة ، أوضح بها الشافعي أن هناك علوما لابد فيها من حفظ النصوص واستظهار القواعد ولا يكفي فيها أبداً الفهم العميق بل لابد للعالم والمتعلم أن يكون دائما مستحضرا لها مستعداً بالحفظ لتلاوة نصها ، ويتجلى ذلك بوضوح في علوم الشريعة ويتأكد ويتوجب في القرآن الكريم وفي علوم القانون والطب وكل ما من شأنه أنه لو تغير في نصه حرف أحال معناه واعطاه معنى وحكما جديدا حينئذ يتحتم حفظ تلك الحقيقة ولايحق روايتها بالمعنى أبدا ، فمثلا عندما يقول الله تعالى (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) الماعون ٤ ــ ٥ فلو أننا وضعنا مكان (عن) في الاية حرف (في) تغير المعنى فان (عن) حرف جر يفيد التجاوز وهذا أعم وأشمل أما (في) فهي تفيد الظرفية ومعناه انشغاله في داخل الصلاة ، وهذا معنى قاصر ولا يتسق مع صدر السورة الذي يتحدث عن المكذب بالدين . مثال آخر يبين إلى أي مدى يكون خطر عدم حفظ ونقل النصوص بدقة بالغة ، من المعروف عن المستشرقين أنهم جندوا لمحاولة النيل من الاسلام بطريق الدس الخبيث والتشوية المتعمد ومحاولة تصيد الأخطاء وذلك في وهمهم ووضع السم في العسل بقصد تشكيك المسلمين

---

(١)(٢) الشافعي ــ الرسالة ــ ص٥١١ ، ص٤٠٣ .
(٣) القرطبي ــ جامع بيان العلم ــ ص ٢٣ .
(٤) الماوردي ــ ادب الدنيا والدين ــ ص ٤٥ .
(٥)(٦) الشافعي ــ الرسالة ــ ص ٢٧٤ ص ٢٧٤ .

في دينهم وتضليلهم في تراثهم وتلك الخبيثة تظهر في كل اعمالهم وصدق الله (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾) آل عمران .

وهم وإن بهرهم الحق واستولى على قلوبهم وغلبهم حب العلم فأخذهم من أنفسهم إلا أنهم إنما جندوا سلفا بغرض النيل من الاسلام فوصولا إلى هدفهم هذا المنكود يحاولون تحريف الكلم والتصرف في النصوص خلسة بما يخدم طلبتهم . وهذا المستشرق جولد تسيهر بخبث عفن وفكر آسن أراد أن يوهن أساساً من أساسي البناء الاسلامي وهو السنة فقال ان البناء الاسلامي غير صحيح لأنه يقوم على اساس باطل ذلك ان الأحاديث النبوية التي بين أيدينا غير صحيحة بل هي من كلام الرواة الذين أرغمهم الأمراء والملوك على كتابة أحاديث منسوبة الى النبي (ﷺ) زورا وبهتانا وعزز الخبيث رأيه بكلام للامام الزهري قوله (إن هؤلاء ـــ أي خلفاء بنى أمية ـــ أكرهونا على كتابة الأحاديث) ولكن المستشرق الماكر نقل كلمة الأحاديث بدون أل المعرفة وصولا الى غايته وكتبها أحاديث بدون أل ليحكم الخطة ويوهم القارىء ان أصحاب الحديث تحت ضغط وإكراه أمراء بنى أمية إختلقوا أحاديث وضعوها من عند أنفسهم ونسبوها إلى الرسول (ﷺ) كذبا وبهتانا وحاشاهم ان يفعلوا وهم يقرؤون حديث رسول الله (ﷺ) (إن كذبا علي ليس ككذب على أحد ، فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[1] وقوله ﷺ (إن الذي يكذب علي يبنى له بيت في النار)[2].

إن المقصود الحقيقي ان كلمة الأحاديث وردت في عبارة الزهري تبين أن علماء الحديث تهيبوا في بادىء الأمر أن يكتبوا حديث رسول الله (ﷺ) لورود نهي عن النبي (ﷺ) عن كتابتها مخافة أن يلتبس الحديث بالقرآن ويختلط على الناس التمييز بين القرآن والسنة فلما استقرت الملكة وكثر حفاظ القرآن وأصبح من السهل التمييز بينهما خاف الأمراء من ضياع حديث رسول الله (ﷺ) فأمروا العلماء بجمع الأحاديث وتدوينها كما فعل عبدالعزيز بن مروان وولده الخليفة عمر بن عبدالعزيز رحمهما الله والزهري يحكي ذلك على سبيل التورع والخوف لاعلى سبيل التأثم بوضع أحاديث ليست لرسول الله (ﷺ) فانظر كيف إحتال هذا المستشرق اللئيم وساعده ترك أل التي للتعريف للوصول الى فريته[3] .

---

(١)(٢) ص.ج.ص.ج١ ٢١٤٢ ـــ ١٦٩٤ آ

(٣) راجع د. مصطفى السباعي ـــ السنة ومكانتها في التشريع ـــ ص٢٢١ . أيضا سالم علي البهنساوي السنة المفترى عليها ـــ ص٢٩٧ .

ومن هنا نرى أن الشافعي رحمه الله لايرى بأسا بأن يدرس الانسان مايشاء دون حفظ مادام فهمه هذا يجعله يلم بأطراف الموضوع ويجمع قضاياه ويحيط بجزئياته ولايخرجه عن حقيقته أو يذهب بروعته وجماله كالشعر ونحوه .. وأن يعبر عن رأيه أو يترجم فكره ويكتب علمه باسلوبه الخاص بحريته كاملة مادام اسلوبه لا يغير حقيقة ذلك العلم ويسلبه هدفا من أهدافه .. إن حفظ العلوم اسلوب تربوي قديم يجعل العالم أو المتعلم مستحضرا لعلمه ومتهيئا له في كل حياته وأحواله مستعدا لبذله متى طلب منه وتلك سمة العلماء أن يعيشوا مع علمهم فيسعدوا ويُسعدوا به ويبذلوه لكل من طلبه وما أجمل قول الشافعي حين يقرر هذه الحقيقة فيقول :

علمـــي معـــي حيثما يممت ينفعنـــــي قلبـــي وعـــاء له لا بطـــن صنـــدوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق[١٧]

فانظر كيف يكون حفظ العلم بالنسبة للعالم ذا فائدة فعالة يعيش معه في كل حال في بيته أو في سوقه .. في ليله ونهاره .. يلازمه في كل شؤونه وتلك غاية مثلى للتربية ولقد كان للشافعي قواعد كلية أشبه ما تكون بالقوانين التي تعطي العمومية وتغطي كل الجزئيات المماثلة إنه اكتسب تلك الخبرة من كثرة كتاباته في الفقه وأصول الفقه حتى أصبحت عباراته تحتاج إلى الكتب المستفيضة والابحاث المتخصصة لشرحها وتوضيحها وهذا إن دل على شيء فانما يدل على عقليه ألمعية تصوغ الحقائق وتستنتج التعميمات بسهولة .

ومن ذلك قوله في موضوعنا الذي نحن بصدده (ما سوى كتاب الله أولى أن يجوز فيه إختلاف اللفظ مالم يحل معناه)[١] حس مرهف وأصل تربوى دقيق وفهم استنباطي محكم إنه يبين أثر المواقف التعليمية في حفظ المعلومات وتثبيتها في الذاكرة فيطلب من الطالب أن لايكون حييا ــ اي خجولا ــ فان العلم يضيع بين مستحي ومتكبر ويقول الشافعي (من ضحك منه في مسألة لم ينسها أبداً)[٢] وقال (ما ضحك من خطأ رجل إلا ثبت صوابه في قلبه)[٣] وتلك حقيقة نفسية وقضية تربوية لانها تفجر في الانسان طاقات الغضب والشعور بالألم في هذا الموقف وذلك يصاحب هذه المسألة التي ضحك عليه بسببها فكيف ينساها ؟ إن الخبرات التعليمية والانشطة العملية والممارسات الفعلية

---

(١) الشافعي ــ الرسالة ــ ص٢٧٤ .
(٢) عبدالغني الدقر ــ الامام الشافعي ــ ص٣٧٤ .
(٣) البيهقي ــ مناقب الشافعي ــ ج٢ ــ ص٢١٣ .

لأساليب التعليم وفنون التربية لها أثر إيجابي فعال أكبر بكثير من النظريات التعليمية التجريدية . فالأولى أعظم وأقوى بلا جدال في رسوخ المعلومات وثبوتها في المدارك وهذا ما حاول علماء التربية التعبير عنه وطالبوا بتطبيقه في الميدان التربوي حديثا ان هذا الذي (طرحه فلاسفة التربية المعاصرة من أمثال جون ديوى الذي اعتبر مكتشف الخبرة التعليمية)[1] .

ما هو في الحقيقة إلا ما عبر عنه الشافعي من قرون متطاولة في تلك العبارة الموجزة السابقة وليست هذه الاطروحة حديثة حتى يظن بها أمثال هؤلاء أنهم سبقوا في تحديد أن أثر التعليم عبر المواقف أرسخ في الحافظة من تلك المعلومات التي يلقيها المعلم في دروسه نظريا فمن الطرق الميسرة للعلم والوسائل المعينة على الحفظ إشراك أكثر من حاسة في عملية التعليم وتدوين المحفوظات منه ، ومن البداهة أن المعلومة التي يشترك في إيصالها للعقل السماع والرؤية أوثق . فقد ثبت علميا ان ما يسمع ويرى في نفس الوقت يثبت في العقل بنسبة ٧٥٪ أما ما يسمع فقط فنسبة أقل من ٢٥٪ ومن هنا كان تأثير الاذاعة المرئية المسموعة (التلفاز) أقوى ومن هنا أيضا ولشعور المسؤولين عن التربية بحاجتهم إلى تثبيت المعلومات في ذهن الطالب تُستعمل وسائل الايضاح ويكلف المدرس دائما باعدادها وتحضيرها وصولا إلى هذا الهدف من التعليم . ولقد اعتمد الوحي على تثبيت الايمان وتقوية اليقين بإعمال حاستى السماع والرؤية معا وذلك مع الانبياء عليهم السلام فعزير عليه السلام يمر على قرية خاوية على عروشها فيقول (قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) البقرة٢٥٩ فأراد الله أن يثبت له هذه الحقيقة بأمثلة هي من قبيل عين اليقين فيقول جل شأنه بعد أن أماته الله مائة عام ثم بعثه (فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ البقرة أما ابراهيم عليه السلام فيقول (رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ) البقرة ٢٦٠ فيقول الله عزوجل (أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾) . البقرة . فيأمره الله ان يأخذ أربعة من الطير يذبحها ويقطعها ويخلط لحمها ثم يوزعها على مجموعة من الجبال ثم يدعوها فتسرع إليه سعيا فيعلم مدى قدرة الله تبارك

---

(١) د. ماجد عرسان ــ الفكر التربوي عند ابن تيمية ــ ص١٦٤ بتصرف .

وتعالى عن طريق الرؤية والمشاهدة . وموسى عليه السلام يذهب لمناجاة ربه فيرتد بعض اتباعه الى عبادة العجل الذي صنعه السامرى وحين يسمع هذا يغضب غضبا شديداً أما حين يراه بعينه فيشتد غضبه وتأثره فتسقط الالواح من بين يديه لما رأي وشاهد بعينه . ولما إشتد الأمر على النبي (ﷺ) من ايذاء قومه له ومقاومتهم لدعوته وطال هذا الأمر حتى آلم النبي (ﷺ) أراد الله أن يطمئنه فيريه من آياته الكبرى فقال جل جلاله (لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا) طه ٢٣ (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾) النجم ، وبالنسبة لآحاد الأمة كثر الطلب من القرآن بإعمال النظر مع امعان الفكر وذلك كله يؤكد حقيقة علمية هي أن ما يسمع لايؤثر تأثيرا كبيرا كالذي يرى ويسمع ولقد جاء في جوامع كلم رسول الله (ﷺ) ما ينص على هذه القاعدة الكبرى حيث قال (ﷺ) (ليس الخبر كالمعاينة)(١) وفي رواية أخرى ذكر الرسول (ﷺ) السبب في تأثير الرؤية في العلم فقال (ليس الخبر كالمعاينة إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل ، فلم يلق الالواح فلما عاين ماصنعوا ألقى الألواح فانكسرت)(٢) من هنا اعتبر الشافعي المعاينة أول مراتب المعرفة (ولا يسع شاهدا ، ان يشهد إلا بما علم والعلم من ثلاثة وجوه ما عاينه الشاهد فيشهد بالمعاينة ومنها ما سمعه فيشهد بما أثبت سمعا من المشهود عليه ومنها ما تظاهرت به الأخبار مما لايمكن في أكثره العيان ..)(٣) .

وكان الشافعي رحمه الله يعتمد اعتماداً كلياً في هذا المجال على كثرة مناقشات التلاميذ ومحاوراتهم وعقد المناظرات المستمرة بينهم وصولا الى هذه الغاية . ومن هذا القبيل اي العمل على تثبيت المعلومات والحرص على حفظها واستحضارها فقد أوجب العلماء تقييد العلم أثناء التلقي بالكتابة كما أوجبوا على المعلم ان يوجه الطلاب إلى ذلك ويرشدهم إلى أن هذا أدعى إلى تقويم العلم وحفظه وكان الشافعي رحمه الله دائم التوجيه والارشاد لتلاميذه في هذا المجال (من حضر مجلس العلم بلا محبرة وورق ، كان كمن حضر الطاحونة بغير قمح)(٤) وهذا في الواقع تشبيه رائع له وزنه وقيمته في التربية من حيث تقريب المعاني وترغيب الطلاب بقبول التوجية وتثبيت المفهوم بالمثال في ذهن الطلاب ، إنه لون من الوان التربية تجده دائما في أقوال الشافعي مما يدل على مدى تعمقه وتمرسه في هذا المجال بتقريب المعاني وتوضيح الحقائق باسلوب تربوي رفيع يقول رحمه الله :

---

(١)(٢) ص.ج. ص ٥٣٧٣ ــ ٥٣٧٤ .
(٣) الشافعي ــ الام ــ ج٧ ص ٩٠ .
(٤) ديوان الامام الشافعي ــ إسماعيل اليوسف ص٢٧٠ .

العلـــم صيـــد والكتابـــة قيـــده قيـــد صيـــودك بالحبـــال الواثقـــة
فمـــن الحماقـــة ان تصيـــد غزالـــة وتتركهـــا بين الخلائـــق طالقـــة[1]

وقال أيضـــا :

إن الـــرسول الـــذي يأتى بلاعـــدة مثل السحاب الـــذي يأتى بلا مطـــر[2]

ويؤكد ابن جماعة رأى استاذه الشافعي فيقول على الطالب (أن يحضر معه الدواة والقلم للتصحيح وضبط ما يصححه)[3] أما الامام الماوردي فيبين السبب في الحث على تسجيل العلم بالكتابة فيقول (قال بعض البلغاء ان هذه الآداب نوافر تندّ عن عقل الأذهان ، فاجعلوا الكتب حماة والأقلام لها رعاتها)[4] .

من الاسس التربوية الهامة التي اهتم بها سلف هذه الأمة واعتز بها معلموها ومربوا أجيالها تقوى الله عزوجل فهي تمثل أساسا تربويا عاما ربي هذه الأمة على الخوف من الله وخشيته فاستنارت قلوبهم وأمدهم الله بمدد من عنده وفتح لهم مغاليق العلوم مصداقا لقوله عزوجل (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴿٢٩﴾ الانفال) أي نورا يملأ اعماقكم وهذا النور هو العلم النافع الذي تفرقونه به بين الحق والباطل ومع الأسف فقد أغفل الخلف هذا الجانب التربوي الهام فلا تكاد تسمع أو تقرأ عنه أو تلمح له إشارة في كتب التربية الحديثة . ومن هنا نجد الشافعي يربط بين إكتساب العلم وقوة الحفظ وبين تقوى الله عز وجل فيرى أن تقوى الله أساساً متيناً ونوراً مبيناً ييسر للطالب سبل تحصيل العلم والاستمساك به وحفظه يقول الامام القرطبي عند تفسير قوله تعالى (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾) البقرة هذا (وعد من الله، من اتقاه علمه أي يجعل في قلبه نورا يفهم به ما يلقي إليه وقد يجعل الله في قلبه ابتداءاً فرقانا أي فيصلا يفصل به بين الحق والباطل ومنه قوله تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا) والله أعلم)[5] وقال الإمام مالك رضي الله عنه (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم فالتقوى سبب لاعطاء العلم النافع)[6] وفي كثير من كتب التفسير القديمة والحديثة يذكر المفسرون قصة الشافعي مع شيخه وكيع كمثل لتفسير قوله وتعالى (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ) وذلك ان الشافعي ذهب الى استاذه وكيع بن الجراح وهو

---

(١)(٢) حكمت صالح ــ دراسة فنية في شعر الشافعي ــ ص ٢٦٦ .
(٣) د. حسن ابراهيم ــ فن التعليم عند بدر الدين بن جماعة ص ٢٢٧ .
(٤) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ــ ص ٤٥ .
(٥) القرطبي ــ الجامع لاحكام القرآن ــ ج٣ ــ ص٤٠٦ .
(٦) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ــ ج١ ــ ص١٣٥ .

بالعراق يشكو له سوء حفظه وتفلت بعض المعلومات منه وسجل شعرا فقال :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعـــاصي
وأخبرني بان العلـــــم نور ونـــور الله لا يهدى لعـــاصي[٥٤]

يذكر الامام ابن قيم الجوزية في كتابه الجواب الشافي أثر المعاصي على القلب وتأثيرها في العلم فيقول رحمه الله (وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والاخرة ما لا يعلمه إلا الله فمنها حرمان العلم فان العلم نور يقذفه الله في القلب والمعصية تطفيء ذلك النور ولما جلس الامام الشافعي بين يدى مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه فقال إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية)[١] .

وروى ابن ماجه في سننه ، كتاب الفتن ... قال رسول الله (ﷺ) (وان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) ولا شك أن العلم من أجل النعم وأفضلها ، ألاترى إلى البارى جل جلاله يبدأ سورة النعم (**الرحمن**) فيبين أن أول آثار رحمته العلم ويقول (ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤) الرحمن .

قال الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه (إنى لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه)[٢] إن العزة والرفعة في الحياة ثمرة حتمية للتقوى ، وإن العلم النافع ثمرة طبيعية لها يقول الامام الشافعي (من لم تعزه التقوى فلا عزله)[٣] (لقد كان قادة العلوم والمعارف في تاريخنا من أكبر المؤمنين ، ولقد استخدموا علومهم في خدمة عقيدتهم ، وبالتالي في خدمة مجتمعهم وكافة بنى الانسان .. ويروى عن بعض علماء المسلمين أنه كان حين تقف أمام أحدهم معضلة أو معادلة كيميائية أو رياضية أو علمية .. كان يلجأ إلى الله ، ويدعوه في نهاية صلاته أن يعينه على حلها . ولقد ظهر الايمان واضحا عند عدد من غير المسلمين ، ولقد وصلوا الى الايمان القوى بالله وحده عن طريق بحوثهم وليرجع القارىء إلى كتاب : العلم يدعو للايمان د/ كريسى موريسون ، ترجمة ثروت عكاشه ، وكتاب الله يتجلى في عصر العلم (لطائفة من العلماء الغربيين) ليرجع القارىء إلى هذه الكتب ليرى حقيقة ما قلناه)[٥] وكان الامام

---

(١) ابن قيم الجوزية ــ الجواب الكافي ــ ص ٦٠ .
(٢) الغزالي ــ احياء علوم الدين ــ ج٤ ص ٥٣ .
(٣) القزويني ــ مفيد العلوم ومبيد الهموم ــ ص ٢٩٥ .
(٤) د. عبدالرحمن على الحجي ــ نظرات في دراسة التاريخ الاسلامي ــ ص ١٠٠ ــ ١٠١

مالك يقول لتلميذه الشافعي العلم نور لا يأنس إلا بقلب تقي خاشع)[1] وذلك ان من طبيعة العلم النافع أنه يأبى ان يسكن جوفا خربا أو يستقر في قلب خبيث وإن الله عزوجل لا يبارك أبداً في علم يبعد الانسان عنه ولا يفتح على قلب مسلم بعلم يعمر به حياته ويسعد أمته وهو لا يحسن الخشوع لله في طاعته له مجتهدا في عبادته قال أحد الفقهاء (ياصاحب العلم إنه لا يكمل ضوء النهار إلا بالشمس ، كذلك لا تكتمل الحكمة إلا بطاعة الله)[2] وقال الامام الشافعي رحمه الله (كيف ينطق بالحكمة من لا يريد بقوله وجه الله عزوجل)[3] .

ألا ما أحوج طالب العلم إلى طمأنينة النفس وهدوء البال وسكون الخاطر ، وليس أقدر على صنع ذلك بالنفس من ذكر الله عزوجل فإن ذكر الله عدة للانسان تجعله يلهج بذكر الله مالك القوى والقدر . ومن بيده الأمر كله ، ويأوى من ربه إلى ركن شديد وذلك يملأ قلبه ثقة وقوة يستعلى بها على رهبة العلم ويتقوى بها على صعوبة الطلب ، فإذا به يقبل على العلم وقد تحفزت حواسه وتأهبت مداركه ، فلم يعد شيء بعد ذلك يستعصى عليه أو يتأبى على فهمه محفوظا كان أو مفهوما وصدق الله إذ يقول (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) الرعد ٢٨ فإن النفس المطمئنة الطائعة الراجعة .. لا يشرد فكرها وراء شعور بالذنب ولا تتصارعها الوساوس والأهواء ، إنها تستشعر بالأمان وتسعد بقربها من الرحمن ، تثق بعطاء الله ولا تتشعب عليها الهموم . ويبين الامام الشافعي ان هناك عوامل أخرى تعين الطالب على التحصيل وتساعده على الاستيعاب والحفظ سوف نتحدث عنها إن شاء الله في فصول أخرى .

منها إستغلال الليل فهو وقت هدوء وصفاء وتكون فيه النفس بعيدة عن مشاغل الحياة وضجيج النشاط اليومي فهي لذلك أقوم قيلا وأكثر تحصيلا وأقوى حفظاً وكذلك بعد الفجر فهي أوقات مباركة والرسول (ﷺ) يقول (اللهم بارك لأمتى في بكورها)[4] وقال (ﷺ) (بورك لأمتى في بكورها)[5] .

ومنها إختيار المسجد للاستذكار والحفظ فان المسجد محل النفحات ومهبط التجليات ، والمكان الذي تظهر فيه أنوار الله حيث يحس الطالب بالأمان ويشعر بقبس

---

(١) د. أحمد الشرباصي ــ الأئمة الاربعة ــ ص ٩٧ .
(٢) سنن الدارمي ــ ج٢ ص ١٥٩ .
(٣) ديوان الشافعي ــ اسماعيل اليوسف ص ٢٤ .
(٤) ص.ج.ص. ــ ج١ / ١٣٠٠ ــ ٢٨٤٢ .

من الالهام . ومنها تقليل الالتزامات الاجتماعية وعدم الاكثار من الصحاب ومحاولة تركيز الفكر والنشاط في طلب العلم . ومنها الاهتمام بعنصر الزمن وبخاصة فترة الشباب والصغر .. ماسبق أن عرضناه من آراء تربوية أصيلة وقضايا علمية متميزة تمثل في فكر الشافعي رؤية جلية وأفكاراً اسلامية واضحة لها تأثيرها الأكيد على طلاب العلم لانها خلاصة تجربة حسية وعمل واقعي ومن ثم يمكن صياغة هذه الاراء وتحويلها إلى نمط علمي وسلوك فعلي يثرى العملية التربوية ولأن العلم صعب المراس فعلى المربى أن يرشد تلاميذه إلى العوامل التي تيسر لهم هذا الطريق وتوضح لهم العادات السليمة التي تساعدهم على الحفظ والتحصيل حتى لا ينفروا من العلم ويكرهوا الطلب . إنها بحق عملية صعبة ومسألة شاقة وعسيرة يعاني منها كل الطلبة ، لأن فيها عصرا للفكر وإجهادا للحواس عبر التركيز المستمر لذا ينبغي للمعلم أن يرشد تلاميذه الى الاستعانة بالله عزوجل فيستفتح الطالب كل أموره باسم الله عزوجل وبذكر الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله (ﷺ) لقوله عليه السلام (كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء)[1] (أي التي بها داء الجذام والمراد كل شيء لايبدأ فيه بذكر الله فهو ناقص وقليل البركة)[2] ولذلك (ذهب بعض أهل العلم إلى سنية ابتداء كل أمر ذى بال يهتم به شرعاً ــ بحيث لا يكون محرما لذاته ، ولا مكروها لذاته ، ولا من سفاسف الأمور ومحقراتها ــ بالبسملة والحَمْدَلَة ، كل في موضعه على سبيل التبرك . وجرى العلماء في افتتاح كلماتهم وخطبهم ومؤلفاتهم وكل أعمالهم المهمة بالبسملة)[3] فإن النفس تثوب إلى طمأنينتها وتعود لتلقي العلم ، وهي منشرحة الصدر ، ان على الطالب إذا توجه للمذاكرة ان يقبل عليها بكل همته متوكلا على الله مستعينا به فيقول (باسم الله توكلت على الله) (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾) آل عمران فإذا صادفته الصعاب في الحفظ وأحس بتأبى الفهم فعليه أن يقول (اللهم لا سهل إلا ماجعلته سهلا ، وأنت تجعل الحَزنَ إذا شئت سهلا)[4] وينادي الفتاح العليم جل شأنه راغبا في رحمته طالبا عونه وغياثه قائلا (ياحي ياقيوم برحمتك أستغيث)[5] .

---

(١) ص.ج.ص.ج١ ٤٥٢٠ .
(٢) منصور على ناصف ــ التاج الجامع للاصول ــ ج٢ ص ٢٩٥ .
(٣) الموسوعة الفقهية ج ١٠ ص ٧٠ .
(٤) النووي الأذكار ص ١١٦ .
(٥) انظر حسن البنا ــ المأثورات ــ ص ٨٤ .

ولقد كان بعض علماء الحديث لا يكتبون حديثا إلا بعد أن يصلوا ركعتين ولاشك ان لهذا أثره في تيسير العلم فقد أثبتت الدراسات الميدانية في المجال التربوي والنفسي ان هناك علاقة مؤكدة ما بين الاطمئنان النفسي والتحصيل الدراسي كما أكدت أن من حفظ القرآن الكريم حفظ سائر العلوم.فإن من حفظ القرآن الكريم تكون حافظته بلا شك قد صقلت وتقوت فييسر له هذا حفظ علومه ويسهل له تحصيل طلبته . وهذه الآداب الكريمة وتلك التوجيهات الإيمانية القيمة أصبحت للاسف طى الكتمان في الميادين التربوية فلا نكاد نرى لها أثرا في المؤسسات ، التربوية الحديثة (وإذا كانت التربية الحديثة قد تنبهت إلى أهمية العناية بالباطن ابتداءا من القرن العشرين فقد أعطت التربية الاسلامية كل اهتمامها بالباطن فنبهت إلى أهمية تزكية النفوس وحُسن النيات وصفاء القلوب ، وجعلت كل ذلك ركيزة لبناء المجتمع المثالى الذي تحلم به البشرية ولاتطغي فيه النواحي المادية على القيم الاجتماعية والروحية الأصيلة)[1] إن صفاء النفس وتقواها ركن ركين وأساس متين في العملية التربوية وخاصة في حفظ المعلومات واستظهارها .. يصور إبن القارح تجربته الشخصية التي تبين أثر التقوى في ثبات معلوماته فيقول في رسالته لابى العلاء المعري (وأنا تعبت وحفظت نصف عمرى ، ونسيت نصفه . وذلك أنى درست ببغداد وخرجت عنها وأنا طرى الحفظ ، ومضيت إلى مصر فأمرجت نفسي في الأغراض البهيمية ، والأغراض المؤثمية ، وأردت بزعمي وخديعة الطبع المليم أن أذيقها حلاوة العيش ، كما صبرت في طلب العلم والأدب ونسيت أن العلم غذاء النفس الشريفة وصيقل الأفهام اللطيفة . وكنت أكتب خمسين ورقة في اليوم ، وأدرس مائتين ، فصرت الأن أكتب ورقة واحدة وتحكنى عيناي حكـاً مؤلماً ، وأدرس خمس أوراق وتكلّ)[2] .

(١) د. الدمرداش عبدالمجيد سرحان ــ المناهج المعاصرة ــ ص ٤٦ .
(٢) ابو العلاء المعري ــ رسالة الغفران ــ ص ٦٠ .

(أثـــر التعليـــم فـــي الصغـــر)

من الأقوال التي تشبه الحكمة المأثورة والأمثال الجارية المنتزعة من التجربة الواقعية في البيئة العربية ما يدور كثيرا على ألسنة أجدادنا وآبائنا من قولهم (التعليم في الصغر كالنقش على الحجر والتعليم في الكبر كالنقش على الماء) وتلك حقيقة يقررها الواقع وتؤكدها تجارب علماء النفس والتربية والاجتماع ، وقد ثبت أن كل ما يسمعه الطفل أو يراه أو يحدث حوله ويحس به يترك في نفسه انطباعا ويحدث فيها أثرا قلما ينساه . حقيقة أنه لايستطيع فهمه ولا يدرك تفسيره بادىء الأمر لكنه حين يكبر وتتفتح مداركه يعود إلى ما إختزنه في ذاكرته خاصة عندما يقع له شبيه أو مثيل هذا المختزن فيعمل على فهمه ويحاول تفسيره ويدرك في النهاية معناه . بل لقد ثبت بالتجربة أيضا أن ما يسمعه الطفل وهو جنين في بطن أمه من الموسيقى الهادئة أو الأحداث الصاخبة يعيش في بؤرة العقل الباطن ، ويكون له تأثير كبير على حياته بعد ذلك حين يولد فيطرب جدا ويفرح أو ينزعج جداً ويتألم ، وهذا يؤكد تأثير البيئة والحاجة النفسية التي تعيش فيها الأم أثناء الحمل على الجنين . جيىء بمجموعة من السيدات الحوامل واسمعن موسيقي خاصة لفترات متتابعة أثناء الحمل فلما وضعن حملهن إذا بالأطفال حين يسمعون نفس الموسيقى يطربون طربا شديداً وتهزهم السعادة وتغمرهم النشوة كما حدث ذلك أيضا بالنسبة للمسلمات اللاتى كن يحرصن على سماع الأذان وهن حاملات فكان الطفل بعد الولادة ينتشى ويطرب طربا شديداً حين سماع الأذان . وهذا يفسر بوضوح حرص نبى الاسلام عليه أفضل الصلاة والسلام ان يكون أول ما يقرع سمع المولود ذكراً أو أنثى الأذان فان الأذان فوق أنه شعيرة من شعائر الاسلام وأمارة على الايمان هو نشيد الاسلام الذي تتردد عباراته وصداه في مشارق الأرض ومغاربها خمس مرات ، وما أحرى أن يملأ هذا الأذان بروحانيته وقدسيته قلوب واسماع الأبناء (يؤكد كل من علماء الاجتماع والتربية أن ما يتعلمه الطفل في مراحل عمره المبكرة يستمر معه ويكون له أثر فعال في حياته)[1] .

---

(١) د. ابراهيم ناصر . دلال ملحس ــ علم الاجتماع التربوي ــ ص ٣٢ .

لأنه يتعمق في نفسه ويستقر في وجدانه فيوجه حياته في المستقبل ولا عجب فإن الأطفال صفحات بيضاء وخامات نقية وعجينة لينة طيعة مستعدة لتلقي كل ما يراد صنعه بها ووضعه فيها ، ومستقبلة للشكل الذي نريده منها متهيئة لاستقبال التربية والتعليم وعلى قدر هذا الاستعداد يكون إمساكها لما يغرس فيها من الخلق والسلوك فإن أجهزة الفهم وأدوات الادراك والذاكرة متيقظة واعية لم تتزاحم عليها الهموم ولم تثقلها أعباء الحياة فهي فراغ سرعان ما يمسك مايرد إليه وصدق القائل (فصادف قلبا خاليا فتمكنا) ونظرا لحساسية هذه المرحلة وخطورة تلك السن فان على الآباء والمربين في هذه الفترة ان يتعاملوا مع الأطفال بيقظة كاملة ووعىٍ تام وحساب مدروس لكل خطوات تعليمهم ومراحل تربيتهم حتى لا يكون هناك رد فعل لخطأ يترك آثاره الضارة في نفوسهم . إنّ على الآباء والمربين أن يعملوا على اكتشاف الملكات وصقل تلك القوى والمواهب واكتشاف الاتجاهات الخلاقة وملامح النجابة والنبوغ المبكرة . وأن يحسنوا التعامل لصنع طلائع المستقبل وقادة الغد في تلك السن المبكرة وأن ينموا فيهم الثقة بأنفسهم ويساعدوهم على تكوين شخصيتهم والاعتزاز بكيانهم والرغبة الصادقة في توجهم للعلم والتربية . والاسلام كدين عالمي يصنع الانسان عضوا نافعا في المجتمع البشري ويرسم الصورة المثلي للبيئة الصالحة لتنشئة الأجيال وقيادة الحياة فمنذ اللحظات الأولى وضع الاسلام الضمانات الواعية والصيانات النافعة للأسرة التي يترعرع الأبناء في أحضانها وينمون في مهادها ويغدون ويروحون في نور توجيهها ورعايتها . إن البذرة المنتقاة إنما تهتز وتربو في البيئة الصالحة وقد قالت العربية قديما :

وإنما نأخـــــذ ما أعطينـــــا ونحن كالأرض لزارعينـــــا
ننبـــت مـا قـــد زرعـــوه فينـــا[1]

لقد أوضح الاسلام السمات التي يجب ان تبنى عليها الأسرة ، والخصائص التي يجب أن تتوفر فيها وتجتمع في ركنيها الرجل والمرأة من الصلاح والتقوى والاستقامة والعفاف والخلق الفاضل ورعاية كل منهما الآخر في مودة غامرة ورحمة وافرة وصولا الى تهيئة الجو الذي يربى فيه الناشئة .

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : (تخيروا لنطفكم ، فانكحوا الأكفاء

---

(١) الجاحظ ــ البيان والتبيين ــ ج١ ص١٠٨ .

وانكحوا إليهم)[1]

وقال ﷺ : (إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه ، إن لم تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض)[2] وقال ﷺ : (تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها : فاظفر بذات الدين تربت يداك)[3] .

ويبين الاسلام ان يكون الهدف من الزواج بعد اعفاف كل منهما الاخر ورعاية الله في اسرتهما طلب الولد الذي تسعد به النفس وتقر به العين وينشأ في طاعة الله (وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ) البقرة١٨٧ اي المولود الذي يكون كما قال الله تعالى على لسان عباد الرحمن في دعائهم (رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴿٧٤﴾) الفرقان قال الامام الشافعي (ويقال ان الرجل ليرفع بدعاء ولده من بعده)[4] .

وفي ظلال هذه السعادة التي ترعى فيها حدود الله وحين يراد اللقاء بين الزوجين يكون ذلك بعد ذكر الله تعالى حتى يحفظ الله الوليد من الشيطان الرجيم . عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (لو أن أحدكم إذا أراد ان يأتي أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فان قضى بينهما ولد من ذلك لم يضره الشيطان أبدا)[5] .

فإذا رأى الغلام النور لأول مرة كان أول ما يقرع سمعه الأذان في أذنه اليمنى والاقامة في أذنه اليسرى ثم يختار له الأب أحب الأسماء فإن للاسم على الغلام تأثيرا كبيرا حيث يلازمه طول حياته (وإذا اردت أن تعرف تأثير الأسماء في مسمياتها فتأمل حديث سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده قال : أتيت إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال ما اسمك قلت حزن ، فقال أنت سهل ، قال لا أغير إسما سمانيه أبي ، قال ابن المسيب . فمازالت تلك الحزونة فينا بعد ، رواه البخاري ، والحزونة الغلظة)[6] .

قال الشاعر :

وقلما أبصرت عيناك ذا لقب إلا ومعناه إن فكرت في لقبه[7]

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (إن احب اسمائكم عند الله ، عبدالله ،

---

(١)(٢)(٣) ص.ج.ص. ــ ج١/ ٢٩٢٨ ــ ٢٧٠ ــ ٣٠٠٣ .
(٤) مختصر المزني ــ ص١٦٣ .
(٥) ص.ج.ص. ــ ج٢ / ٥٢٤١ .
(٦)(٧) ابن قيم الجوزية ــ تحفة المودود باحكام المولود ــ ص٩٥ ، ص١١٥

وعبدالرحمن)[1] وقال ﷺ : (تسموا باسمي ، ولا تكنوا بكنيتي ، فإنما أنا أبو القاسم أقسم بينكم)[2] . لذلك كان الامام الشافعي رحمه الله (لا يحل لأحد أن يتكنى بأبي القاسم ، كان اسمه محمدا أو غيره)[3] .

ثم يشكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة بذبح العقيقة قال رسول الله ﷺ : (مع الغلام عقيقة فأهريقوا عنه دما وأميطوا عنه الأذى . وعن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ كل غلام رهن بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى فيه ويحلق رأسه)[4] .

قال الامام الشافعي (العقيقة سنة واجبة ، ويتقى فيها من العيوب ما يتقى في الضحايا ، ولا يباع لحمها ولا إهابها ولا يكسر عظامها ، ويأكل أهلها منها ويتصدقون ولا يمس الصبي بشيء من دمها)[5] .

يبدأ الأب بعد ذلك بملاعبته وملاطفته وإدخال السرور عليه كلما رآه حتى إذا قارب النطق دربه على نطق بعض الكلمات الطيبة وعوده على قولها وأشعره بأنه بذلك قد أتى شيئا عظيما مثل الله ، محمد اسم الأب والأم ... واحاطه بموفور الحنان فإن ذلك يكون شخصيته وينمي كيانه ويصنع فيه ثقته بنفسه ، وينزل الأب والأم بفكرهما إلى مستوى فكر الغلام حتى يحس بأنه قد أصبح في مستوى أبيه وأمه فيكبر في نفسه ويحس بأنه أصبح كبيرا في صغره .

ولقد كان معلم الانسانية الرسول الكريم ﷺ المثل الأعلى في ذلك فكان يندمج في اللعب مع الحسن والحسين ويبرك لهما على يديه ورجليه ويركبهما على ظهره ويطوف بهما أركان البيت ويقول « نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما » يقبلهما ويحضنهما ويدخل السرور عليهما كلما رآهما .

وكان لأنس أخ صغير يقال له عمير كان يلهو بطائر فمات ذلك الطائر فكان النبي ﷺ يداعبه ويقول « ياأبا عمير مافعل النغير » .

وعلى الوالد والمربي أن يدربه على السلام لينشأ اجتماعيا يحس بالناس ويندمج معهم ، ويحفظه بعض الآيات القرآنية ، ويقص عليه أطرافا من السيرة النبوية ، ويحكي له نماذج من البطولة التي ظهرت على يد الصبية المسلمين كقصة عبدالله بن الزبير رضي الله عنه حين كان يلعب مع الصبية ومر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأسرع الغلمان بالهروب

---

(١)(٢) ص.ج.ص. ــ ج١/١٥٣٤ ــ ٢٩٤٨ .

(٥)(٦)(٧) ابن قيم الجوزية تحفة المودود بأحكام المولود ــ ص١٠٩ ، ص٣٢ .

ووقف عبدالله بن الزبير وهو بعد صبي صغير فسأله عمر ما أوقفك وقد هرب إخوانك فرد عليه في شجاعة قائلا : ياأمير المؤمنين لم أذنب فأخافك وليست الطريق ضيقة فأوسع لك !! ويعوده على الصدق وحب الأهل ومعاملة الناس بالحسنى حتى إذا بلغ سن الرابعة بدأ بتحفيظه القرآن الكريم فإنه في هذه السن تكون المدارك قد نمت وملكة الحفظ قد تهيأت واستعدت فتصقل هذه الملكة بحفظ القرآن وتعد لتلقي العلوم فإن من يحفظ القرآن الكريم يكون لحفظ غيره أسرع .

ونحن نعلم من سير أجيالنا الكثير ممن حفظ القرآن الكريم وهو في سن مبكرة كالسابعة مثلا وحتى يوم الناس هذا لايزال هناك من يحفظ القرآن الكريم في مثل هذه السن ومنهم على سبيل المثال من السابقين الامام الشافعي والامام البخاري وغيرهم كثير كثير .. ثم يأخذ بعد ذلك طريقه إلى المدارس ودور العلم ، وقد قسم علماء التربية الحديثة تربية الأطفال إلى مرحلتين الأولى التربية المنزلية (تربية الوالدين) ، الثانية التربية التعليمية أو النظامية ، تربية المعلم أو المؤدب في المدرسة ولا شك ان مراحل التربية والتعليم طويلة وأنها تبدأ بالمنزل فهو المدرسة الاولى التي يتلقي فيها الطفل على يد الأب والأم تعاليمه التي تعيش معه وتصاحبه في مستقبل أيامه وصدق حافظ ابراهيم حيث يقول :

الأم مدرسة إذا اعـــــــــــددتها أعـــددت شعبـــا طيب الاعـــــراق

إنه في هذه السن مادة صالحة للتشكيل والاصلاح والتغيير يقول ابن سينا (إذا فطم الصبي عن الرضاع بدىء بتأديبه ورياضة أخلاقة قبل ان تهجم عليه الأخلاق اللئيمة فإن الصبى تتبادر إليه مساويء الأخلاق فما تمكن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة)[1] وذلك كما يقال من شب على شيء شاب عليه أو كما قيل :

ويـــــنشأ ناشيء الفتيـــــان منـــــا على ما كان عوده أبـــــــــــــوه

إن الاهتمام بالتعليم في الصغر والتركيز على التربية وتعاهد الطفل بالتوعية الدينية والأخلاقية حفظ له من الضياع وصيانه له إذا كبر من السقوط أو الانحراف وقد قيل (من أدب ولده صغيرا سُرّ به كبيراً)[2] ذلك أنه (إذا شب الصغير على ما اعتاده في

---

(١) د. على أحمد السالوس وآخرون ــ دارسات في الثقافة الاسلامية ــ ص ٥٢٧ .
(٢) المختار من كتاب الكامل للمبرد ص ٣٢ .

صغره فإنه سيكون مأمون الانزلاق في الشهوات يحكم علقه وقلبه)[1] ولأهمية هذا الدور في حماية الأطفال وتنشئة الأجيال حتى يبلغوا مبلغ الرجال نجد الكثير من علماء التربية وممن أوتوا يقظة في فهم هذه الحقائق والتعبير عن أهمية التربية في الصغر والتعليم النافع الذي يصون الحياة في الكبر يقول أحد الشعراء :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ... ولا يلين إذا قومته الخشب
قد ينفع الأدب الاحداث في صغر ... وليس ينفع عند الشيبة الأدب[2]

وقال آخر :

أرانى أنسى ما تعلمت في الكبر ... ولست بناس ما تعلمت في الصغر
وما العلم إلا بالتعلم في الصبا ... وما الحلم إلا بالتحلم في الكبر
ولو فلق القلب المعلم في الصبا ... لألفي فيه العلم كالنقش في الحجر
وما العلم بعد الشيب إلا تعسف ... إذا كل قلب المرء والسمع والبصر
وما المرء إلا اثنان عقل ومنطق ... فمن فاته هذا وهذا فقد دمر[3]

أما باب الحكمة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فله في هذا الباب الباع الواسع والفضل الشاسع يقول :

حرض بنيك على الآداب في الصغر ... كيما تقر بهم عيناك في الكبر
وإنما مثل الآداب تجمعها ... في عنفوان الصبا كالنقش في الحجر
هي الكنوز التي تنمو ذخائرها ... ولا يخاف عليها حادث الغير[4]

إنه رحمه الله يوضح في صدق ودربه ، وتجربة وخبره فضل التعليم في الصغر فيقول رضي الله عنه (قلب الحدث كالأراضي الخالية ، ما ألقي فيها من شيء قبلته . وانما كان كذلك لأن الصغير أفرغ قلباً ، وأقل شغلًا ، وأيسر تبذلًا ، وأكثر تواضعاً)[5] يقول صالح بن عبدالقدوس :

وإن من أدبته في الصبّا ... كالعود يسقى الماء من غرسه
حتى تراه مورقا ناضرا ... من بعد ما أبصرت من يبسه

---

(١) د. عجيل النشمي ــ البناء التربوي ــ ص٥٦ .
(٢) الماوردي ــ ادب الدنيا والدين ــ ص١٩٩ .
(٣) السخاوي ــ المقاصد الحسنة ــ ص٢٨٨ .
(٤) ديوان الامام علي ــ ص٨٢ .
(٥) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ــ ص٣٨ .

والشيـــخ لايتـــرك أخلاقـــه حتـــــــى يوارى في ثرى رمسه
إذا ارعـــــوى عاد إلى جهلـــه كذي الضنى عـــاد إلـــى نكســـه[1]

لقد خطط الاسلام المنهج الواضح للتربية والممتد مع الابناء حتى بلوغهم سن الرجولة إنه منهج متكامل يبدأ منذ الولادة حتى بلوغ الحادية والعشرين من العمر ويقسم هذه الفترة الى مراحل ثلاث : المرحلة الأولى تبدأ منذ أن يفد الغلام إلى الدنيا حتى يبلغ من عمره سبع سنين وهي مرحلة يطلق عليها مرحلة المداعبة والملاعبة ويكون فيها الطفل أميرا أي أن الكل يسارع في مرضاته وتلبي له كل مطالبه ويعامل فيها معاملة سامية كريمة دستورها القول المأثور (لاعب ابنك سبعا) اي أنه في هذه المرحلة تكون التربية ويكون التعليم في مظهر لا شدة فيه بحيث يشعر الصبي بغلبة اللعب على الجد وفيها يوجه ببشاشة ففي نهايتها يُروى الصلاة ويعلم الوضوء ويستصحب قليلا إلى المسجد ويحفظ بعض الآيات والأدعية التي يصحح بها صلاته .

أما المرحلة الثانية وهي التي تبدأ من سن السابعة وتنتهي في الرابعة عشر فهي مرحلة التأديب والتعليم ودستورها القول المأثور « وأدبه سبعا » . وفيها يكون الغلام أسيرا أي أنه يعد ليؤمر فيطيع ويلقن فيسمع ويعد اعدادا لتقلي التربية الصالحة والأخلاق الفاضلة ، والسلوك الحميد ، وفيها أدب الرسول ﷺ الأبناء وقال (مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين ، وفرقوا بينهم في المضاجع)[2] .

وفي هذه الفترة أيضا علم الرسول ﷺ الأبناء آداب الاجتماع والطعام والشراب (عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما قال : كنت في حجر رسول الله ﷺ ، وكانت يدي تطيش في الصفحة ، فقال لي : ياغلام سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك)[3] يقول ابو حفص فما زالت تلك طعمتي بعد ، وفيها أيضا علم الرسول ﷺ الشباب غض البصر وحفظ المحارم ومراقبة الله في السر والعلن فهو ﷺ يعلم الفضل بن عباس غض البصر وقد رآه ينظر الى نسوة يسرن بجواره وقد صرف الرسول ﷺ وجهه عنهن إلى اليمين تارة وإلى اليسار أخرى[4] .. إن هذه المرحلة هي مرحلة التعليم وفيها يتوجه

---

(١) د. سهام الفريح ــ الوصايا في الأدب العربي القديم ــ ص١٨٧ ، ص١٨٨ .
(٢) ص.ج.ص. ــ ج٢/ ٥٨٦٨ .
(٣) مسلم كتاب الأطعمة .
(٤) انظر مسند الامام أحمد بن حنبل ــ ج١ ــ ص٢١٣ .

الأبناء عادة إلى مؤسسات التعليم الابتدائي والمتوسط ويتلقى كل تعليمه على يد كثير من الأساتذة والمربين المختصين وكلهم آباء كرام ومربون فضلاء حريصون على تربية الأجيال التربية الطيبة التي يسعد بها الوطن وتعتز بها الأمة .

إنها المرحلة التي ينهد فيها الفتيان وتنمو فيها اجسامهم نموا كبيرا كما تنمو عقولهم ، وتحتاج الى دفعات من التربية المتكاملة ، تتعانق فيها التربية الدينية مع التربية البدنية وتتسق فيها التنشئة الاجتماعية مع التربية الصحية حتى يشب الفتيان وقد اكتملت رجولتهم وفي هذه المرحلة يبلغون سن المراهقة وهي سن خطيرة يتغير فيها الجسد سيكولوجيا وتظهر عليه الكثير من علامات الرجولة وبواكر الشباب وميعة الصبا وحرارة القوة ويتغير تبعا لذلك كثير من افكارهم السابقة وآرائهم المدركة ومن هنا يجب احاطتهم في هذه السن بما يحفظ عقيدتهم ويحمي خلقهم ودينهم ، فإن كثيرا من الشك يهجم عليهم وقدرا كبيرا من التردد والحيرة تنتابهم ، إنها مفترق طريق بالنسبة لهم . فكم ضيعت هذه الفترة الكثير من الشباب حين فقدوا من يعايشهم ويأخذ بيدهم ويبدد حيرتهم وشكوكهم ويصل بهم في النهاية إلى بر الأمان والسلام حقيقة لقد ضيعت هذه المرحلة الكثير من العباقرة والمفكرين حتى وصلوا إلى الشك في معتقداتهم الراسخة ومسلماتهم الثابتة .

أما المرحلة الأخيرة وهي مرحلة الاكتمال والرجولة تبدأ حيث انتهت المرحلة الثانية من الخامسة عشر الى الواحدة والعشرين وهي مرحلة المصاحبة أي أن الآباء والمربين يتخذون فيها من الأبناء أصحابا يعاملونهم على هذا المستوى يغشون بهم المجتمعات ويذهبون بهم إلى المساجد للصلوات ويكونون معهم في أداء الواجبات الأسرية والالتزامات الاجتماعية يصلون بهم الرحم ويزورون معهم الأصدقاء ويعودون المرضى ويدربونهم على المشاركة في قضاء المصالح وانجاز المهمات فإنهم قد أصبحوا رجالا .

ان الابن في هذه المرحلة يكون وزيرا فقد اصبح رجلا قادرا على ان يستقل بالرأي ويؤدي من الأعمال بجدارة واقتدار ما يقوم به الرجال ودستور هذه المرحلة القول المأثور « ثم صاحبه سبعا » وبعدها « ثم الق حبله على غاربه » .

ان هذه المراحل الثلاث التي بينها الاسلام لترسم منهجا متكاملا لتربية الأجيال ليست منفصلة بعضها عن بعض ولكنها متواصلة متداخلة يكمل بعضها بعضا وكل مرحلة منها تسلم الى الأخرى بحيث تؤدي في النهاية إلى صنع ذلك النمط العالي من الرجال الذين يقول الله فيهم (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾) الكهف .

قد يظن القاريء آننا بعدنا كثيرا عن إمامنا الشافعي حين اسهبنا ببعض من التفصيل في أثر ومراحل التربية لأجيالنا المستقبلة .. ولكننا في الحقيقة نصور تلك البيئة الصالحة والفترة المشرقة المضيئة التي تربى في احضانها إمامنا الشافعي رحمه الله فكان صورة صادقة ومثلا يحتذى لهذه البيئة التي تربت فيها على الفطرة النقية والرجولة الكاملة الحية أجيال صنعوا أطهر وأنقى وأعف فصول تاريخ البشرية جمعاء ، أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون .. والائمة الأربعة رضي الله عنهم أجمعين وأمثالهم كثير ولا بدع أن يكون الشافعي نتاج هذه المدرسة وثمرة تلك البيئة . استاذا علم وربى فكان بتعاليمه التي أبدعها نثرا وشعرا قمة من قمم التربية العالمية وكان بسيرته وشخصيته صورة صادقة للتلميذ النابه النجيب الذي بدأ من الصغر مراحل التعليم فمع فقر الأسرة وحاجتها ذهبت به أمه الى مكة وهو ابن سنتين حيث عاش في جو التعليم المطلق من القيود والمبذول للجميع فلما بلغ الرابعة من عمره بدأ بتحفيظه القرآن الكريم الذي أتم حفظه في السابعة ولم يبلغ العاشرة حتى حفظ موطأ مالك بن أنس وحفظ شعر هذيل كله ودواوين وشعراء عصره وغيرهم وتتلمذ على الامام مالك بالمدينة وجلس للتدريس والفتوى في الحرم المكي وهو دون العشرين وكانت حياته كلها رحلات في العلم من مكة الى المدينة الى اليمن الى العراق الى مصر التي عاش فيها بقية حياته ومع انها كانت قصيرة فقد ألف وكتب وأملى ودرس وناظر وعلم وربى ما جعله بحق حتى يوم الناس هذا قمة صعبة المرتقى . يقول رضي الله عنه عن فترة الشباب وما ذاق فيها من عزة العلم :

وعـــزة ذات المرء قبـــل مشيبـــه وقـــد فنـــيت نفس تولى شبـــابها[1]

وينعى من ضيع زمن الصبى ولم يستغله في طلب العلم الى نفسه فيقول :

ومـــن فاتـــه التعـــليم وقت شبابـــه فكبر عليـــه أربعـــا لو فاتـــه[29]

اي صلى عليه صلاة الجنازة أربع تكبيرات لو فاته وهو حي وتلك حقيقة فإن مثل المتعلم والجاهل مثل الحي والميت .

ويقول محمد بن دريد يبين فضل الامام الشافعي وسبقه وإمامته في مجال العلم والتربية :

تسربـــل بالتقـــوى وليـــدا وناشئـــا وخص بلب الكهـــل منـــذ هو يافـــع

وهـــذب حتـــى لم تشر بفضيلـــة إذا التمست الا إليـــه الأصابـــع

(١) ديوان الشافعي ــ جمعه نعيم زرزور ص٣١ .

فمـــن يك علـــم الشافعـــي أمامـــــه فمرتعـــه في ساحـــة العلـــــم واسع[١٤]

التوجه لطلب العلم في الصغر هي العادة التي درجت عليها الأجيال في كل أمم الأرض منذ عاش الناس على هذا الكوكب حتى اليوم . ذلك أن فترة الصغر هي فترة الفراغ التي تزود فيها الأجيال بالتربية والعلم والمعرفة لاعدادها لتسلم زمام الحياة وإدارة النشاط اليومي في مجالات العلم والانتاج وتلك سنة الحياة وليس معنى هذا أن العلم يقف بالناس عند سن معينة أو أمام حد محدود لا يمكن للانسان أن يتجاوزه أو لا يصح منه أن يتعلم بعده فإن العلم خير متجدد ونور متواصل متنام يوما بعد يوم وساعة إثر ساعة خاصة في عهدنا عهد الانفجار العلمي الرهيب وذلك يتطلب من الانسان أن يدرك نفسه فإن العلم لا يعرف كبيرا ولا صغيرا إنه مباح للكل ومطلوب من الجميع ، ومفتحة ابوابه لكل من يريد ، وهل كان جل أصحاب رسول الله ﷺ حين فجأهم العلم الكامل الشامل علم السماء الذي تنزل من لدن حكيم عليم ، هل كانوا إلا كباراً ؟ بهرهم نوره واستثار أشواقهم خيره وجذبهم هداه فأصبحوا به سادة ومعلمي البشرية .

ينصح الامام الشافعي الشيوخ الكبار فيحثهم الى العلم في صورة شفقته بهم ورحمته لهم فيقول مارأيت شيخا له جده (اي قدرة وقوة) لا يطلب العلم إلا رحمته كائنا من كان)[١] . أما أحمد بن حنبل تلميذ الشافعي رحمهما الله فقد سأله بعضهم متعجبا من إقباله الدائم واستمراره المتواصل في طلب العلم برغم وصوله الى المرتبة الرفيعة والمكانة المرموقة في العلم فقد أصبح فيه إماما له قدره ومنزلته ، سأله الى متى وقد بلغت هذا المبلغ وصرت إمام المسلمين فأجابه أحمد في بلاغة موجزة لها رنين النغم وشاعرية الشعر « مع المحبرة الى المقبرة » (ويالها من كلمة تبهر الانسان وتهز الجنان إنها اقتباس رائع من هدى الاسلام الذي علمنا أن العلم يطلب من المهد إلى اللحد وأن طالب العلم منهوم لا يشبع)[٢] .

إن رسول الله ﷺ طلب الشفاء وهي امرأة كانت تحسن القراءة والكتابة لتعلم أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها ، وأمر زيد بن ثابت أن يتعلم لغتي العبرانية والسريانية وكان كبيرا فألم باللغتين في فترة وجيزة .

ان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة صغيرا كان أو كبيرا من المهد إلى اللحد والرسول ﷺ يقول كما علمه ربه (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾) طه ، يقول

---

(١) البغدادي ــ الفقيه والمتفقه ــ ج٢ ــ ص٨٦ .
(٢) د. أحمد الشرباصي ــ الأئمة الأربعة ــ ص١٦٣م بتصرف .

الشافعي :

خلـــقت العبـــــاد لما قد علـــــمت ففـــي العلـــم يجري الفتـــى والمسن[٨٣]

قال الذهبي عن الامام الشافعي (كان حافظا للحديث بصيرا بعلله لا يقبل منه الا ما ثبت عنده ولو طال عمره لازداد منه)[١] وهكذا ينبغي أن يكون العالم والمتعلم ولقد رأينا في الصحابة والتابعين من بلغوا من الكبر عتيا وهم يروون الحديث عن أبنائهم الشباب .

(١) الذهبي ــ تذكرة الحفاظ ــ ج١ ــ ص٣٦٢ .

مجاهـــدة النفـــس

للوصول الى أعلى الغايات في مدارج العلم وبلوغ نهاية شرف النفس من التربية والسلوك لابد أن يجاهد الانسان نفسه ويعدها لهذا الغرض النبيل فيكبح جماحها ويفطمها عن الشهوات والمتع ويحفظها من السقوط في الحرام . ولأن طريق العلم صعب المراس فعلى الطالب أن يستعد له بمجاهدة نفسه وقصرها على العلم وتفرغها لتحصيله ومن ثم فإن الله عزوجل جعل جزاء هذه المجاهدة وثواب ذلك الطلب عظيما إذ من الطبيعي أن يكون الأجر على قدر الجهد والمشقة .. وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول (من سلك طريقا يطلب فيه علما ، سلك الله به طريقا من طرق الجنة)[1] .

ولقد ورد في السنة من النصوص التي تعلي شأن العلماء وترفع أقدار المتعلمين وتجعل مدادهم كدماء الشهداء وأنهم ورثة الأنبياء وأن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ومن اللازم حينئذ تذليلا لصعوبة العلم وتيسيرا للسير على دربه أن يكون شعار الطالب (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ) محمد١٩ وقوله ﷺ (المجاهد من جاهد نفسه في سبيل الله)[2] وان يتخذ لهدفه العدة مشمرا عن ساعد الجد مثابرا دون ملل مجتهدا دون كلل متسلحا بمحبة العلم والاخلاص له مؤمنا بفضائله مهذبا نفسه وخلقه فيكون له من ذلك دافع وأي دافع على الاقبال عليه والاغتراف من حياضه وعلى حد تعبير علماء النفس ، إذا وجد الدافع تحقق المقصود مهما طال الأمد .

سأل رجل الامام الشافعي فقال (ياأبا عبدالله ، أيهما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى ؟ فقال الشافعي لا يمكن حتى يبتلى فإن الله قد ابتلى نوحاً وابراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله عليهم أجمعين ، فلما صبروا مكنهم ، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البته)[3] .

أراد أنه لا يمكن إلا بعد بذل الجهد المطلوب والنجاح في الامتحان والابتلاء ، وهؤلاء الأنبياء الذين ضرب بهم الشافعي المثل على التمكين بعد الصبر الطويل والعناء المتواصل في تعليم الأمم هم أكثر الأنبياء تعبا وأشدهم كفاحاً وبذلا في سبيل الدعوة إلى

---

(١)(٢) ص.ج.ص ج٢ / ٦٢٩٧ ــ ٦٦٧٩

(٣) ابن قيم الجوزية ــ الفوائد ــ ص٢٩٨ .

الله حتى سماهم القرآن بأولى العزم وقال الله عزوجل لنبيه (فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ) الاحقاف ٢٥ ويكفى أن نعرف أن أولهم وهو نوح عليه السلام مكث في قومه يدعوهم إلى الله تسعمائة وخمسين سنة ، ويسجل القرآن ذلك فيقول (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) العنكبوت ١٤ إن الاقبال على العلم والتفرغ له والتواضع للعلماء في طلبه هو أقرب الطرق وصولًا إليه ولا يصل أحد إلى العلم إلا من هذا الطريق يقول الشافعي رحمه الله (لا يطلب آحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح)[1] وهذا ابن جماعة يستدل بقول امامه الشافعي على قيمة بذل الجهد والنشاط والاقبال بمجاهدة النفس على اكتساب العلم والانتفاع به في تربية الخلق وتقويم السلوك . خاصة إذا صحبه التواضع والتذلل للعلماء . فان الذل في طلب العلم عز والتواضع له رفعه يستدل ابن جماعة على ذلك بقول الشافعي (لا يطلب أحد العلم بالملك وعز النفس فيفلح.. وبقول مالك رضي الله عنه لا يبلغ أحد من هذا العلم ما يريد حتى يؤثره على كل شيء)[2] قال الشافعي :

بقدر الكد تكتسب المعالى ومن طلب العلا سهر الليالي
ومن رام العلا من غير كد أضاع العمر في طلب المحال
تروم العز ثم تنام ليلا يغوص البحر من طلب اللآلى[3]

ويقول (فحق على طالب العلم بلوغ غاية الجهد في الاستكثار من علمه ، والصبر على كل عارض ، دون طلبه ، واخلاص النية لله في استدراك علمه نصا واستنباطا والرغبة إلى الله في العون عليه ، فإنه لا يدرك خير إلا بعونه)[4] ومن إرشاداته لطلابه (لايدرك العلم إلا بالصبر على الضر)[5] ومن وصاياه رحمه الله على طالب العلم أن (لايكون رخى البال قصير الهمة فإن مدارك العلم صعبة لاتنال إلا بالجهد والاجتهاد)[6] .

---

(١) عبدالحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص ٢٥ .
(٢) د. حسن ابراهيم ــ فن التعليم عند بدر الدين بن جماعة ــ ص٧١ .
(٣) ديوان الشافعي ــ نعيم زرزور ص ٩١ .
(٤) الشافعي ــ الرسالة ــ ص ١٩ .
(٥) الخطيب البغدادي ــ الفقية والمتفقه ــ ص ٩٤ ج٢ .
(٦) المرجع السابق ج٢ ص٢٩ .

من المسلمات البديهية أن ما يحصل عليه الانسان بسهولة ويسر دون أن يتعب في تحصيله أو يكون له جهد في الوصول إليه فانه سرعان ما ينساه ويتخلى عنه ويهون عليه ضياعه ، أما مايبذل فيه الجهد والعناء الممض أو المشقة البالغة والتضحية الغالية فانه يتمسك به ويعض عليه بالنواجذ وهيهات حينئذ أن يفرط فيه أو ينساه .

وكذلكم العلم كلما تكلف له الطالب العناء ولقى في سبيله من المشقة وكلما أوغل في البحث وداوم على الاطلاع وقام بمتابعة المراجع وتمحيص القضايا والوقائع كلما كانت محصلته العلمية أقوى رسوخا في الذهن وأشد ثباتا في الحفظ يقول الشافعي رحمه الله :

اصبر على مر الجفـــا من معلـــــم فإن رسوب العلـــم في نفراتـــــه
ومـــن لم يذق مر التعلـــم ساعـــة تجرع ذل الجهـــل طول حياتـــه[٢٩]

وسبب ذلك (أن الفرد إذا صادفة عائق يحول بينه وبين الوصول إلى الهدف فانه يعمل على زيادة نشاطه وتنويع استجاباته حتى يتغلب على العائق . لذلك كانت العوائق ذات أهمية خاصة في التعلم والتحصيل الدراسي)[١] إنها تعمل على تجميع القوى واستثارة الذهن وحفز الهمم للانتصار على تلك العوائق وتخطيها وصولا للهدف المنشود . لاينكر أحد ما لتلك العوامل التي اهتم بها علماء التربية حديثاً حيث وجدوا تأثيرها الكبير والفعال على الطالب ايجابا وسلبا وكذلك بالتجربة الواقعية كالاهتمام بأثر الجانب الغذائي في قدرة الفرد على التحصيل فلقد كثرت الدراسات في هذا الموضوع وكيف أنه إذا وجد الطعام المتكامل والذي تشكل عناصره مطالب الجسم وحاجياته من المواد السكرية والنشوية والدهنية والفيتامينات وغيرها من العناصر اللازمة لبناء البنية فإن ذلك يكون الجسم السليم القادر على الاستمرارية في متابعة أنشطة التربية وألوان التعليم . بيد أن ذلك لابد أن يكون بقدر محدود وبكمية مضبوطة لا اسراف فيه ولا تقتير وفي الحديث (كلوا ، واشربوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة)[٢]

وذلك ان الاسراف في الطعام يصيب الانسان بالخمول ويحمله على الدعة وطلب الراحة ، فإن من أكل كثيرا شرب كثيرا ، ومن شرب كثيرا نام كثيرا ومن نام كثيرا فاته خير كثير .

---

(١) د. رجاء محمود ابو علام ــ علم النفس التربوي ــ ص ٢١١ .
(٢) ص.ج.ص.ج٢ ٤٥٠٥ .

وهذا كله ليس من خصال طلاب العلم ولاسمات أرباب المعرفة أصحاب الهمم الكبيرة والعزائم العاليه ، الذين لايخلدون إلى الراحة ولا يركنون إلى الدعة والخمول قال يحيى بن كثير (لاينال العلم براحة الجسم وعليه ان يعوده الانتباه آخر الليل فانه وقت قسم الغنائم وتفريق الجوائز ، فمستقل ومستكثر ومحروم فمتى اعتاد ذلك صغيرا سهل عليه كبيرا)[1] والشافعي رحمه الله يرى ان أهم ما يجب على طالب العلم ان يهتم به من ضروريات حياته ومطالبه وحاجاته الطعام ، فعليه أن يحدد نصيبه منه فلا يتعب الجسد من قلته ولايعاب بالضرر من كثرته بل يتعامل معه بقدر ما تتطلبه الحاجة وما يقتضيه تفرغة للعلم وإقباله على مناهج التربية الروحية والجسديه وفي الحديث (ما ملأ ابن آدم وعاءًا شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه .)[2] وقد خسر من جعل همه في الدنيا أن يأكل ويشرب ويتمتع بملاذها وشهواتها وانظر إلى صدق الشافعي ودقته في هذا ، وهو يقول :

واعلم بأن العلم ليس يناله ... من همه في مطعم أو ملبس
إلا أخو العلم الذي يعني به ... في حالتيه عاريا أو مكتسى
فاجعل لنفسك منه حظا وافرا ... واهجر له طيب الرقاد وعبس
فلعل يوما إن حضرت بمجلس ... كنت الرئيس وفخر ذاك المجلس[3]

ويقول رحمه الله :

ثلاث هن مهلكة الأنام ... وداعية الصحيح إلى السقام
دوام مدامه ودوام وطأ ... وادخال الطعام على الطعام[4]

إن الشافعي حين يطلب من تلاميذه الاعتدال في تناول الطعام يوضح لهم سبب ذلك فيقول مبينا أثر الاكثار من الطعام على جسم الانسان وعقله وحواسه (إن كثرة الأكل جالبة لكثرة الشرب ، وكثرته جالبة للنوم والبلادة وقصور الذهن وفتور الحواس وكسل الجسم)[3] ويعدد أضرار الشبع فيقول (الشبع يثقل البدن ، ويقسّي القلب ، ويزيل الفطنة ، ويجلب النوم ، ويضعف العبادة)[4] .

---

(١) ابن قيم الجوزية ــ تحفة المودود بأحكام المولود ــ ص١٨٨ .
(٢) ص.ج.ص. ــ ج٢ / ٥٦٧٧٤ .
(٣) محمد فوزي العنتيل ــ التربية عند العرب ــ ص٥١ .
(٤) الذهبي ــ سير أعلام النبلاء ــ ج١ ، ص٣٦ .

ولقد أوصى عبدالملك بن مروان مؤدب أولاده فقال (علمهم العوم وهذبهم بقلة النوم)[1] ويقول ابن جماعة (من أعظم الأسباب المعينة على الاشتغال بالفهم وعدم الملال أكل القدر اليسير من الحلال)[2] أما ابن القيم فيعبر عن تلك المعاني في استيفاء ووضوح واحاطة فيقول (ومن سوء التدبير للاطفال أن يمكنوا من الامتلاء من الطعام وكثرة الأكل والشرب ، ومن انفع التدبير لهم ، ان يعطوا دون شبعهم ليجود هضمهم وتعتدل أخلاطهم ، وتقل الفضول في أبدانهم وتصح أجسادهم وتقل أمراضهم لقلة الفضلات في الجسم قال بعض الأطباء وأنا أمدح قوماً ذكرهم حيث لا يطعمون الصبيان إلا دون شبعهم ، ولذلك ترتفع قاماتهم وتعتدل أجسامهم ويقل فيهم ما يعرض لغيرهم .. فان أحببت ان يكون الصبي حسن الجسد مستقيم القامة غير منحدب فعليه أن يترك كثرة الشبع ، فان الصبى إذا امتلأ وشبع فانه يكثر النوم من ساعاته ويسترخي ....)[3] وقال كومينيوس (ينبغي تعليم الأولاد مراعاة الاعتدال في الأكل والشرب والنوم واليقظة)[4] ولاعجب ان يرى علماء التربية حديثا بعد الخبرة والتجربة ان هناك علاقة واضحة بين الاسراف في المأكل والمشرب وبين التأثير على قوة الذاكرة والتحصيل في العلم . ناهيك أن في الاسراف في المأكل ما يساعد النفوس الضعيفة ويجعلها مهيأة للوقوع في الشهوات . ومن هنا عالج الرسول (ﷺ) قوة الشهوة في الشباب بالصوم فقال (يامعشر الشاب ! من استطاع منكم الباءة فليتزوج . فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فانه له وجاء)[5] .

أي وقاية من الوقوع في المعاصي . يقول الدكتور حسن ابراهيم (ومن الجدير بالذكر ان الشيخ ابن جماعة رأى ان الانسان في حالة الجوع غير الشديد يكون أكثر نشاطا وتحصيلا منه في حال امتلاء معدته بالطعام وحمل إلى المتعلمين تجربة إمامه الشافعي في هذا الصدد دليلاً على صحة ما ذهب إليه فقال : قال الشافعي رضي الله عنه (ما شبعت منذ ست عشرة سنة) ولو لم يكن من آفة كثرة الطعام والشراب إلا الحاجة إلى كثرة دخول الخلاء لكان ينبغي للعاقل اللبيب أن يصون نفسه عنه ، ومن رام الفلاح في العلم

---

(١) المختار من كتاب الكامل للمبرد ــ ص ٥٢ .
(٢) د. حسن ابراهيم ــ فن التعليم عند بدر الدين بن جماعة ص ١٣٥ بتصرف .
(٣) ابن قيم الجوزية ــ تحفة المودود احكام المولود ــ ص ١٨٥ .
(٤) د. محمد ناصر ــ قراءات في الفكر التربوي ــ ج١ ص ٢٨٥ .
(٥) ص.ج.ص.ج٢ ٧٩٧٥ .

وتحصيل البغية منه مع كثرة الأكل والشرب فقد رام مستحيلا في العادة (ولقد) دلت التجارب على ان الانسان يكون أكثر نشاطا وحيوية في حالة الجوع عنه فى حالة الشبع ، ولكن بطبيعة الحال عندما لايكون الحرمان من الطعام طويلا جداً حيث ينقلب الوضع إلى حالة من الضعف والهزال (كما دلت التجارب على أن) الجوع لايضعف النشاط البدني أو العقلي كما يظن أغلب الناس ، ويمكننا ان نستنتج من هذه النتائج أن الصيام لايسبب الخمول البدني أو العقلي كما يتوهم البعض ، بل انه على العكس يبعث على النشاط البدني والعقلي ، ولكن لاشك أيضا في أن هذا النشاط لايستمر إلا لفترة معينة ، فإذا استمر الجوع مدة طويلة ، فإن القوة البدنية والعقلية تأخذان في التدهور تدريجيا)[1] .

بهذه الحنكة والقوة وهذا الفهم العميق تفرد الشافعي بالسبق في ميدان التربية ووضع الخطوط الواضحة والأسس القويمة في مناهج العلم كي يسير على هديه وينسج على منواله من جاء بعده ، إنه فكر واضح شامل فالشافعي الذي يوضح تأثير الغذاء على التحصيل والتعلم هو هو الشافعي الذي يرى حتمية الاهتمام بالرياضة ويشجع تلاميذه على التفوق فيها عملا على تقوية أجسادهم ووصولا إلى تقوية عقولهم وملكاتهم .

ولننظر اليه وهو يعبر بعمق ودقة عن هذه المعاني فيقول عن الأكل وأنواعه والنوم وصنوفه (الأكل على أربعة أنحاء الأكل باصبع ، من المقت ، وبأصبعين من الكبر وبثلاث أصابع من السنة ، وبأربع أصابع أو خمس من الشره ، والنوم على أربعة أنحاء ، النوم على القفا وهو نوم الانبياء يتفكرون في خلق السموات والأرض ، ونوم على اليمين وهو نوم العلماء والعباد ، ونوم على الشمال وهو نوم الملوك لينهضم طعامهم ، ونوم على الوجه وهو نوم الشياطين !) ولا يعني طلب الاعتدال في الطعام والنوم وقضاء الشهوات الأخرى .. لا يعني ذلك أن على الانسان أن يهجر انعم الله تعالى فلا يتمتع بها ولا يسعد بالتلذذ بحلاوتها .. فلا رهبانية في الاسلام ، وإلا فلمن خلق الله هذه الأنعم ! إن الانسان مأمور شرعا بأن يمشي في الأرض ويأكل من رزق الله حتى يؤدي شكر هذه الأنعم فإن الشكر شطر الايمان فإن الايمان نصفه صبر ونصفه شكر والله تعالى يقول (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾) الأعراف .

---

(١) د. حسن ابراهيم عبدالعال ــ فن التعليم عند بدر الدين بن جماعة ــ ص ١٨٣ .

ولقد وضع طالب قلة الماء في الشمس ليشرب الماء ساخنا ظنا منه أنه لا يستطيع اداء شكر الله على الماء البارد الذي يثلج صدره فقد ورد ان الله عزوجل يسأل العبد عن النعيم في الاخرة يقول له ضمن ذلك ألم أسقك الماء البارد ؟ فقال له معلمه ضع القلة في الظل واشرب الماء باردا فإن هذا أحرى أن يجعلك تخرج الشكر من أعماقك .

لا بأس أن يهتم الانسان بالأصناف التي يحبها أو التي يكون فيها عناصر الطعام ومكوناته مما يحتاج إليها كل أجزاء الجسم واعضاؤه ، لكن المذموم فقط الاسراف في تناوله وأخذ كمية كبيرة منه تتخم المعدة وتملأ الأمعاء .

ولقد كان الشافعي رحمه الله يهتم بغذائه وغذاء تلاميذه كيفا لا كما وكان يهتم منه بالأصناف التي يحبها فقد نزل رحمه الله في بغداد عند صديقه وتلميذه الزعفراني يوما (وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويسلمها الى الجارية فأخذ الشافعي الرقعة في بعض الأيام وألحق بها لونا آخر بخطه ، فلما رأى الزعفراني ذلك اللون انكر وقال ما أمرت بهذا فعرضت عليه الرقعة ملحقا فيها خط الشافعي فلما وقعت عينه على خطه فرح بذلك وأعتق الجارية سرورا باقتراح الشافعي عليه)[1] .

وفي مصر اشترى الشافعي جارية تحسن صنع الحلواء .. لأصحابه وتلاميذه !! قد يظن القاريء أننا بعدنا حين تكلمنا عن ما يجب على الطالب من الاقتصاد في الأكل والنوم عن ما عنونا به هذا الفصل من الكتاب وهو مجاهدة النفس لكنا في الواقع سرنا مع نفس الخط الذي يظله العنوان حيث أن من مجاهدة النفس قصر الانسان نفسه على تناول ما يقيم به صلبه فقط وان يريح جسده بالنوم بالقدر الذي لا يعوقه عن الانشغال بالعلم وذلك في الواقع إنما هو مجاهدة النفس فإن من طبعها الانكباب على الطعام والنهم في الشهوات ، والاخلاد إلى النوم والراحة والدعة .

(١) الغزالي ــ احياء علوم الدين ــ ج٢ ــ ص١٢ .

(ترويـــح النفـــس)

دنيا الناس جادة عاملة موارة بالحركة زاخرة بالنشاط عامرة بالعطاء . والانسان وبخاصة طالب العالم يجب أن يكون دائما في نشاط موفور وسعي مشكور وعمل موصول لا يعرف ليله الملل ولا يجد نهاره الكلل شعاره في هذا قول الله تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦) الانشقاق ، وقوله جل شأنه (لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤) البلد . واذا استمر هذا العمل الجاد دون أن يجد ما يخفف عنه أعباء الحياة وييسر عليه صعوبة العلم ويذلل له وعورة الطريق في التدريب والتربية ، ويرفع من روحه ومعنوياته فإن مردود ذلك عليه قاس أليم يصيبه بالاحباط والكلال ويلفه بذلك شعور من الضياع والملال ، ومن ثم فهو في حاجة بين الفينة والفينة الى أن يروح عن نفسه وينفس عن جده وتعبه وفي هذا المعنى يقول ﷺ (والذي نفسي بيده ، لو كنتم تكونون في بيوتكم على الحالة التي تكونون عليها عندي ، لصافحتكم الملائكة ، ولأظلتكم بأجنحتها ، ولكن ياحنظلة ! ساعة ساعة)[1] . لذلك قال الامام علي رضي الله عنه « روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلب إذا أكره عمى » . وقال « ان القلوب تمل كما تمل الابدان فابتغوا لها طرائف الحكمة » . إنه بحاجة الى رحلة خلوية أو دعابة حلوة ذكية تؤنس كآبته وتزيل وحشته وتجدد نفسه ونشاطه وتجعله يقبل على العلم إقبال المحب الوامق الذي تخفف مما يثقل كاهله ويذهب الصدأ عن قلبه فإن الانسان ميال بطبعه إلى التخفيف من القيود والانطلاق بعيدا عن الحياة الرتيبة ، حياة الملل .

يقول ابو حامد الغزالي (ترويح النفس وايناسها بالمجالسة ، والنظر والملاعبة .. إراحة للقلب ، وتقوية له على العبادة فان النفس ملول ، وهي عن الحق نفور ، لانه على خلاف طبعها ، فلو كلفت المداومة بالاكراه على ما يخالفها جمحت وثابت ، واذا روحت باللذات في بعض الأوقات قويت ونشطت .. وينبغي ان يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات)[2] وقديما قيل (روحوا القلوب تعي الذكر)[3] .

---

(١) ص.ج.ص.ج٢. ٧٠٧٣ .
(٢) الغزالي ــ احياء علوم الدين ــ ج٢ ص٣١ .
(٣) البغدادي ــ الفقية والمتفقه ــ ج٢ ص١٠٩٢ .

وبعد عناء الدراسة والصبر والجد والاجتهاد والبذل يكون الطالب في أشد الحاجة الى الترويح والترفيه حتى تتجدد حيويته فان الجدية المفرطة مضيعة والنفس البشرية مجبولة على محبة السرور ومفطورة على الميل الى المرح ، والترفيه فن ووجبة ضرورية لطالب العلم وقد دأبت المدارس والجامعات تحقيقا لذلك على القيام بالرحلات وعمل المعسكرات التي يلتقي فيها الطلاب بعيدا عن جو المدرسة ، حتى ينطلقوا في مرح ينسيهم حياة الجد التي يعيشون فيها ولا شك ان الذين حرموا انفسهم من متعة الترفيه ولذة الترويح وفرحة اللعب وبسمة الفكاهة ، أشخاص غير طبيعيين حملوا أنفسهم أكثر مما تطيق ، وسرعان ما يسقطون وينهارون في أول الطريق وان استمروا فهو استمرار مرضي .. إن في حكمة آل داود (حق على العاقل ان لايغفل عن أربع ساعات ، ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها إلى اخوانه الذين يخبرونه بعيونه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل فان هذه الساعة عون على هذه الساعات واجمام للقلوب)[1] والحق اننا لم نسمع عن دين أو مذهب مما هو موجود في مشارق الأرض ومغاربها يرى أن الترويح عبادة يترتب على القيام بها أجر كبير كما يعتبر الأعراض عنها اعراض عن الدين إلا الاسلام . فانه ذلك المنهج التربوي الشامل إنه الوحيد الذي اعتبر ادخال السرور منك على أخيك المسلم من أفضل الأعمال قال رسول الله (ﷺ) (أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سروراً ، أو تقضي عنه دينا ، أو تطعمه خبزا)[2] وقال (تبسمك في وجه أخيك صدقة)[3] وقال (ﷺ) (لا تحقرن من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاكَ بوجه طلق)[4] .

ورسول الله (ﷺ) المثل الأعلى معلما ومربيا يبين كيف يكون المعلم بين أهله وأصحابه ونحن نسوق إليك نزرا يسيرا مما كان يفعل (ﷺ) في بيته ومع أصحابه لندرك مدى خطأ ذلك الفهم الذي ساد في اوساط الناس أخيراً لدى العامة بأن المزاح لهو مذموم ليس للاسلام منه نصيب .

عقد الامام النووي الدمشقي الشافعي ، فصلا في كتابه الأذكار (باب المزاح) وذلك ان دل على شيء فانما يدل على عظمة فهم هذا الامام وفقهه بالحياة ، إنه اعتبر

---

(١)المرجع السابق ج٢ ص ١٠٩ .
(٢)(٣)(٤) ص.ج.ص.ج١ ١٠٩٦ ــ ٢٩٠٨ ــ ج٢ ٧٢٤٥ .

المزاح إمتداداً لطريق الذكر مقويا على الطاعة والعبادة .. يذكر عن مزاح النبي (ﷺ) ويرويه (عن أنس رضي الله عنه ان رسول الله (ﷺ) كان يقول لأخيه الصغير : ياأبا عمير مافعل النغير . وعن أنس أيضا ان النبي (ﷺ) قال له (ياذا الأذنين).. وأن رجلا أتى النبي (ﷺ) فقال : يارسول الله احملنى ، فقال إنى حاملك على ولد الناقة ، فقال يارسول الله .. وما أصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول الله (ﷺ) وهل تلد الابل إلا النوق ؟)[1] وروى عن الامام أحمد والترمذي ، عن أنس أن رجلا من أهل البادية كان اسمه زاهر بن حرام ، وكان يهدى النبي (ﷺ) من البادية ، فيجهِّزه النبي (ﷺ) إذا أراد أن يخرج ، فقال رسول الله (ﷺ) .. ان زاهراً باديتنا ونحن حاضروه وكان رسول الله (ﷺ) يحبه ، وكان رجلا دميماً فأتاه رسول الله (ﷺ) وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل ، فقال : أرسلنى ، من هذا ؟ فالتفت فعرف النبي (ﷺ) : فجعل لايألو ما ألصق ظهره بصدر النبي (ﷺ) حين عرفه ، وجعل رسول الله (ﷺ) يقول : من يشتري العبد فقال : يارسول الله إذن والله تجدني كاسداً ، فقال رسول الله (ﷺ) لكن عند الله لست بكاسد أو قال : لكن عند الله أنت غال عزيز . والملاحظ أن رسول الله (ﷺ) في هذه الطرائف الثلاث وفي كل مزحه يمزح بالحق ولا يتجاوزه ، يقول لأنس ياذا الأذنين وتلك حقيقة ! والجمل مهما كبر فهو ابن الناقة وتلك حقيقة ! وزاهر عبد وتلك حقيقة ، فإن الرسول (ﷺ) يقول عن نفسه (آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد ، فإنما أنا عبد)[2] ومن هذا يثبت بيقين ان رسول الله (ﷺ) كان يمزح ولا يقول إلا حقا فهو لايصنع كما يصنع الناس حين يؤلفون الكلام بالباطل ليضحكوا به الناس . إن الاسلام دين الاعتدال وأمته هي الوسط لا افراط ولا تفريط فلابد أن تأخذ النفس حظها من متع الدنيا وبهجتها والله عزوجل جعل للمسلمين مواسم للترفيه والبشاشة والترويح والمؤانسة هي الأعياد والتي تعود عليهم في كل عام كالواحة الندية يفيؤون إلى ظلها ويتمتعون بلهوها البرىء وفرحها المشروع . بيد أن المطلوب في الأخذ بالظرف وتناول الفكاهة والطرف ، الاعتدال وعدم الاسراف فالأصل في الحياة الجد والاعتدال في كل شيء أمر حسن ... قال (ﷺ) (لا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب)[3] .

---

(١) النووي ــ الأذكار ــ ص٢٨٩ .
(٢)(٣) ص.ج.ص. ــ ج١/ ٨ ج٢ / ٧٤٣٥ .

والامام النووي رحمه الله بعد أن بين ان المزاح مطلوب للترويح عن النفس بين ان المزاح المطلوب هو الذي ليس فيه إفراط ولا مداومة ولكن يؤخذ منه بقدر مايصلح النفس فان الاكثار منه مفسدة يقول (قال العلماء : المزاح المنهي عنه ، هو الذي فيه افراط ويداوم عليه ، فانه يورث الضحك وقسوة القلب ، ويشغل عن ذكر الله تعالى والفكر في مهمات الدين ، ويؤول في كثير من الأوقات إلى الايذاء ، ويورث الأحقاد ، ويسقط المهابة والوقار . فأما ما سلم من هذه الأمور فهو المباح الذي كان رسول الله (ﷺ) يفعله ، فانه (ﷺ) إنما كان يفعله في نادر من الاحوال لمصلحة ولتطييب نفس المخاطب ومؤانسته ، وهذا لايمنع قطعا ، بل هو سنة مستحبة إذا كان بهذه الصفة)[1] وقد قال بعض الحكماء (من كثر مزاحه ، زالت هيبته)[2] وقال بعض البلغاء (من قل عقله ، كثر هزله)[3] والفيصل في ذلك قول أبو الفتح البستى :

أفـد طبـعك المكـدود بالجد راحـة تجم وعللـه بشيء من المزح
ولكـن إذا أعطيتـه المزح فليكـن بمقـدار ما تعطـى الطعـام من الملـح[4]

إن الترويح والترفيه فن ووسيلة لتجديد النفس وتخفيف العبىء وليست غاية يوقف عندها ولا يمكن هجرها ، قال سعيد بن العاص لابنه (إقتصد في مزحك فان الافراط فيه يذهب البهاء ويجرؤ عليك السفهاء)[5] ومن مواعظ الامام ابى حنيفة التربوية الواعية وإرشاداته القيمة موجها المعلم تجاه طلابه أنه ينبغي عليه أن يتخولهم بين فترة وأخرى بالمؤانسة والممازحة خاصة إذا طال وقت الدرس واشتد الحر .. حتى يستثير انتباههم ويوقظ وعيهم وإدراكهم (وآنسهم ومازحهم أحيانا ، وحادثهم فإن المودة تستديم مواظبة العلم)[6] ويقول ابن جماعة على المعلم (أن يريح نفسه وقلبه وذهنه وبصره إذا كل شيء من ذلك أو ضعف بتنزه أو تفرج في المتنزهات بحيث يعود إلى حاله ولا يضيع زمانه)[7] .

ويقول (بالجملة فلا بأس أن يريح (المتعلم) نفسه إذا خاف مللًا، وكان بعض أكابر العلماء يجمع أصحابه (تلاميذه) في بعض أماكن التنزه في بعض ايام السنة ويتمازحون

---

(١) النووي ــ الأذكار ــ ص٢٩٠ .
(٢)(٣)(٤)(٥) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ــ ص ٢٧٠،ص ٢٧١ .
(٦) د. أحمد الشرباصي ــ الأئمة الأربعة ــ ص ٥٣ .
(٧) د. حسن ابراهيم ــ فن التعليم عند بدر الدين بن جماعة ــ ص ١٨٦ .

بما لاضرر عليهم في دين ولاعرض)[1] أما إمامنا الشافعي رحمه الله فقد شرب من هذا المعين حتى إرتوى وتضلع فهو يقول (الطرب عقل وكرم فمن لم يطرب فليس بعاقل ولاكريم)[2] وكان كمرب ذي بصر يحبب للطلبة الانطلاق في اللعب في الجو الطلق أثناء الرحلات ويطلب منهم أن يكون كل واحد حرا مرحا طليقا ويقول (الوقار في النزهة سخف)[3] إنه لبصره العميق بنفسية الطالب وفهمه الدقيق لشدة العلم وحاجة الطلاب إلى التخفيف عنهم من حدة التحصيل ووعورة السير في التعليم كانت عباراته في هذا المجال أشد وضوحا وأقوى بيانا وأقدر على تصوير ما يحتاج إليه في ذلك الميدان لقد كان يمازح طلابه من المصريين فيقول في رقة وانبساط (لولا قصب السكر ما أقمت ببلدكم)[4] وعندما سئل عن قدومه إلى مصر قال من فرط حبي لقصب السكر .. إنه كان يتخير الدعابة الحلوة والطرفة الجميلة يضفي بها على المجلس جوا من المرح والترويح الذي يجدد النشاط ويوقظ الحواس ويجعل الطلاب أكثر اقبالا على العلم يروى الفكاهة ويحكيها لطلابه فيقول (كان لرجل ابن أبله فبعثه يوما يشتري حبلا طوله ثلاثون ذراعا فقال الابن لأبيه في عرض كم ؟ قال الأب في عرض مصيبتي فيك)[5] .

وكان رحمه الله لايكتفي برواية الدعابة العابرة بل كان يروى لتلاميذه مواقف مضحكة ومشوقة مما وقع له وذلك وصولا للهدف الذي يريده وهو الترويح وتجديد نشاط الطلاب حتى لا يقعوا في الملل من شدة العلم وطول الحياة الجدية في طلبه وسنختار من ذلك بعض المواقف في غاية الغرابة والظرف والطرافة وقعت له وحكاها فقال (رأيت بالمدينة أربع عجائب رأيت جدة لها احدى وعشرون سنة ، ورأيت رجلا فلسه القاضي في مدين نوى ، ورأيت شيخا قد أتى عليه تسعون سنة يدور نهاره حافيا راجلا على القيان يعلمهن الغناء ، فإذا جاءت الصلاة صلى قاعدا ، وكان بالمدينة والٍ وكان رجلا صالحا فقال مالى لا أرى الناس يجتمعون على بابى كما يجتمعون على أبواب الولاة فقالوا : انك لاتضرب أحدا ولا تؤذي الناس ، فقال أهكذا ! علي بالامام ، فنصب بين العقابين ، وجعل يضرب والامام يقول : أعز الله الأمير إيش جرمى ! وهو

---

(١) د. حسن ابراهيم ــ فن التعليم عند بن الدين بن جماعة ــ ص ١٨٦ .
(٢)(٣) القزوين ــ مفيد العلوم ــ ص ٢٩٥ .
(٤) الذهبي سير اعلام النبلاء ــ ج١٠ ص٥٦ .
(٥) البيهقي ــ مناقب الشافعي ــ ج٢ص ٢١٤ .

يقول جملنا بنفسك حتى اجتمع الناس على بابه)[1] ولقد كثرت رحلات الشافعي في طلب العلم وتعددت أسفاره فلا عجب ان تقع له هذه المشاهدات وان تكون له تلك الروايات التي يرويها من رحلاته والتي اكتسبها من اسفاره يقول (كنا في سفر بأرض اليمن فوضعنا سفرتنا نتعشى ، وحضرت صلاة المغرب فقلنا نصلى ثم نتعشى ، فتركنا سفرتنا كما هي ، وكان في السفرة دجاجتان ، فجاء ثعلب فأخذ إحدى الدجاجتين فلما قضينا صلاتنا أسفنا عليها وقلنا حرمنا طعامنا . فبينما نحن كذلك إذ جاء الثعلب وفي فمه شيء كأنه الدجاجه فوضعه فبادرنا إليه لنأخذه ونحن نحسبه الدجاجة قد ردها . فلما قمنا لخلاصها فإذا هو قد جاء إلى الأخرى فأخذها من السفرة وأخذنا الذي قمنا إليه لنأخذه فوجدناه ليفة قد هيأها مثل الدجاجة .)[2] .

ومن تجاربه الخاصة التي تدل على نفاذ بصيرته وقوة فراسته كما تدل على طرافة الموقف في آن واحد .. يقول الشافعي رحمه الله (خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة ، حتى كتبتها وجمعتها ، ثم لما حان انصرافي ، مررت على رجل في طريقي ، وهو محتب بفناء داره ، أزرق العينين ، ناتىء الجبهة ، سناط فقلت له هل من منزل ؟ فقال : نعم ... قال الشافعي : وهذا النعت أخبث ما يكون في الفراسة ــ فأنزلنى فرأيت أكرم رجل ، بعث إلى بعشاء وطيب ، وعلف لدابتى ، وفراش ولحاف ، فجعلت أتقلب الليل أجمع ، ما أصنع بهذه الكتب ؟ إذ رأيت هذا النعت في هذا الرجل ، فرأيت أكرم رجل ، فقلت أرمى بهذه الكتب . فلما أصبحت ، قلت للغلام . اسرج ، فأسرج ، فركبت ومررت عليه ، وقلت له : إذا قدمت مكة ، ومررت بذي طوى ، فسل عن منزل محمد بن ادريس الشافعي . فقال لي الرجل : أمولى لابيك أنا ؟ قلت : لا . قال فهل كانت لك عندي نعمة ؟ فقلت لا . فقال أين ما تكلفت لك البارحة؟ قلت : وما هو ؟ قال : اشتريت لك طعاما بدرهمين ، وإداما بكذا ، وعطرا بثلاثة دراهم ، وعلفا لدابتك بدرهمين ، وكراء الفراش واللحاف درهمان . قال : قلت ياغلام اعطه ، فهل بقي من شيء ؟ قال : كراء المنزل ، فاني وسعت عليك وضيقت على نفسي . قال الشافعي : فغبطت نفسي بتلك الكتب ، فقلت له بعد ذلك : هل بقي من شيء ؟ قال امض ، أخزاك الله فما رأيت قط شراً منك)[3] لقد كان الشافعي يرى أن الترفيه

---

(١)(٢) ياقوت الحموى ــ معجم الأدباء ــ ج ١٧ ص ٣١٧ .

(٣) حلية الأولياء للأصفهاني ــ ج٩ ــ ص١٤٤ .

لا يقتصر على الدعابة أو الفكاهة وكانت نظريته في هذا المجال أوسع وأشمل فكل ما يهز الكيان ويسر الوجدان ويبعث في النفس ألوانا من الراحة والشعور بالسعادة فهو عند الشافعي من الترويح والترفيه ومن هنا كان يرفه عن نفسه بقول الشعر وسماعه وترديد شعر الاخرين . قال الربيع تلميذ الشافعي (كان الشافعي إذا خلا في بيته كالسيل يهدر في أيام العرب)[1] ويقول مصعب الزبيري يصف ترويح الشافعي ومجالسه .. (كان أبى والشافعي يتناشدان فأتي الشافعي على شعر هذيل حفظاً وقال لاتعلم بهذا أحداً من أهل الحديث ، فانهم لايحتملون هذا !...)[2] .

وهذا إن دل على شيء فانما يدل على ان الشافعي ذواقة للشعر ، وانه ذو خلق عال وأدب رفيع يعرف كيف يراعى حال المخاطبين ولا يخاطبهم إلا بما يطيقون ويألفون وهذا من البلاغة بمكان ، إنه شأن المعلم الخبير والمربي الحصيف ، ولقد كان في ترويحه للشعر يتخذ منه مادة للممازحة الرقيقة والدعابة اللطيفة يقول لزوجه مداعباً :

ومـــــن البليـــــــة أن تحـ ـب ولا يحبك من تحبـــــــــــه
ويصد عنك بوجهـــــــــــه وتلـــــح أنت فلا تغبـــــــه[24-25]

ومن قوله الذي يدل على خبرة في التعامل مع المرأة ومعرفة نفسيتها وعاطفتها عبارته (إن من المعرفة بالزمان التحامق مع النسوان)[3] وقوله في فلسفة حب النساء :

أكثر النـــاس في الـــنساء وقالـــوا إن حب الـــنساء جهـــد البـــلاء
ليس حب الـــنساء جهـــدا ولكـــن قرب من لاتحب جهـــد البـــلاء[18]

ويمازح أصحابه في دعابة تبين كثيراً من أحوال النساء فيقول (أقمت أربعين سنة أسأل اخواني الذين تزوجوا عن أحوالهم في تزوجهم ، فما منهم أحد قال : انه رأى خيرا)[4] ولقد كان الشافعي يروى الكثير من النوادر والطرائف ويهتم بها ويستخدمها كلون من الوان التربية لتهيئة التلاميذ وتحضير المجلس للتعليم بقلوب متفتحة ونفوس متعطشة وقوى مستعدة للتلقى والتحصيل ، (عن يحيى بن عبدالعزيز عن محمد بن الحكم عن الشافعي قال : تزوج رجل امرأة حديثة على امرأة له قديمة فكانت جاريته الحديثة تمر على باب القديمة فتقول :

وما يستوى الرجلان رجل صحيحه ورجـــل رمـــى فيها الزمـــان فشلت

---

(١) القرطبي ــ الانتقاء ــ ص٩٢ .
(٢) د. أحمد الشرباصي ــ الأئمة الأربعة ــ ص ١٤٣ .
(٣) القزويني ــ مفيد العلوم ــ ص ٢٩٥ .
(٤) النووي ــ تهذيب الاسماء واللغات ــ ج١ ص ٥٥ .

ثم تعود فتقول :

وما يستوى الثوبان ثوب به البلى وثوب بأيدي البائعين جديد

فمرت جاريته القديمة على الحديثة فأنشدت :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ماالقلب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل[1]

ومن طرفه قوله في الغزل الذي لم يعهد عنده وذلك للترفيه فحسب (قال ابو يعقوب البوطي قلت للشافعي : قد قلت في الزهد فهل لك في الغزل شيء ؟ قال فأنشد :

ياكاحل العين بعد النوم بالسهر ما كان كحلك بالمنعوت للبصر

لو أن عيني إليك الدهر ناظرة جاءت وفاتي ولم أشبع من النظر

سقيا لدهر مضى ما كان أطيبه ! مثل السحاب الذي يأتي بلا مطر[2]

وبطبيعة مرحة تفلسف الأمور بما يخدم الموقف وبعفو الخاطر والشعور يحول الشافعي الموقف الذي يجيىء على غير مايطلب إلى موقف مسعد (يعطى تلميذه الذي يقوم على حوائجه دراهم يشتري لحما فيشترى سمكا . فيقول : ياربيع . اليوم نأكل شهوتك وغدا تأكل شهوتنا ... فإذا عاتبه داعبه بقوله (ياطويل الرقاد)[3] ويعطي ثوبا لحائك فأراد الحائك أن يغيظ الشافعي فصنع له ثوبا كم طويل وآخر واسع وعرف الشافعي ما يريد الحائك فحول الموقف فقال بارك الله فيك هذا لأحمل فيه حاجاتى وهذا لأحمل فيه كتبى . فانظر كيف حول الموقف المحنق إلى موقف مضحك ! وإذا كان الشافعي قد استطاع ان يوظف الشعر لغرضه التربوي والتعليمي ونجح في تدعيم أرائه وأقواله وكتبه بالشعر مما اعطاها قوة وجمالا فذلك لايمانه بما للكلمة المنظومة من قدرة على التأثير بنغمها الأخاذ وموسيقاها الموحية ولحسن وقعها الآثر مما يجعلها وثيقة صالحة لسرعة التحصيل وقوة الحفظ . وإذا كان الشافعي قد استعمل الشعر كوسيلة للتعليم فان الامام ابن تيمية قد استثنى الشعر وأبعده من منهاجه التربوي والتعليمي ورأى أن الشعر (كالفلسفة لا أثر له في تهذيب الروح وهو كالموسيقى يحرك الشهوات ....)[4] .

---

(١) ابن عبدربه الاندلسي ــ العقد الفريد ــ ج ٦ص١٠٢ .

(٢) البيهقي ــ مناقب الشافعي ــ ج٢ ص٩٩ .

(٣) عبدالحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص ٤٩ .

(٤) د. ماجد عوسان الكيلاني ــ الفكر التربوي عند ابن تيمية ــ ص ١١٣ .

(ولا ريب أن منطق ابن تيمية القوى أثر أثره ، ولكن جفاف المنطق الذي لايقوى على مقاومة نضرة الشعر وفتنته . كما يقول شاعر الاسلام محمد إقبال وهو كمال قال ، فان الذي قلل سريان كلام ابن تيمية في أوساط العامة هو ما كان عليه أئمة الضلال الداعين إلى البدع من روعة البيان . ورقة الشعر ، وتمكنهم فيه ، حتى سحروا قلوب الناس بشعرهم من حيث لايشعرون ، ولم يتهيأ لابن تيمية شاعر مبدع يسانده)[1] وذلك راجع إلى أن عهد الشافعي كان قريب عهد بالنبوة ولم تكن قد شاعت فيه أو سيطرت عليه كثير من الفرق على وجه الحياة أما عصر ابن تيمية فكان عصر فتن كشرت فيه فرق البدع والضلالة عن أنيابها واستغل غلاة التصوف الاشارات والرؤى والخيال لجذب الناس والتأثير عليهم .. فكان الشعر بتأثيره العجيب أكبر عون لهم في هذا المضمار مما جعل الامام ابن تيمية يتصلب في الرد عليهم ويخوض معهم معارك من المناظرات والمخاصمات مبتعدا عن الطريق الذي يخلبون به لب العامة وهو الشعر ولا ريب في أن مزاح الشافعي رحمه الله هادف ولقد كان يستخدمه حين الحاجة إليه ولايسترسل فيه .. كان مزاحا يسير على نمط النبوة لا يعتريه باطل ولا يخالطه لهو ولا يشوبه كذب ولا إثم . وهكذا ينبغي أن يكون الترويح ويستخدم الترفيه.. روى الامام أحمد والترمذي (عن أبي هريرة قال : يا رسول الله إنك تداعبنا . قال : إنى لا أقول إلا حقا)[2] كذلك كان الشافعي رحمه الله يصف محمد بن الحسن بن زفر أحد علماء عصره فيقول (مارأيت حبرا سمينا مثله ، ولا رأيت أخف روحا منه ولا أفصح منه . كنت إذا سمعته يقرأ القرآن كأنما ينزل القرآن بلغته .. مارأيت أعقل منه ، كان يملأ العين والقلب)[3] ويقول عن المزنى ابو ابراهيم اسماعيل بن يحيى (لو ناظر الشيطان لغلبه)[4](عن الربيع بن سليمان قال دخلت على الشافعي ـــ وهو مريض ـــ فقلت له قوى الله ضعفك . فقال لو قوى ضعفي : قتلني . فقلت والله ماأردت إلا الخير فقال قل (قوى الله قوتك وضعف ضعفك)[5] .

وهكذا يوالى الشافعي المعلم تلقين تلاميذه ويعطيهم فوائده ويتابع تهذيب وتعليم

---

(١) محمد أحمد الراشد ـــ المنطلق ـــ ص٢٨،ص٢٩ .
(٢) ص.ج.ص.ج١ ٢٥٠٩ .
(٣) ابن كثير ـــ البداية والنهاية ـــ ج١٠ ص ٢٠٢ .
(٤) عبدالحليم الجندي ـــ الامام الشافعي ـــ ص ١٩٩ .
(٥) الرازي ـــ آدب الشافعي ومناقبه ـــ ص ٢٧٤ باختصار .

طلابه وهو صريع المرض حبيس الفراش !! فيمزج الدعابة بالعلم وكما رأى الشافعي طلابه متخذا من الظرف والمحاورة والقصة الطريفة والدعابة العابرة المرحة والشعر المحلق الرفاف طريقا لتجديد النشاط وشحذ الهمم فقد جعل الرياضة من وسائل التجديد وأساليب الترويح المهمة في مجال التربية والتعليم .

نعم الرياضة والالعاب البدنية لقد كان يروح عن نفسه ويأمر طلابه بالترويح عن أنفسهم بالرياضة الهادفة وقد قال (ﷺ) (اللهو في ثلاث : تأديب فرسك ، ورميك بقوسك ، وملاعبتك أهلك)[1] كان الشافعي رحمه الله (أشجع الناس وأفرسهم وكان يأخذ بأذنه وأذن الفرس والفرس يعدو) وكان يشرف على تعليم ابنه الفروسية التي أحبها وأغرم بها منذ نعومة أظفاره حتى أنه يوما عندما شاهد عند شيخه مالك بن أنس فرساً لم يستطع أن يخفى إعجابه وهو الخبير الماهر بهذه الفرس فأهداه استاذه الفرس اعجابا به .. وكان في ميدان الرماية أشد ظهوراً وتفوقا . فقد تعلم الرماية وأغرم بها وأجادها حتى كان يرمي من السهام عشرا تصيب كلها ولا شك ان الرماية من خير الالعاب ، لقول الرسول (ﷺ) (عليكم بالرمى ، فانه من خير لهوكم)[3] ويجب المواظبة عليها بعد تعلمها لقوله (ﷺ) (من أحسن الرمى ثم تركه فقد ترك نعمة من النعم)[4] .

(١) ص.ج.ص.ج٢ ٥٤٩٨ .
(٢) النووي ــ تهذيب الاسماء واللغات ــ ج١ ص ٦٥ .
(٣)(٤) ص.ج.ص.ج٢ ٤٠٦٥ ــ ٥٩٧٢ .

ضـــوابـــــــط التـــرويـــح

الترويح والترفيه منافذ للتنفيس عن النفس حين تتعبها مداومة الجد ووسيلة لتجديد الحيوية والنشاط متى وصل الانسان إلى حالة الملل وتوقف الذهن وكما قلنا من قبل إنه وسيلة لاغاية وان تناوله يجب ان يكون على قدر الحاجة بمقدار ما تعطي الطعام من الملح فإذا زاد الملح فسد الطعام . وإذا كان اللهو البرىء والترويح المعتدل ميدانا للراحة والاستجمام لزيادة النشاط والبذل فليس معنى هذا ان يتخذ اللهو والترويح بابا للولوج في الفساد والهوى والدخول في العبث والخنا أو مرتعا للمجون والسفه ومبرراً لنشر الانحراف والارتكاس في وحل الرذائل ومستنقع الشهوات تحت اسم السياحة والترويح أو تلبيس إبليس باسم الترفيه والتنفيس ! فذلك في الواقع خلط متعمد للمفاهيم وضياع مؤكد للقيم وهدم مقصود للفضائل ، وهيهات ان يكون ذلك من التربية من قريب أو بعيد ومن المحزن المخزي أن أضحى الترفيه في عصرنا هدفاً مقصوداً وبرنامجاً معداً على طول ساعات النهار والليل فما تدير قرص المذياع على أي محطة لأى دولة في العالم ، وما تفتح شاشة التلفاز وما تدير النظر في صحيفة يومية أو مجلة اسبوعية أو شهرية إلا وترى وتسمع وتقرأ ألوانا من الجرأة على الدين وصوراً من الفساد والافساد ونماذج من الغواية والاضلال تصنف تحت اسم التحرر والترفية .. أغان ... فكاهات ... رقصات ... افلام ... تمثيليات ... مسلسلات .... تحت اسم الكوميديا ومنتديات ولقاءات ومرابد تظهر فيها المحرمات والفواحش وتذبح الفضيلة على مسرح التمثيل والتدجيل ويمسخ الفكر باسم احياء الحضارات وبعث القوميات من بابلية وفرعونية وغيرها . كل ذلك تحت شعار الترفيه وباسم الحضارة والترويح حتى أضحى عصرنا ونحن في ديار الاسلام واجهة سيئة للفساد والافساد ومعولا ضاريا للهدم والتدمير .. تدمير كل فضيلة وكل خير وما أصدق قول حافظ ابراهيم :

أمـــــة قدفتّ في ساعدهـــــا بغضها الأهل وحب الغربـــا
تعشق الالقاب في غير العلا وتفـــدى بالنفـــوس الرتبـــا
وهـــي والأحـــداث تستهدفهـــا تعشق اللهـــو وتهوى الطربـــا[1]

(١) ديوان حافظ ابراهيم ــ ج٢ ص ٧ .

لقد أضحى زمام الادارة في هذه الميادين التي وجهت عن عمد لالهاء المجتمع المسلم وإبعاده عن مناط عزته وموئل قوته ... الاسلام الذي يقول فيه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لقد كنا أذل الناس فأعزنا الله بالاسلام فإذا ذهبنا نبتغي العز في غيره أذلنا الله .. أضحى زمام الادارة لهذه المنتديات والمرابد الترفيهية بيد الرويبضة الذي نصب من نفسه فارساً يدعو لنشر هذه المفاسد بكل صفاقة ووقاحة على حساب الدين والخلق الفاضل الرصين وكأننا لسنا في بلاد الاسلام رجعنا إلى الجاهلية الأولى التي يحذر الله رسوله منها ويأمره بالبعد عنها وهو يقول له (وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾) الانعام .

وقوله جل جلاله (ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾) غافر.

إن هذا الواقع الأليم الذي ظهرت آثاره المدمرة على حياتنا وشبابنا وأصبح لازما لازبا يفرض نفسه على المجتمع كله والأسرة والفرد ... يدفعنا دفعاً قويا ويقودنا إلى التفكر وبجدية إلى ابراز الضوابط ووضع الحدود التي تصحح المسار وتقوم العوج وتضبط السلوك وترجع بالمسيرة إلى طريقها الصحيح وتضع الترويح والترفيه في اطاره الهادف المقصود كلون من ألوان التربية يلجأ إليه وقت الحاجة لتجديد النشاط وبعث الهمم وكعهدنا بالامام الشافعي رحمه الله نجده يضع من النصوص التربوية القيمة ما يشتمل على ضوابط شرعية ونفسية واجتماعية في غاية من الدقة والوضوح وبشكل شامل متكامل يعكس أصالة الفكر الشافعي .. يقول رحمه الله (يكره من وجه الخبر اللعب بالنرد أكثر مما يكره اللعب بشيء من الملاهي ولا نحب اللعب بالشطرنج وهو أخف من النرد ويكره اللعب بالحزة والقرق وكل ما لعب الناس به لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ولا المروءة . ومن لعب بشيء من هذا على الاستحلال له لم ترد شهادته ـــ والحزة تكون قطعة خشب فيها حفرة يلعبون بها ـــ إن غفل به عن الصلوات فأكثر حتى تفوته ثم يعود له حتى تفوته رددنا شهادته على الاستخفاف بمواقيت الصلاة كما نردها لو كان جالسا فلم يواظب على الصلاة من غير نسيان ولا غلبة على عقل فان قيل فهو لايترك الصلاة حتى يخرج وقتها للعب إلا وهو ناس ؟ قيل فلا يعود للعب الذي يورث النسيان وإن عاد له وقد جربه يورثه ذلك فذلك استخفاف . فأما الجلوس والنسيان فمما لم

يجلب على نفسه فيه شيئا إلا حديث النفس الذي لايمتنع منه أحد ولا يأثم به وإن قبح مايحدث به نفسه والناس يمتنعون من اللعب . فأما ملاعبة الرجل أهله واجراؤه الخيل وتأديبه فرسه وتعلمه الرمى ورميه فليس ذلك من اللعب ولا ينهي عنه . وينبغي للمرء أن لا يبلغ منه ولا من غيره من تلاوة القرآن ولا نظر في علم ما يشغله عن الصلاة حتى يخرج وقتها وكذلك لا يتنفل حتى يخرج من المكتوبة لان المكتوبة أوجب عليه من جميع النوافل)[1] .

الترويح بالغناء

الغناء لون من ألوان الترفيه ووسيلة من وسائل إسعاد النفس وتجديد نشاطها وتخفيف أعباء الحياة عنها ولاخلاف بين العلماء في سماع الغناء الذي لاتصحبه آلات الطرب وذلك كالحداء ونشيد الاعراب وخاصة حين يقصد به فائدة مباحة ومثال الغناء الحلال (تغني النساء لأطفالهن وتسليتهن ، تغني أصحاب الأعمال وأرباب المهن أثناء العمل للتخفيف عن متاعبهم والتعاون بينهم ، التغني في الفرح اشهارا له ، والتغنى في الأعياد إظهاراً للسرور ، والتغني للتنشيط للجهاد)[2] يقول الشافعي (فأما استماع الحداء ونشيد الاعراب فلا بأس به قل أو كثر وكذلك استماع الشعر)[3] .

ويذكر الاستاذ الباحث عبدالغنى الدقر تحت عنوان الشافعي الطروب في كتابه الإمام الشافعي (الشافعي على دينه وعقله عاطفي رقيق وشاعر حساس ، يستخفه الطرب وتشجيه الألحان وما كان يمنعه مما يراه مباحا ماعرفه الناس من إمامته وفضله وعلمه إنما كان يستجيب أحيانا لهواه البرىء لايرائى في التنزه عنه مخلوقا ، ولا يتكلف في أن يظهر بشيء قد يعجب الناس ويخفى عنهم ما لايعجبهم . قال المزنى : مررنا مع الشافعي وابراهيم بن إسماعيل بن عليه على دار قوم وجارية تغنيهم :

خليلي ما بال المطايا كأننا نراها على الأعقاب بالقوم تنكص

---

(١) الشافعي ــ الأم ــ ج٦ ص ٢٠٨ .
(٢) سيد سابق ــ فقه السنة ــ ج١٢ ص ٥٧ ــ ص ٥٨ .
(٣) الأم للشافعي ــ ج٦ ص ٢٠٩ .

فقال الشافعي ميلوا بنا نسمع . فلما فرغت قال الشافعي لابراهيم ايطربك هذا ؟ قال : لا ! قال فما بالك ؟ كأنه يقول له فما بالك مريض الحس ، جامد العاطفة أو فما بالك تمنع عن نفسك وروحك غذاءهما المباح الذي لاضرر منه على مثلك أو مثلي ؟!)[1] وهذه الرواية إن صحت فإن لها دلالات واضحة هي ان الشافعي لم يسع إلى الغناء ولم يعتد بحضوره ولم يتخذ له مجلسا خاصاً وانما سمع ذلك عرضا فهزه المعنى وأطربه في حين ان الغناء لجارية ولم يصاحبه محرم من شراب أو آلات للموسيقى ولم يكن في صوت الجارية لين أو تكسر أو خضوع أو تميع . وقد كرّ ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس على هذه الرواية ونسفها سندا ومتنا[2] .

ومن كلام الشافعي في هذا (الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته قال القاضي أبوبكر محمد بن مظفر الشامي من رؤساء مذهب الشافعي (لايجوز الغناء ولاسماعه ولا الضرب بالقضيب . قال ومن أضاف إلى الشافعي هذا فقد كذب عليه . وقد نص الشافعي في كتاب أدب القضاء على ان الرجل إذا دام على سماع الغناء ردت شهادته وبطلت عدالته)[3] .

وما ذهب إليه الشافعي هو ما ذهب إليه جمهور العلماء من بعده . وللامام الشوكاني كلام طيب فيه تفصيل واضح يقول (وقد اختلف في الغناء مع آلة من آلات الملاهي وبدونها فذهب الجمهور إلى التحريم وذهب أهل المدينة ومن وافقهم من علماء الظاهر وجماعة من الصوفية إلى الترخيص في السماع ولو مع العود واليراع ..)[4] ثم يقول في نهاية الباب (وإذا تقرر جميع ما حررناه من حجج الفريقين فلا يخفى على الناظر آن محل النزاع إذا خرج عن دائرة الحرام لم يخرج عن دائرة الاشتباه والمؤمنون وقافون عند الشبهات كما صرح به الحديث الصحيح ومن تركها فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ولا سيما إذا كان مشتملا على ذكر القدود والخدود والجمال والدلال والهجر والوصال ومعاقرة العقار وخلع العذار والوقار فإن سامع ما كان كذلك لا يخلو من بلية وإن كان من التصلب في ذات الله على حد يقصر عنه الوصف وكم لهذه الوسيلة الشيطانية من قتيل دمه مطلول وأسير بهموم غرامه وهيامه مكبول نسأل الله السداد والثبات)[5] .

---

(١)ص ٣٨١،ص ٣٨٢ .

(٢)(٣) عبدالرحمن بن الجوزى ــ تلبيس إبليس ــ ص ٢٤١ ، ص ٢٣٠ .

(٤)(٥) الشوكاني ــ نيل الأوطار ــ ج٨ ــ ص١٠٠ ، ص١٠٥ .

ونحن نقول بناءا على ما تقدم أن المسألة خلافية وإن لكل من الفريقين أدلته وحججه فجمهور العلماء ومعهم الأئمة الأربعة على التحريم ، وعلماء المدينة وبعض الصحابة والتابعين وكثير من العلماء المحدثين على الاباحة ما لم يصاحبه لهو من معاقرة الخمر والاهتمام باتخاذ المجالس وترك الأمور الواجبة كالصلاة في مواقيتها ومصاحبة الرقص الماجن والتثني والليونة ووصف مفاتن المرأة فحسنه عندهم حسن وقبيحه قبيح ، فإذا عرض له ما يخرجه عن دائرة الحلال كأن يهيج الشهوة أو يدعو الى فسق أو ينبه إلى الشر أو اتخذ ملهاة عن الطاعات كان غير حلال .

ومادام الأمر كذلك فلو حرر المراد ورسم الهدف وطبق رأي الجميع على الغناء الموجود الان والذي يذاع طول ساعات النهار والليل فإنه لا شك يدخل دائرة الحرمة لأنه لا يخلوا أبدا من كلمات الحب الماجن والهيام الكاذب وقد شغل الناس وألهاهم عن الطاعات وخاصة جيل الشباب والشابات ومن هم في سن المراهقة وأخص منهم أولئك الذين لم تتح لهم فرص الاعفاف وإكمال نصف دينهم بالزواج .

لقد عمت البلوى وشغل عامة الشباب بهذا اللهو الفارغ وحينئذ فمن الحكمة أن نعلن ان رأي جميع العلماء المحرمين والمبيحين قد اجتمع على حرمة الغناء بصورته الموجودة في عصرنا الحاضر سدا لباب الفتنة ومن باب سد الذرائع . والذي يرى ما يهرع إليه الناس من شراء المسجلات والأشرطة المسجلة عليها هذه الأغاني وما يصنع مع من يدعونهم بالفنانين والمطربين يرى وجاهة هذا الرأي ويقف في مربع المانعين لاستشراء هذه الفتنة وانتشار هذه البلوى .

كذلك وبناء على ما تقدم من أن المسألة خلافية يجب على علمائنا حين معالجة هذا الأمر حديثا أو خطابة أو كتابة أن يراعوا حرمة وكرامة الرأي الآخر وأن يكونوا كما قال القائل « نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه » . فلا داعي أبدا للتجريح والقذف فضلا عن التفسيق والتكفير ، ورمي اصحاب الرأي المخالف بسهام الكلمات الجارحة الدامية فإن في مربع المبيحين للغناء والذين كانوا يستمعون إليه رجال لهم ورعهم ومكانتهم الدينية التي لا تطاول ولا يرقى إليها وهم محل تكريم وتقدير من الجميع فمن الصحابة عبدالله بن الزبير وعبدالله بن جعفر ، ومن التابعين عمر بن عبدالعزيز وشريح القاضي وعبدالعزيز بن مسلمة مفتي المدينة ، وغيرهم ، كانوا يسمعون الغناء.

إنه ليس من الحكمة ولا من العقل تبني رأي أحد الفريقين ثم إعلان الحرب حرب

القذائف الكلامية المؤلمة ضد الفريق الاخر فالكل في النهاية يرجو تقوى الله ورضاه ويعمل على حماية هذه الأمة ولا يجوز أبدا لقضية خلافية كهذه ان تقسم الدعاة وأن تكون سببا في تصنيف العلماء فيقال هذا مهتدٍ وذاك مبتدع مضل .. الله الله معشر العلماء .. فكفى هذه الأمة ما هي فيه من فرقة وانقسام .

البـــاب الخـامـــــس

الصحـة النفسيـة

لا يستطيع أحد أن ينكر ما للجانب النفسي من أثر على سلوك الانسان سلبا وإيجابا فإن حالته النفسية تنعكس انعكاسا مباشرا على حياته وتوجه كل أعماله وتصرفاته وتظهر سعادته أو تعاسته وطمأنينته واستقراره أو قلقه واضطرابه وبالتالي فهي تؤثر على جهده وتحصيله وعمله وانتاجه وبذله وعطائه بل إن تأثيرها العام ينعكس على صحته العامة فيصاب بأمراض ليس لها أسباب مرضية عضوية ويكون علاجها صعبا وطويلا ونتيجتها غير مأمونة فإن المرض النفسي يهز كيان الانسان كله ويسبب له أمراضا قتالة .. كاليأس والخوف والاكتئاب والاضطراب .. وتلك طبيعة النفسية المريضة غير السوية ، إنها تحرم الانسان من هدوء البال وطمأنينة القلب وراحة الأعصاب . تحرمه من سعادة الحياة وبهجة الوجود وجمال الصحبة والاختلاط ، وتحول بينه وبين الاستمتاع بلذة الطعام والشراب والانس بالناس وقد تؤدي به في النهاية إلى مصح الأمراض العقلية !!

(ولقد أقامت دراسات كثيرة الدليل على أن القلق له آثار غيرمحمودة على التعليم فقد أوضح « ليفورد » أن القلق يعوق التفكير المنطقي وأثبت « تيلور » « وسبنس » أن القلق يؤدي إلى أداء منخفض في التعليم المتسلسل وأقام « بيم » الدليل على أن القلق الناتج عن حالة ضيق يعوق التعلم المتسلسل أو المترابط في مواقف الحياة الاجتماعية)[1] .

وتلعب الصحة النفسية دورها أيضاً في العملية الاقتصادية وزيادة الانتاج .. حيث (أن الامراض النفسية تشكل تهديداً لاقتصاد أي بلد ، حيث أشارت إحدى الدراسات إلى أن حوالي ٤٠ ــ ٦٠٪ من عمال المصانع يتغيبون عن عملهم لأسباب نفسية ، كما أن هذه الاضطرابات هي أكثر انتشاراً بين النساء منها بين الرجال بشكل عام)[2] ولقد قام أصحاب ورجال الاستثمار والانتاج بإنشاء مكاتب للاستشارات الاجتماعية والنفسية مزودة بالباحثين الاجتماعيين والنفسيين والمتخصصين وعيادات للعلاج النفسي داخل المصانع ومع أن هذا الاعداد يكلف الاقتصاد أعباءا لا ترضى رجل الاقتصاد الذي يجني

---

(١) د. حسن ابراهيم عبدالعال ــ فن التعليم عند بدر الدين بن جماعة ــ ص١٩٢ .

(٢) د. محمد عودة ــ د. كمال موسى ــ الصحة النفسية ــ ص١٨٢

دائما الى خفض التكاليف وصولا الى الربح المرضي لكنه يلجأ الى ذلك لأنه يعلم يقينا ان هذا من شأنه أن يضاعف من نشاط العمال طالما رضيت نفوسهم وارتاحت ضمائرهم وبالتالي زيادة الانتاج وبنفس الأهمية بل بقدر أكبر نجد أن الصحة النفسية تلعب دورا كبيرا في العلاج الطبي وتبين بما لا يدع مجالا للشك أن الجانب النفسي له تأثيره في صحة المريض واستجابته للعلاج وتقبله له وسرعة شفائه فكلما كان المريض راضي النفس مرتاح الضمير واثقاً في خبرة طبيبه مطمئنا الى علاجه موقنا في شفائه كلما ساعد ذلك على استجابة الجسم للدواء وسرعة الشفاء . وقد دلت الاحصاءات الدقيقة على ان الكثير من الأمراض العضوية لها أسباب نفسية وغير عضوية (لقد حاول العلم الحديث أن يغذي كل الجوانب المادية في الجسم الانساني ، ولكنه فشل في تغذية الشعور ، والأماني والارادة ، وكانت حصيلة ذلكم جسما طويل القامة ممتلىء النواحي ، ولكن الجانب الآخر من الجسم ، وهو أصل الانسان ، أصبح يعاني من أزمات لا حد لها . لقد أكدت إحصائية .. ان ثمانين في المائة من مرضى المدن الأمركية الكبرى يعانون أمراضاً ناتجة عن الأعصاب)[1] .

وتمتد الآثار النفسية الى الجوانب الاجتماعية فقد وجد أن الكثير من الأزمات والمشكلات الاجتماعية هي في جوهرها انعكاس للعلل النفسية .

يقول الدكتور على فؤاد باشكيل (يجب الاعتراف أولا بأن المدنية المعاصرة مريضة وبعيدة عن اجابة الضروريات الروحية للانسانية وهذا هو منشأ الأزمات والعلل الاجتماعية الحالية)[2] وإذا كانت الصحة النفسية تأخذ آثارها كل تلك الأبعاد من تربوية وصحية واقتصادية وإجتماعية فلا عجب أن تنشىء الجامعات والمعاهد والمدارس وكل دور التعليم والتربية مكاتب ومؤسسات ملحقة بها تمدها بالباحثين الاجتماعيين والخبراء النفسيين لمعالجة الطلبة ودراسة أحوالهم الاجتماعية والنفسية والأخذ بأيديهم الى حل هذه العقد والمشاكل وتكوين الشخصية وتربية النفس السوية التي تنتظم بجدية وتعمل بقوة في مجال التربية وتحصيل العلوم . والحق أننا أمام قضية بالغة التعقيد والأهمية تستدعينا أن نفرد لها فصلا خاصا لابراز الخطوط الرئيسية واسهام علماء التربية في هذا المجال .

يشير الامام الشافعي رحمه الله الى ان الخلل النفسي الناتج والناشىء عن حمل الهموم

---

(١) وحيد الدين خان ــ الاسلام يتحدى ــ ص١٨٥ ، ١٨٦ .
(٢) موقف الدين من العلم ــ ١٥٧ ، ص١٥٨ .

والاسراف في الاحزان مدمر للانسان فيرشده الى ترك الهموم والبعد عنها فيقول رحمه الله :

سهـــرت أعين ، ونـــامت عيـــون ... في أمـــور تكـــون أو لا تكـــون
فادرأ الهم ما استطـــعت عن النفـــ ... ـس فحمـــلانك الهمـــوم جنـــون
إن ربـــا كفـــاك بالامس ما كا ... ن سيكفـــيك في غدٍ ما يكـــون(٨٥)

ويقـــول :

مع الهم يسران هون علـــيك ... فلا الهم يجدي ، ولا الاكتئـــاب(١)

ويقـول :

ولا حزن يدوم ولا سرور ... ولا بؤس عليـــك ولا رخـــاء(١٦)

وفي الابيات السابقة اشارات عابرة ومختصرة .. ولكنها بارزة في التنويه على خطورة داء الهموم والمسارعة الى أخذ الحيطة منه والبعد عنه . ومن الخطأ الفادح ان يحاول الكثير ممن تنتابهم الهموم أو يعيش حياة الاضطراب والقلق النفسي أو الضياع الاجتماعي ، من الخطأ أن يلجأ هؤلاء الى الوقوع في الرذيلة فيقبلون على معاقرة الخمور أو تعاطي المخدرات ، يلقون فيها بأنفسهم هروبا في زعمهم من واقعهم المرّ وحياتهم التعيسة إن هذا الهروب من الواقع والارتماء في أحضان الخيال المريض والوهم الضائع لايجدي عنهم شيئا بل على العكس من ذلك تماما فكلما أفاقوا من سكرهم وصحوا من غيبتهم صدموا من جديد بالواقع الذي لا يفارقهم فتتعدد الصدمات وتقسوا الأمراض وتكون نهايتهم الضياع يقول أبو نواس المعاصر للامام الشافعي يتحدث بلسان هؤلاء :

لأقطعـــن نيـــاط الهم بالكـــاس ، ... فليس للهـــم مثـــل الكـــأس من آس(٢)

ولا شك أن علاج أبي نواس هذا بحاجة الى علاج !! وأن أبا نواس في اطروحته هذه يمثل شريحة كبيرة من كل المجتمعات قديما وحديثا ، تعالج مشاكلها النفسية بالهروب المؤقت عبر إدمان أم الخبائث الخمر أو تعاطي المخدرات وما أفظعه من علاج إنه الداء الخبيث والعلاج القاتل وأبو نواس نفسه الذي يقول :

دع عنك لومـــي فإن اللـــوم إغـــراء ... وداوني بالتـــي كانت هي الـــداء(٣)

---

(١) ديوان الشافعي ــ نعيم زرزور ــ ص٢٩ .
(٢)(٣) ديوان أبي نواس ــ ص٢٤٦ ، ص٩ .

لا يوجد في دنيا الناس دين يستطيع أن يعالج أمراض النفوس وأدواء القلوب ويملأ النفس ثقة والوجدان يقينا كالاسلام ، إنه كما يقول الله تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ) فصلت٤٤ إنه يسكب في أعماق المؤمن رضا ينشأ عن إيمانه العميق بالله عزوجل ويقينه الواثق بالقضاء والقدر وأن ما أصاب الانسان لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا .. إنه يهون من أمر الدنيا التي يتمسك الناس بها ويتكالبون في سبيل المال والمنصب والجاه عليها ويعتزون بالوصول إلى غاياتهم والحصول على شهواتهم منها ولا يطيقون أن يبعدوا عن شيء من رغباتهم أو يمنعوا من بعض امنياتهم فَجَرَّ ذلك عليهم إهتزازاً في سلوكهم وضياعاً في حياتهم ومرضاً نفسياً يهدم كيانهم ، والقرآن الكريم يعالج أمثالهم فيقول (إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾) محمد ويقول (بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾) الأعلى .

إن في هذا الدين العلاج الناجع والشفاء النافع لكل أمراض النفوس والقلوب ، تلك الأمراض المزمنة التي تفشت في الانسانية نتيجة بعدها عن أصل وجودها وقيوم حياتها من اجتماعية ونفسية وتربوية ، إن الذين تعتريهم هذه الأمراض وتشيع في أوساطهم تلك العلل أصبحوا لبعدهم عن الاسلام لا يعرفون طبيعة الحياة ولا يدركون أن الانسان خلق فيها للابتلاء والامتحان (ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ) تبارك٢ .

كما يغفلون عن وظيفتهم فيها وأن مقامهم فيها قصير وأن متاعهم منها حقير وأن النعيم الحق الدائم والحياة الطيبة الباقية هي عند الله في الاخرة وأن من عرف هذا ووضعه نصب عينيه اراح واستراح (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾) النحل

يحلق الامام الشافعي بشاعريته المرهفة المترسلة في أجواء الفضاء ثم يغوص في أعماق الماء ليخرج هذه الفرائد الناصعة ويجلي تلك اللآلىء الرائعة فيصوغها دررا رائقة لامعة ، يشخص فيها الداء ويصف الدواء الذي لا ينفع للانسانية غيره ولا يصلح لعلاج البشر سواه ، علاج الله جل علاه الذي يملك وحده الشفاء .. فيقول رحمه الله :

دع الأيـــام تفعـــل ماتشاء ... وطب نفسا إذا حكـــم القضاء
ولا تجزع لحادثـــة الليـــالي ... فمـــا لحوادث الدنيـــا بقـــاء

وكـــن رجـــلا على الأهـــوال جلـــدا ... وشيمـــــتك السماحـــــة والوفـــــاء
وإن كثرت عيـــوبك في البرايـــــا ... وسرك أن يكـــــون لها غطـــــاء
تستـــــر بالسخـــــاء فكـــــل عيب ... يغطيـــــه كما قيـــــل السخـــــاء
ولا تر للاعـــــــــادي قط ذلا ... فإن شماتـــــــة الأعـــــــدا بلاء
ولا ترج السماحـــــة من بخيـــــل ... فمـــــا في النـــــار للظمـــــآن ماء
ورزقك ليس ينـــــقصه التـــــأني ... وليس يزيـــد في الـــرزق العنـــاء
إذا ما كنت ذا قلب قنـــــــــوع ... فأنت ومـــــالك الدنيـــــا سواء
ومـــــن نزلت بساحتـــــه المنايـــــا ... فلا أرض تقيـــــــــــــه ولا سماء
وأرض الله واسعـــــــة ولكـــــــن ... إذا نزل الـــــقضا ضاق الـــــفضاء
دع الأيـــــــام تغـــــــدر كل حين ... فمـــا يغنـــي عن الموت الـــدواء[١٥-١٧]

(هذا الاطمئنان النفسي العجيب ، المنبثق عن قرار الايمان العميق ، يعالج وساوس الشيطان ونزغ النفس الأمارة ! إذ ما على المؤمن إلا أن يطيب نفسا ولا يجزع . فما كتب كائن ، هذه الحتمية هي بمثابة وازع للانطلاق نحو قلاع الجلد ، المسورة بالسماحة .. بالوفاء .. بالسخاء .. بالانفة .. ليست مدعاة للخنوع .. للتثبط .. للهروب .. للتواكل ..)[١] . إن هذا الايمان الصادق العميق (يمنح الانسان يقينا جبارا ، حتى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب ، فهو يجاهد في سبيل هدف سام أعلى ، ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القذرة . إن الايمان بالله يعطي الانسان محركا هو أساس سائر الاخلاق الطيبة ، ومصدر قوة العقيدة ، العقيدة التي عبر عنها « السير وليام أوسلر » بقوله « إنها قوة محركة عظيمة لا توزن بأي ميزان ، ولا يمكن تجربتها في المعامل « إن العقيدة هي سر مخزن الصحة النفسية الموفورة ، التي يتمتع بها أصحابها ، وأي نفسية محرومة من هذه العقيدة لن تنتهي إلا بالأمراض ، أقساها وأعتاها)[٢] .

ومن هنا ندرك أن الرضا بالقضاء (هو التسليم وسكون القلب وطمأنينته للقضاء الذي قضى به الله سبحانه وتعالى وهو الحكيم العليم وهو جزء لا يتجزأ من الايمان وركن من أركان العقيدة لا يصح الايمان إلا به)[٣] (فالقلب لا يخلو قط من الفكر إما في واجب آخرته ومصالحها وإما في مصالح دنياه ومعاشه وإما في الوساوس والأماني الباطلة)[٤] .

---

(١) حكمت صالح ــ دراسة فنية في شعر الشافعي ص١٥٧ .
(٢) وحيد الدين خان ــ الاسلام يتحدى ــ ص١٨٦ .
(٣) طارق سويدان ــ مختصر العقيدة الاسلامية ــ ص٥١ .
(٤) ابن القيم ــ الفوائد ــ ص٣١١ .

فالأولى نفس مطمئنة وضعت أمرها بيد الله سبحانه والأخرى نفس لوامة تتعب صاحبها وتجعله يلهث خلف الدنيا فلا يرتوي، والثالثة نفس أمارة بالسوء تهلك صاحبها لا محالة . إن طمأنينة القلب تعني سكونه واستقراره (بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه ، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى وذكره البته، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه غرور والثقة به عجز قضى الله سبحانه وتعالى قضاءاً لا مرد له أن من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائنا من كان ، بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سلبه وزايله ، وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين الى سواه اغراضها بسهام البلاء ليعلم عباده وأولياؤه ان المتعلق بغيره مقطوع والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدوع ممنوع)[1] .

ومن ثمرات الايمان بالقدر :

(١ ــ الاعتماد على الله تعالى عند فعل الاسباب لأن السبب والمسبب كلاهما بقضاء الله وقدره .

٢ ــ راحة النفس وطمأنينة القلب لأنه من علم أن ذلك بقضاء الله تعالى وأن المكروه كائن لا محالة ارتاحت النفس واطمأن القلب ورضى بقضاء الرب فلا أحد أطيب عيشا وأريح نفسا وأقوى طمأنينة ممن آمن بالقدر .

٣ ــ طرد الاعجاب بالنفس عند حصول المراد لأن حصول ذلك نعمة من الله بما قدره من أسباب الخير والنجاح فيشكر الله تعالى على ذلك ويدع الاعجاب .

٤ ــ طرد القلق والضجر عند فوات المراد أو حصول المكروه لأن ذلك بقضاء الله تعالى الذي له ملك السموات والأرض وهو كائن لا محالة فيصبر على ذلك ويحتسب الأجر . والى هذا يشير الله تعالى بقوله (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾) الحديد)[2] .

يقول الشافعي رحمه الله (نزه الله عزوجل نبيه ، ورفع قدره وعلمه وأدبه وقال (وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ) الفرقان٥٨ ، وذلك أن الناس في أحوال شتى :

---

(١) ابن القيم ــ الروح ــ ص٢٩٩ .

(٢) محمد الصالح العثيمين ــ عقيدة أهل السنة والجماعة ــ ص٤١ ، ص٤٢ .

متوكل على نفسه ، أو على ماله ، أو على زرعه أو على سلطان أو على عطية الناس . وكل مستند إلى حي يموت أو على شيء يفنى يوشك أن ينقطع به . فنزه الله نبيه ﷺ وأمره أن يتوكل على الحي الذي لا يموت)[1] فيا له من استلهام نير رقيق ، واستدلال منطقي دقيق ، يدل على نظرة رائقة وعقلية لماحة فائقة لامامنا الشافعي رضي الله عنه ولا غرو أن نرى الشافعي وهو في معرض التربية الاسلامية من هو يمتح من ينابيع السعادة الحقة التي لا تغيض ، تلك الينابيع التي تكسب ديمومتها من صلتها الوثيقة بالله فتمنح أصحابها السكينة والطمأنينة والأمل والأمن والراحة والرضا والحب والسعادة وقد قيل ما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) الرعد٢٨ (وإذا كانت السعادة شجرة منبتها النفس البشرية ، والقلب الانساني فان الايمان بالله وبالدار الاخرة هو ماؤها وغذاؤها وهواؤها وضياؤها)[2] .

(لقد اثبتت التجارب أن الحياة الخالية من الايمان لا تسعد الانسان ، والبلدان التي لا تؤمن بالله تستولي عليها الشياطين . إن الإنسان الخالي من الايمان ينقلب إلى ذئب مفترس . إن نظام العالم هو في الارتباط بالايمان بإله غير مادي يهيمن على هذه الطبيعة ، والبلدان المحرومة من هذا الايمان مصيرها الاضطراب والسفالة والهبوط الروحي والمعنوي)[3] . إن أطباء النفس (يعرفون أن الصلاة والايمان الديني القوي يزيلان القلق والتوتر والخوف التي هي مصدر لنصف أمراضنا . كما يعرفون ، مثلما قال أحد زعمائهم ــ الدكتور أ.أ.بريل « إن أي مؤمن حقيقي لن يصاب بمرض نفسي » فإن لم يكن الدين حقيقة لأصبحت الحياة دون معنى . ولن تكون سوى قناع مأساوي)[4] .

يقول الفيلسوف محمد إقبال

إذا الايمان ضاع فلا حياة ... ولا دنيا لمن لم يحيي دينا

ومن رضي الحياة من غير دين ... فقد رضي الفناء لها قرينا

(وانطلاقا من ذلك فإن النظم التربوية التي لا تقوم على أساس الايمان بالله ومحبته ، هي نظم جوفاء خالية من الارشاد ، مجردة من التوجيه الصحيح . وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه الفلاسفة الذين زعموا أن الانسان يمكن أن تتم تربيته وتهذيبه من خلال دراسة الرياضيات والمعرفة النظرية . لذلك جاءت نظرياتهم التربوية عقيمة فارغة من كل ما

(١) الشافعي ــ احكام القرآن ــ ج٢ ص١٨٠ .
(٢) د. يوسف القرضاوي ــ الايمان والحياة ــ ص٧٤ .
(٣) د. علي فؤاد باشكيل ــ موقف الدين من العلم ص١٦١ .
(٤) دايل كارنيغي ــ دع القلق وابدأ الحياة ــ ص١٧٢ .

يؤدي الى سعادة الانسان)[1] .

وها هي المجتمعات البشرية في القرن العشرين ورغم كل هذا التطور المادي مازالت تعاني من مشاكلها النفسية ومازالت تدفع ضريبة إتباعها للمناهج التربوية المعاصرة ولسوف تبقى هذه المجتمعات والأمم والأفراد والأسر تتخبط في دياجير الظلام ولن تعثر على نور الاطمئنان وقارب الامان إلا في ظل منهج لا إله الا الله ، هناك في كنف الرحمن خالق الأكوان بعدها ستعلم (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ) الفتح٤ . فلا سعادة بلا سكينة ولا سكينة بلا إيمان وتوحيد .

(انظر ياصاحبي الى بني البشر وقد بلغوا من تقدم في عالمهم المشهود ، انظر إليهم إذ أعرضوا عن ذكر الله ، هل حققوا السعادة في الحياة ؟!! الدول الراقية المتقدمة التي جاوزت الأرض الى القمر والتي تمتلك من أسباب الرفاهية ما يعجز عنه الحصر ، هذه الدول تعيش في فراغ نفسي كبير : جوعة روحية ، قلق وضياع ، ظلم وجبروت : في الأفراد ، والأسر ، والدول ، في الأطفال ، والشباب والشيب ، وما حديثهم بسر ، وأخبارهم تترى تحكى أن القوم على شفى هاوية)[2] .

والعجيب أن بعض المصابين بالهوس الغربي تلاميذ الاستعمار ودعاة الحضارة المزعومة يريدون أن تصبح مجتمعاتنا مسخا شائنا شائها لتلك المجتمعات التي ينخر سوس الأمراض النفسية في عظامها ويهدد الخواء الروحي بنيانها ، هؤلاء الذين أصابهم عمى البصيرة فلم يفرقوا بين الخير والشر .

أعمى يقود بصيرا لا أبا لكم قد ضل من كانت العميان ترعاه

كيف يقود الأمة أعمى يرسم مناهجها التربوية ويقود قافلة التعليم فيها ، فلا يميز بين عوامل التعمير والبقاء ومعاول التدمير والفناء ، ولا يفرق بين الجوانب المادية الخاوية وبين الجوانب المعنوية الحية الباقية ، والتي تصنع الحضارات النافعة الراقية . إن الناظر في حضارة الغرب المادي يرى أنها لم تستطع أن تريح ابناءها ولم تقدر على تهيئة أجواء السعادة لأقوامها ، إن معدلات الانتحار تتوالى في خط بياني صاعد ، بشكل جنوني رهيب .. آلاف وآلاف يقتلون أنفسهم في السويد .. في امريكا .. في كندا .. وفي غيرها .. كل يوم بل كل ساعة بل ان الاحصائيات تقول كل دقيقة تتعرض أرواح الأبرياء للخطر في العواصم والمدن !! إن حياة الخوف والقلق وترقب القتل والسطو

---

(١) د. ماجد عرسان ــ الفكر التربوي عند ابن تيمية ــ ص٨٢ .
(٢) عمر سليمان الأشقر ــ مواقف ذات عبر ــ ص١٩ ، ص٢٠ .

والاغتصاب وانتظار العدوان في كل لحظة باتت من الظواهر التي تقع في عواصم كل هذه البلاد التي يزعمون أنها صانعة الحضارة ، فما يستطيع أحد أن يسير في شارع من هذه العواصم إلا مسلحاً أو يأوى إلى مسكنه مبكرا . إن الجريمة بكل أنواعها وألوانها أصبحت أيسر وأهون من شرب الماء وتنسم الهواء حتى تنادى مفكروهم بوجوب العودة السريعة إلى إشباع حاجات الروح ورأوا في الرجوع إلى الدين طوق النجاة والا فالنهاية الانتحار السريع والدمار المؤكد لتلك الدول والحضارات . ان الايمان بالقدر يهون البلاء كما يعطي النفس طاقة من الرضى وقدرة على التحمل والصبر (وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ .

والشافعي رحمه الله يربي تلاميذه ويعد طلابه فيغرس فيهم اليقين بأن ما أصابهم لم يكن ليخطأهم وأن ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم قال الله تعالى (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾) الحديد .

أليس في هذه الآية راحة للنفس المؤمنة ؟ أوليس فيها برد التسليم وجمال الرضا بقضاء الله ؟ بلى ، إن فيها شفاء للقلوب ودواء من آثار المصائب يجعل المؤمن يقول إذا أصابته النوائب قدر الله وما شاء فعل . وبذلك اليقين تصبح نفسه آمنة مطمئنة لا يوهنها الخور ولا تهدها نوازل القدر ، انها نفس مترعة بفيض الإيمان مضيئة بنور الرضا والتسليم لله الواحد الديان . فما أجمل قول الشافعي :

صبرا جميلا ألا ما أقرب الفرجا ... من راقب الله في الأمور نجا
من صدق الله لم ينله أذى ... ومن رجاه يكون حيث رجا[1]

ويقول رحمه الله :

أنت حسبي وفيك للقلب حسب ... ولحسبي ان صح لي فيك حسب
لا أبالي متى ودادك لي صح ... من الدهر ما تعرض خطب[2]

ويقول :

فلا تأس يوما على فائت ... وعندك منه رضا واحتساب
فلابد من كون ماخط في ... كتابك تحبى به أو تصاب
فمن حائل دون ما في الكتاب ... ومن مرسل ما أباه الكتاب ؟[2]

(١)(٢) ديوان الشافعي ــ نعيم زرزور ص٤٩ ، ص٢٩ ، ص٣٠ .

ويقول :

أسلـــــم إن أراد الله أمـــــراً فاتـــرك ما أريـــد لما يريـــد[٣٩]

وما أحسن قول الشاعر :

ياأيها الـــراضي باحكامنـــا لابـد أن تحمـد عقبـى الـرضا
فوض إلينـا وابـق مستسلمـا فالراحـة العظمـى لمن فوضا
لا ينعـم المرء بمحبوبـه حتـى يرى الراحـة فيمـا قضى

(إن التفكير في المصيبة مصيبة أخرى في منطق الجود الانساني)[١] وشتان بين من يعاني من مشكلة واحدة وبين من تحيط به مجموعة من المشكلات ، فلقد كان الامام الشافعي متفائل النظرة للحياة لأنه يعلم ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

ولـرب نازلـة يضيـق لها الفتـى ذرعـا ، وعنـد الله منها المخرج
ضاقت فلمـا استحكـمت حلقـاتها فرجت ، وكـنت أظنها لا تفـرج[٣٢]

ويفتح رحمه الله باب الأمل على مصراعيه فيقول :

لا تيـأسن من لطـف ربك في الحشا في بطـن أمك مضغـة ووليـدا[٣٩]

(إن أعظم العلاجات النفسية لليأس والخوف والرعب والقلق والاضطراب الشديد الذي يعاني منه كثير من الناس يكمن في الأمل في الله فيتبدل الخوف رجاءا والفزع أمنا والرعب سكينة والاضطراب والقلق طمأنينة)[١] ما أقسى هموم الانسان وما أشد وأطول فترات تفكيره في أمر معاشه والحصول على زرقه يقول الشافعي :

واحـق خلـق الله بالهم امـرؤ ذو همة يبلى برزق ضيـق[٦٥]

وياويل الانسان إذا أمعن في الفكر وأطلق لنفسه العنان في الجري اللاهث وراء شهوة المال يجمعه من هنا وهناك .. انه حينئذ يصبح عبد الدينار وعبد الدرهم ولا واقي له ولا منقذ إلا أن يعرف الغاية من جمعه والطريق إلى إنفاقه ، وإن كل شيء بقضاء وقدر ، وأن يسرع إلى التسليم الخالص بأن الله وحده هو الرزاق ذو القوة المتين ، يقول الشافعي :

إذا أصبـحت عنـدي قوت يومـي فخـل الهم عنـي ياسعيـد
ولا تخطـر هموم غد ببـالي فإن غدا له رزق جديـد
أسلـم إن أراد الله أمـراً فاتـرك ما أريـد لما يريـد

---

(١) د. محمد عبدالرحمن مرحبا ــ من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية ــ ص٢٤ .
(٢) د. حسن الشرقاوي ــ في الطب النبوي ــ ص١١٧ .

ومـــــا لإرادتي وجـــــه ، إذا ما أراد الله لي ما لا أريـــــــــــد

ويقول رحمه الله :

ورزق أتـــــــاك ولم تأتـــــــه ولا أرق الـــعين منـــه الطـــلاب[1]

همّ الرزق والمعاش أهم ما يطارد الناس شبحه ويلقي ظله الكئيب على فكرهم ويشغل حياتهم حتى آخر انفاسهم ، وصدق الله ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾ التكاثر ، ولو وضعوا نصب أعينهم قول الله سبحانه ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾ لأراحوا أنفسهم من الهموم واستراحوا من نكد التفكير الضيق والإنكباب النهم (إن سبعين بالمائة من قلقنا ، طبقا لاحصاء أجرته صحيفة « ليديز هوم » ، سببها المال) .

يقول الامام الشافعي :

أرى حمرا ترعـــى وتعلـــف ماتهوى وأسدا جياعا تظمـأ الدهـــر لا تروى

وأشراف قوم لا ينالـــــون قوتهم وقومـــا لئامـــا تأكل المن والسلـــوى

قضاء لديـــان الخلائـــق سابـــق وليس على مر الـقضا أحـد يقـوى

فمـــن عرف الدهـــر الخؤون وصرفـــه تصبر للبلوى ولم يظهـر الشكـــوى[91]

وقال أيضا :

تموت الاسد في الغابـــات جوعـــا ولحم الضأن تأكلـــه الكـــلاب

وعبـــد قد ينـــام على حريـــر وذو نسب مفـــارشه التـــراب[19]

وقال في شرح قوله عزوجل (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) هود٦ (فهذا عام لا خاص فيه . فكل شيء من سماء وأرض وذي روح وشجر وغير ذلك ، فالله خلقه ، وكل دابة فعلى الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها)[2] قال أبو تمام الطائي :

ينـــال الفتـــى من عيشه وهـــو جاهـــل ويكـــدى له من دهـــره وهـــو عالم

ولـــو كانت الأرزاق تجري على الحجـــا هلكـــن إذن من جهلهـــن البهائم[3]

---

(١) ديوان الشافعي ــ نعيم زرزور ــ ص٢٩ .

(٢) الشافعي ــ الرسالة ــ ص٥٤ .

(٣) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ــ ص٣٣ .

وقال الامام علي رضي الله عنه :

فلو كانت الدنيا تنال بفطنة وفضل وعقل نلت أعلى المراتب
ولكنما الأرزاق حظ وقسمة بفضل مليك لا بحيلة طالب[1]

أما الشافعي فروضه بتلك الحكم السامية مزهر فينان يقول رحمه الله :

لو كنت بالعقل تعطي ما تريد إذن لما ظفرت من الدنيا بمرزوق
رزقت مالا على جهل فعشت به فلست أول مجنون ومرزوق[66-67]

ويقول :

ومن الدليل على القضاء وحكمه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق[65]

ويقول :

وإن ضاق رزق اليوم فاصبر الى غد عسى نكبات الدهر عنك تزول[70]

ويقول :

من كان لم يؤت علما في بقاء غد ماذا تفكره في رزق بعد غد[38]

ويقول :

توكلت في رزقي على الله خالقي وأيقنت أن الله لاشك رازقي
وما يك من رزقي فليس يفوتني ولو كان في قاع البحار الغوامق
سيأتي به الله العظيم بفضله ولو لم يكن مني اللسان بناطق
ففي أي شيء تذهب النفس حسرة وقد قسم الرحمن رزق الخلائق[66]

ولا غرو أن يفيض معين الشافعي بكل هذا اليقين ولا عجب أن يتعهد طلابه ويربيهم على هذه المعاني الكريمة وأن يرسخ في أعماقهم حسن الثقة في الله وعظيم التوكل عليه . رجل هذب نفسه وأدبها وكان مثلا أعلى في قوة الثقة مستحضرا هذه الثقة في كل أحواله وأحيانه ، مسجلا على خاتم يده « وكفى بالله ثقة لمحمد بن ادريس » .

يحكي الربيع تلميذ الامام الشافعي كلاما طيبا دار بين الشافعي وعبدالله بن عبدالحكم (قال عبدالله بن عبدالحكم ــ من كبار شيوخ المالكية في مصر ــ للشافعي إذا أردت أن تسكن البلد ــ يعني مصر ــ فليكن لك قوت سنة ، ومجلس من السلطان تتعزز به ، فقال له الشافعي ياأبامحمد ، من لم تعزه التقوى فلا عزّ له ، ولقد ولدت بغزة ، وربيت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة ، وما بتنا جياعا قط)[2] وقال رحمه الله (ما

(١) ديوان الامام علي ــ ص١٨ .
(٢) عبدالغني الدقر ــ الامام الشافعي ــ ص٣٦٢ ، ص٣٦٣ .

فزعت من الفقر قط)[1] .

إن القلب الموصول بالله ، والذي تغلغل حب الله في أعماقه فعلم أن الله هو الخالق الرازق وهو المعطي المانع وهو النافع الضار وأن الأمر كله لله لا يهاب مخلوقا ولا يجامل سلطانا ولا يداهن أحدا أبدا (قال الحارث بن سريج : دخلت مع الشافعي على خادم الرشيد وهو في بيت قد فرش بالديباج . فلما وضع الشافعي رجله على العتبة أبصر الديباج فرجع ولم يدخل ، فقال له الخادم : ادخل . فقال : لا يحل افتراش هذا . فقام الخادم متمشيا حتى دخل بيتا فرش بالأرميني ، ثم دخل الشافعي فأقبل عليه وقال : هذا حلال وذاك حرام ، وهذا أحسن من ذاك وأكثر ثمنا منه . فتبسم الخادم وسكت)[2] . قال رسول الله ﷺ (لو أنكم توكلون على الله تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا ، وتروح بطانا)[3] .

والأمراض النفسية لا ترى ولكن الذي يشاهد منها هو آثارها الخارجية ونتائجها السيئة وكذلك علاج تلك الأمراض نفسي .. ندرك فقط مدى تأثيره على المريض بعد ترطيب نفسه وإراحة قلبه بالمعاني الرفيعة والمفاهيم الصحيحة وإخراجه من الحالة التي يعيش فيها باحياء الأمل عنده وبعث الرجاء له في الله عزوجل ، يصف ابن حزم حالة عرضت له ويذكر كيف أنار الله بصيرته وألهمه العلاج بالتوجه إليه فيقول (وليس في العالم مذ كان إلى أن يتناهى أحد يستحسن الهم ولا يريد طرده عن نفسه . فلما استقرَّ في نفسي هذا العلم الرفيع ، وانكشف لي هذا السر العجيب ، وأنار الله تعالى لفكري هذا الكنز العظيم ، بحثت عن سبيل موصلة ـــ على الحقيقة ـــ إلى طرح الهم الذي هو المطلوب للنفس الذي اتفق جميع انواع الانسان ـــ الجاهل منهم والعالم ، والصالح والطالح ـــ على السعي له ، فلم أجدها الا التوجه الى الله ـــ عزوجل ـــ بالعمل للآخرة)[4] .

ويفصل ابن حزم كلامه الآنف فيقول (ووجدت العمل للآخرة ـــ سالماً من كل عيب خالصاً من كل كدر ـــ موصلًا إلى طرد الهم على الحقيقة ، ووجدت العامل للآخرة إن امتحن بمكروه في تلك السبيل ـــ لم يهتم بل يُسرّ ، إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال

---

(١) النووي ـــ تهذيب الاسماء واللغات ـــ ج١ ـــ ص٥٤ .
(٢) الأصفهاني ـــ حلية الأولياء ـــ ج٩ ـــ ص١٢٦ ، ص١٢٧ .
(٣) ص.ج.ص. ـــ ج٢ /٥٢٥٤ .
(٤) ابن حزم ـــ الاخلاق والسير في مداواة النفوس ـــ ص١٤ .

عون له على ما يطلب ، وزايد في الغرض الذي إياه يقصد . ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم ، إذ ليس مؤاخذ بذلك فهو غير مؤثر في ما يطلب ، ورأيته إن قصد بالأذى سُرَّ ، وإن نكبته نكبة سر ، وإن تعب فيما سلك فيه سر ، فهو في سرور متصل أبدا ، وغيره بخلاف ذلك أبدا . فاعلم أنه مطلوب واحد ، وهو طرد الهم ، وليس إليه إلاطريق واحد ، وهو العمل لله تعالى فما عدا هذا فضلال وسخف)[1] .

ويلقي الامام الماوردي بدلوه متوسعاً في هذا الموضوع فيصف مجموعة من الوصفات النافعة والعلاجات الناجعة لعلاج الهموم وتفريج الكروب فيقول (ولتسهيل المصائب ، وتخفيف الشدائد أسباب ، إذا قارنت حزما ، هان وقعها ، وقل تأثيرها . فمنها استشعار النفس بما تعلمه من نزول الفناء ، وتقضي المسارّ ، وأن لها آجالًا ومددا منقضية ، إذ ليس للدنيا حال تدوم ، ولا لمخلوق بقاء ، ومنها أن يتصور إنجلاء الشدائد وانكشاف الهموم ، وأنها تتقدر بأوقات لا تنصرم قبلها ، ولا تستديم بعدها ، فلا تقصر بجزع ، ولا تطول بصبر ، وأن كل يوم يمر بها ، يذهب منها بشطر ، ويأخذ منها بنصيب ، حتى تنجلي ، وهو عنها غافل . ومنها أن يعلم أن فيما وُقي من الرزايا ، وكفى من الحوادث ما هو أعظم من رزيته ، وأشد من حادثته ، ليعلم أنه ممنوح بحسن الدفاع .. ومنها أن يتأسى بذوى الغير ، ويتسلى بأولى العبر ، ويعلم أنهم الأكثرون عددا ، الأسرعون مددا ، فيستجد من سلوة الأسى ، وحسن العَزَا ، ما يخفف شجوه ، ويُقِلَّ هلعه .. ومنها أن يعلم أن النعم زائرة ، وأنها لا محالة زائلة ، وأن السرور بها إذا أقبلت ، مشوب بالحذر من فراقها إذا أدبرت ، وأنها لاتفرح باقبالها فرحا ، حتى تعقب بفراقها ترحا ، فعلى قدر السرور يكون الحزن .. ومنها أن يعلم أن طوارق الانسان من دلائل فضله ومحنه من شواهد نبله .. ومنها أن يختبر أمور زمانه ، ويتنبه على صلاح شأنه ، فلا يغتر برخاء ، ولا يطمع في استواء ولا يؤمل أن تبقى الدنيا على حالة ، أو تخلو من تقلب واستحالة ، فان من عرف الدنيا ، وخبر أحوالها ، هان عليه بؤسها ونعيمها)[2] إن على المسلم ان يعلم دائما أن الابتلاء سنة كونية يهيىء الله بها عباده المؤمنين لحمل أمانة الاستخلاف (أرأيت لو أن قائدا أراد اعداد جنوده للفوز في معركة صعبة ضارية أيكون من الرحمة بهم أن يخفف لهم التدريب ويهون لهم الاعداد أم تكون الرحمة الحقيقية بهم أن

---

(١) المرجع السابق ــ ص ١٥ ــ ص١٦ .

(٢) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ــ باختصار ــ ص٢٥٢ الى ص٢٥٦ .

يشدد عليهم في التدريب على قدر ما تقتضيه المعركة الضارية التي يعدهم من أجلها ؟ المؤمنون هم حزب الله وجنوده ــ ولله المثل الأعلى ــ والمعركة التي يعدهم من أجلها هي المعركة العظمى .. معركة الحق والباطل)[1] إن هذا الابتلاء كفارة للمؤمن وطهارة له من الذنوب والآثام فلا يزال يبتلى في نفسه وماله وأهله حتى يلقي الله ويفارق الدنيا وما عليه خطيئة وتنقيه كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس كما أن القوارع (والمحن كثيرا ما تكون رحمة من الله حين تصيب العباد فتردهم سريعاً عن الخطأ ، أو تعلمهم مالم يكونوا يعلمون .. وكثيرا ما تكون العافية والنعمة استدراجا من الله للمذنبين الغاوين لأنهم بلغوا من الأثم والغواية ما يستحقون معه أن يتركوا بلا قارعة ولانذير ، حتى ينتهوا إلى شر مصير)[2] .

يقول دايل كارنيغي الذي ذاع صيته في الولايات المتحدة الامريكية وفي العالم أجمع .. إن هناك ثماني كلمات تستطيع أن تغير حياتك ... (ماركوس أوريليوس ، الفيلسوف العظيم الذي حكم الامبراطورية الرومانية ، لخص ذلك في ثماني كلمات .. وهي كلمات تستطيع أن تحدد مصيرك (حياتنا هي ما تصنعه أفكارنا) أجل إذا فكرنا بأشياء سعيدة ، نكون سعداء وان فكرنا بأشياء تعيسه نكون تعساء وان فكرنا بأشياء مخيفة نكون مخيفين . وإن فكرنا بالمرض سنشرف على المرض وإذا فكرنا بالفشل ، فإننا سنفشل بالتأكيد ، وإذا تخبطنا في رثاء الذات سيبتعد الآخرون عنا ويتجنبوا لقاءنا)[3] يقول أحدهم (كن جميلا ترى الوجود جميلًا) يقول مجدد القرن العشرين الإمام الشهيد حسن البنا (طالعت كثيرا وجربت كثيرا وخالطت أوساطاً كثيرة وشهدت حوادث عدة ، فخرجت من هذه السياحة القصيرة المدى الطويلة المراحل بعقيدة ثابته لاتتزلزل ، هي أن : السعادة التي ينشدها الناس . جميعاً إنما تفيض عليهم من نفوسهم وقلوبهم ، ولا تأتيهم من خارج القلوب أبدا وأن الشقاء الذي يحيط بهم ويهربون منه إنما يصيبهم بهذه النفوس والقلوب كذلك ، وإن القرآن يؤكد هذا المعنى ويوضحه ذلك قول الله تعالى (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ) الرعد ١١ وما رأيت كلاما أعمق في فلسفة الاجتماع من قول ذلك الشاعر :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

(١) محمد قطب ــ حول التفسير الاسلامي للتاريخ ــ ص١١١
(٢) سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ ج٢ ص٧٨٤ .
(٣) دايل كارنيغي ــ دع القلق وابدأ الحياة ــ ١٠٩ .

إعتقدت هذا واعتقدت إلى جانبه أنه ليس هناك نظم ولا تعاليم تكفل سعادة هذه النفوس البشرية وتهدى الناس إلى الطرق العملية الواضحة لهذه السعادة ، كتعاليم الاسلام الحنيف الفطرية الواضحة العملية)[1] إن من وسائل الراحة النفسية التهيؤ لصروف الدهر والاستعداد بالايمان لنوازل الزمان ومعرفة سُنة التبدل في الحياة يقول الامام الشافعي رحمه الله :

تاه الأعيرج واستعلى به الخطر ... فقل له خير ما استعملته الحذر
أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر[44]

وقال :

الدهر يومان ذا أمن وذا خطر ... والعيش عيشان ذا صفو وذا كدر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف ... وتستقر بأقصى قاعه الدرر
وفي السماء نجوم لا عداد لها ... وليس يكسف إلا الشمس والقمر[45-46]

ويقول :

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فعقبي كل خافية سكون
ولا تغفل عن الاحسان فيها ... فلا تدري السكون متى يكون[2]

وقال أمير الشعراء أحمد شوقي :

كل حال صائر يوما لضد ... فدع الأقدار تجري واستعد
فلك بالسعد والنحس يدور ... لا تعارض أبدا مجرى الأمور[3]

ويقول ابراهيم اليازجي (من علم ان القضاء واقع ، وان الأعمار رهائن المصارع ، فلم يصحب دهره على غره ، ولم يفتر من الأقدار بفتره ، لم تكبر عليه الرزيئة إذا اغتالت ، ولم يطمئن إلى السلامة وإن طالت ، فإن للدهر رقدة وهبَّة ، وإن لليالي كمنة ووثبة)[4] .

إن الانسان إذا أعد نفسه وهيأها لمقارعة النوائب وصروف الدهر يكون تقبله لها

---

(١) حسن البنا ــ مجموعة الرسائل ــ ص١١٦ .
(٢) عبدالحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص٥٠
(٣) الشوقيات ــ ج٤ ص٣٨
(٤) احمد حسن الزيات ــ تاريخ الأدب العربي ــ ص٤٧٧ .

حين وقوعها في حسبانه فيتفاعل معها تفاعلا منسجما ومتناسقا ، أما الغافل عنها والسادر في غيه منها ، فحين تفاجئه يكون وقعها عليه إيما ورد فعله غير مناسب ، فإما أكبر من الحدث حجما أو أقل منه جرما ، لأنها عنده غير مدروسة . والانسان بحاجة ماسة إلى أن يعرف حقيقة الحياة وهدفه منها وأن يدرك سر وجوده وحكمته جل جلاله منه ، ومن هذا الكون الذي يعيش فيه والإجابات على تلك الأسئلة تبث بالنفس الشعور بالإطمئنان ، بالأمن والامان ، في ذلك يقول الشافعي :

إن لله عبـــــــادا فطنـــــــا تركـــوا الدنيـــا وخافـــوا الفتنـــا
نظـــروا فيها فلمـــا علمـــوا أنها ليست لحي وطنـــــــــا
جعلوهـــــــــا لجة واتخذوا صالح الأعمـــال فيها سفنـــا(٨٤ – ٨٥)

وقال رحمه الله (من صدق الله نجا ومن أشفق على دينه سلم من الردى ومن زهد في الدنيا قرت عيناه بما يرى من ثواب الله تعالى غدا .. كن في الدنيا زاهدا وفي الاخرة راغبا واصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين)(١) .

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : (من كانت الاخرة همَّه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا همه . جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ماقدر له)(٢) وقال ﷺ (من جعل الهموم هما واحدا ، هم المعاد ، كفاه الله سائر همومه ، ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك)(٢) .

هذه النظرة الثاقبة لحقيقة الحياة الموصولة بالله ، الفاقهة لواقع الانسان وطبيعة ارتباطه بالاخرة وولائه لها وعمله من أجل ارضاء الله عزوجل والنجاة في الحياة الدائمة الباقية ، جعلت الامام الشافعي يصل إلى هدفه بسهولة ويحدد هدفه من الدنيا وتوجهه للاخرة واتخاذه العدة والزاد والصدق مع الله طريقا إلى الفلاح .

قيل للشافعي كيف أصبحت ؟ فأجاب : « كيف يصبح من يطلبه ثمانية : الله تعالى بالقرآن ، والنبي ﷺ بالسنة ، والحفظة بما ينطق ، والشيطان بالمعاصي ، والدهر بصروفه ، والنفس بشهواتها ، والعيال بالقوت ، وملك الموت بقبض روحه » .

وهل رحلة الحياة من مبدئها الى نهايتها إلا ما ذكره الشافعي واستطاع تجليته ببصيرته النيرة وتحديده بإيمانه الواعي في هذه الثمانية التي يطالب بها ؟ اللهم لا !! إن السعادة

---

(١) النووي ــ تهذيب الأسماء واللغات ــ ج١ ص٥٦ .
(٢) ص.ج.ص. ــ ج٢/٦٥١٠ ــ ٦١٨٩ .

الحقيقية تكمن في أن يعرف الانسان سر حياته وسبب خلقه ووجوده وأن يحدد دوره في هذه الحياة ووظيفته فيها ويرسم هدفه منها ويعرف بصدق عدوه من صديقه ونهايته ومصيره .

إن السعادة الحقيقة هي ان يعيش الانسان وفق مراد خالقه فهو لهذا وحده خلق (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾) الذاريات فإذا ظن الانسان أنه يستطيع أن يحقق سعادته وينال حظه من بهجة الحياة وسروره بها بعيدا عن الله فذلك وهم كاذب وسراب خادع لا تسعد به النفس ولا تطول لذتها ولا يطمئن لها الفؤاد ولنستمع إلى الدكتور يوسف القرضاوي يفلسف هذه المعاني الرفيعة فيقول :

إن السعـــــادة أن تعـــــيش ... لفكـــــرة الحق التليـــــد
لعقيـــــــــدة كبرى تحل ... قضيـــــة الكـــــون العتيـــد
وتجيب عمـــــــا يسأل الحير ... ان في وعـــــي رشيـــــد
من أيـــن جئت ؟ وأيـــن أذهب ؟ ... لم خلـــقت ؟ وهـــل أعـــود ؟
فتشيـــع في النـــفس اليـــقين ... وتطـــــرد الشك العنيـــد
وتعلـــــم الفكـــــر السوي ... وتصنـــع الخلـــق الحميـــد
وتـــــــرد للنهج المسدد كل ... ذي عقـــــــل شرود
تعطـــي حيـــاتك قيمـــة ... رب الحيـــاة بها يشيـــد
ليظـــل طرفك رانيـــا ... في الأفـــق للهـــدف البعيـــد
فتعـــيش في الدنيـــا لأخـــرى ... لا تزول ولا تبيـــد
وتمد أرضك بالسمـــــاء ... وبالملائكـــة الشهـــود
هذي العقيـــدة للسعيـــد ... هي الأساس هي العمـــود
من عاش يحملهـــا ويهتـــف ... باسمهـــا فهـــو السعيـــد[1]

ألا ما أتعس الحياة إذا عاشها الانسان بلا هدف واطلق لنفسه العنان في اقتفاء اللذات واقتناص الشهوات ، إنها حياة تافهة أشبه بحياة البهائم والعجماوات .. يقول الامام الشافعي (من عف أمن . ومن شرهت نفسه طال همه)[2] وما أعظم القناعة إنها تملأ النفس غنى وتعطي القلب شعورا بالامان والراحة ، والانسان العاقل الحكيم هو الذي لا تفرح نفسه إلى شيء محرم عليه تعجز قدراته وإمكاناته عن الوصول إليه يقول ابن حزم

(١) محمد أحمد الراشد ــ المنطلق ــ ص٧٣ ــ ٧٤ .
(٢) عبدالحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص٤٨

(الطمع أصل لكل ذل ، ولكل هم ، وهو خلق ذميم)[1] وقد قيل إن القناعة كنز لا يفنى وقيل « من قنع عز ومن طمع ذل » .. وقال أحدهم :

إن القناعـــــــــة من يحل بساحتها لم يبـــق في ظلهـــا هم يؤرقـــه[2]

ويقول الامام الشافعي :

أمت مطامعـــــــي فأرحت نفسي فإن النـــفس ما طمـــعت تهون
وأحيـــيت القنـــوع وكان ميتـــا ففـــي احيائـــه عرض مصون
إذا طمـــع يحل بقـــلب عبـــد علتـــه مذلـــة وعـــلاه هون[68]

وقال رحمه الله (من غلبته شدة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها . ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع)[3] وقال أيضا (القناعة تورث الراحة)[4] وليس أقدر على ملىء النفس بالراحة والاطمئنان واثراء الوجدان بالأمن والأمان من يقين المؤمن بالله ، إنه يأوى من ربه إلى حصن حصين ويعتز بركن شديد ... حين يحس بمعية الله ويشعر بالقرب من مولاه يلوذ بجنابه ويعوذ برضاه ويحلو له التذلل بين يديه بعبادة مخبته ، ومناجاة خاشعة متبتلة يطرق بابه ويلقي عنده همومه ويرطب لسانه بمطالبه ويرفع له أكف الضراعة في محاريبه عبر أدعية حارة وكلمات رطيبة يصل نفسه بالسماء فيكون الله عزوجل أقرب إليه من حبل الوريد وكلما لزم العبادة وأخلص في المناجاة والطاعة وأطال الركوع والسجود كان أقرب ما يكون من ربه ... يقول سبحانه (وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾) العلق ، ويقول الامام الشافعي :

قلبي برحمتك اللهم ذو أنس في السر والجهر والاصباح والغلس
وما تقلبت من نومى وفي سنتى إلا وذكرك بين النفس والنفس[50]

يرى دايل كارنيغى ان من الوسائل الفعالة لازالة القلق والقضاء عليه ، يكون من (خلال التحدث إلى نفسك كل ساعة من اليوم)[4] .

وشتان بين من يخاطب نفسه ليزيل همه وبين من يناجي من بيده تفريج الكروب ودفع الخطوب .. السميع البصير ذو القوة المتين .. ومن هو أرحم بعباده من الأم بوليدها .

---

(١) ابن حزم ــ الاخلاق والسير ــ ص٥٢
(٢) الغزالي ــ احياء علوم الدين ــ ج٤ ص٩٦
(٣) النووي ــ تهذيب الاسماء واللغات ــ ج١ ص٥٥ ــ ٥٦ .
(٤) دايل كارنيغى ــ كيف نتعامل مع الناس ــ ص٤١

من أعظم الوسائل في علاج الهموم وتهوين المشكلات ورفع الروح المعنوية في نظر الامام الشافعي السفر ففيه متعة للانسان حين يرى البلدان والأودية والرفقة وتتغير مرئياته من اختلاطة بالأقوام واطلاعه على الجديد من العادات والتقاليد مما ينشط نفسه ويشوقه للاستزادة يقول الشافعي :

تغرب عن الأوطان في طلب العلى وسافر ففي الاسفار خمس فوائد
تفرج هم ، واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجـــد[٤١]

وفي الأثر (سافروا تصحوا) وتلك حقيقة عرفها الطب النفسي حديثا (فغالبا ما ينصح الاطباء مرضاهم بتغيير الجو والسياحة والاستجمام والتنزه والتمتع بالجديد ، وبذلك تضمحل مضاعفات الكآبة ، وتستحم النفس فتزيل عنها ما علق بها من أدران وبذلك أيضا ينجلى الاحتقان النفسي ، وتفتر التوترات العصبية)[١]وذلك أن السفر يشرح الصدر ويوسع الفكر ويشغل حواس الانسان وادراكه بما يصرفه عن التركيز في التفكير في همومه أو في مرضه ، وذلك من شأنه ان يساعد كثيرا في الاستجابة للبرء وسرعة الشفاء وراحة الانسان . ومن الوسائل الناجحة في غرس الاطمئنان النفسي والرضا القلبي ، والاحساس بالسمو فوق العقد والهموم والارتفاع فوق عوامل الضعف الروحي والخور المعنوى تربية المؤمن بانضمامه إلى مدرسة الليل يعبد الله تعالى حين يأوى كل حبيب إلى حبيبه ، فيسعد بمناجاة حبيبه الأعلى ويذوق حلاوة القرب بالتبتل في محراب ربه وقت الصفاء وتقر عينه بغامر من البهجة النفسية يقول الله تعالى (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾) السجدة .

إنه حينئذ يكون نشيط النفس خفيف الروح طيب القلب نظيف الباطن ، قد انفلت من عقال الشيطان حين آوى إلى رحاب الرحمن يقول (ﷺ) (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب مكان كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد ، فان استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ ، انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان)[٢] .

---

(١) حكمت صالح ــ دراسة فنية في شعر الشافعي ــ ص ١١٥ ــ ١١٦ .
(٢) ص.ج.ص.ج٢ ٨١٠٧ .

ان الامام الشافعي خير من يحسن انتقاء الزمن الذي تكون فيه القوة المحصلة للعلم في أوج ذروتها وفي تمام يقظتها وحدة انتباهها ، يقوم وقت الفجر ذلك الوقت المبارك الذي تشهده الملائكة ويحظى بتجلى الله جل وعلا على عباده ويقسم فيه أرزاق خلقه وينشر رحمته وبركته على كونه (وهو وقت ابتداء الحرص ونشاط النفس وراحة البدن وصفاء الخاطر)[1] وفيه يقول الرسول (ﷺ) (اللهم بارك لأمتى في بكورها)[2] ويقول عليه السلام (من صلى الفجر ، فهو في ذمة الله ، وحسابه على الله)[3] وبعد صلاة الفجر (تكون أعلى نسبة لغاز الاوزون في الجو عند الفجر ، وتقل تدريجيا حتى تضمحل عند طلوع الشمس ، ولهذا الغاز تأثير مفيد للجهاز العصبى ، ومنشط للعمل الفكرى والعضلى ، بحيث يجعل الانسان عندما يستنشق نسيم الفجر الجميل المسمى بريح الصبا ، يجد له لذة ونشوة لاشبيه لها في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل)[4] ومن العوامل التي ترتقى بالصحة النفسية الاتجاه الى المسجد فهو المكان الذي تجد النفس المؤمنة فيه تمام أنسها وكمال راحتها وهو مكان تجليات أنوار الله ومهبط نفحاته واشراقاته وموئل تربية وتعليم عباده وتدريب جنود الاسلام وأبطاله وانظر في هذا إرتباط الآيات القرآنية حيث يأخذ لاحقها بحجز سابقها يقول الله تعالى (نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ) النور . ويقول (ﷺ) (المسجد بيت كل مؤمن)[5] فيه تتنزل الرحمة وتغشى السكينة وتهبط الملائكة فتأنس القلوب وتسعد الجوارح وتزول الهموم وتتلاشى الأحزان ومن ذاق عرف !

ولقد كان الشافعي رحمه الله يكتب مؤلفاته ويملي رسائله وعلومه ويعقد مجالس الدرس ويعلم طلابه في ساحة المسجد .

وفي القمة من بين هذه الوسائل جميعا لعلاج النفس البشرية وشفاء القلوب المؤمنة المداومة على تلاوة القرآن الكريم واتخاذ طالب العلم من ترتيله للقرآن الكريم وردا يوميا وحرزا متجددا ونصيبا دائما وليس أقدر على فهم هذه الحقيقة والانس بها والاستشفاء

---

(١) الموسوعة الفقهية ــ ج١٠ ص ١١٥ .
(٢)(٣) ص.ج.ص.ج١ ١٣٠٠ج٦٣٤٥٢ .
(٤) انظر عبدالحميد البلالى ــ واحات الايمان ص ١٠٨ .
(٥) ص.ج.ص.ج٢ ٦٧٠١ .

بعلاجها والتطبب برحيقها من الامام الشافعي رضي الله عنه . ذلك الحال المرتحل الذي كان يشغل وقته كله بعد فراغه من تعليم طلبته بقراءة القرآن .

لقد كان له بالقرآن شفاء وأي شفاء . فإن الرجل الذي لازمته العلة وأتعبه المرض ومات في سن مبكرة كان يرى في القرآن راحة نفسه من هموم العلة وآلام الغربة ، وكان القرآن له نعم العون من عناء العمل الممض والعلة الملازمة ، ومتحت بركة القرآن على انتاجه العلمي الغزير على رغم عمره الحياتي القصير إذا قيس بغزارة انتاجه ووفرة تأليفه وتعليمه .. يقول عليه الصلاة والسلام (وعليك بذكر الله تعالى ، وتلاوة القرآن ، فإنه روحك في السماء ، وذكرك في الأرض)[1] .

وقد وصف الله تبارك وتعالى القرآن الكريم بأوصاف كثيرة منها أنه روح ، ونور ، وهدى ، وشفاء ورحمة وموعظة .. فإذا ما حفظه القلب ووعاه العقل وسرت روحانيته في الجسد فهيهات لأعتى الهموم أن تنزل بساحته أو تقتحم حماه ، ففي القرآن شفاء وفيه رقية من كل داء .

يقول أحد تلاميذ الشافعي (مارأينا أحدا لقي من السقم ما لقي الشافعي . فدخلت عليه ، فقال لي ياأبا موسى اقرأ علي مابعد العشرين والمائة من آل عمران ، وأخف القراءة ولا تثقل . فقرأت عليه ، فلما أردت القيام ، قال : لا تغفل عني فاني مكروب)[2] أي لا تغفل عن الدعاء لي .

لقد عرف الامام الشافعي أن القرآن الكريم شفاء كل مكروب وملاذ كل محتاج قال رحمه الله (إن الله خلق الخلق لما سبق في علمه مما أراد بخلقهم وبهم ، لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، وأنزل عليهم الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة)[3] .

وقال رحمه الله (فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها كما قال الله تبارك وتعالى «الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١» ابراهيم وقال « وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ » النحل٤٤ وقال « وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝٨٩ » النحل .

---

(١) ص.ج.ص. ج١/ ٢٥٤٣ .
(٢) الرازي ــ آداب الشافعي ومناقبه ــ ص٧٦ ــ ٧٧ .
(٣) الشافعي ــ الرسالة ــ ص١٠٦ .

وقال :

« وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ الشورى)[1] .

ولقد كان الشافعي دائم الاتصال بكتاب الله عز وجل حتى قال تلميذه الربيع (قلما كنت أدخل على الشافعي رحمه الله إلا والمصحف بين يديه يتبع أحكام القرآن)[2] ومن البديهي حينئذ أن تجد عند الامام الشافعي شعورا فياضا وسرورا متدفقا يسري في جسده العليل فيرتفع به فوق الألم ويسمو فوق الاجهاد وتزول عنه الهموم بسبب مداومة تلاوة القرآن والتفاعل معه والانس به وكيف لا والقرآن الكريم ربيع القلوب ونور الصدور وجلاء الأحزان والهموم يقول الرسول ﷺ (ما أصاب عبدا هم ولا حزن ، فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضائك ، أسألك بكل إسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، الا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحا)[3] الا ما أشد حاجة كل معلم وكل طالب علم وكل أب ومرب بل كل مسلم إلى قراءة القرآن الكريم والمداومة على تلاوته باستمرار القرب منه ، وأن يكون له منه زاداً يومياً ووِرداً لاينساه ، حتى يكون قلبه وعقله وروحه على صلة وثيقة برب الأرض والسماء فإن القرآن الكريم حبل له طرفان أحدهما بيد الله سبحانه والاخر بيد الناس في الأرض .

يقول الخليفة ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه (لوطهرت قلوبنا لما شبعنا من كلام ربنا) ويقول (ماشبعت من كلام الله وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه)(قيل لعامر بن عبدالقيس : أما تسهو في صلاتك ؟ قال أو حديث أحب إلى من القرآن حتى أشتغل به !!)[4] وليس من شك في ان للقرآن الكريم تأثيره المادي

---

(١) الشافعي ــ احكام القرآن ــ جمعة البيهقي ج١ ص٢٠ .
(٢) الشافعي ــ الرسالة ــ ص٢٠ .
(٣) صحيح الكلم الطيب ــ تحقيق الالباني ص٥٣ .
(٤) ابن القيم ــ الفوائد ــ ص ٣٨٧ .

والجسدي والروحي والمعنوي والنفسي فالله عزوجل يقول (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾) الزمر ، ومن هنا اعتبر القرآن مجرد سماعه حجة ذات أثر بليغ على السامع فقال سبحانه (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ التوبة وكم كان مجرد سماع القرآن الكريم طريقا سريعا إلى الايمان وكم هز القرآن ولا يزال من كيان وأثر في وجدان فهتفت دون تردد (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾) الجن ، إن كل يوم يمر على البشرية يزيدها وثوقا بأن مايقول هذا بشر ويعطيها أوضح دليل على أنه تنزيل من صانع القوى والقدر وأنه أحاط بكل شيء خبرا (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾) النحل ، (وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا) الانعام ١١٤ (وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ) يونس ٣٧ ، قال جوته الألماني المعروف (إن اسلوب القرآن الكريم في مطابقته لمعانيه وأغراضه قوى عظيم رائع يجذبك شيئا فشيئا إلى أن تتحقق علوه ، وهكذا سيستمر هذا الكتاب عظيم التأثير في جميع الأعصار .

وقال بن جونسون المؤلف الانجليزي المعروف : إن القرآن لصوت نبي سامي نسبة إلى سام بن نوح) نافذ إلى صميم الفؤاد ، يحمل معنى عالميا أبديا ، وستحمله جميع الأصوات في الأعصار شاءت أو أبت ، وسيسمع صداه فوق القصور العالية ويقول جيمس منثبر ومن مزايا القرآن أن القلوب تخشع عند سماعه وتزداد إيماناً وسمواً)[1] .

وقد أجريت التجارب المعملية التي قام بها وأجراها الباحث الدكتور أحمد القاضي في ولاية فلوريدا في الولايات المتحدة الأميركية وقدمها في المؤتمر العالمي الثالث للطب الاسلامي المنعقد في استنبول — تركيا في سبتمبر ١٩٨٤م — والتي أكدت القوة الشفائية للقرآن الكريم وكيف يحقق القرآن تأثيره وهل هذا التأثير عضوى أم روحى أم خليط من الأثنين ؟ وأعدت لذلك أجهزة حديثة غاية في الدقة .

١ — جهاز قياس ومعالجة التوتر والمزود بالكمبيوتر ونوعه ميداك ٢٠٠٢ لمراقبة التغيرات الفسيولوجية في الجسم .

---

(١) مبشر الطرازي الحسيني — الاسلام الدين الفطرى الأبدي — ج١ ص١٦١ ص١٦٢ .

٢ ــ برنامج للكمبيوتر يشمل الفحص النفساني ومراقبة قياس التغيرات الفيزيولوجية وطباعة تقرير النتائج .

٣ ــ كمبيوتر من نوع أبل ٢إى مزود بقرصين متحركين وشاشة عرض وطابع .

٤ ــ أجهزة مراقبة إلكترونية مكونة من ٤ قنوات قناتان لقياس التيارات الكهربائية في العضلات معبرة عن ردود الفعل العصبية العضلية وقناة لقياس قابلية التوصيل الكهربائي للجلد وقناة لقياس كمية الدورة الدموية في الجلد وعدد ضربات القلب ودرجة حرارة الجلد وقد (أجريت مائتان وعشرة تجارب على خمس متطوعين أصحاء ثلاثة ذكور وأنثيين يتراوح عمرهم بين ١٧ و٤٠ سنة ومتوسط عمرهم ٢٢ سنة وكل المتطوعين كانوا من غير المسلمين ومن غير الناطقين بالعربية . وقد أجريت هذه التجارب خلال ٤٢ جلسة علاجية)[١] واستعملت القراءة القرآنية ثم استعملت قراءة غير القرآن على نفس الطريقة وبنفس الأداء المجود وأثبتت التجارب وجود أثر مهدىء مؤكد للقرآن الكريم وبسبب صوت الكلمات القرآنية باللغة العربية فهمها المستمع أم لم يفهمها وذلك في الدراسات المبدئية ..

وبذلك أكدت التجارب أن تركيب الكلمات والجمل القرآنية في حد ذاتها لها تأثير مهدىء يحدث على شكل تغيرات فسيولوجية تدل على تخفيف درجة توتر الجهاز العصبي التلقائي ويؤدي الى تنشيط وظائف المناعة في الجسم .. وما أكدته هذه التجارب من دور الألفاظ القرآنية في علاج التوتر العصبي هو ما ذكره العلامة ابن قيم الجوزية حيث يقول عن تلاوة القرآن (ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة مايملأ القلوب هيبة والنفوس خشية وتستلذه الأسماع وتميل إليه بالحنين الطباع سواء كانت فاهمة لمعانيه أو غير فاهمة ، عالمه بما يحتويه ، أو غير عالمه ، كافرة بما جاء به أو مؤمنة)[٢] ولاعجب فقد كانت العينات في البحوث العلمية السابقة والتي أجراها الدكتور أحمد القاضي بالفعل من غير المسلمين وغير العرب وبرغم ذلك كانت الأجهزة المركبة على أجسادهم تشير على شاشات الكمبيوتر الى حدوث تغيرات فسيولوجية إيجابية تصل بالجسد الى كمالها عند سماع القرآن مع أنهم ليسوا فاقهين لمعناه فهم غير عرب وغير مسلمين .

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية عدد ٧٣٢ ص٢٦ ــ أنظر ايضا محمد ابراهيم سليم ــ التداوى بالقرآن ــ من ص١٣٧ .

(٢) ابن القيم ــ الفوائد المشوقة الى علوم القرآن ــ ص٧ .

ولقد كان الامام الشافعي يهتم بتوضيح آداب القراءة للقرآن لطلابه ويأمرهم بالتهيؤ له والاستعداد لسماعه في حب واجلال وأن يلجؤوا لله جل علاه محتمين بحماه حين يتعوذون به سبحانه من الشيطان الرجيم ، قال الشافعي (قال الله تبارك وتعالى (فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾) النحل ، قال الشافعي (وأحب أن يقول حين يفتتح قبل أم القرآن : اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وآي كلام استعاذ به ، أجزأه)[1] وقال رحمه الله (ثم يبتدأ ، فيتعوذ ، ويقول : أعوذ بالسميع العليم ، أو يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم أو أعوذ بالله أن يحضرون)[2] ويحذره من أن يقرأ القرآن على عجل فالقرآن ليس شعرا يهزونه ويسرعون في إلقائه بل عليهم أن يقفوا عند آياته ويتدبروا معانيه يقول الشافعي عند قوله عزوجل (وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾) المزمل (وأقل الترتيل ترك العجلة في القرآن عن الابانة وكلما زاد على أقل الابانة في القراءة كان أحب إلى ما لم يبلغ أن تكون الزيادة فيها تمطيطا ، وأحب ما وصفت لكل قاريء في صلاة وغيرها وأنا له في المصلى أشد استحبابا منه للقاريء في غير صلاة)[3] .

ألا ما أشد حاجة الانسان الى الصحة النفسية والشخصية المعتدلة السوية كما وضحها الشافعي رحمه الله وجعلها أساسا من أسس التعليم ودعامة من دعائم التربية الناجحة والحياة الوادعة الآمنة . نعم ما أشد حاجة الانسان الى النفسية المطمئنة في عصر يسوده الازعاج والقلق والاضطراب والضوضاء بفعل الاجهزة والمخترعات الحديثة . عالم سمته العمل والانتاج والكسب وإرهاق البدن في مادية متطرفة لا حس فيها للمشاعر ولا روح فيها للتدين في عالم تتصارع فيه التيارات وتتطاحن فيه الآراء الهدامة التي أضاعت الانسان وهددت الحضارات . عالم بحاجة ملحة الى اشباع مطالب الروح والسمو بها فوق الرغبات الجامحة والهوس اللاهث وراء الأهواء ، في حاجة إلى قلب عامر بالايمان ونفس مفعمة بالرضى ويقين صادق في الرجاء في الله رب العالمين . بهذا وبهذا وحده تتهيأ التربة الصالحة للتربية والتعليم .

---

(١)(٢) احكام القرآن ــ ج١ ص٦٢ الأم ج١ ص١٠٧

(٣) الأم ــ ج١ ص١٠٩ ص١١٠ .

أمـراض القلـــوب

المربي اللبيب والمعلم الأريب هو ذلك الذي يعمق آراء تلاميذه ويغوص بدراية في حياتهم ويرقب عن كثب تصرفاتهم ويوجه أعمالهم وسلوكهم ويعالج بحكمة ما يظهر من خطئهم واعوجاجهم ويبارك صوابهم ويشجع ويزكي نجاحهم . وبالجملة يعيش معهم كالأب الحنون الذي يحب لأبنائه كل تقدم وارتقاء ، ولأن طبيعة البشر الخطأ وهم عرضة لأمراض وآفات باطنية تجتاح أخلاقهم وتلوي بسلوكهم فإن على المربين والمعلمين أن يقوموا بدور الأطباء الباطنيين الذين يشخصون أمراض القلوب في تلاميذهم ثم يصفون لهم العلاج الحكيم والدواء النافع السليم . فإن أمراض القلوب وعلل النفوس حيرت جهابذة المفكرين وأتعبت عمالقة الباحثين ومع أن الطب البشري قطع أشواطا بعيدة وقضى على الكثير من أمراض الأجساد إلا أنه وقف عاجزا عن علاج أمثال تلك العلل وآفات النفوس ، كالحقد والعجب والكبر والحسد .. آفات مدمرة تؤرق الأفراد وتفتك بالجماعات وتؤجج المشكلات وتثير الإحن والعداوات وتحول العلاقات الاجتماعية إلى جحيم لا يطاق . ومن ثم يعاني الانسان أزمات تعيق فكره وتشل نشاطه وتفسد عمله وتدبيره فينعكس ذلك على تحصيله العلمي وانتاجه العملي وبالتالي يوهن انتاج الجماعة ويضعف كل مناشط الحياة والعمل فيها . وإليك مجموعة من التشخيصات الحكيمة لداء الحسد مع وصفات قيمة للعلاج جاءت على ألسنة رجال أعطوا من الخبرة المتعمقة في هذا المجال ما جعلهم يصلون إلى مكمن الداء ويصفون خطورته ثم يصيبون كبد الحقيقة في علاجهم له يقول معاوية رضي الله عنه (ليس من خصال الشر أعدل من الحسد يقتل الحاسد قبل أن يصل الى المحسود)[1] .

إن الحسد من (الأمراض القلبية العظيمة حتى عده بعض العلماء من الكبائر ، وهو ضرر على الحاسد في الدين والدنيا ، وله آثاره الاجتماعية الخطيرة ، لأنه يشعل نار البغضاء ، ويرفع راية العداوة بين الأقرباء والأصدقاء ، ويمنع المساعدة والمعاونة بين الحاسد والمحسود ، ويأكل قلب الحاسد)[2] .

والحسد في حقيقته (إنفعال نفسي إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمني زوالها ،

---

(١) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ــ ص٢٣٢ .
(٢) حسن أيوب ــ السلوك الاجتماعي ــ ص٩١ .

وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال النفسي بسعي منه لازالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ ، أو وقف عند حد الانفعال النفسي ، فإن شرا يمكن أن يعقب هذا الانفعال)[1] ويقول بعض السلف عن تاريخ الحسد وبداية ظهوره (الحسد أول ذنب عصى الله به في السماء ـــ يعني حسد ابليس لآدم عليه السلام ـــ وأول ذنب عصى الله به في الأرض ـــ يعني حسد ابن آدم لأخيه حين قتله)[2] .

وحول علاج هذا المرض يلخص ابن قدامة رأي الغزالي فيقول عن علاج الحسد (تارة بالرضى بالقضاء ، وتارة بالزهد في الدنيا ، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الاخرة ، فيتسلى بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلا ، ولا ينطق ، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته)[3] .

أما الامام الشافعي فيؤكد خطورة تلك الأمراض القلبية ويبين آثارها ويصف علاجها ويبين أن هذه الأدواء صعبة المقاومة عزيزة المنال في علاجها وأن على معالجها أن يتذرع بالحكمة ويعتصم بالحنكة والخبرة ، وكم عانى الشافعي رحمه الله من حساده وذاق مرارة الحسد على يد مبغضيه حتى كاد أن يهلك تحت يد هارون الرشيد حين كادوا له ونفثوا عليه وأوقعوا بينه وبين الرشيد لولا قوة اعتزاز الشافعي بالله الذي منحه قدرة فذة على الحوار وقوة الدفاع عن نفسه .

يقول رحمه الله :

داريت كل النـــاس لكـــــن حاسدي ... مداراتـــــه عزت وعـــــز منـــــالها
وكيـــف يداري المرء حاسد نعمـــــة ... إذا كان لا يرضيـــــــــــــه إلا زوالها[73]

ويقول : (الحاسد طويل الحسرات عادم الدرجات)[4] .

ويبين بعض مُراد حساده وما يضمرون له من شر وما يتمنون ما يقع به من موت فيقول :

تمنـــى رجـــال أن أمـــــوت وإن أمت ... فتـــلك سبيـــل لست فيها بأوحـــــد
ومـــا موت من قد مات قبلي بضائـــري ... ولا عيش من قد عاش بعـدي بمخلـــدي
لعـل الـــذي يرجـــو فنـــائي ويدعـــي ... به قبـل موتي أن يكـون هو الـــردي[36-37]

---

(١) سيد قطب ـــ في ظلال القرآن ـــ ج٦ ص٤٠٠٨
(٢) الماوردي ـــ أدب الدنيا والدين ـــ ص٢٣٢ .
(٣) ابن قدامة ـــ منهاج القاصدين ـــ ص١٨٦ .
(٤) الاصفهاني ـــ حلية الأولياء ـــ ج٩ ص١٤٧ .

ويقول :

وإن رأوني بخير ساءهم فرحي وإن رأوني بشر سرهم نكدي[٣٧]

ويعالج الشافعي الحسد وآثاره الناتجة عنه كالحقد بعدة وسائل من أهمها علاج النفس بإقناعها بأن ما عند المحسود نصيب وقسمة قسمها الله له وأنه مهما فعل فلن يغير من رزق المحسود شيئا ، فإن كل شيء بقضاء وقدر وعليه أن يلجأ إلى الله الرازق فيطلب منه أن يرزقه كما رزق غيره . وأن في رضاه بما قسم الله له غنى نفسه وعزة مكانته ، يقول الشافعي :

ففي أي شيء تذهب النفس حسرة وقد قسم الرحمن رزق الخلائق[٦٦]

ويقول :

إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سواء[١٧]

فعلام الحسد إذا هذا هو الذل بعينه فما الذل إلا في الطمع والطمع من الأدواء المهلكة وعلاجه القناعة يقول الشافعي :

رأيت القناعة رأس الغنى فصرت بأذيالها ممسك

ومن الأساليب التربوية الناجحة في علاج الحسد التلطف مع الحاسد فإن ذلك من شأنه أن يستل سخيمة الحسد وأن ينزع آثاره المرة من قلب الحاسد من غل وحقد وغيظ لكن ذلك يتطلب نوعا من الصبر في العلاج والتدرج معه حتى يصل الى كظم غيظه وصدق الله (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾) فصلت .

وقد قيل :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الانسان احسان

ويقول الشافعي :

وأحسن إلى الأحرار تملك رقابهم فخير تجارات الكرام اكتسابها[٣١]

وليس أنجح في علاج هذه الأدواء من الترفع عن المعاملة بالمثل والتعالي عن النزول إلى المهاترات ومحاولة الانتقام فإن ذلك يزيد النار اشتعالا وقد قال أمير المؤمنين على بن ابى طالب كرم الله وجهه (انزع الشر من قلب خصمك بنزعه من قلبك) وذلك من مكارم الأخلاق (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) البقرة ٢٣٧ وفي هذا يقول الشافعي :

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من هم العداوات

انى أحيى عدوى عند رؤيته لأدفع الشر عنى بالتحيات

وأظهـــر الـــبشر للانسان أبـــغضه كأنـــه قد حشى قلبـــي محبـــات
النـــاس داء وداء النـــاس قربهم وفي اعتـــزالهم قطـــع المودات

(والشخصية السوية هي التي تتسم بالصفاء والمحبة والتسامح مؤمنة بأن التسامح هو أكبر مراتب القوة ، وأن حب الانتقام هو أول مظاهر الضعف ، ومن هذا المنهل استمد الشاعر قوله :

خلص فؤادك من غل ومـــن حسد فالغل في القلب مثل الغل في العنق

لقد جعل الشاعر الحقد في الفؤاد مثل القيد في عنق الانسان ، يكبله ويقيده ، ويعطل مناحى تفكيره السوى وقدرته الخلاقة . وإذا تعرض المرء إلى أذى الآخرين فليصفح عنهم وليقابلهم بالاحسان ، ولينطلق من أن هؤلاء مرضي يستحقون الرحمة والعطف ، لأنهم لو كانوا أقوياء في شخصياتهم لما تعمدوا الأذى والشر وحملوا الضغينة والكراهية في نفوسهم ، ولو أن مقابلة الشر بالشر تجدى وتصلح لاتبعها الانسان ولكنها على العكس تؤجج نار البغضاء وتزيد ألسنة اللهب اشتعالا)[1] واتماما لهذا العلاج على المرء أن يطرق باب ربه يحتمى بحماه ويتعوذ به من شر حاسد إذا حسد ، إن هذا صمام أمان وحصن يجنبه به الله كيد الحساد ويكفيه شرورهم وذلك من شأنه أن يتفرغ الانسان لعمله ويبعد عما يشغله من التفكير في الانتقام إذ الاشتغال به يشل حركة حياته وانتاجه .

يقول الدكتور فيكتور روشيه (إن الحسد والغيرة والحقد أقطاب ثلاثة لشيء واحد ، وانها لآفات تنتج سموما تضر بالصحة وتقضى على جانب كبير من الطاقة والحيوية اللازمتين للتفكير والعمل)[2] ويقول الشافعي :

ياسميـــع الدعـــاء كن عنـــد ظنـــى واكفنـــى من كفيتـــه الشر منـــى[3]

بهذا الوضوح وذلك العمق استطاع الشافعي ان يعالج أعقد المشكلات النفسية (ولا شك ان الحسد من آفات النفوس التي حيرت جهابذة العلماء وأتعبت أصحاب علم النفس والفلسفة)[4] ومن العلل القاتلة الكبر والكبر آفة من الآفات القلبية ومرض عضال من الأمراض النفسية والمتكبر شخص يرى في أعماقه أنه صغير فيحاول أن يكمل على الناس نقصه . وأغلب مرضى الكبر تنقضى حياتهم بأمراض جسمية تذيقهم هوان الذل والصغار وتنفر منهم أقرب الناس اليهم وقد قيل :

---

(١) د. محمد أحمد السيد ـــ معجزة الاسلام التربوية ـــ ص٨٢ .
(٢) ابراهيم محمد الجمل ـــ الحسد وكيف نتقيه ؟ ـــ ص٩٠ .
(٣) ديوان الشافعي ـــ نعيم زرزور ـــ ص١٠٢ .
(٤) ابراهيم محمد الجمل ـــ الحسد وكيف نتقيه ـــ ص٦ .

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولاتك كالدخان يعلو بنفسه ... إلى طبقات الجو وهو وضيع

ويكفي الكبر جرما أنه حول إبليس من عابد مطيع إلى شيطان رجيم طرده الله من رحمته وأنزله من جنته وجعله مثلا للغواية وطريقا إلى جهنم (فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾) الاسراء يقول الشافعي معالجا داء الكبر مبينا النهاية الحتيمة للانسان :

ولا تمشين في منكب الأرض فاخرا ... فعما قليل يحتويك ترابها

إن هذه الأمراض النفسية يسلم أولها الى آخرها ويكون كل واحد منها نتيجة حتمية لما قبله .

فالحسد يوصل للكبر والكبر يورث العجب والعجب من المهلكات يقول الرسول ﷺ (فأما المهلكات فشح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه) .

(العجب في اللغة هو : الزهو ، يقال رجل معجب : يعني مزهو بما يكون منه حسنا أو قبيحا . وأصل العجب عند العلماء هو حمد النفس . ونسيان النعمة ، وهو نظر العبد الى نفسه وأفعاله ، وينسى أن ذلك إنما هو منّة من الله تعالى عليه ، فيحسن حال نفسه عنده ، ويقل شكره ، وينسب إلى نفسه شيئا هو من غيرها ، وهي مطبوعة على خلافه)[1] .

يقول ابن مسكويه (أما العجب فحقيقته إذا حددناه أنه ظن كاذب بالنفس في استحقاق مرتبة هي غير مستحقة لها ، وحقيق على من عرف نفسه أن يعرف كثرة العيوب والنقائص التي تعتورها فإن الفضل مقسوم بين البشر وليس يكمل الواحد منهم الا بفضائل غيره . وكل من كانت فضيلته عند غيره فواجب عليه أن لا يعجب بنفسه)[2] والعجب يورث الرياء والرياء مرض قلبي وداء نفسي وخلق من أخلاق المنافقين وسمة من سمات الأدعياء والكاذبين وصدق الله إذ يقول (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ) البقرة ٢٦٤ (يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾) النساء إن الجزاء

(١) الموسوعة الفقهية ــ ج٢ ــ ص٣١٩ .
(٢) تهذيب الأخلاق في التربية ص١٦٢ .

من جنس العمل ومن ثم فإن الله عزوجل سوف يفضح هؤلاء على رؤوس الأشهاد يوم القيامة يقول الرسول ﷺ (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر الرياء ، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء)[1] وقال ﷺ (من سمَّع ، سمع الله به ، ومن راءى ، راءى الله به)[2] (وأعلم أن الرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع ، فالمرائي يُري الناس ما يطلب منه به الحظوة عندهم)[3] .

(والرياء من شأنه أن يحجب المرء عن الله وينزل به الى مستوى الحيوان ، فلا تزكوا له نفس ، ولا يقبل منه عمل ، ذلك أن المرائي لا رأي له ، ولا مبدأ ولا عقيدة . ولكنه كالحرباء ، يتلون بكل لون ، ويميل مع كل ريح)[4] .

والامام الغزالي رحمه الله يطرح رأي الامام الشافعي في آفتي العجب والرياء وعلاجهما . وللغزالي باعه الطويل ومجاله الفسيح في رصد هذه الجوانب النفسية وتحليلها ووصف علاجها ولرأيه فيها وزنه فهو رائد من رواد التربية الاسلامية وصاحب اكبر موسوعة اسلامية تعالج أمراض النفوس والقلوب وذلك في كتابه الفريد « إحياء علوم الدين » يقول الامام الغزالي عن الامام الشافعي رحمه الله (ولم يستفد الشافعي رحمه الله هذا الخوف والزهد من علم كتاب السلم والاجارة وسائر كتب الفقه بل هو من علوم الآخرة المستخرجة من القرآن والأخبار إذ حكم الأولين والآخرين مودعة فيهما . أما كونه عالما بأسرار القلب وعلوم الآخرة فتعرفه من الحكم المأثورة عنه . روي أنه سئل عن الرياء فقال على البديهة الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم ، وقال الشافعي رحمه الله تعالى إذا أنت خفت على عملك العجب فانظر رضا من تطلب وفي أي ثواب ترغب ومن أي عقاب ترهب وأي عافية تشكر وأي بلاء تذكر فإنك إذا تفكرت في واحدة من هذه الخصال صغر في عينك عملك . فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وعلاج العجب وهما من كبار آفات القلب)[5] .

---

(١)(٢) ص.ج.ص ج١ / ١٥٥٥ ــ ج٢ /٦٣٠٢ .
(٣) ابن قدامة ــ مختصر منهاج القاصدين ــ ص٢١٤
(٤) سيد سابق ــ اسلامنا ــ ص٤٢ــ٤٣ .
(٥) الغزالي ــ احياء علوم الدين ــ ج١ ص٢٦ .

البـاب الســـادس

الصداقة

الانسان اجتماعي بفطرته مدني بطبعه ميله للصحبة وحنينه للالف والصداقة شيء موجود في أعماقه مركوز في جبلته ، فإذا رأيت إنسانا ينفر من الصحبة ويبتعد عن الأصدقاء فذلك شخص مريض بالانطواء سقيم النفس داؤه العزلة والبعد عن الناس .

ومثل هذا في حاجة ماسة الى طبيب نفسي يعالج مرضه ويحل عقده ويعيده انسانا سوي السلوك معتدل الخلق .

ومن ثم يقول الرسول (ﷺ) (المؤمن يألف ويؤلف ولاخير فيمن لايألف ولا يؤلف)[1] والأخوة والصداقة ترابط عاطفي وتآلف قوى من صنع القوى القدير جل جلاله فان قلوب البشر بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ... وقد خلق جل جلاله الأرواح جنودا مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف . وحاجة البشر الى الاستمرار في هذه الحياة يتطلب تآلف الأصدقاء وتقارب الأخلاء فإن الألفة نعمة كبرى من نعم الله الذي اسبغ نعمه على عباده ظاهرة وباطنة ، ومن يقدر على هذه النعم إلامنعمها جل شأنه الذي يقول لسيد الخلق (ﷺ) (لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾) الانفال وهو سبحانه يذكرنا بهذه النعمة الجليلة ويأمرنا أن نعتصم بها وأن تكون دائما أمام أعيننا فيذكرها مرتين في آية واحدة فيقول (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) آل عمران ١٠٣ ومن حرم هذه النعمة فقد حرم خيرا كثيراً يقول الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾) الانعام أما إذا صحت الصحبة ونجحت الألفة فانها تكون آقوى من صلات القرابة وأشد ترابطا وتآزرا من علاقات الدم واللحم وقد قيل رب أخ لك لم تلده أمك . إن الانسان محتاج إلى (مدينة فيها خلق كثير لتتم له السعادة الانسانية فكل بالطبع وبالضرورة يحتاج إلى غيره فهو لذلك مضطر إلى مصافاة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة ومحبتهم المحبة الصادقة لأنهم يكملون ذاته ويتممون

---

(١) ص.ج.ص.ج٢ ٦٦٦٢ .

انسانيته وهو أيضا يفعل بهم مثل ذلك . فان كان كذلك بالطبع والضرورة فكيف يؤثر الانسان العاقل العارف بنفسه التفرد والتخلي ولا يتعاطى ما يرى الفضيلة في غيره)[1] واقراراً بحتمية هذا الامر فقد إتجه علماء الاجتماع التربوي حديثا بشكل جدى وتوسعى الى دراسة صلات الصداقة وجماعات الرفقة ودراسة الأثر المستفاد منها في سلوك الأفراد تربويا وقدرتهم على التعلم .

(يرجع الاهتمام بجماعات الرفاق إلى أن الأطفال والمراهقين بوجه خاص يقضون وقتا طويلا مع رفاقهم سواء داخل المدرسة أو خارجها ، الأمر الذي يؤثر في سلوكهم واتجاهاتهم تأثيرا كبيرا ، وكذلك في قدرتهم على التعلم ، ومما يضفى على جماعة الرفاق أهمية متزايدة ، التطور الذي حدث في كثير من المجتمعات الان ، والذي زادت بمقتضاه فترة إعداد الشباب للدخول في مرحلة الرشد والاعتماد على النفس)[2] والمسلم يحتاج إلى صديق صدوق يكون عونا له على دينه ودنياه وتذكره بالله رؤيته فاذا نسى ذكره وإذا ذكر أعانه ومن ثم نجد الاسلام حريصا بتعاليمه السمحة وارشاداته الحكيمة على حث المسلم على مصاحبة الأتقياء واختيار الأنقياء الأسوياء فان صلاح المرء لايتم إلا إذا اقترن بأقرانه من الفضلاء ، قال الله عزوجل (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾) التوبة ويقول سبحانه (وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾) الكهف إن الاخلاء دواء القلوب وشفاء النفوس يقول الشاعر :

محبة الصالحين بلسم قلبى إنها للنفوس أعظم راقى

فاذا ما ظفر المرء بخليل وفي فليعتز بصحبته وليمد حبل وداده وليعض على صلته بالنواجذ فان مثل هذا في ندرة الكبريت الأحمر . وقد قال أحدهم :

نبئت ان المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفى

ومن هنا يوصى الرسول (ﷺ) أن يتخير المؤمن الصديق المؤمن الذي يعرف حق الصحبة والتقى الذي يحافظ على الأخوة والألفة فيقول (ﷺ) (لاتصاحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقي)[3] .

---

(١) ابن مسكويه ــ تهذيب الأخلاق ــ ص٢٤ ، ٢٥ .
(٢) د. ابراهيم ناصر د. دلال ملحس ــ علم الاجتماع التربوي ــ ص٤٧ .
(٣) ص.ج.ص. ــ ج٢/ ٧٣٤١ .

إن الصديق مرآة صديقه فاذا أردت ان تعرف نفسك فانظر إلى صديقك يقول ﷺ (الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل)[1] وقال ﷺ (المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن ، يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه)[2] .

ويقول الامام ابن حزم (من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها . ولم يرافق في تلك الطريق الا أكرم صديق)[3] .

وإذا كان من شأن العلماء وديدن العظماء أن يعطوا لكل شيء حجمه ، ولا يستكثروا إلا من الأمور العظيمة فلا غرابة أن ترى الامام الشافعي يستكثر من الأصدقاء ويرى فيهم عونا للإنسان على العلم وحفظا له من الضياع .

وفي شعر الشافعي ونثره ووصاياه في مجال الأصدقاء ما أخذ حيزا كبيرا ، وقدرا وفيرا . يقول رحمه الله (ضياع العالِم أن يكون بلا اخوان)[4] واذا كان هذا شأن العالم فغيره ولاشك إلى الاخوان أحوج . ويقول (عاشر كرام الناس تعش كريما ، ولا تعاشر اللئام فتنسب الى اللؤم)[5] .

ولقد اعتبر الشافعي حب الاخوان قربة إلى الله تعالى وطريقا لنيل الرحمة والشفاعة فهو يقول :

أحب الصالحين ولست منهم ... لعلي أن أنال بهم الشفاعة
وأكره من تجارته المعاصي ... ولو كنا سواءاً في البضاعة[6]

وقال رحمه الله (أربعة تزيد في العقل : ترك الفضول في الكلام ، والسواك ، ومجالسة الصالحين ، ومجالسة العلماء)[6] .

في هذه الكلمات الجامعة والمعاني الرفيعة ماهو أدل وأصدق على أثر الصحبة في سلوك الفرد والمجتمع ، فإن للصحبة تأثيرها الفعال في عقل الانسان واتجاهاته ونمط تفكيره وخلقه وسلوكه .

وكيف لا والشافعي يركزها في مجالسة الصالحين ومجالسة العلماء ؟ وكلا النوعين ينضحان استقامة وصلاحا وعلما وأدبا ، وهل التغيرات السلوكية والخلقية الا نتيجة

---

(١)(٢) ص.ج.ص ج١ / ٣٥٤٥ ــ ج٢ / ٦٦٥٦ .
(٣) ابن حزم ــ الاخلاق والسير ــ ص٢٤ .
(٤) الذهبي ــ سير اعلام النبلاء ــ ج١٠ ص٤٢ .
(٥) النووي ــ تهذيب الأسماء واللغات ج١ ص٥٧ .
(٦) ابن القيم ــ الطب النبوي ــ ص٤٢٩ .

حتمية لمثل تلك الصحبة ؟ وهل التغيير الفكري واكتساب النمط العلمي إلا ثمرة من ثمرات صحبة العلماء ؟ إن الامام الشافعي رحمه الله يسجل لنا مشاعره ويصور لنا أحاسيسه بالاخوان والصحاب فيقول (ليس سرور يعدل صحبة الاخوان ، ولا غم يعدل فراقهم)[1] .

ويدلل الشافعي على مدى إيمانه وحبه الوثيق للصديق حين يرى ان الدنيا تصبح خرابا يبابا إذا عدم منها الصديق الصدوق فيقول :

سلام على الدنيا إذا لم يكن بها صديق صدوق يصدق الوعد منصفا

ذلك أن الصديق الصدوق والذي يؤثر رضا صديقه ويقدم حاجته على حاجة نفسه ، يكون معه على السراء والضراء وفي الشدة والرخاء ، وقد قال أحدهم :

إن الصديق الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شملة ليجمعك

إن محك الاختبار الصادق هي الشدائد والضوائق حين تعترض الأصدقاء فعند الشدائد يعرف الأخوان وقال أحدهم :

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوي من صديقي
صديقي من يقاسمني همومي ويرمي بالعداوة من رماني

أما أولئك الذين يعرفونك في الرخاء ويبتعدون عنك بالشدة واللأواء ويدعون عندك الأخوة فهم ثعالب في أجسام بشر قال الشافعي :

وما أكثر الأخوان حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليل[70]

وقيل :

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

والشافعي يحث ابناءه وطلابه على تكوين العلاقات الأخوية ، وتقوية الصلات الاجتماعية وتوثيق الروابط الانسانية فإن في ذلك تكوين المجتمع المتماسك المتحاب القوي الذي ينطلق بكل قوته لبناء الحياة وصنع الحضارات فيقول رحمه الله :

وأكثر من الأخوان ما استطعت ، انهم بطون إذا استنجدتهم وظهور
وليس كثير ألف خل لعاقل وإن عدوا واحدا لكثير[2]

أن نجاح المرء في صنع الصداقات واكتساب الاخوان أكبر دليل على أنه رجل قوي

---

(١) النووي ــ تهذيب الأسماء واللغات ــ ج١ ص٥٥ .
(٢) حكمت صالح ــ دراسة فنية في شعر الشافعي ــ ص٦٦ .

سوي له من إيمانه إنعطاف على اخوانه وتودد إليهم ورحمة بهم وتلك صفات تأسر قلوب الناس وتجعلهم أسرع تقربا منه وإلتحاما به . ذلك أنه استطاع أن يتكيف مع نفسه وأن يتفاعل مع الاخرين . والواقع أكبر دليل وشاهد على هذا الصنف من الرجال .

الكثير ممن ترجم للامام الشافعي أو كتب عنه .. عقد فصلا أشار فيه إلى فراسة الشافعي ، ولا عجب فرجل كالشافعي لابد أن يمنح نورا يملأ جوانحه ويشف في أعماقه حتى يرى بهذا النور مالا يراه غيره .

إن هذا النور نتيجة لازمة لتقوي الشافعي وورعه ، والله تعالى يقول (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا) الانفال ٢٩ وقال سبحانه (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ) الحديد ٢٨

أي نورا تفرقون به بين الحق والباطل . وقد كثر في العرب اصحاب الفراسة وعد في رجال الاسلام الكثير ممن بز في هذا المجال ومنهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما . وقد قيل :

إن الـــذي جمع الـــفضل والنجـــا ـــة والتقـــى جمعـــا
الألمعـــي الـــذي يظـــن بك الظـــ ـــن كأن قد رأى وقـــد سمعـــا

وقد ذكروا لظاهرة الفراسة عند الشافعي الشواهد الكثيرة التي تقطع بأن الرجل كان ذا نباهة في هذا الشأن ، وكانت فراسته في هذا معروفة لدى الجميع فمن ذلك أنه مر أمامه أخو الربيع تلميذه ولم يكن قد رآه من قبل فقال لتلميذه الربيع أهذا أخوك ؟ وكان كما قال . وقدم رجل من صنعاء فقال له الشافعي رحمه الله : أنت من أهل صنعاء ؟ قال : نعم . قال أفحداد أنت ؟ قال : نعم . وجاءه رجل من أهل مصر يوم الجمعة عليه ثياب يسأله عن مسألة . فقال له : أنت نساج ؟ فقال : عندي أجراء .. وهذه الشواهد وأمثالها كثير تدل على نظرة الشافعي الثاقبة وفراسته القوية ، ولكننا نرى فيها جوانب ودلالات أخرى تضاف إلى قوة فراسته ، فالشافعي رحمه الله بروح العالم الكبير والمربي الفاضل وبما أمده الله به من قوة في جذب تلاميذه وأسر محبيه إنما يسأل رغبة في تحبيب الناس له وانعطافهم عليه وتحريكا لروح التعاطف والتراحم والمودة . فقد أوتي رحمه الله أفقا اجتماعيا رحبا ييسر له الالتقاء بالناس والاسراع في تكوين العلاقات الاجتماعية معهم بسهولة ويسر .

تلك الصفات لا تمنح إلا للقليل من الرجال وهو رحمه الله يستغل كل فرصة ويستثمر كل لقاء لكي يشمل بحبه الطلاب ويتعرفوا على الجديد من الأصدقاء .

يؤيد هذا ويفسره كثرة أصحابه ووفرة إخوانه في كل بلد خطت فيه قدماه . وكيف لا وهو شديد الحب للناس شغوف بالاجتماع بهم وعقد اللقاءات الاجتماعية العامة معهم خاصة في المسجد ومواسم الحج .

وها هو رسول الله ﷺ يعلمنا اسلوب المبادأة بالتقرب إلى الناس والتلطف معهم والمبادرة إلى السؤال عنهم ومعرفة أحوالهم وتلمس أخبارهم رغبة في اجتذاب ودهم واكتساب اخوتهم وصداقتهم .

همَّ ﷺ بالرجوع من الطائف بعد رحلته التي قام بها لعرض الدعوة وتبليغ الرسالة وبعدما قوبل به من أهلها من إعراض وسخرية وإيذاء أغروا به سفهاءهم وصبيانهم ومجانينهم فأمطروه بالحجارة حتى أدموا قدميه وألجؤه الى الاحتماء ببستان لابني ربيعة ـــ عتبة وشيبة ـــ الذين أخذتهم الحمية القبلية فأرسلا له قطفا من العنب مع غلام لهما يقال له عداس . وبين ضباب اليأس من أهل الطائف أراد الرسول لله ان يكسب على الأقل عداسا وأن يدعوه إلى الاسلام ودون مقدمات قدم عداس العنب لرسول الله ﷺ ووضعه بين يديه ثم قال له كل . فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال بسم الله ثم أكل فنظر عداس في وجهه وقال والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد فقال له رسول الله ﷺ ومن أي البلاد أنت ياعداس ؟ وما دينك ؟ قال : نصراني . أنا رجل من أهل نينوى . فقال ﷺ من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال ﷺ ذاك أخى وكان نبيا وأنا نبي ! فانكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه[1][2] .

أرأيت كيف يكون اسلوب التقرب الى الناس سببا في إقبالهم على المرء وانعطافهم عليه ، وطريقا موصلا إلى الخير والهداية .

يقول دايل كارنيغي .. اذا أردت أن تكسب الأصدقاء فتحدث بما يحبون فلا يعقل أن يصطاد الصياد السمك بطعم يحبه هو كأن يضع بها ساندويش .. ولكن عليه أن يلقي ما يحبه السمك ويضعه بالطعم . وكذلك ينبغي أن تكسب الناس فلا تنطلق بالحديث عما تحبه أنت ولكن علينا أن تختار الموضوعات التي يميل لها الفرد ويتفاعل معها .

ولتجلية الصفات وتوضيح القسمات التي يجب أن يعشق من أجلها الأخوان ، وأن يختار

---

(١) انظر مختصر سيرة ابن هشام ـــ اعداق عفيفي الزعبي ـــ ص٨٢ ،٨٣ .

(٢) انظر عباس حسن السيسي ـــ الطريق الى القلوب ـــ ص٤٣ .

على ضوئها الأصدقاء ، يضع الشافعي هذه الملامح ويصور تلك المطالب فيقول :

أحب من الأخـــــــوان كل مواتي وكل غضيض الطـــــرف عن عثراتي
يوافقنـــي في كل أمـــر أريـــده ويحفظنـــي حيـــا وبعـــد مماتي
فمـــن لي بهذا ؟ ليت أني أصبتـــه لقاسمتـــه مالي من الحسنـــات
تصفـحت اخـواني فكـان أقلهـم على كثرة الأخـوان أهـل ثقـاتي[٢٩]

ولقد بين الامام الشافعي ان إمارات الصديق في الاخوة أن يكون الصديق لصديقه حليما وفيا عفوا (ومن صدق الصديق في أخوة أخية أن يقبل عله ويسد خلله ويغفر زلله)[١] فالكمال لله وحده أما الانسان هو عرضة للخطأ لا يسلم منه أبدا ، وكما قيل كفى المرء نبلا أن تعد معايبه وقد قال الشاعر :

ولست بمستبـق أخـا لا تلمـه على شعث أي الرجـال المهـذب

وصدق بشار بن برد :

إذا أنت لم تشرب مرارا على القـذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربـه ؟
فعش واحـدا أو صل أخـاك فإنـه مقـارف ذنب مرة ومجانبـه

ومن علامات الصداقة الحقة أن يكون الصديق على هدى صديقه ــ الا في معصية الله عزوجل ــ يحب من يحب ويبغض من يبغض ويصادق من يصادق ويعادي من يعادي وأن يكون صديقه صريحا واضحا كأحسن ما تكون الصراحة والوضوح يقول الشافعي (من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقا)[٢] ويقول (إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عداوتك)[٣] ويقول (ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته)[٤] .

وكان رحمه الله وصولا ودودا لأصحابه ــ يمنع أصحابه من التكلف له ويتركهم في بيته يأكلون متى أرادوا وقد قيل من قلت كلفته دامت ألفته . ولقد أكثر الامام الشافعي الحديث عن الاصدقاء واحتل الكلام عن الصحبة مساحات واسعة في وشعره فالصديق عنده يقف مع صاحبه خاصة في الشدائد ويجده أسرع إليه ، والضراء والشدة والرخاء يقول رحمه الله :

ولما أتـيت النـاس أطـلب عندهـم أخا ثقـة عنـد ابتـلاء الشدائـد

(١)(٢) النووي ــ تهذيب الاسماء واللغات ــ ج١ ص٥٥ .
(٣) الغزالي ــ احياء علوم الدين ــ ج٢ ص١٨٦ .
(٤) حكمت صالح ــ دارسة فنية في شعر الشافعي ص١٤٦ .

تقلبت في دهري رخاءاً وشدة ونـاديت في الأحياء هل من مساعد ؟
فلم أر فيما ساءني غير شامت ولم أر فيما سرني غير حاسد(٣٧)

ويقول :

صديق ليس ينفع يوم بؤس قريب من عدو في القياس
وما يبقي الصديق بكل عصر ولا الاخوان إلا للتآسي(٥٠)

ومن أهم خصائص القرين الصالح ان يحترم الأصدقاء ويوقرهم يقول الشافعي :

ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهابا
ومن قضت الرجال له حقوقا ومن يعص الرجال فما أصابا(٢٧)

ويقول :

من ظن انك دونه فاترك هواه إذن وهنه(٨٥)

ومن الخلال المطلوبة في الصديق ان يحافظ على صفو الوداد وأن يكون مستودع السر من صاحبه كتوما لما يفضي به إليه ثبتا في محبته قويا في ولائه لاخوانه يقول الامام الشافعي :

إذا المرء لايرعاك إلا تكلفا فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
ففي الناس أبدال وفي الترك راحة وفي القلب صبر للحبيب ولوجفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه ولا كل من صافيته لك قدصفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة فلا خير في خل يجيء تكلفا
ولا خير في خل يخون خليله ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشا قد تقادم عهده ويظهر سراً كان بالأمس قد خفا
سلام على الدنيا اذا لم يكن بها صديق صدوق يصدق الوعد منصفا(٦٠)

ومن هنا ــ يجب على المرء ان يكون دقيقا حذرا في اختيار الصديق فانه عند الردة والعداوة أخطر عليه من العدو اللدود فهو ملم بأحواله عالم بمواطن الضعف فيه فتكون خطورته حينئذ أقوى وضرره عليه أنكى وما أصدق قول القائل :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة

والامام الشافعي يرى آن الانسان مزيج من الطاعة والمعصية وأن ذلك أمر لايسلم منه أحد وأن العبرة في الحكم على الانسان بالاغلبية في عمله وعلى الصديق أن يراعى ذلك عند انتقاء الأصدقاء فيقول رحمه الله (ما أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه ولا أحد

يعصى الله ولا يطيعه فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل وإذا جعل مثل هذا عدلا في حق الله فبأن تراه عدلا في حق نفسك ومقتضى أخوتك أولى)[1] فعلى المرء أن يختار من كانت محاسنه أكثر من مساوئه وقبائحه وقد قيل :

خذ من خليلك ماصفا ودع الذي فيه الكدر

قال الشافعي (ما أحد إلا له محب ومبغض فاذا كان كذلك فكن مع أهل طاعة الله عزوجل)[2] إن من مميزات الاسلام العظيمة أنه يرى تقارب المؤمنين وتراحمهم واثراء الاخوة واكتساب الصداقة طريقا إلى قوة الاسلام ووحدة الأمة الاسلامية ، وان ذلك نعمة من الله عزوجل وان الاهتمام بالاخوان والسؤال عنهم وزيارة الأصدقاء وتعاعدهم من أعظم القربات .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن رجلًا زار أخاً له في قرية أخرى ، فأرصد الله له على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال : لا ، غير أنى أحببته في الله عزوجل ، قال : فانى رسول الله إليك ، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه . وقال (ﷺ) (من عاد مريضا ، أو زار أخاً له في الله ، ناداه مناد : أن طبت وطاب ممشاك ، وتبوأت من الجنة منزلا)[3] وجاء رجل الى الشافعي فقال له صديقك فلان عليل فقال له الشافعي ، والله لقد أحسنت إلي وأيقظتني لمكرمة ودفعت عني اعتذاراً يشوبه الكذب ثم قال : ياغلام ، هات السبتية ــ النعال ــ ثم قال : للمشى على الحفاء على علة الوجاء في حَرَّ الرمضاء من ذوى طوى أهون من اعتذار إلى صديق يشوبه الكذب ثم أنشأ يقول :

أرى راحة للحق عند قضائه ويثقل يوما إن تركت على عمد
وحسبك حظا أن ترى غير كاذب وقولك لم أعلم وإذاك من الجهد
ومن يقض حق الجار بعد ابن عمه وصاحبه الادنى على القرب والبعد
يعش سيدا يستعذب الناس ذكره وان نابه حق أتوه على قصد(٤٠ - ٤١)

وفي ميدان التطبيق العملى ومن خلال التجربة الواعية يضرب الامام الشافعي أروع الأمثلة وهو يزور تلميذا من طلابه النجباء عن صالح بن أحمد بن حنبل قال (جاء الشافعي يوما إلى أبى يعوده وكان عليلا فوثب أبى إليه فقبل ما بين عينيه ثم أجلسه في مكانه وجلس بين يديه قال : فجعل يسائله ساعة ، فلما وثب الشافعي ليركب قام أبى

(١)(٢) الغزالي ــ احياء علوم الدين ــ ج٢ ص١٧٥ ج١ ص ٦٢ .
(٣) ص.ج.ص ٦٣٨٧ .

فأخذ بركابه ومشى معه ، فبلغ ذلك يحيى بن معين فوجه إلى أبى : ياأبا عبدالله ، ياسبحان الله اضطرك الأمر إلى أن تمشى إلى جانب بغلة الشافعي ؟ فقال أبى : وأنت ياأبا زكريا لو مشيت من الجانب الاخر لانتفعت به)[1] وكان الشافعي يزور تلميذه أحمد بن حنبل كما كان الامام أحمد يزور استاذه الشافعي فقال الشافعي في ذلك :

قالـــوا : يزورك أحمد وتـــــزوره قلت الفضائـــل لاتفـــارق منزلـــه
إن زارنى فبفضلـــــه ، أوزرتـــــه فلفضلـــه ، فالـــفضل في الحالين له[2]

حقا إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذووه . حب في الله بلغ الذروة بين رجال بلغوا من العلم والفضل مبلغا عظيما ولكأن لسان أحدهم يقول :

فما زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى الى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل

وكان أصحابه يلتفون حوله ويتعاهدونه ويعودونه فإذا مرض أكثر أصحابه من زيارته . وقد عاده طلابه يوما وقد ألم به المرض فلمسوا جبينه وأرادوا تسليته والتنفيس عنه وقالوا له أنت بخير كي يطمئن فقال :

أقـــول لعائـــديَّ ، وشجعـــوني وغرهـــم فتـــور حمى جبينـــي
صأصبر للحمـــام ، وقـــد أتـــانى وإلا فهـــو آت بعـــــد حين
تعـــزوا بالـــتصبر عن أخيكـــم، فضجـــوا بالبكـــاء ، وودعـــونى
فلـــم أدع الأنين لقـــل سقمـــى ولكنـــي ضعـــفت عن الأنين[3]

ولم ينسه ألم الموت حين داهمه القدر ، ودنى الرحيل ، أحبته وأصحابه فقد كان همه الأول فراقه الأحبة وصعوبة ذلك عليه حدث المزنى قال دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقلت : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلا وللاخوان مفارقا ، ولكأس المنية شاربا ، وعلى الله جل شأنه واردا ، ولا والله ما أدرى روحى تصير إلى الجنه أم إلى النار ؟ فأعزيها ثم بكى وأنشأ يقول :

ولما قسى قلبـــــى ، وضاقت مذاهب جعلت الرجا منى لعفـوك سلمـا (٧٨)

والتزاور بين الاصدقاء يقوى المحبة ويؤلف القلوب ويذهب كدر الشحناء والبغضاء بين الأخلاء ومن هنا نجد الامام الشافعي يصنع دائما مع أحبائه مايزيد الألفة ويقوى رابطة الأخوة من بذل وكرم وسخاء ...

---

(١) ياقوت الحموى ــ معجم الادباء ــ ج ١٧ ص ٣٠١ .
(٢) حكمت صالح ــ دراسة فنية في شعر الشافعي ص ٢٦٧ .
(٣) ديوان الشافعي ــ نعيم زرزور ص ٢٦٧ .

قال أبو ثور (كان الشافعي من أجود الناس وأسمحهم كفا ، كان يشترى الجارية الصناع التي تطبخ وتعمل الحلوى ، ويشترط عليها ان لا يقربها ، لأنه كان عليلا لا يمكنه أن يقرب النساء في وقته ذلك ثم يأتينا فيقول لنا : تشهوا ما أحببهم فقد اشتريت جارية تحسن أن تعمل ما تريدون ، فيقول لها بعض أصحابنا : اعملى لنا كذا وكذا . فكنا نأمرها بما نريد وهو مسرور بذلك)[1] وعن الربيع قال عمل الشافعي وليمة ، فلما أكل الناس ، قال لي البويطي : إجلس فكل ، فقلت من أذن لنا أن نأكل ؟ قال : فسمع الشافعي ، فقال سبحان الله ! أنت في حل من مالى كله)[2] والحق أن المرء يحار بأيهما يطرب ومن أيهما يعجب ، بأدب التلميذ أم بكرم وحفاوة الأستاذ !! إن الفضل في الحالين للشافعي رحمه الله فهو الذي علم وأدب وربى . ومن حق الصحبة الايثار والجود فيؤثر كل واحد صاحبه على نفسه ويجود له بما ملكت يده (وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) الحشر ٩ ومن حقها التعفف والترفع عن اغتنام الفرصة وكثرة الطلب فمثل هذا يثقل على صاحبه وعلى كل واحد منهما ان يتمثل قول الله تبارك وتعالى (يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ) البقرة ٢٧٣ يقول الشافعي معبرا عن تلك الخصال الحميدة والشمائل الكريمة :

أجـــود بموجـــود ولـــو بتُّ طاويـــاً ... على الجوع كشحـــاً والحشا يتـــألم
وأظهـــر اسبـــاب الغنـــى بين رفقتـــى ... ليخفاهـــــم حالى وإن لمعـــــدم
وبينـــى وبين الله أشكـــوه فاقتـــي ... حقيقـــا فان الله بالحال اعلـــم[3]

يقول الشافعي : (أفلست من دهرى ثلاثة افلاسات ، وكنت أبيع قليلي وكثيرى ، حتى حلي ابنتي وزوجتي ولم أرهن قط)[3] ويجسد ذروة الأخلاق السامية والفضائل الانسانية الرفيعة حين يقول :

ولـو أننـى أسعـى لنفعـى وجدتنـى ... كثير التـوانى للـذي أنـا طالبـه
ولكننـى أسعـى لانفـع صاحبـي ... وعـار على الشبعـان ان جاع صاحبـه[4]

ولقد نصحه تلميذه أبو ثور أن يشترى بمال كان معه ضيعه تكون له ولولده من بعده .. فاشترى مضربا بمنى يكون لأصحابه إذ يحجون[4] قال الامام الشافعي (السخاء

---

(١) الأصفهاني ــ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج٩ ص١٣٣ .
(٢) عبدالغني الدقر ــ الامام الشافعي ص ٣١٧ ـص ٣١٨ .
(٣) الأصفهاني ــ حلية الأولياء ــ ج٩ ــ ص١٣٣ .
(٤) عبدالحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص٤٧ .

والكرم يغطيان عيوب الدنيا والاخرة بعد أن لا يحلقهما بدعة)[1] والامام الشافعي صورة ناطقة ونموذج مشرق للقرين الصالح لأصحابه فهو دائم السؤال يبحث عن أحوالهم ويسعى في قضاء حوائجهم ويقوم بمساعدتهم إنه لهم الأب الحنون والأخ الأكبر يحس بهم ويعمل على استقرار حياتهم وذلك ليتفرغوا لحياة العلم الجادة والتربية النافعة ـــ يقول أحد تلاميذ الشافعي ـــ الربيع بن سليمان (تزوجت ، فسألنى الشافعي : كم أصدقتها ؟ فقلت ثلاثين ديناراً . فقال كم اعطيتها ؟ قلت ستة دنانير فصعد داره وأرسل إلى بصرة فيها أربعة وعشرون ديناراً)[2] فانظر كيف يكون الأدب الرفيع والخلق العالى من المربي الكبير الذي أحس بظروف تلميذه فلم يحوجه إلى السؤال فحين عرف حاله أعانه ، وحين أعطاه أرسله إليه حتى لا يحمله تعب الخجل . يقول الشافعي (لا تقصر في حق أخيك اعتمادا على مروءته)[3] يقول المزنى (مارأيت رجلا أكرم من الشافعي خرجت معه ليلة عيد من المسجد وأنا أذاكره في مسألة حتى أتيت باب داره فأتاه غلام بكيس فقال : مولاى يقرئك السلام ويقول لك خذ هذه الكيس . فأخذه وأدخله في كمه ، فرآه رجل من الحلقة فقال : ياأبا عبدالله ! ولدت امرأتى الساعة ولا شيء عندى فدفع إليه الكيس وصعد وليس معه شيء)[4] بهذه المعاملة الكريمة والتربية الواعية القويمة إستحوذ الشافعي على قلوب أصحابه فقاموا بحقه خير قيام وحفظوه في حياته كما كانوا بررة كراما له بعد مماته .

مرض الشافعي رحمه الله مرض الموت بمصر وقال (مروا فلانا يغسلنى ، فلما توفي بلغه خبر وفاته فحضر وقال إئتونى بتذكرته ـــ وصيته ـــ فأتى بها فنظر فيها فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين فكتبها على نفسه وقضاها عنه وقال هذا غسلى إياه أي أن الشافعي أراد به هذا)[5] وهذه الرواية ـــ إن صحت ـــ فإنها تدل على ورع الشافعي الذي أبى وهو غير قادر أن يموت وعليه دين ولم يوف . كما تدل على قوة ثقته في هذا الصديق حيث أوصى إليه بتطهيره من خطيئة الدين حين يبقى عليه . كما تدل أيضا على الوفاء الجم من هذا الصديق للشافعي ولم يثنه كبر المبلغ الذي بلغ سبعون ألف درهم ولا موت الشافعي مع عدم معرفة غيره بقصد الامام .

---

(١) الاصفهاني ـــ حلية الأولياء ـــ ج ٩ ص ١٣٤ .
(٢) الرازى ـــ ادب الشافعي ومناقبه ـــ ص ١٢٥
(٣) ديوان الشافعي ـــ اسماعيل اليوسف ـــ ص ٨٥ .
(٤) الاصفهاني ـــ حلية الأولياء ـــ ج ٩ ص ١٣٢
(٥) الغزالي ـــ احياء علوم الدين ـــ ج٣ ص ٢٤٥ .

نقول لم يمنعه ذلك من الوفاء والاخلاص للامام أن يقوم بسداد الدين ثم يقول هذا غسلى إياه ، فاكرم بمثل هذه الصحبة وأعظم بهذا الوفاء . وهل هناك دليل على الوفاء للامام الشافعي من تلاميذه وطلابه أبلغ من أن يحملوا مذهبه ويطوفوا به البلاد شرقا وغربا ويعبروا به القارات ويعكفوا على كتبه كتابة وشرحاً وتحليلا ويتابعوا السير على مذهبه وتنمية عمله وفكره حتى صار ذكره مسرى الشمس والقمر ؟ وتمذهب بفكره مئات الملايين في البلاد العربية والاسلامية وكتبت في علمه الكتب وقدمت الرسائل ودبجت المجلدات والأسفار . لقد كانت للشافعي فلسفته الخاصة في معاملة الإخوان والأصدقاء يحسن الظن بهم إلى أبعد ما يكون ، ويتغاضى عن الزلات ويقبل الاعذار بل ويعتذر هو لهم أمام نفسه وهو القائل :

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا ... إن بر عندك فيما قال أو فجرا
لقد اطاعك من يرضيك ظاهره ... وقد أجلك من يعصيك مستترا[٤٤-٤٥]

وهو القائل :

قيل لي قد أسى عليك فلان ... ومقام الفتى على الذل عار
قلت قد جاءنى وأحدث عذرا ... دية الذنب عندنا الاعتذار[٤٦]

وحينما أراد تلميذه ان يعتذر من كلمة لم يكن يقصدها قد بدرت منه ، قال له الشافعي (والله يابنى لو تشتمنى صراحا لعلمت انك لم ترد)[١] وكم من فعل أريد به خيرا فأثمر من غير قصد شرا .. يقول الشافعي :

رام نفعا فضر من غير قصد ... ومن البر ما يكون عقوقا[٦٧]

وما أجمل وأروع قول الشافعي (من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان ، فلا تكن حماراً ولا شيطاناً واسترض قلبك بنفسك نيابة عن أخيك واحترز أن تكون شيطانا إن لم تقبل)[٢] ومن الأقوال الخالدة المأثورة عن العابد الناسك ابن المبارك قوله (المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب الزلات فمن حق الاخوان (أن تغفر هفوتهم ، وتستر زلتهم ، لأن من رام بريئا من الهفوات ، سليما من الزلات ، رام أمرا معوزا واقترح وصفا معجزا ، وقد قالت الحكماء . أي عالم لايهفو ، وأي صارم لا ينبو ، وأى جواد لايكبو ؟)[٣] وإليك هذه الصورة الخالدة العظيمة

---

(١) البيهقي ــ مناقب الشافعي ــ ج٢ ص ٢١٧ .
(٢) الغزالي ــ احياء علوم الدين ــ ج٢ ص ١٨٣ .
(٣)(٤) الماوردي ــ ادب الدنيا والدين ــ ص ١٥٢،ص١٥٣

الماجدة من تراثنا القيم الفريد وما أكثرها من صور وما أروعها من مواقف ، لا تحمل حال أخيك على الشر وأنت تجد له في الخير محملا (وحكى عن بنت عبدالله بن مطيع ، أنها قالت لزوجها طلحة بن عبدالرحمن بن عوف الزهرى ، وكان أجود قريش في زمانه : مارأيت قوما ألأم من اخوانك . قال : مه ، ولم ذلك ؟قالت : أراهم إذا أيسرت لزموك وإذا أعسرت تركوك . قال هذا والله كرم من كرمهم : يأتوننا في حال القوة بنا عليهم ، ويتركوننا في حال الضعف بنا عنهم . فانظر كيف تأول بكرمه هذا التأويل ، حتى جعل قبيح فعلهم حسنا ، وظاهر غدرهم وفاءا ، وهذا محض الكرم ، ولباب الفضل ، وبمثل هذا يلزم ذوى الفضل أن يتأولوا الهفوات من اخوانهم)[٤] إنها النفوس الكبيرة تأبى أن تكون في موقف الضعف وفي جانب الاساءة أدبا :

وإذا كانت النفـــوس كبـــاراً تعـــبت في مرادهـــا الأجسام

والامام الشافعي يرى ان الصديق ينبغي عليه أن يغمض عينيه عن عورات الناس ويكف نفسه عن تتبع السوءات وكشف المستور فيقول :

المرء ان كان عاقـــلا ورعـــا أشغلـه عن عيـــوب غيره ورعـــه
كا العليـــل السقيم أشغلـــه عن وجـع النـاس كلهـم وجعـه[٥٦]

وقد جاء في الحديث الشريف عن رسول الله (ﷺ) قوله (اقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم ، إلا الحدود)[١] وقال عليه الصلاة والسلام (انك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أوكدت أن تفسدهم)[٢] ولله در القائل :

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا فيهتك الله ستـــراً عن مساويكـــا
واذكـــر محاسن ما فيهم إذا ذكـــروا ولا تعب أحـــدا منهم بما فيكـــا[٣]

وفي منثور الحكم (لاتبد من العيوب ما ستره علام الغيوب)[٤] وقال الامام الشافعي :

وعين الـــرضا عن كل عيب كليلـــة ولكـن عين السخـط تبـدى المساويـا
ولست بهيـــاب لمن لايهابنـــى ولست أرى للمـرء مالايـرى ليـا
فان تدن منـــى ، تدن منك مودتى وان تنأعنـى ، تلقنـى عنك نائيـا
كلانـا غنـى عن أخيـه حياتـه ونحن إذا متنـا أشد تغانيـا[٩١]

ولا يظنن ظان أن الأمر بالتغاضي عن هفوات الصديق والتجاوز عن زلاته يستوجب

---

(١)(٢) ص.ج.ص.ج١ ١١٨٥ ــ ٢٢٩٥ .
(٣)(٤) الماوردي ــ ادب الدنيا والدين ــ ص ٢٢٩

مجاملته في أمر يخالف الحق ويرى ان هذا بابا من ابواب الوفاء .. كلا .. كلا .. فإن الحق أحق أن يتبع ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، والحب والبغض أمران لا يضيعان حقا ولا يقيمان باطلا ، يقول سبحانه وتعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ) النساء ١٣٥

وقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاتل أخيه زيد بن الخطاب فقال له اغرب عن وجهي فإني لا أحبك حتى تحب الأرض الدم . فقال ياأمير المؤمنين وهل يمنعني هذا البغض شيئا من حقي ؟ قال : لا . قال : إذا لا يأسى على الحب إلا النساء .

يحدثنا الامام الغزالي عن موقف الامام الشافعي والرجال مواقف فيقول : (واعلم أنه ليس من الوفاء موافقه الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين بل من الوفاء له المخالفة فقد كان الشافعي رضي الله عنه آخى محمد بن عبدالحكم وكان يقربه ويقبل عليه ويقول ما يقيمني بمصر غيره . فاعتل محمد فعاده الشافعي رحمه الله تعالى فقال :

مرض الحبيب فعدته فمرضت من حذري عليه
وأتى الحبيب يعودني فبرئت من نظري إليه

وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقته إليه بعد وفاته فقيل للشافعي في علته التي مات فيها رضي الله عنه إلى من نجلس بعدك ياأبا عبدالله فاستشرف له محمد بن عبدالحكم وهو عند رأسه ليومىء إليه فقال الشافعي : سبحان الله أيشك في هذا ؟ أبو يعقوب البويطي . فانكسر لها محمد ومال أصحابه إلى البويطي مع أن محمدا كان قد حمل عنه مذهبه كله لكن كان البويطي أفضل وأقرب إلى الزهد والورع فنصح الشافعي لله وللمسلمين وترك المداهنة ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى)[1] وبذلك أكد الشافعي القاعدة الشرعية التي تقول ان الرئاسة أو الامارة لاتعطى لمن طلبها وانما تسند إلى من هو أهل لها . يقول شيخ الاسلام أحمد بن تيمية (فيجب على كل من ولى شيئا من أمر المسلمين ، من هؤلاء وغيرهم (أي المؤذنين والمعلمين والأمراء ...) أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضوع أصلح من يقدر عليه ، ولايقدم الرجل لكونه طلب الولاية ، أو سبق في الطلب ، بل يكون ذلك سببا للمنع ، فان في الصحيح عن النبي ﷺ (إن قوما دخلوا عليه فسألوه ولاية ، فقال : إنا لانولى أمرنا هذا من طلبه) وقال لعبدالرحمن بن سمرة : (ياعبدالرحمن لا تسأل الامارة ، فانك ان اعطيتها من غير

---

(١) العزالي ــ احياء علوم الدين ــ ج٢ ص١٨٥ .

مسألة أعنت عليها ، وان أعطيتها عن مسألة وكلت إليها) أخرجاه في الصحيحين ، قال ﷺ من طلب القضاء واستعان عليه وكل إليه ، ومن لم يطلب القضاء ، ولم يستعن عليه ، أنزل الله عليه ملكا يسدده) رواه أهل السنن .

فان عدل عن الاحق الأصلح إلى غيره ، لأجل قرابة بينهما أو ولاء عتاقة أو صداقة أو مرافقة في بلد أو مذهب ، أو طريقة أوجنس : كالعربية والفارسية والتركية ، والرومية ، أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة ، أو غير ذلك من الاسباب ، أو لضغن في قلبه على الأحق ، أوعداوة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ، ودخل فيما نهى عنه في قوله وتعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾) الانفال)[1] ومن ثم عهد الشافعي في آمر حلقته وجعل خليفته في مجلس درسه البويطي وأعرض عن محمد بن عبدالحكم مع حبه الكبير له واعزازه إياه ، لقد أحبه حبا جعله يقول مايقيمنى بمصر غيره .

لقد كرم الامام الشافعي العلم وترفع به عن المجاملة وأن يكون مجالاً للمداهنة والمحاباة والمجالة ..

لاينكر عاقل مارس الحياة وعاشر الناس أثر الصحبة وفعلها في القرين فكلاهما يؤثر في صاحبة وأشدهما تأثيرا في ذلك أقواهما بشخصيته أو ماله وجاهله وسلطانه . يصور معلم البشرية ﷺ مثل هذا التأثير المفضى حتما إلى التغيير فيقول ﷺ (مثل الجليس الصالح والجليس السوء ، كمثل صاحب المسك وكير الحداد ، لا يعدمك من صاحب المسك ، إما أن تشتريه ، أو تجد ريحه ، وكير الحداد ، يحرق بيتك ، أو ثوبك ، أو تجد ريحاً خبيثة) وقال عدي بن زيد :

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي
إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الردى فتردى مع الردى[3]

وما أصدق قول الخوارزمي :

لاتصحب الكسلان في حالاته ... كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد إلى الجليد سريعة ... والجمر يوضع في الرماد فيخمد[4]

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ــ ج ٢٨ ص ٢٤٧ .
(٢) ص.ج.ص.ج٢ ٥٨٢٩ .
(٣)(٤) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ــ ص ١٤٠ ــ ص ٨٨ .

وانظر الى دقة الشافعي وحساسيته في التعبير عن تلك الظاهرة حيث يقول رحمه الله (ما جالست ثقيلا إلاوجدت الجانب الذي يليه من بدنى كأنه أثقل من الجانب الآخر)[1] .

يقول :

وأنزلنى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكله
أحامقة حتى تقال سجية ولو كان ذا عقل لكنت اعاقله[٢٣]

ألا ماجمل الصحبة في العلم ، إنها عون على حبه والتفاني في طلبه والاعتزاز بنوره والأخذ بأدبه الرفيع وتربيته العالية وكثيرا ماحذر الشافعي من مصاحبة الجهال الذين يكرهون العلم ويمقتون مجالسه ، فقال رحمه الله (من لا يحب العلم لا خير فيه ولا يكون بينك وبينه صداقة ولا معرفة)[2] ومن المسلمات الأولى في واقع الناس والحياة أن أحداً لايسلم من سهام الناس وهذا سيد الخلق ﷺ ، انه لم ينجو من قول المغرضين وطعن الحاسدين وصدق الشافعي حين يقول (لوأن رجلا سوى نفسه مثل القدح لكان له في الناس من يغمزه)[3] ويقول ابن حزم (من قدر أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون)[4] ومن هنا فعلى المرء أن يستقيم على أمر الله وأن لا يخشى من الناس ذماً ولا يرجو منهم مدحاً فإن رضا الناس جميعاً غاية لا تدرك .

يقول ابن قدامة (واعلم أن أكثر الناس انما هلكوا لخوف مذمة الناس وحب مدحهم فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس ، رجاء المدح ، وخوفا من الذم ، وذلك من المهلكات ، فوجبت معالجته)[5] .

يصور بعض علماء الاجتماع من أصحاب النظرية التفاعلية خطورة نظرة الفرد الى الجماعة ومحاولته المستمرة إرضاء الآخرين ونظرة الآخرين له ويرون أن في ذلك تشكيل لشخصية الفرد وتحديد لسلوكياته فيبين « كولي » عالم الاجتماع وأحد رواد النظرية التفاعلية الرمزية .. أن الانسان يتصور ذاته ويتعرف إليها من خلال (١ ــ تصور الآخرين له . ٢ ــ تصوره لتصور الآخرين . ٣ ــ شعور خاص بالفرد مثل الكبرياء . وهكذا يبنى الانسان وينمي تصوره لذاته من خلال تفاعله مع الآخرين وطريقة تفاعلهم

---

(١) الغزالي ــ إحياء علوم الدين ــ ج٢ ــ ص٢٣٥ .
(٢) النووي ــ تهذيب الأسماء ــ ج١ ــ ص٥٤ .
(٣) الغزويني ــ مفيد العلوم ــ ص٢٩٥ .
(٤) الاخلاق والسير ــ ص١٧ .
(٥) مختصر منهاج القاصدين ــ ص٢١٢ .

معه ، وما تحمل استجاباتهم وتصرفاتهم من تقدير واحترام والعكس . فتتكون لديه من خلال ذلك وفهمه وكيفية تفسيره لاستجابات الآخرين ، صورة لنفسه)[1] .

والقدر المتفق عليه على الأقل (ان عملية التفاعل بين الفرد وبيئته موضوع هام في علم الاجتماع التربوي الحديث لأن البيئة التي يعيش فيها الانسان ، سواء البيئة الاجتماعية أو البيئة الطبيعية ، تؤثر تأثيرا كبيرا في تكوينه وشخصيته ، وسلوكه العام في الحياة)[2] .

وكثيرا ما تهلك نظرة الجماعة أو المجتمع أفرادا ، فكم من عاصٍ أراد التوبة وصرفه عنها استهزاء الناس به ، وكم من مطلقة عانت الويلات من كلام الناس وكم وكم .. ؟! صدهم عن الحق نظرة المجتمع . ومن هنا يقول الامام الشافعي (انك لا تقدر أن ترضي الناس كلهم ، فأصلح ما بينك وبين الله ، ثم لا تبال بالناس)[3] وقال رحمه الله (من عرف نفسه لم يضره ما قيل فيه)[4] وقال لتلميذه يونس بن عبدالأعلى (لو اجتهدت كل الجهد على أن ترضي الناس كلهم فلا سبيل ، فاخلص عملك ونيتك لله عزوجل)[5] وقال رحمه الله (لا يعرف الرياء الى المخلصون)[6] .

وروى الترمذي في باب الزهد « كتب معاوية الى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن اكتبي إلى كتابا توصيني فيه ولا تكثري علي . فكتبت عائشة رضي الله عنها الى معاوية سلام عليك أما بعد فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس . ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس والسلام عليك » والشافعي المربي والاستاذ كان يتدرج في معاجلة الأصدقاء واصلاح عيوبهم على مهل من النصيحة والاحسان والتذكير بواجب الخلان والاخوان فإذا لم يجدي ذلك لجأ الى الاعتزال والهجرة فترة من الزمان كنوع من الاصلاح والتأديب والتربية والتهذيب حتى يفيق الصديق من غيه ويرجع الى صوابه ورشده ..

حكى الربيع ان الشافعي رحمه الله آخى رجلا ببغداد ثم أن أخاه ولي السيبين فتغير وللمناصب سحرها وللولاية بريقها وأسرها فتغير صاحبه هذا عما كان عليه فكتب إليه

---

(١) د. ابراهيم عيسى عثمان ــ الأصول في علم الاجتماع ــ ص٩٧ .
(٢) د. ابراهيم ناصر ــ دلال ملحس ــ علم الاجتماع التربوي ــ ص١٢٧ .
(٣) ديوان الشافعي ــ اسماعيل اليوسف ــ ص٨٥ .
(٤) ابن عبد البر الانتقاء ــ ص١٠٠ .
(٥)(٦) النووي ــ تهذيب الأسماء واللغات ــ ج١ ص٥٥ .

الشافعي بهذه الأبيات :

اذهب فودك من فؤادي طالـــــــق أبـــدا ولـــيس طلاق ذات الـــبين
فاذا ارعـــــويت فإنها تطليقـــــة ويـــــدوم ودك لي على ثنـــــتين
وان امتنـــعت شفـــعتها بمثـــالها فتكـــون تطليقـــتين في حيضين
واذا الثـــلاث أتـــتك منـــي بتـــة لم تغـــن عنك ولايـــة (السيـــبين)[1]

وها هو الشافعي يقدم لنا وثيقة علمية ، ويدبج صحيفة فقهية تربوية تكون نبراساً واضحا لعلاج ما يقع بين الأصدقاء من مواقف وأزمات فيقول : (يا يونس إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه فإياك ان تبادر بالعداوة وقطع الولاية ، فتكون ممن أزال يقينه بشك ، ولكن إلقه وقل له : بلغني عنك كذا وكذا ، وأجدر أن تسمى المبلغ ، فإن انكر ذلك فقل له : أنت أصدق وأبر ، ولا تزيدن على ذلك شيئا . وان اعترف بذلك فرأيت له في ذلك وجهاً بعذر فاقبل منه ، وإن لم يرد ذلك فقل له : ما أردت بما بغلني عنك ؟ فإن ذكر ماله وجه من العذر فأقبله ، وان لم يذكر لك وجها لعذر وضاق عليك المسلك فحينئذ أثبتها عليه سيئة أتاها . ثم أنت في ذلك بالخيار ، إن شئت كافأته بمثله من غير زيادة ، وإن شئت عفوت عنه ، والعفو أبلغ للتقوى وأبلغ في الكرم لقول الله تعالى (وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ » . فإن نازعتك نفسك بالمكافأة فاذكر فيما سبق لديك ، ولا تبخس باقي احسانه السالف بهذه السيئة ، فإن ذلك الظلم بعينه . وقد كان الرجل الصالح يقول : رحم الله من كافأني على إساءتي من غير أن يزيد ولا يبخس حقا لي . يا يونس إذا كان لك صديق فشد يديك به فإن اتخاذ الصديق صعب ومفارقته سهل . وقد كان الرجل الصالح يشبه سهولة مفارقة الصديق بصبي يطرح في البئر حجراً عظيماً فيسهل طرحه عليه ، ويصعب اخراجه على رجال البرك فهذه وصيتي لك . والسلام)[2] .

واذا كنا قد اعتبرنا العزلة والهجران اسلوبا من أساليب التربية ومعالجة الصديق إذا لج في المقاطعة وأبعد في العداوة فإنما أردنا الحيطة والتوسط والاعتدال في كل شيء حسن .

يقول أبو سليمان الخطابي (قد انتهى منا الكلام في أمر العزلة الى حيث شرطنا ان نبلغه ، وأوردنا فيها من الأخبار ما خفنا أن نكون حسنًّا معه الجفاء من حيث أردنا الاحتراز منه ، وليس إلى هذا اجرينا ، ولا إياه أردنا ، فإن الاغراق في كل شيء مذموم

(١) نعيم زرزور ــ ديوان الشافعي ــ ص١٠٣ .
(٢) الأصفهاني ــ حلية الأولياء ــ ج٩ ص١٢١ ، ١٢٢ .

وخير الأمور أوسطها ، والحسنة بين السيئتين)[1] ويقول ابن حزم (والعز والراحة والسرور والسلامة في الانفراد عنهم ، ولكن اجعلهم كالنار تدفأ بها ، ولا تخالطها)[2] .

وقد التقى ابن حزم والخطابي مع مراد الشافعي وفلسفته في الاجتماع الانساني يقول رحمه الله (الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة ، والانبساط إليهم مجلبة للسوء ، فكن بين القبض والبسط)[3] وقول الشافعي في هذا الباب هو فصل الخطاب كما قال الغزالي في تعليقه على تلك العبارة .. وكما يشير الشيخ محمد الغزالي إلى تلك الحقيقة الانسانية في قوله (ثم ان العزلة والاختلاط لا يمكن أن يكونا وصفين دائمين للانسان ، فليقسم المسلم وقته بين الخلوة النافعة والاختلاط الحسن . ليخرج من الحالين بما يصلح شأنه كله)[4] يقول الامام الشافعي رحمه الله :

النـــاس داء وداء النـــاس قربهم ... وفي اعتـــزالهم قطـــع المودات[28]

روى ابن ماجة في كتاب الفتن عن النبي ﷺ أنه قال (المؤمن الذي يخالط الناس ، ويصبر على أذاهم ، أعظم أجرا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ، ولا يصبر على أذاهم) .

وما أعظم قول الرسول ﷺ حين يضع الميزان الحق لعلاقات الصداقة ويبين ان الاعتدال فيها هو الفيصل في هذا المجال فيقول عليه الصلاة والسلام : (أحبب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وأبغض بغيضك هونا ما ، عسى أن يكون حبيبك يوما ما)[5] وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يكن حبك كلفا ، ولا بغضك تلفاً .

وقال أبو الأسود الدؤلي :

وكن معدنا للخير واصفح عن الأذى ... فإنك راء ما عملت وسامع
وأحبب اذا احببت خلامقاربا ... فإنك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض إذا أبغضت غير مباين ... فإنك لا تدري متى أنت راجع[6]

ولقد سئل شيخ الاسلام ابن تيمية : هل الأفضل للسالك العزلة أو الخلطة ؟ فقال :

---

(١) العزلة ــ ص٥ ، ص٢٣٦ .
(٢) الاخلاق والسير ص٢٧ .
(٣) الغزالي ــ احياء علوم الدين ــ ج٢ ــ ص٢٤٢ .
(٤) خلق المسلم ص٢٣٢ .
(٥) ص.ج.ص. ــ ج١ / ١٧٨ .
(٦) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ــ ص١٥٠ .

(فهذه المسألة وإن كان الناس يتنازعون فيها إما نزاعا كليا وإما حاليا ، فحقيقة الأمر أن « الخلطة » تارة تكون واجبة أو مستحبة ، والشخص الواحد قد يكون مأمورا بالمخالطة تارة ، والانفراد تارة وجماع ذلك : أن المخالطة ان كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها ، وإن كان فيها تعاون على الاثم والعدوان فهي منهي عنها . فالاختلاط بالمسلمين في جنس العبادات : كالصلوات الخمس والجمع والعيدين وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحو ذلك هو مما أمر الله به ورسوله .

وكذلك الاختلاط بهم في الحج وفي غزو الكفار والخوارج والمارقين . وان كان أئمة ذلك فجارا .

وإن كان في تلك الجماعات فجار ، وكذلك الاجتماع الذي يزداد العبد به إيمانا . إما لانتفاعه به ، وأما لنفعه له ، ونحو ذلك .

ولابد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه واصلاح قلبه ، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره ، فهذا يحتاج فيها الى انفراد بنفسه ، إما في بيته كما قال طاووس : نعم صومعة الرجل بيته ، يكف فيها بصره ولسانه . وإما في غير بيته . فاختيار المخالطة مطلقا خطأ ، واختيار الانفراد مطلقا خطأ . وأما مقدار ما يحتاج إليه كل انسان من هذا وهذا وما هو الأصلح له من كل حال فهذا يحتاج إلى نظر خاص كما تقدم)[1] . .

(١) مجموع فتاوي شيخ الاسلام احمد بن تيمية ــ ج١٠ ــ ص٤٢٥ ، ص٤٢٦ .

أخـــلاق المربـــين

للأمم العظيمة الراقية والحضارات القوية الباقية أسس وقواعد تبنى عليها ويقوم صرحها عاليا شامخا فوقها وكلما كانت هذه الأسس متينة راسخة واستمرت قوية ثابتة كلما استمرت قوة الأمم وعمرت تلك الحضارات وأهم هذه الأسس التي تبنى عليها الحضارات ثلاث العلم والخلق والمال ولله در أمير الشعراء إذ يقول :

ياطالبـــــا لمعـــــالي الملك مجتهدا خذهـــا من العلـــم أو خذهـــا من المال
بالعلـــم والمال يبنـــي النـــاس ملكهـــم لم يبـــن ملك على جهـــل واقـــلال[1]

ويقـــول :

على الأخـــلاق خطـــوا المجد وابنـــوا فلـــيس ورائهـــا للمجـــد ركـــن

وأخطر هذه الأسس الثلاث الاخلاق ، وهي في مجموعها حب الناس والوفاء لهم وحسن معاملتهم وحفظ حقوقهم ورعاية مصالحهم ، ومن هنا قال ﷺ فيما رواه مسلم (البر حسن الخلق) .

وعن ابي ذر ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال (اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن) . رواه الترمذي .

فالاخلاق قوة راسخة في ارادة الانسان[2] يكتسبها من إيمانه وشعوره برقابة الله له فتدفعه الى اختيار وعمل ما فيه خير وصلاح للمجتمع فتكون حينئذ خلقا حميدا ، أما إذا دفعته الى اختيار أو عمل ما هو شر وجور بالمجتمع كانت خلقا ذميما .

واذا استشرت الاخلاق الفاسدة وانتشرت في المجتمعات قوضت أركانها وهدمت بنيانها وكان عاقبة أمرها خسرا وصدق شوقي إذ يقول :

وإذا أصيب القـــوم في أخلاقهـــم فأقـــم عليهم مأتما وعويـــلا

ويقـــول :

ولـــيس بعامـــر بنيـــان قوم اذا اخلاقهـــم كانت خرابـــا

وتاريخ الانسانية العام أصدق شاهد وأقوى دليل على ارتباط الأمم والمجتمعات ارتفاعا وانخفاضا وقياما وسقوطا بالاخلاق والتمسك بالقيم والاعتزاز بالمباديء والمثل .

---

(١) الشوقيات ــ ج١ ــ ص١٤٥ .
(٢) انظر د. محمد عبدالله دراز ــ دراسات في العلاقات الاجتماعية والدولية ص٨٨ .

فالجد والاتقان وحب العمل والانتاج والنظام والمروءة والنجدة والتواضع والتسامح والصدق والامانة والعفة والكرامة والحلم والوفاء والصدق والولاء وغيرها وغيرها من شأنها أن تسعد المجتمعات وتقوي أزرها وترفع شأنها وتعمل على تماسك الأمة وتساعدها على النهوض والتقدم متى استقام الناس عليها ذلك أن الجانب الأخلاقي له دوره الكبير في عزة الامم وارتقائها . فإذا ما أهمل الناس شأن الاخلاق وأهدروا القيم وضربوا بالمثل والآداب والفضائل عرض الحائط فحينئذ يبدأ الانحدار وينخر سوس التفسخ والضياع وتميل الامة الى الانكسار ويلازمها الصغار وتهبط الى الدرك الأسفل من الانحطاط والسفالة ولا تغني عنها زينتها ! وإننا لنجد أنه ما من مؤرخ يكتب عن سقوط دولة أو ضياع أمة والا ويذكر من الأسباب المباشرة لذلك انحراف هذه الأمة عن السلوك السوي وسقوطها في المباذل والشهوات وبعدها عن القيم والمثل والاخلاق .

وفي القرن العشرين وقد وصلت أمم كثيرة في الغرب والشرق إلى أوج الحضارة وذروة المدنية إلا أنها حضارات ظاهرها فيه الرحمة وواقعها من قبله العذاب . انها حضارات تحمل في طياتها الدمار وتعمل فيها معاول التخريب والانحدار ، حضارات أولئك الذين (يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾) الروم

حضارات حفلت بالتركيز على الجانب المادي وأفرطت في اشباع مطالب الجسد من الغرائز والشهوات فأصيبت بالتفسخ والانحلال نتيجة حتمية لبعدها عن الحافز الاخلاقي والوازع الديني فأصبحت لاتعرف للاستقرار طريقا ولا للسعادة سبيلا . إنها تعيش وشبح السقوط يراودها وأمارات الشيخوخة تهددها ومئات الجرائم والفواجع تلاحقها ليل ونهار حتى أسرع شبابها وشيوخها الى الانتحار هروبا من حياة التعاسة والدمار (أجرى احصاء في احدى المدن الأميركية فظهر أن ٣٨٪ من فتيات الثانوية حبالى ! وتقل النسبة بين طالبات الجامعة لأنهن أكثر تجربة وأخبر باستخدام موانع الحمل)[1] والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية كلها منحطة على هذا المنوال ... المخدرات .. الاعتداء ... السرقات ... النفاق ... الكذب ... معالم بارزة ومواقف متكررة في الحياة اليومية . الابناء الشرعيين يمثلون في انجلترا ٦٥٪ .

وحوادث الاغتصاب اكثر من أن تعد حتى ان معهد الاحصاء القومي الفرنسي ذكر (ان عدد المواليد غير الشرعيين خارج نطاق الأسرة الفرنسية في تزايد مستمر وقد مثل

---

(١) محمد قطب ــ شبهات حوال الاسلام ــ ص ١٦٦ .

٢٤٪ بالمائة من اجمالي المواليد لعام ١٩٨٧م)[1] أي أن ربع أطفال فرنسا المتحضرة غير شرعيين !! عوامل القتل والسطو لاتتوقف في أعلى العقول والمؤسسات البريطانية مجلس العموم البريطاني أبيح فيه اللواط بقانون ...

حضارات هذا شأنها مآلها إلى الانهيار السريع والدمار المريع . ولقد قال القرآن في أمثالها (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ) يوسف ١١١ وقال (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا) الكهف ٥٩ وقال (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾) النمل

(إن مظهر هذه الدول الضخم قد يخدع كثيرا من الناس فيظنون أن نهايتها بعيدة والحقيقة ان الدول الكبيرة لاتضمر ولا تضوى وتنكمش ولكنها تنهار كما ينهار عمود الخشب الضخم الذي نخر السوس لبه . كذلك انتهت كل الدول الكبرى من قبل في أثينا وفي روما وفي بغداد وفي الأندلس وفي الأستانة انتهت حين كانت ضخامتها ومظاهر الترف فيها تخدع الناظر عن السوس الذي ينخر عظامها)[2] إنتهت حينما عكف الناس على الخمور والخمول وأضحت الحياة كأساً وغانية وأصبحت الأمانة رذيلة والصدق نقيصة وصارت الفضائل رذائل .

والتاريخ يعيد نفسه ولكن بصور متجددة فالناس بزمانهم أشبه فمن يدعو للحق ويأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر يسمع ما يؤذيه ويؤلمه من سخرية واستهزاء (إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) ومن يطلب الحشمة والعفة ولزوم الفطرة والطهارة ولباس ما أمر الله به يقابل باستهزاء حقير وفعل سافل .

ولقد قال قوم لوط عن المؤمنين (أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) الاعراف ٨٢ حقا لقد انقلبت الموازين فالكذب مجاملة والعهر تجديد والكفر حرية وما هلكت الشعوب إلا عندما شاع الفساد الخلقي وطم في طرقها وشوارعها وانتشر الانحلال في محيطها وسرت الفاحشة في جسدها فداهمتها أمراض العفونة والخور وحاصرت أسرها ففتكت بها وحطمت شبابها وأفرادها وإلى دار البوار سلمت عهدتها . إن الاخلاق (مجموعات متنوعة من الفضائل والتقاليد تحيا بها الأمم كما تحيا الأجسام بأجهزتها وغددها ، فإذا اعتلت هذه المجموعات وانفكت رأيت ما لا يسر في مسالك

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية ــ عدد ٨٩٤ ص٤٨ .

(٢) محمد محمد حسين ــ حصوننا مهددة من داخلها ــ ص٢٠ .

العامة والخاصة)[1](إن قضية الأخلاق وما عراها من وهن أمر جلل ، إنك لاتستطيع بناء قصر شاهق دون دعائم وأعمدة وشبكات من حديد ، ولا تستطيع بناء إنسان كبير دون أخلاق مكينة ومسالك مأمونة وجملة من الخلال تورث الثقة ، وتأمل قول أبي تمام :

وقـــد كان فوت الموت سهـــلا فرده إليه الحفاظ المر والخلق الوعر)[2]

إن الطوفان الانحلالي المتفسخ من الاخلاق والقيم جرف معه المجتمعات العربية والاسلامية ، وأشد من ذلك أننا أخذنا الجانب السلبي منهم وتركنا الجانب الايجابي المتمثل بالتكنولوجيا والتقنية الحديثة المتطورة . فصرنا بلا خلق ولا علم (والخلق الكريم هو دليل الايمان وثمرته .. ولا قيمة لايمان من غير خلق)[3] كما ان (ضعف الخلق دليل على ضعف الايمان)[4] .

إن انتشار الرشوة والمحسوبية والكسل والانانية والجبن والخوف والافساد والتدمير والسلب والنهب .. لها عوامل كثيرة وأسباب عديدة ولكن من أهم الأسباب التي أفرزت تلك الأخلاق الذميمة والعادات السيئة في المجتمعات الاسلامية :

١ ــ إقصاء الشريعة عن منصة الحكم وابتعاد المسلمين عن الالتزام بدينهم ، فحينما تهاوت الحصون الايمانية تلاشت المعالم الاسلامية من شخصية الفرد المسلم .

٢ ــ انبهار المسلمين بحضارة الغرب مما اتبعه تقليد أعمى له في كل مناحي الحياة على حد سواء .

٣ ــ الجهل والغفلة اللذان جعلا الفرد المسلم مستعداً لقبول التيارات والثقافات الواردة من الخارج دون تفكر أو حيطة وحذر .

٤ ــ كما أن للحركات الهدامة وفي مقدمتها المخططات الصهيونية دورها في تلويث الأخلاق وتقويض القيم ، والناظر في بروتوكولات حكماء صهيون يجد فيها تخطيطا وتنسيقا لهدم أخلاق الأمم بالتدريج (عليكم أن توجهوا التفاتا خاصا في استعمال مبادئنا الى الاخلاق الخاصة بالامة التي أنتم بها محاطون ، وفيها تعملون ، وعليكم الا تتوقعوا النجاح خلالها باستعمال مبادئنا بكل مشتملاتها حتى يعاد تعليم الأمة بآرائنا ، ولكنكم

---

(١)(٢) محمد الغزالي ــ الطريق من هنا ــ ص ٤٣،ص٤٤ .
(٣) فتحي يكن ــ ماذا يعني انتمائي للاسلام ــ ص ٣٨ .
(٤) محمد الغزالي ــ خلق المسلم ــ ص ٩ .

إذا تصرفتم بسداد في استعمال مبادئنا فستكتشفوا أنه قبل مضي سنوات سيتغير أشد الأخلاق تماسكا ، وسنضيف كذلك أمة أخرى الى مراتب تلك الأمم التي خضعت لنا من قبل)[1] .

٥ ــ إن اصحاب الشهوات البهيمية والغرائز المريضة والأفكار المسمومة من أبناء هذه الأمة أو غيرهم يعملون بعلم أو بغير علم جنوداً لنشر الأفكار الهدامة وزعزعت كل فضيلة وإحياء كل رذيلة وتشويه كل القيم الحسنة .

٦ ــ قامت العلوم الانسانية ــ الاجتماع ، الاقتصاد وعلم النفس ــ على التحرر من كل ما هو أخلاقي حيث عمل كل من ماركس ودوركايم وفرويد (وغيرهم بطبيعة الحال ، ولكنهم في المقدمة ــ التقت عند نقط رئيسية ، متصلة ومتصاحبة : الحملة على الدين والأخلاق والتقاليد ، ونفى القداسة عنها وتشويه سمعتها أو التشكيك في قيمتها . والقيام بهذه الحملة باسم العلم والبحث العلمي . والربط بين هذا التحلل الديني والانحلال الخلقي وبين « التطور » والايحاء بأن هذا التحلل والانحلال أمر « حتمي » لأن التطور حتمي لا قبل لأحد بوقفه عن طريقه المحتوم)[2] .

٧ ــ دور وسائل الاعلام في رسم صورة براقة في إطار جذاب لهذه المفاسد مما جر الشباب إليها وجمح بالجيل تحت بريق التجديد والتطوير والترفيه وباسم المدنية والحضارة .

٨ ــ كل ما تقدم ساهم في صرف الجيل عن المقاصد الأصلية والقيم الثابتة الأصيلة مما أضعف فيهم روح الاعتزاز بالمثل وبالتالي صرفهم عن التعليم وقلل من انصبتهم في الأخذ بالعلم والتربية .

(في هذه الأيام العصيبة التي تكاد المادة تتغلب فيها على الروح يحس المربون في العالم الغربي بالحاجة إلى التربية الخلقية ، وينادون بأعلى أصواتهم أن التربية التي تخلو من العناصر الخلقية الروحية ناقصة عقيمة ، تعود بالضرر والفساد على الفرد والمجتمع معا . والعالم العربي لا يقل حاجة الى هذه الناحية من التربية ، وبخاصة في هذا الدور الحاسم من تاريخه ، الذي يتلمس فيه طريقه الى كيان قومي ثابت ، يصمد في وجه صروف هذا الزمان . وأي كيان أثبت من الذي يقوم على دعائم خلقية روحية ؟ إن الأمة العربية في

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون ــ ص٦٥ .

(٢) محمد قطب ــ التطور والثبات في حياة البشرية ــ ص٥٦ ، ٥٧ .

سعيها لتحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي تحتاج الى ثورة خلقية روحية تدعم هذا التقدم وتحرر الانسان العربي من رذائل الانغماس في المتع الجسدية والانانية وتدفعه الى فضائل المتع العقلية والنفسية ، وإلى تحقيق كرامته الذاتية وكرامة أخيه الانسان)[1] ألا ما أحوج أمتنا الى جيل من المربين جيل له من خلقه المتين وفضائله المثالية ومحامده الرائدة وسلوكه الطيب القويم ، ومن قبل ذلك كله له من إيمانه الراسخ ويقينه الثابت ما يبعث هذه الامة من رقدتها ويحيي موات قلوب أبنائها ويقفها على قدرها ويبين لها دورها في دنيا الناس .

هذه الأمة وارثة تعاليم السماء ومنبت الأنبياء ومهبط النبوات والرسالات وداعية مقاليد الوحي وحاملة لواء الدعوة للبشرية جمعاء (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) البقرة١٤٣ هذه الأمة التي كرمها الله باختيارها لتكون كما قال (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ) آل عمران١١٠ .

إن الله شرفها باصطفاء النبي العربي محمد منها وكرمها بنزول القرآن العربي المبين بلسانها وعلى أرضها ورفع قدرها بتكليفها بحمل الرسالة الخاتمة للناس اجمعين فيا له من تكريم وما أعظمه من تشريف وتعظيم وصدق الله اذ يقول (ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ) الانعام١٢٤ إن أي باحث منصف وأي كاتب صادق مخلص يحاول معالجة ودراسة موضوع الأخلاق ويبين تأثير التربية في صنع الأجيال ويبدأ في سلم المربين الأمجاد ، لابد أن يضع على رأس هؤلاء جميعا الرائد الأول والمربي الأكبر الذي علمه ربه وأدبه فأحسن تأديبه ، والذي يقول عنه رب العزة (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) الاحزاب٢١ ويقول له (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾) القلم ويقول ﷺ مبينا الهدف من رسالته وبعثته (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[2] إنه نعمة الله للناس ورحمته للخلق (إنما أنا رحمة مهداة)[3] (لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾) آل عمران وصدق الشاعر :

بنيت لهم من الاخلاق ركنا ... فخانوا الركن فانهدم اضطرابا
وكان جنابهم فيها مهيبا ... وللأخلاق أجدر أن تهابا

(١) جورج شهلا ــ الوعي التربوي ــ ص١٨٦ .
(٢)(٣) ص.ج.ص. ــ ج١/ ٢٣٤٩ ــ ٢٣٤٥ .

إن الله ربى محمدا ليربي به العرب وربى العرب بمحمد ليربي بهم الناس ولو أنك ذهبت تحصي محاسن الشيم ومكارم الخلق وجمال السلوك ملتمسا جوانب العظمة وخصال الكمال في شخص هذا النبي ﷺ لأعياك ذلك ولتوقفت عند هذه الكلمة الجامعة المانعة لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت (كان خلقه القرآن)[1] الذي جمع فأوعى . وقال ربه جل شأنه (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ) النحل٨٩ .

(من أراد خير الآخرة ، وحكمة الدنيا ، وعدل السيرة ، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها ، واستحقاق الفضائل بأسرها ، فليقتد بمحمد رسول الله ﷺ وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه)[2] يقول شبلي شميل المسيحي المعروف (إن محمداً ﷺ أكمل البشر من الغابرين والحاضرين ، ولا يتصور مثله في الآتين)[3] ويقول الشهيد سيد قطب (إنه محمد ــ وحده ــ هو الذي يرقى إلى هذا الأفق من العظمة .. إنه محمد ــ وحده ــ هو الذي يبلغ قمة الكمال الانساني المجانس لنفخة الله في الكيان الانساني . إنه محمد وحده هو الذي يكافيء هذه الرسالة الكونية العالمية الانسانية ، حتى لتتمثل في شخصه حية ، تمشي على الأرض في إهاب انسان .. إنه محمد ــ وحده ــ الذي علم الله منه أنه أهل لهذا المقام .

والله أعلم حيث يجعل رسالته ــ وأعلن في هذه على أنه على خلق عظيم ــ وأعلن في الاخرى أنه جل شأنه وتقدست ذاته وصفاته ، يصلى عليه هو وملائكته (إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ) الاحزاب ٥٦ وهو جل شأنه ــ وحده القادر على أن يهب عباده ذلك الفضل العظيم .. ثم إن لهذه اللفتة دلالاتها على تمجيد العنصر الأخلاقي في ميزان الله ، وأصالة هذا العنصر في الحقيقة الاسلامية كأصالة الحقيقة المحمدية . والناظر في هذه العقيدة كالناظر في سيرة رسولها ، يجد العنصر الأخلاقي بارزا أصيلا فيها ، تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء ... الدعوة الكبرى في هذه العقيدة الى الطهارة والنظافة والأمانة والصدق والعدل والرحمة والبر وحفظ العهد ، ومطابقة القول للفعل ، ومطابقتهما معا للنية والضمير ، والنهي عن الجور والظلم

---

(١) ص.ج.ص. ــ ج٢ /٤٨١١ .
(٢) ابن حزم ــ الأخلاق والسير ــ ص٢٤ .
(٣) الطرازي ــ الاسلام الدين الفطري الأبدي ــ ج١ ــ ص٢١٤ .

والخداع والغش وأكل أموال الناس بالباطل والاعتداء على الحرمات والأعراض ، وإشاعة الفاحشة بأى صورة من الصور .. والتشريعات في هذه العقيدة لحماية الأسس وصيانة العنصر الأخلاقي في الشعور والسلوك ، وفي أعماق الضمير وفي واقع المجتمع . وفي العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء)[1] .

وهل بغير الاخلاق الفاضلة فتح المسلمون العالم وانطلقوا سراعا في نشر الاسلام ؟ كلا فهذه شهادة إدوارد مونتيه مدير جامعة جينف يقول (لقد انتشر الاسلام منذ نشأته بسرعة ، قلما توجد بل لاتوجد أبدا ديانات كانت تنتشر بمثل هذا الانتشار)[2] وسر هذا الانتشار السريع في رأى مونتيه (الاسلام في واقع الأمر ينتشر نوعا ما من تلقاء نفسه ، أريد أن أقول : إنه ينتشر بواسطة المسلمين أنفسهم ، لأن كل مسلم في البلاد الاسلامية الوثنية رسول الله لدينه مبدئيا)[3] جاء في دائرة معارف (بوبيلز) وصف للاسلام والقرآن (أما قواعده الأدبية (الأخلاقية) فهي واضحة عالية ، فأى رجل عمل بها فانه يحيى حياة طيبة مملوءة بالتقوى)[4] إن المربين والعلماء هم ورثة الانبياء إنهم (بمنزلة النجوم يهتدي بهم في ظلمات البر والبحر)[5] يقول الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود (كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقان الثياب تعرفون في أهل السماء وتخفون على أهل الأرض)[6] وفي كتابه أعلام الموقعين يعتبر ابن القيم المربين والعلماء موكلين من الله تعالى توكيلا على أساسه يوجهون الناس ، فيالها من أمانة عظيمة ومهمة عالية خطيرة . أما الشافعي رحمه الله فيرى أن العلماء هم أولياء الله ويتساءل (إن لم تكن العلماء العاقلون اولياء الله فلا أعلم لله وليا)[7] وقال (إن لم تكن العلماء أولياء الله فليس لله ولى)[8] .

وممن كتب عن أخلاق العلماء والمربين فأجاد وأفاد المربى الكبير العلامة أبو حامد الغزالي فيقول عن آداب العالم (لزوم العلم ، والعمل بالعلم ، ودوام الوقار ، ومنع التكبر ، وترك الدعاء به ، والرفق بالمتعلم والتأنى بالمتعجرف واصلاح المسألة للبليد ،

---

(١) في ظلال القرآن ــ ج٦ ص٣٦٥٧ .
(٢)(٣) انظر عبدالحميد كشك ــ حديث من القلب ــ ص ١١٦ .
(٤) الطرازي ــ الاسلام الدين الفطرى الابدى ج ١ ص ١٥٢ .
(٥) مجموع فتاوى شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ــ ج٢٠ ص١٥٢ .
(٦) الدار من ج١ ص ٨٠ .
(٧)(٨) ابن كثير ــ البداية والنهاية ــ ج ١٣ ص ١٠٠ .

وترك الأنفه من قول : لا أدرى ، وتكون همته عند السؤال خلاصة من السائل لاخلاص السائل ، وترك التكلف ، واستماع الحجة والقبول لها وإن كانت من الخصم)[1] .

وللامام أبي بكر الآجري المحدث الفقيه كلام طيب أسهب فيه القول وفصل في بيان الفضل فذكر جملة من آداب المربين وأخلاق العلماء العالمين فقال عن الصفات التي يجب أن يتحلى بها العالم : (ان يأمن شره من خالطه ويأمل خيره من صاحبه لا يأخذ بالعثرات ولا يشيع الذنوب عن غيره ولا يقطع بالبلاغات . ولا يفشي سر من عاداه ولا ينتصر منه بغير حق ويعفو ويصفح عنه . ذليل للحق عزيز عن الباطل كاظم للغيظ عمن أذاه ، شديد البغض لمن عصى مولاه يجيب السفيه بالصمت عنه والعالم بالقبول منه ، لا مداهن ولا مشاحن ولا مختال ولا حسود ولا حقود ولا سفيه ولا جاف ولا فظ ولا غليظ ولا طعان ولا لعان ولا مغتاب ولا سباب يخالط من الاخوان من عاونه على طاعة ربه ونهاه عما يكره مولاه . ويخالق بالجميل من لا يأمن شره ابقاءا على دينه، سليم القلب للعباد من الغل والحسد يغلب على قلبه حسن الظن بالمؤمنين في كل ما أمكن فيه العذر لا يحب زوال النعم عن أحد من العباد ، يداري جهل من عامله برفقة ، إذا تعجب من جهل غيره ذكر أن جهله أكثر فيما بينه وبين ربه عزوجل ، لا يتوقع له بائقة ، ولا يخاف منه غائلة ، الناس منه في راحة ونفسه منه في جهد)[2] .

ولقد كان الامام الشافعي صورة حية ومثالا صادقا لما ينبغي أن يكون عليه المعلم والمربي يقول : (رتبة العلماء التقوى ، وحياتهم حسن الخلق وجمالهم كرم النفس)[3] حري بالشافعي وخليق به أن يكون على قمة المربين خلقا وفضلا وصدق الشاعر :

مثـــل الشافعـــي في العلمـــاء مثـــل البـــدر في نجوم السمـــاء[4]

وهو التقي النقي الكريم الأبي الذي يرى التقوى من خيري الدنيا والاخرة فيقول : (خير الدنيا والاخرة في خمس خصال غنى النفس . وكف الأذى . وكسب الحلال . ولبس التقوى . والثقة بالله عز وجل على كل حال)[5] ويقول (انفع الذخائر التقوى وأضرها العدوان)[6] وأنه لا قيمة للإنسان ولا وزن له إذا فاته العلم وزايلته التقوى،

(١)النووي ــ تهذيب الأسماء واللغات ــ ج١ ص٥٥ .
(٢) النووي ــ تهذيب الاسماء واللغات ــ ص٧٤ ، ص٧٥ .
(٣) الأصفهاني ــ حلية الأولياء ــ ج٩ ص١٢٣ .
(٤) النووي ــ تهذيب الأسماء واللغات ــ ج١ ص٦١ .
(٥)(٦) النووي ــ تهذيب الأسماء واللغات ــ ج١ ــ ص٥٥ .

فيقول :

وذات الفتى والله بالعلم والتقى إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته[٢٩]

وكان رحمه الله يروح عن نفسه بهذين البيتين :

يريد المرء ان يعطى مناه ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتى ومالى وتقوى الله أفضل ما استفادا[٤١]

يقول الامام الشافعي (اعلم أن من تعلم القرآن جل في عيون الناس ، ومن تعلم الحديث قويت حجته ، ومن تعلم النحو هيب ، ومن تعلم العربية رق طبعه ، ومن تعلم الحساب جل رأيه ، ومن تعلم الفقه نبل قدره ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه ، وملاك ذلك كله التقوى)[١] إن التقوى جماع الخير كله وهدف التربية منها وثمرة التعليم هو ايجاد فرد سوى يشعر برقابة الله تعالى . وانسان مستقر يحس بفضل الله فينطلق إلى العمل وهو يعلم أنه في معية الله ، نشطا قويا لا يشوب عمله غش ولا يخالطه مراوغة فيتقوى جهده ويتوحد في التحصيل واكتساب العلم وصدق الله (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾) البقرة .

ومن هنا يبرز الشافعي أمام طلابه مثالا لتقوى الله ومحبته فهو ابن المدرسة التي غرست هذه الخصال وتفوقت فيها ... يقول بحر بن النصر (ما رأيت ولا سمعت في عصر الشافعي من كان اتقى ولا أورع ولا أحسن صوتا بالقرآن منه) ... وقال أبو عبيد قاسم بن سلام (مارأيت أحداً أعقل ولا أورع ولا أفصح ولا أنبل رأيا من الشافعي) يقول البويطى قد رأيت الناس والله مارأيت أحداً يشبه الشافعي ولا يقاربه في صنف من العلم والله ان الشافعي كان عندى أورع من كل من رأيته ينتسب الى الورع)[٢] .

وكان رحمه الله من شدة ورعه وقوة خوفه لله عزوجل يقول (ما كذبت قط ولا حلفت بالله صادقا ولا كاذبا وقال والله ماتركت غسل الجمعة في برد ولا سفر ولا غيره ...وقال ما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا شبعة طرحتها من ساعتى ... وقال من لم تعزه التقوى فلا عز له .. وقال ما فزعت من الفقر قط)[٣] وإذا كان للتقوى ثمرات كثيرة فإن من أهم هذه الثمرات الأمانة وها هو الشافعي رحمه الله يصل إلى القمة في

---

(١) الأصفهاني ــ حلية الأولياء ــ ج٩ ــ ص١٢٣ .

(٢) النووي ــ تهذيب الأسماء واللغات ــ ج١ ــ ص٦١ .

(٣) المرجع السابق ــ ج١ ــ ص٥٤ .

أمانة اللسان وأمانة الفتوى ...

قال الربيع بن سلمان سمعت الشافعي وسأله رجل عن مسألة فقال يروى عن النبي ﷺ أنه قال كذا ، فقال له السائل : ياأبا عبدالله أتقول ذلك ؟ فارتعد الشافعي واصفر وحال لونه وقال : ويحك وأى أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا رويت عن رسول الله ﷺ شيئا ولم أقل به ، نعم على العين والرأس ، نعم على العين والرأس . فانظر إلى أى مدى وصلت حساسية الرجل ويقظة ضميره وشدة ورعه وخوفه من أن يروى شيئا عن رسول الله ﷺ ولا يقول به وهو القائل في شجاعة العالم الذي يرى أن الحق أكبر منه ، وتواضع المعلم الذي يهمه أن يظهر الحق ولو على يدى غيره (إذا اصح الحديث فاضربوا بقولي الحائط ، وإذا رأيت الحجة موضوعة على الطريق فهي قولي)[1] ألا ما أروع العلم إذا اقترن بالتقوى فثم تجد الوقع وتلقى الخشية .

يقول الشافعي : (زينة العلم الورع والحلم)[3] وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال من يخشى الله فهو عالم وصدق الله العظيم (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فاطر ٢٨ وما أجمل أن يتحلى المربى بالقناعة وغنى النفس والإمام الشافعي يقول لاعيب بالعلماء أقبح من رغبتهم فيما زهدهم الله فيه وزهدهم فيما رغبهم فيه . ومن وصاياه الخالدة للطلاب أساتذة الغد (عليك بالزهد فالزهد على الزاهد أحلى من الحلى على الناهد)[4] ويرى رحمه الله (أن فقر العلماء فقر اختيار وفقر الجهال فقر اضطرار)[5] وحين ينشغل المربى والعالم بكسب المال فان علمه يصبح هواءا ورسالته تصير خواءاً . يقول الشافعي :

إذا امـــا كنت ذا قلب قنـــوع ... فأنت ومـــالك الدنيـــا سواء[17]

ويقـــول :

أمتّ مطامعـــــى فأرحت نفسى ... فان النـــفس ما طمـــعت تهون

وأحيـــيت القنـــوع وكان ميتـــا ... ففـــى احيائـــه عرض مصون

إذا طمـــع يحل بقـــلب عبـــد ... علتـــه مذلـــة وعـــلاه هون[86]

---

(١) مجموع ــ فتاوى شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ــ ج٢٠ ص٢١١ .
(٢) النووي ــ تهذيب الاسماء ــ ج١ ص٥٤ .
(٣) الاصفهاني ــ حلية الأولياء ــ ج٩ ص١٣٠ .
(٤) النووي ــ تهذيب الاسماء ــ ج١ ص٥٤ .

خالف الإمام الشافعي الإمام ابا حنيفة رحمهما الله ، وتلك طبيعة الاجتهاد ولكل رأيه وصار لكل منهما مذهب خاص له من الانصار والاتباع الكثير وامتد فقههما الذي أثرى الفكر الاسلامي حتى عم أقطاراً وأمصاراً ، إلا أن أمثال هؤلاء الرجال لهم من الوفاء الجسيم والولاء العظيم ما يملأ النفس رضاً وجمالًا ، وهل يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه ؟!

فانظر كيف خلد الشافعي الإمام اباحينفة وفاءا له بعد موته فقال :

لقد زان البلاد ومن عليها إمام المسلمين أبو حنيفة
بأحكام وآثار وفقه كآيات الزبور على الصحيفة
فما بالمشرقين له نظير ولا بالمغربين ولا بكوفة
فرحمة ربنا أبدا عليه مدى الأيام ماقرئت صحيفة[61]

(ولم يذكر أبو حنيفة في (الأم) على لسان الشافعي إلا مشفوعا بالدعاء له (رضي الله عنه) أو (رحمه الله تعالى))[1] فلنتأمل هذه المعاني العالية ونحن نذكر البون الشاسع بين هؤلاء العمالقة وبين جهلة المقلدين من بعدهم ، أولئك الذين وصل بهم الحال إلى منع التزاوج بين الحنفي والشافعية ومن أجازه منهم قاس حال الشافعية على الكتابية .. ولقد اختلقوا أحاديث نبوية في ذم الشافعي ومدح ابى حنيفة[2]. (حينما أراد عدة أنفار من منتورى من رجال (يابونيا) أن يدخلوا في دين الاسلام ، ويتشرفوا بشرف الايمان ، فعرضوا ذلك على جمعية المسلمين الكائنة في (طوكيو) فقال جمع من أهل الهند : ينبغي أن يختاروا مذهب الإمام ابى حنيفة ، لأنه سراج الأمة ، قال جمع من أهل أندونيسيا (جاوا) : يلزم أن يكون شافعا ! فلما سمع اليابانيون كلامهم تعجبوا جداً ، وتحيروا فيما قصدوا ، وصارت مسألة المذاهب سدا في سبيل اسلامهم !)[3] .

لاشك أن حب الشهرة والطمع في محمدة الناس مهلكة للعلماء ، وإذا كان ذلك من طبيعة البشر عامة كما يقول القائل :

يهوى الثناء مبرز ومقصر حب الثناء طبيعة الأكوان

فان إماتة الأنانية وحب الظهور ونكران الذات أخلق بالعلماء وأجدر بهم والإمام الشافعي يقرر هذه الحقيقة في وضوح وهو يقول (وددت ان الخلق تعلموا هذا العلم ،

---

(١) عبدالحليم الجندي ــ الإمام الشافعي ــ ص١٤١ .
(٢) انظر د. صبحي الصالح ــ علوم الحديث ومصطلحة ــ ص٢٦٧ .
(٣) انظر محمد ناصر الدين الالباني ــ صفة صلاة النبي ﷺ ــ ص٤٤ ، ص٤٦ .

على ان لاينسب الى منه شيء أبدا)[1] فأي نبل وعظمة وتواضع ذلك وما أحوجنا أن نعى هذه الحكمة ونفقه هذا الدرس في زمان يصدق فيه قول الله تعالى (لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ) آل عمران ١٨٨ .

روى عن الإمام الماوردي رحمه الله أنه لم يكن أبرز شيئا من مصنفاته في حياته ، وانما أوصى رجلا من أصحابه إذا حضره الموت أن يضع يده في يده ، فإذا رآه قبض على يده ، فلا يخرج من مصنفاته شيئا ، وإن رآه بسط يده أي علامة على قبولها فليخرجها ، فبسطها .. فانظر كيف حمل الورع ونكران الذات رجلا كالماوردي على ان لايخرج شيئا من مؤلفاته القيمة في حياته خوفا من ان يحمد من الناس وكان بذلك سيحرم الأجيال التي بعده علمه وفضله ومصنفاته .

ألا ما أعظم هؤلاء الرجال وما أشد ورعهم وخوفهم من الله عزوجل وما أشد اعتزازهم بمرضاته .. رضى الله عنهم . فأين من هؤلاء ماترى في هذا الزمان الذي يقال فيه (الذي نعرفه أن كثيرا من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله وغلت قيمته وأمنت تهمته ، حتى أن منهم من ينبش قبور الموتى ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الاثواب المستعارة)[2] وعلى صفحات الجرائد والمجلات والكتب والمذكرات والنوادي والجامعات تستعر نار الاتهامات هذا العالم يسرق من آخر وذلك يكيد لثان وذاك مرب يطعن في نزاهة صاحبه .

وهكذا اتهام وتهجم وتهكم كل يوم تظهر فضائح واسرار وأخبار مدمرة مما أذهب بهيبة العلم وهز ثقة المجتمع في المربين والعلماء وصدق القائل ابو شجاع الجرجانى :

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت ، لكن لأخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة ... إذن ، فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما

ومن آداب المربين وأخلاق العلماء ان يعرفوا للناس حقوقهم وأن يوقروهم ويظهروا للمجتمع مكانتهم ويبينوا سبقهم وفضلهم ، والشافعي في هذا الباب الفارس المجلى ، يقول في حق الإمام مالك بن أنس (إذا جاء الحديث فمالك النجم)[3] ويقول (من

---

(١) ابن كثير ــ البداية والنهاية ــ ج١٠ ص٢٥٣ .
(٢) د. محمد عبدالله دراز ــ النبأ العظيم ــ ص٢٢ .
(٣) ابن كثير ــ البداية والنهاية ــ ج ١٠ ــ ص٢٥٣ .

أراد الحديث فهو عيال على مالك)[1] وحينما ظهر كتاب الموطأ للامام مالك قبل صحيح البخاري الذي لم يظهر في حياة الإمام الشافعي قال الشافعي (ما ظهر على الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك)[2] وكان رحمه الله من سمو خلقه وعلو أدبه يذكر المناقب ويترفع عن ذكر المثالب فيتحدث عن الإمام مالك بخير ما يعلمه يقول الشافعي (إنى شهدت مالكا وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في أثنتين وثلاثين منها لا أدرى ومن يرد غير وجه الله تعالى بعلمه فلا تسمح نفسه بأن يقر على نفسه بأنه لا يدرى)[3] ألا ماأجملها من شهادة .

ويقول (إذا ذكر العلماء فمالك النجم وما أحد أمن على من مالك)[4] .

وكان مالك رحمه الله يعرف فضل تلميذه الشافعي فإذا رآه ينزل عن كرسيه في الدرس فيقبله ويعطيه زمام الدرس ليكمل وليحاضر بدلا منه . فإذا أراد الشافعي سفراً أغدق مالك عليه بالعطاء وزوده بكل ما يحتاجه وكان يقوم بنفسه على خدمة الإمام الشافعي ويصب الماء على يده ويقول له لايروعك ما رأيت منى فخدمة الضيف فرض . ومع كل هذا الاكرام من مالك للشافعي فان الشافعي وضع كتابا اسماه خلاف مالك ليعلن للناس ان الحق فوق الجميع وان مالكاً رحمه الله استاذه بشر يخطىء ويصيب كما قال مالك نفسه انما أنا بشر أخطىء وأصيب فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه وقال أيضا ليس بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ .

لقد خشى الإمام الشافعي ان يفتن الناس بالإمام مالك حين تبركوا بقلنسوته واستقوا بها المطر وحين رأى من يقال له قال رسول الله ﷺ فيقول : قال مالك فان في ذلك من الشر والفتنة واعطاء العصمة لقول بشر غير معصوم (رأى من الناس من يتبركون بقلنسوة مالك فيستقون بها المطر . ومن يقال له قال الرسول ..

ويقول قال مالك . فوضع كتابه (خلاف مالك) في هذه الفترة ليعلن للناس بلسان تلميذ وفي أن أستاذه بشر يصيب ويخطىء وأخفى الكتاب عن الناس حتى حال الحول عليه وهو يستخير الله في دفعه إلى الملأ مخافة أن يكون قد خرج على الواجب ، نحو الاستاذ وخار الله له فخرج (خلاف مالك) للناس)[5] والحق أن المرء يأخذه الإعجاب

---

(١) ابن كثير ــ البداية والنهاية ــ ج١٠ ص٢٥٣ .
(٢) انظر مقدمة الموطأ للامام مالك تصحيح وتعليق محمد فؤاد عبدالباق .
(٣)(٤) الغزالي ــ احياء علوم الدين ــ ج١ ص٢٦ .
(٥) عبدالحليم الجندي ــ الإمام الشافعي ــ ص١٩٦ ، ص١٩٧ .

ويذهب به الاكبار كل مذهب وهو يقف أمام تردد الشافعي الطويل في نشر كتابه هذا وقد تنازعه عاملان كلاهما جدير بالاعتبار وفاؤه للعلم والدين والخلق وحبه واكباره لأستاذه وخوفه من أن يكون قد نال منه أو اساء إليه (فإحجامه عن النشر ، وقد زايل مالك عالم الأحياء من نحو ربع قرن ، درجة وفاء تتكافأ وفريضة بيان العلم ، عاما كاملا ، حتى يفتح الله عليه فيغلب حق العلم على حق العلماء ! وقد أخذ الله عليهم موثقا لبيانه)[1] .

يثنى شيخ الاسلام أحمد بن تيمية على موقف الإمام الشافعي فيقول (ثم ان الشافعي ــ رضي الله عنه ــ لما كان مجتهدا في العلم ورأى من الأحاديث الصحيحة وغيرها من الأدلة ما يجب عليه اتباعه وإن خالف قول أصحاب المدنيين : قام بما رآه واجبا عليه ، وصنف الإملاء على مسائل ابى القاسم ، وأظهر خلاف مالك فيما خالفه فيه ، وقد أحسن الشافعي فيما فعل ، وقام بما يجب عليه ، وان كان قد كره ذلك من كرهه وآذوه ، وجرت محنة مصرية معروفة ، والله يغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات ، الأحياء منهم والأموات)[2] .

وتبادل الزيارات ولقاء العلماء خلق أصيل من أخلاق المربين والفضلاء لدوره في اشاعة روح الأخوة وتقريبه القلوب فالعلم رحم بين أهله يقول الإمام الشافعي رحمه الله (العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل)[3] والشافعي تغمره روح المحبة فيقول عن تلميذه أحمد بن حنبل ناسبا الفضل كله إليه :

قالـــــوا يزورك أحمد وتـــــــزوره قلت الفضائـــل لا تفـــارق منزلـــــه
إن زارنى بفضلـــــــه ، او زرتـــــــه فلفضلـــه ، فالـــــفضل في الحالين له[4]

وفي مقامه بمصر كان شديد الحنين إليه ويقول في غبطة لقد وعدني أحمد أن يحضر .

أما الامام أحمد رحمه الله فيقول عن الشافعي (ما أعلم أحداً اعظم منّة على الاسلام في زمن الشافعي من الشافعي وإنى لأدعو الله له في أدبار صلواتى فأقول : اللهم اغفر لي ولوالدي ولمحمد بن ادريس الشافعي)[5] زيقول (ما أحد مس بيده محبرة ولا قلما إلا وللشافعي في عنقه منّة)[6] ويقول (كان الفقه قفلا على أهله حتى فتحه الله

(١) عبدالحليم الجندي ــ الإمام الشافعي ــ ص١٩٧ .
(٢) مجموع فتاوى ــ شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ــ ج٢٠ ص٣٣٢ .
(٣) الغزالي ــ احياء علوم الدين ــ ج١ ص٤٧ .
(٤) حكمت صالح ــ دراسة فنية في شعر الشافعي ــ ص٢٦٧ .
(٥) ياقوت الحموى معجم الادباء ــ ج١٧ ص٣٠٢ .
(٦) النووي ــ تهذيب الاسماء ــ ج١ ص٦٠ .

بالشافعي)[1] وكان من حبه لإمامه الشافعي يتعاهد أبناءه بعد وفاته وفاءا له ويقول لابى عثمان الشافعي إنى لأحبك لثلاث خلال : انك ابن أبى عبدالله ، وانك رجل من قريش ، وانك من أهل السنة)[2] وحين أراد أحدهم أن يخوض فيما زعم أنه خطأ للشافعي تصدى له الامام أحمد بن حنبل قائلا (تمر مائة مسألة ، يخطىء خمسا أو عشراً ؟! اترك ما اخطأ وخذما أصاب)[3] .

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية (وأحمد كان معتدلا عالما بالأمور يعطى لكل ذي حق حقه ، ولهذا كان يحب الشافعي ويثنى عليه ويدعو له ويذب عنه عند من يطعن في الشافعي ، أو من ينسبه الى بدعه ، ويذكر تعظيمه للسنة واتباعه لها ، ومعرفته بأصول الفقه ، كالناسخ والمنسوخ ، والمجمل والمفسر ويثبت خبر الواحد ومناظرته عن مذهب أهل الحديث من خالفه بالرأى وغيره)[4] وكان من خلق المربى الكبير أن يعطى كل ذي حق حقه بسلامة صدر وسعة فكر خاصة مع تلاميذه فكانوا معه كذلك .

فعلى طريق المعلم الكبير يرشد طلابه الى المراجع والكتب الصحيحة فيقول (من أراد المغازى فهو عيال على ابن اسحاق)[5] كذلك كان يحذرهم مماينبغى التحذير منه فيقول (إذا علم الرجل من محدث الكذب لم يسعه السكوت عليه ، ولا يكون ذلك غيبة ، فان مثل العلماء كالنقاد ، فلا يسع الناقد في دينه ، أن لا يبين الزيوف وغيرها)[6] وكان شعبة بن الحجاج يقول (تعالوا نغتاب في دين الله وكذا روى عن ابن عيينة)[7] وفي كتابه الأم تحت باب ما يجب على المرء من القيام بشهادته قال الامام الشافعي (قال تبارك وتعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ) المائدة ٨ وقال (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ) النساء ١٣٥ وقال (وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾) المعراج وقال عزوجل (وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾) البقرة وقال (وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ) الطلاق ٢ والذي أحفظ عن كل من سمعت منه من أهل العلم في هذه الآيات أنه في الشاهد وقد لزمته

---

(١) المرجع السابق ــ ج١ ص٦١ .
(٢) عبدالغنى الدقر ــ الامام الشافعي ــ ص٦٨ .
(٣) المرجع السابق ــ ص ١١٥ .
(٤) مجموع فتاوى شيخ الاسلام احمد بن تيمية ــ ج٢٠ ــ ص٣٣٠ .
(٥) ابن كثير ــ البداية والنهاية ــ ج٣ ص٩٥ .
(٦)(٧) الملا على القارى ــ الاسرار المرفوعة في الاخبار الموضوعة ــ ص٨٠ .

الشهادة وأن فرضا عليه أن يقوم بها على والديه وولده والقريب والبعيد وللبغيض القريب والبعيد ولا يكتم عن أحد ولا يحابي بها ولا يمنعها أحداً)[1] .

ومن هنا كان يقول كتب الواقدى كذب وليس في المغازي أصح من مغازي موسى بن عقبة وحدث ابن عبدالحكم : سمعت الشافعي ، وذكر له حرام بن عثمان فقال الحديث عن حرام بن عثمان حرام وقال لاتثبت الرواية عن بشير بن نهيك .

وكان رحمه الله يعلم تلاميذه الدقة في الرواية والأمانة في النقل فيقول (إذا قرأ عليك المحدث ، فقل حدثنا ، وإذا قرأت على المحدث فقل أخبرنا)[2] بهذه الدقة في استخدام الكلمات وهذا الحذر في وضع المصطلحات وضع الامام الشافعي اللبنات الأولى في علم الحديث وخاصة في مجال الجرح والتعديل .

إن المجاملة في الحق عند الشافعي خيانة ، والمداهنة في سبيل درجة علمية أو مرتبة إجتماعية عالية ليست من أخلاق العلماء والمربين فإن من شأن العالم أن لا يخاف في الله لومة لائم .

وإذا دبج المربى المقالات وأعد الدراسات تزلفا وتقربا لأحد فما احترم عقله ، ولقد أضاع قدره ، وفساد هؤلاء فساد للأمة . وصدق القائل :

أيا علماء الدين ياملح البلد مايصلح الملح إذا الملح فسد

وفي هذا المعنى أيضا يقول يحيى بن أبى كثير (مثل العالم مثل الملح لا يصلح شيئا إلا به ، فإذا فسد الملح لم يصلح إلا أن يوطأ بالاقدام)[3] .

إن الشافعي يضرب أروع الأمثلة في هذا المجال فيحب محمد بن عبدالحكم حبا يجعله يقول عنه ما يقيمنى بمصر غيره ، ويزوره في مرضه ويقول :

مرض الحبيب فعدته فمرضت من حذرى عليه
وأتى الحبيب يعودنى فبرئت من نظرى إليه

ومع حب الشافعي هذا لمحمد بن عبدالحكم ومكانته عنده فانه قدم عليه البويطى في ميدان العلم وصدر البويطى في مجلسه ليأخذ مكانه من بعده ولم يحابى محمد بن عبدالحكم وقد إشرأب عنقه وتطلع للجلوس مكانه لعلمه أن البويطى أعلم من ابن

---

(١) الأم — ج٧ — ص٩٢ .
(٢) عبدالغني الدقر — الامام الشافعي — ص٢٠٧ ، ص٢٠٩ .
(٣) البغدادي — الفقيه والمتفقه — ج٢ ص١٦٢ .

عبدالحكم ، فرشحه لمؤهلاته . يقول الشافعي وليس المنقطع بشيء ما عدا منقطع ابن المسيب[1] (ومع اعظامه للزهرى وقوله فيه انه إمام في الحديث .. وثقة الرجال فهو يقول عن نفسه وعن الزهرى يقولون يحابى ولو حابينا لحابينا الزهرى وارسال[2] الزهرى ليس بشيء إنا نجده روى عن سليمان بن أرقم)[3] إن كلمة الحق لا تعنى أبداً التطاول أو التنقص (تنقص رجل محمد بن الحسن عند الشافعي فقال له مه ، لقد تلمظت بمضغة طالما لفظها الكرام)[4] وما أجمل حسن الظن وحمل حال المرء على أحسن حاليه (بلغ الشافعي ان رجلا قد جرح آخر فسأله عن السبب فقال : رأيته يبول قائما فقيل وما في ذلك ما يوجب الجرح ؟ فقال : لأنه يقع عليه الرشيش وعلى ثوبه ثم يصلي فقيل : هل رأيته يصلى ؟)[5] ومما يدل على عظمة خلق المربى الشافعي وكمال عقله أنه كان يسع في مجلسه أصحابه جميعا من مختلف المشارب وصنوف المتخصصين وعامة المفكرين ، يلتقى بهم فيشفي صدورهم ويشبع حاجتهم في هذا الملتقى الفكري والعلمي ، ويقول تلميذه الكرابيسي واصفا مجلس أستاذه (مارأيت مجلسا قط أنبل من مجلس الشافعي كان يحضره أهل الحديث وأهل الفقه وأهل الشعر وكان يأتيه كبار أهل اللغة والشعر فكل يتكلم منه)[6] وما أصدق قول الشافعي :

والنـــاس يجمعهـــم شمل ، وبـــينهم في العقـــل فرق وفي الاداب والحسب[19]

وليس أدل على مقدرة المربى العلمية من أن يراعى في تربيته الفروق الفردية والتفاوت بين الأفهام والعقول وأن يسلم بطبيعة وجود الخلاف في اطار من الود والمحبة والألفة كما يقول شوقي (اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية) وتلك شهادة يونس الصدفي للشافعي في هذا المجال قال يونس (مارأيت أعقل من الشافعي ناظرته يوما في مسألة ، ثم افترقنا ، ولقينى ، فأخذ بيدى ثم قال : ياأبا موسى ألا يستقيم أن نكون اخوانا وإن لم نتفق في مسألة)[7] .

أعجب الشافعي بابن عيينه لورعه في الفتيا وتوقفه عنها مع تفوقه فيها فقال (مارأيت

---

(١) الحديث المنقطع هو الذي سقط من اسناده رجل اوذكر فيه رجل مبهم .
(٢) المرسل ما سقط من اسناده الصحابي .
(٣) عبدالحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص٢٢٩ .
(٤) الاصفهاني ــ حلية الاولياء ــ ج٩ ص١٢٣ .
(٥) فاروق حماده ــ المنهج في الجرح والتعديل ــ ص٢٥٩ انظر ايضا الأم ــ ج٦ ص٢٠٥ .
(٦) النووي ــ تهذيب الاسماء ــ ج١ ص٦٣ .
(٧) الذهبي ــ سير اعلام النبلاء ــ ج١٠ ص٦٦ .

أحدا جمع الله فيه من آله الفتيا ما جمع في ابن عيينة وما وجدت أسكت عن الفتيا منه)[1] وابن عيينه هذا هو الذي يقول (أعلم الناس بالفتوى أسكتهم فيها وأجهل الناس بالفتوى انطقهم فيها)[2] وتأمل دقة الشافعي في تصويره للفتوى والمفتي وأثرهما على المستفتي يقول (المستفتي عليل والمفتي طبيب ، فإن لم يكن ماهرا بطبه وإلا قتله)[3] وكان رحمه الله يسأل فيتمهل .. فإذا قيل له ألا تجيب رحمك الله فيقول .. حتى أعلم الفضل في سكوتى أم في جوابى ! وروى الشافعي عن مالك بن أنس قال سمعت ابن عجلان يقول (إذا أخطأ العالم لا أدري أصيبت مقاتلته)[4] ولي في قول العالم أو المعلم (لا أدري) ما ينقص من قدره (سئل الشعبي عن شيء فقال لا أدرى فقيل له : أما تستحى من قولك لا أدري وأنت فقيه العراقين ؟ قال : لكن الملائكة لم تستح حين قالت (سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) البقرة ٣٢)[5] والشافعي كمرب كبير ومعلم رائد يعلم أن تطور الفكر وتجديد العلم سنة الحياة التي لا تتبدل وعلمه هو نموذج صادق ومثال واقع على تلك الحقيقة ، فلقد كان له أراء فقهية وقضايا قضى فيها في العراق فلما وصل إلى مصر غير فيها وجدد في تناولها وتراجع عن بعضها فإذا قيل للشافعي في القديم فالمراد به مذهبه في العراق وإذا قيل في الحديث فالمقصود به مذهبه في مصر . وتلك روح العلم الحية المتجددة التي يقول عنها الامام الشافعي (إذا رأيت الكتاب فيه إلحاق واصلاح فاشهد له بالصحة)[6] لأن الجمود علامة للزلل ووصمة للكسل .

في كتابه الرسالة ينهج الامام الشافعي اسلوبا ينم عن خلق رفيع وأدب علمى عال منيع ، فهو مع مخالفيه في الرأى كالأب الشفيق يدعو لهم بالخير ويدعو لنفسه معهم إنه يبحث عن الحقيقة دون أن يلتفت إلى الوعاء الذي وجد فيه مراده أو على لسان من كشف الحق عن لثامه لا يهمه أكانت الحقيقة معه أو مع غيره المهم أن يحصل عليها ، فهو لذلك حتى مع مخالفيه المخطئين تجده حليما رحيما فيقول (وبالتقليد أغفل من أغفل منهم والله يغفر لنا ولهم)[7] .

وهكذا أسر الشافعي عقول مخالفية وتربع على قلوب محبيه يقول النووي يصف أخلاق الامام الشافعي (ومن ذلك مبالغته في الشفقة على المتعلمين ونصيحته لله تعالى

---

(١) الى (٥) الخطيب البغدادي — ج٢ ص ١٦٦ ، ص١٨٦ ، ص١٧٣ ، ص١٧٤ .
(٦) البيهقي — مناقب الشافعي — ج٢ ص٣٦ .
(٧) الرسالة — ص٢٤ .

ورسوله ﷺ والمسلمين وذلك هو الدين كما صح عن سيد المرسلين ﷺ)[1] وصدق الله العظيم إذ يقول (وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) آل عمران ١٥٩ .

وإذا كان اساس التعليم أن يستميل المربى قلوب المتعلمين بالخوف والشفقة عليهم والرحمة بهم وسعة البال معهم وطول الصبر لسؤالهم ومراجعتهم وعدم التشدد المفضى الى النفور أو محاسبتهم على الصغيرة والكبيرة ، يتغاضى ويتجاهل عما لاضرر فيه فان في ذلك من الفطانة والعقل ما فيه فان للشافعي رحمه الله في هذا قصب السبق (ومن حلمه ــ رحمه الله ورضي عنه ــ صبره على الأحداث من طلبة العلم ، ولو أساؤا الأدب ، فقد جلس الشافعي يوما في حلقته ، فجاء غلام حدث ، فسأله عن مسألة ، فأجابه ، ثم سأله عن أخرى فقال : أخطأت ، فقال له الشافعي : (أخطأت ياإبن أخى ما في كتابك ، وأما الحق فلا)[2] .

فانظر حلم المعلم وسعة صدره وتغاضيه عن زلة الحدث فمع سوء أدبه لم يعنفه ولم ينهره ، وهو من هو رحمه الله ... بل يسمع له فإذا اتهمه بالخطأ صحح بحلم له وتلك الكياسة التي يقول عنها الشافعي (اللبيب العاقل هو الفطن المتغافل)[3] (قال بعض الحكماء : وجدت أكثر أمور الدنيا لاتجوز إلا بالتغافل . وقال أكثم بن صيفى : من شدد نفر ، ومن تراخى تألف ، والشرف في التغافل . وقال شبيب بن شيبة : الأريب العاقل هو الفطن المتغافل . وقال الطائي :

ليس الغبي بسيد في قومه ... لكن سيد قومه المتغابي)[4]

ومن شيم المربين الرحمة بطلابهم وتخفيف اعباء الطلب أمامهم وألا يرهقوهم بكثرة العلوم وتزاحمها عليهم فان المربي والمعلم يعلم أن لكل طاقة محدودة وقدرة معلومة فلا يثقل عليهم فيهلكهم ويبغض العلم إليهم يقول الامام الشافعي (ولا تخرجنهم من علم إلى غيره حتى يحكموه ، فان ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم)[5] ألا ما أجمل هذا الفهم التربوي وما أروعه ، إنه من مشكاة النبوة ومن اقتباس الهدى المحمدي .

إلى عهد قريب كان المربون يظنون أن إرهاق العقول وتكثيف المعلومات وسيلة

---

(١) النووي ــ تهذيب الاسماء واللغات ــ ج١ ص ٥٣ .
(٢) عبدالغنى الدقر ــ الامام الشافعي ــ ص٢٣٩ .
(٣) الاصفهانى ــ حلية الاولياء ــ ج٩ ص١٢٣ .
(٤) الماوردي ــ أدب الدنيا والدين ــ ص ١٥٣ .
(٥) الاصفهاني ــ حلية الاولياء ــ ج٩ ص ١٤٧ .

للارتقاء بالطالب ، فأخذ المعلم إذا دخل الفصل يسرد المعلومات تلو المعلومات ودون توقف حتى يخرج .

فلنتأمل قول معلم البشرية ﷺ وهو يعلم الغلمان ، ها هو يقول لابن عباس (ياغلام ! إنى أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك)[1] نعم كلمات ! إنها كلمات تغنى عن الخطب الرنانة والمواعظ الطويلة والنصائح المملة ، والمتتبع لتوجيهات الرسول ﷺ في تربية الناشئة يلاحظ هذه العبارات القصيرة الموحية والمباشرة ، مراعاة لأحوالهم وملاحظة لقدرتهم على الفهم والحفظ (ياغلام سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك)[2] .

يقول االصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه (وما قل وكفى خير مما كثر وألهى) والجاحظ يصف الكلام النبوي الذي أوتى جوامع الكلم فيقول (وهو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ونُزِّهَ عن التكلف ..)[3] لقد عالج الشافعي موضوعات كلية وقضايا ومسائل دقيقة لم تطرق من قبله ومثل هذا من شأنه أن يعقد الطرح أو يكد الفهم خاصة وأنه أوتى بلاغة قوية وفصاحة نادرة ، ولكنه كان يبسط المسائل تبسيطا يذللها وييسرها حتى أعجب تلاميذه باسلوبه في التعليم ، يقول الكرابيسي (ما فهمنا استنباط أكثر السنن إلا بتعليم الشافعي إيانا)[4] وقال الحميدي (كنا نريد أن نرد على أهل الرأى فلا نحسن حتى جاءنا الشافعي ففتح لنا)[5] وكان رحمه الله يقول لتلميذه الربيع بن سليمان (لو أستطيع أن أطعمك العلم لأطعمتك)[6] .

وان تعجب لأمر الشافعي العالم المربى السباق فاعجب لامر الشافعي البطل المجاهد المرابط إنه يلبى نداء الجهاد ويقود الجيوش وينتقل بتلاميذه في وقت التنادي الى الجهاد والاستشهاد ، من ميدان العلم والتربية إلى ميدان العزة والكرامة ، ويضرب لهم أروع الأمثلة في الاستبسال والشجاعة والاقدام على البطولة والتضحية ، يترك القلم ليحمل السيف ويودع القرطاس ليحتضن السلاح .

وهناك في الاسكندرية يرابط الشافعي على ثغر من ثغور المسلمين .. يقول الربيع (خرجت مع الشافعي من الفسطاط الى الاسكندرية مرابطا ، فكان يصلى الصلوات

---

(١)(٢) ص.ج.ص ــ ج٢ ٧٩٥٧ ــ ٧٩٥٨ .
(٣) الجاحظ ــ البيان والتبيين ــ ج٢ ص٢٢١ .
(٤)(٥) النووي ــ تهذيب الاسماء ــ ج١ ص٦١ ، ٦٢ .
(٦) البيهقي ــ مناقب الشافعي ــ ج٢ ص١٤٨ .

الخمس في المسجد الجامع ، ثم يصير الى المحرس ، فيستقبل البحر بوجهه ، وهو جالس يقرأ القرآن)[٥] ألا ماأحوج هذه الأمة الى هذا النمط من العلماء الذين يقودونها في ميدانى العلم والجهاد ، حتى تستأنف دورها الذي ناطه الله به وتحمل رسالتها التي شرفها الله بها ، فما وهنت هذه الأمة إلا حين تقاعس علماؤها عن رسالتهم وتخلوا عن دورهم في القيادة بالحياة الدنيا واطمأنوا بها فقد فقد الناس ثقتهم فيهم لأنهم يعيشون آمالهم القصيرة وهمومهم التافهة الضئيلة ، فلم يعودا بقادرين على حفز الهمم واستثارة الأمة للجهاد وضاع بضياعهم دور كبير وخير كثير كان العالم ينتظره ويتوقعه منهم لانقاذه من الهوة التي تردي فيها ببعده عن الاسلام كمنهج حياة .

ومن أجمل سمات العلماء وأخلاق المربين التواضع فان الغرور مهلكة يقول الإمام الشافعي :

كلمـــا أدبنـــي الدهـــر أرانـــي نقص عقلي
واذا ما ازددت علمـــا زادني علمـــا بجهلي[٧٠]

وبكل تواضع وحياء يقول :

أحب الصالحين ولست منهم لعلى أن أنـــال بهم الشفاعـــة
وأكـــره من تجارتـــه المعـــاصى وإن كنـــا سواء في البضاعـــة[٧٦]

لقد عرف الشافعي كامام بخلقه قبل علمه ! وحاز على الخلق العظيم كله حينما وصف بأنه (كان لمن فوقه من المعلمين خاضعاً ولمن يستعلم منه أو يعلمه متواضعاً)[٢] لايستنكف العالم المتواضع من الاستفادة والتعلم والاستزادة حتى ممن هو دونه وأقل مرتبة منه ، فالعلم ضالة المتعلم أنى وجده فهو أحق الخلق به يقول الاستاذ جاسم مهلهل الياسين عن آداب العالم في أخذ العلم (لايمتنع من الأخذ من أي رتبة : لذلك قال الحميدي وهو تلميذ الشافعي رحمه الله صحبت الشافعي من مكة الى مصر فكنت أستفيد منه المسائل وكان يستفيد منى الحديث وبذلك قال الإمام أحمد بن حنبل : قال قال لنا الشافعي أنتم أعلم بالحديث منى فإذا اصح عندكم الحديث فقولوا لنا حتى نأخذ به .

كما صح رواية جماعة من الصحابة عن التابعين ... وأبلغ من ذلك كله قراءة رسول

---

(١) عبدالغني الدقر ــ الامام الشافعي ــ ص١٧٢ .
(٢) الأصفهاني ــ حلية الأولياء ــ ج٩ ــ ص١١٧ .

الله ﷺ على أبي وقوله : (إن الله أمرني أن أقرأ عليك : لم يكن الذين كفروا (البينة) رواه البخاري عن أنس بن مالك .. ولقد قيل (إذا جمع العلم ثلاثا تمت النعمة بها على المتعلم : الصبر والتواضع وحسن الخلق) ما أجملها من كلمات يتجمل العالم بها في نفسه)[1] والحق أن الإمام الشافعي تأثر بأساتذته وخاصة مالك وسفيان بن عيينه إذ كانوا يأخذون من تلميذهم الشافعي بتواضع .. (كان ابن عيينه يعظمه ويجله وفسر الشافعي عند ابن عيينه حديثا أشكل على سفيان فقال له سفيان جزاك الله خيراً ما يجيئنا منك إلا مانحب)[2] وحكى البويطى عن الشافعي رضي الله عنه (أنه كان في مجلس مالك بن أنس رضي الله عنه ، وهو غلام فجاء رجل الى مالك فاستفتاه فقال : انى حلفت بالطلاق الثلاث أن هذا البلبل لا يهدأ من الصياح فقال له مالك : قد حنثت فمضى الرجل ، فالتفت الشافعي رضي الله عنه إلى بعض أصحاب مالك فقال : إن هذه الفتيا خطأ ، فأخبر مالك بذلك وكان مالك مهيب المجلس لا يجسر أحد أن يرده ، وربما جاء صاحب الشرطة فوقف على رأسه إذا جلس في مجلسه ، فقالوا لمالك : ان هذا الغلام يزعم ان الفتيا اغفال وخطأ ، فقال مالك : من أين قلت هذا ؟ فقال الشافعي : ألست أنت الذي رويت لنا عن النبي ﷺ في قصة فاطمة بنت قيس رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ إن أبا جهم ومعاوية خطباني ، فقال الرسول ﷺ أما أبو جهم فلا يضع العصا عن عاتقه ، وأما معاوية فصعلوك لا مال له ، فهل كانت عصا أبا جهم دائما على عاتقه ، وانما أراد من ذلك الأغلب ، فعرف مالك محل الشافعى ومقداره)[3] .

والتواضع هو الذي جعل اماما عظيما جليلا كالإمام أبي حنيفة يصحح مساره العلمي ومنهجه في الإفتاء حينما (رأى الإمام ابو حنيفة غلاما يلعب بالطين فقال له : ياغلام إياك والسقوط في الطين ، فقال الغلام للامام : إياك أنت من السقوط لان سقوط العالِمْ سقوط العالَم . فكان أبو حنيفة لا يفتى بعد سماع هذه الكلمة إلا بعد مدارسة المسألة شهراً كاملًا مع تلامذته)[4] وما أكثر الأخلاق والخصال الحميدة والشمائل الكريمة التي ينبغى على المربين والمعلمين التحلى بها فلقد كان المعلم الأول عليه أفضل الصلاة والسلام خلقه القرآن الذي يقول الله فيه (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً) النحل ١٦ . والأخلاق هي الثمرة المرجوة من العلم فان العلم نور

---

(١) العلم بين يدي العالم والمتعلم ــ ص٦٥ .
(٢) النووي ــ تهذيب الاسماء ــ ج١ ص٥٩ .
(٣) محمد نور سويد ــ منهج التربية النبوية للطفل ــ ص٢٣٥ .
(٤) محمد نور سويد ــ منهج التربية النبوية للطفل ــ ص٣٤٠ .

من شأنه أن يبين العوج ويبدد ظلمات الجهل ، ويصلح فساد السلوك ، يقول الشافعي :

إذا لم يزد علـم الفتـى قلبـه هدى وسيرتـه عدلا وأخلاقـه حسنـا
فبشره أن الله أولاه نقمـة يساء بها مثـل الـذي عبـد الوثنـا[1]

وأخلاق الإمام الشافعي من نبع الإسلام الفياض ومن القرآن الكريم والسنة المطهرة وهي لسموها وعلوها لا توزن بموازين البشر ، انها ليست وليدة محيط أو بيئة أو افراز وضع اقتصادي معين ، أو حقبة تاريخية مضت .. ميزان لايعرف القصور أو التناقض أو النسبية أو النفعية .. ورضي الله عن الإمام على رضي الله عنه حيث يقول :

من لم يؤدبـه ديـن المصطفـى أدبـاً محضاً تحير في الأحـوال واضطربـا[2]

على مثل تلك الاخلاق تبنى الأمم وتقام صروح الحضارات وتأخذ طريقها إلى العزة وتتبوأ مكانتها في دنيا البشر يقول شوقي :

وانما الأمم الأخـلاق ما بقـيت فان هموا ذهـبت أخلاقهـم ذهبـوا

ويقـول حافـظ :

وارفعـوا دولتـي على العلم والاخلاق فالعلم وحده ليس يجدي

يقول الإمام المجدد حسن البنا (والأمة الناهضة أحوج ماتكون إلى الخلق .. الخلق الفاضل القوى المتين والنفس الكبيرة العالية الطموح ، إذ أنها ستواجه من مطالب العصر الحديث مالا تستطيع الوصول إليه إلا بالأخلاق القوية الصادقة والنابعة من الايمان العميق والثبات الراسخ والتضحية الكثيرة والاحتمال البالغ .

وانما يصوغ هذه النفس الكاملة الاسلام وحده ، فهو الذي جعل صلاح النفس وتزكيتها أساس الفلاح فقال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠) الشمس وجعل تغيير شؤون الأمم وقفا على تغير أخلاقها وصلاح نفوسها فقال تعالى (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ) الرعد ١١)[3] . ومسك الختام في هذا ، تلك النصيحة العظيمة التي يقدمها الشافعي لكل معلم .. قال نهشل بن كثير عن أبيه كثير قال (أدخل الشافعي يوما إلى بعض حجر هارون الرشيد ليستأذن على أمير

---

(١) ديوان الشافعي ــ نعيم زرزور ــ ص١٠٥ .
(٢) ديوان الامام علي ــ ص٣١ .
(٣) حسن البنا ــ مجموعة الرسائل ــ ص٢٨٣ .

المؤمنين ، ومعه سراج الخادم ، فأقعده عند أبي عبدالصمد مؤدب أولاد الرشيد : فقال سراج للشافعي : ياأبا عبدالله ، هؤلاء أولاد أمير المؤمنين وهذا مؤدبهم ، فلو أوصيته بهم . فأقبل الشافعي على أبي عبدالصمد فقال له : ليكن أول ما تبدأ به من اصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاح نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما تستحسنه، والقبيح عندهم ما تركته . علمهم كتاب الله ولا تكرهم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم روهم من الشعر أعفه ، ومن الحديث أشرفه ، لا تخرجنهم من علم إلى غيره حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم)[1] .

(١) الأصفهاني ــ حلية الأولياء ــ ج٩ ــ ص١٤٧ .

البـــاب الســابـــع

وسائـــل التـــربيـــة عنـــد الشافعـــي

يراد بالتربية تنمية الاخلاق وتزكية النفس وتدريبها حتى تطبع على الخلال الحميدة والطباع الكريمة . والتنشئة المتنامية والجهود المتتابعة في مجال التعليم بقصد اكتساب القدرات الجسمية والعلمية والمهارات العقلية والفكرية . ويراد بالتعليم متابعة الجهد المبذول لتربية الفرد على السلوك الطيب والخلق الحميد ، ولإزالة الجهل وكشف الخفاء ومساعدته على فهم العلوم وجمع المعارف في كل العلوم والفنون .

والحق ان كلاهما أمران متلازمان لاينفصل أحدهما عن الآخر ، وخطان متآزران يجتمعان ولا يفترقان وكلاهما ثمرة طبيعية ونتيجة حتمية للآخر .

فان العلم وسيلة للتربية والتربية وسيلة للعلم . وقد جمع الله بينهما في قوله (لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾) ال عمران فالتزكية هي التربية ، ويعلمهم الكتاب والحكمة هو التعليم . وكلاهما ينهض ويزدهر باستمرار ، بتنمية الجهد المبذول فيه وتزايد العمل الجاد من أجله وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول (إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم ، ومن يتحر الخير يعطه ، ومن يتق الشر يوقه)[1] ويجمع بين كلمتي التربية والتعلم كلمة التأديب ولقد كان يطلق في القرون الأولى للاسلام على المعلم والمربي المؤدب فيقال مثلا مؤدب أولاد الرشيد ، ويقول شوقي في هذا في قصيدته مصاير الأيام :

جنـــون الحداثـــة من حولهم تضيـــق به سعـــة المذهب
عدا فاستبـــد بعقـــل الصبـــيّ وأعـــدى المؤدب حتـــى صبـــى ![2]

واطلاقها على المعلم أجمع وأشمل لأنه يقوم بالأمرين معا . ومن هنا اطلق على الوزارة التي تقوم بهذه العمل وزارة التربية والتعليم بعدما انحسرت كلمة المؤدب وفاءاً بالمهمة التي لا تكتمل إلا بالأمرين معا .

ولما كان هدف التربية المتكاملة إسعاد الفرد وسكب الرضا والراحة في قلبه ، وربطه

---

(١) ص.ج.ص.ج١ ٢٣٢٨ .
(٢) الشوقيات ــ ج٢ ص١٤٥ .

بربه ليزكي نفسه وينمي عقله ويعتني بجسده وقوته بشكل متوازن فلابد أن تتنوع وسائل التربية والتهذيب تبعا لتنوع حاجات الانسان الروحية والنفسية والاجتماعية والصحية والخلقية مع النظرة الواعية لمراعاة الاختلافات الفردية وتفاوت القدرات والطبائع البشرية التي تتأثر بشكل أكبر بوسيلة دون أخرى علما بأن احتياجات الانسان المتنوعة تتطلب اختيار الوسيلة المناسبة لتهذيب الجانب المطلوب . والقدوة الموعظة والترغيب والترهيب والقصة .. وغيرها هي في الواقع أساليب تربوية ووسائل حركية إذا ما توفرت عند المربى سهل عليه بها التأثير في المتعلم وإفادته من العلم بحسب عمره وشخصيته وثقافته .. مما يجعله يتفاعل معه تفاعلا يكون فيه أكثر قبولا للعلم وتحصيلا له . وكلما زادت تلك الوسائل وكثرت تلك الأساليب كلما تيسر الطلب وسهل التعليم لتعدد جسوره . وانما يقاس المعلم الممتاز المتمكن والمربي الجيد النشط ويقيَّم بقدرته على تنويع تلك القنوات واجادته لاستخدامها وحسن إختياره للمناسب منها لكل جانب يراد تحقيقه في العلم والتربية . وليس معنى كثرة الوسائل وتعدد الأساليب التربوية ، إنفراد كل وسيلة على حدة بحيث لا يمكن أن تلتقي مع وسيلة أخرى أو أن كل وسيلة منها تعمل وتستخدم منفصلة عن الوسائل الباقية . فان الواقع التربوي يرينا أنها متكاملة مترابطة بحيث تتعاون كلها لتؤدي في النهاية الى الهدف المطلوب .

ففي الموعظة مثلا تجد الترغيب والترهيب وتجد القصة واستغلال الحوادث الجارية .. وهكذا ... وفي القصة تجد الموعظة وتلمح القدوة وتلاحظ النصيحة .. إن هذه الوسائل في الحقيقة متداخلة متعددة تخدم الأهداف المنشودة والاغراض المطلوبة وهي تيسير التعليم وتبسيط طرق التربية .

ومن ثم استنبطت تلك الوسائل ووظفت في هذا الميدان . بعد هذا التمهيد نقوم بعرض الوسائل التربوية عند الشافعي وسوف ندعم هذا العرض ببعض الشواهد من شعره مع كل وسيلة من وسائله حتى تبرز بشكل واضح فما أوسع هذا الفكر التربوي وما أشمله .

أولا : القـــــدوة

من طبيعة الانسان أن يتأثر بمن يعجب به أو بمن يملك عليه لبه ويستولى على عقله من أولئك النفر الذين يرى فيهم تفردا في الناس وتفوقا في خصال الرجولة وملامح العظمة وسمات القيادة ، فالضعيف مولع بتقليد القوى والمغلوب يهوى أن يتشبه بالغالب وقد

قيل :

فتشبهوا إن لم تكونـــوا مثلهـــم إن التشبـــة بالرجـــال فلاح

وقليل هم اولئك النفر الذين يكونون محط انظار الناس وموضع اعجابهم وعلى رأس هؤلاء تكتمل صفات الرجولة ومواطن القدوة في شخص الرسل عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام . ومن ثم كانوا أنماطا رائدة ونماذج رائعة للقدوة الصادقة والأسوة الكريمة . فالله قد إختارهم على عينه ، إنهم المصطفون الأخيار .

وعلى رأس هؤلاء قمة البشرية وذروة الانسانية الذي حاز من الكمال البشري أكمله وأتمه وقال فيه رب العزة (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾) الاحزاب والذي لا يكمل ايمان أحد إلا بحبه واتباعه وتفضيله على النفس والمال والولد ، قال رسول الله ﷺ (والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده)[1] .

والامام الشافعي يرينا مدى اعجابه بسيد الخلق ﷺ وكيف يتخذ هو ونتخذ نحن القدوة به ﷺ قيل للشافعي ما اسم ابى عثمان ـــ ابنه ـــ فقال (سميته أحب الاسماء إلي ، محمداً)[2] .

وفي مقدمة كتابه الرسالة نجد الامام الشافعي يبين أبعاد تلك الشخصية العملاقة مركزا على مواطن القدوة واقفا أمام شموخها واصفا خصالها باسهاب ذاكرا فضلها في اعتداد واعجاب فيقول عن المثل الاعلى والقدوة السامية لكل مرب ومعلم وقائد .. محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه (فكان خيرته المصطفى لوحيه ، المنتخب لرسالته ، المفضل على جميع خلقه ، بفتح رحمته ، وختم نبوته ، وأعم ماأرسل به مرسل قبله ، المرفوع ذكره مع ذكره في الأولى والشافع المشفع في الأخرى ، أفضل خلقه نفسا ، وأجمعهم لكل خلق رضية في دين ودنيا . وخيرهم نسبا ودارا ـــ محمداً عبده ورسوله . وعرفنا خلقه نعمه الخاصة ، العامة النفع في الدين والدنيا . فقال (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ التوبة ١٢٨ وقال (لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا) الشورى ٧ وأم القرى مكة وفيها

---

(١) ص.ج.ص.ج٢ /٧٠٨٤ .

(٢) عبدالغنى الدقر ـــ الامام الشافعي ـــ ص٦٨ .

قومه . وقال (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾) الشعراء وقال (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾) الزخرف)[1] .

وتتفجر ينابيع الحب وتتدفع مشاعر الانبهار والاعجاب فتنساب من أدب الشافعي درر البيان فيقول (فصلى الله على نبينا كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون . وصلى عليه في الأولين والاخرين أفضل وأكثر وأزكى ما صلى على أحدٍ من خلقه . وزكانا وإياكم بالصلاة عليه ، أفضل مازكى أحدا من أمته بصلاته عليه . والسلام عليه ورحمة الله وبركاته . وجزاه الله عنا أفضل ماجزى مرسلا عن من أرسل إليه ، فانه أنقذنا به من الهلكة ، وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس ، دائنين بدينه الذي ارتضى واصطفى به ملائكته ومن أنعم عليه من خلقه . فلم تمْسِ بنا نعمة ظهرت ولا بطنت ، نلنا بها حظا في دين ودنيا ، أو دفع بها عنا مكروه فيهما وفي واحد منهما : إلا ومحمد ﷺ سببها القائد الى خيرها ، والهادي إلى رشدها ، الذائد عن الهلكة وموارد السوء في خلاف الرشد ، المنبه للأسباب التي تورد الهلكة ، القائم بالنصيحة في الارشاد والانذار فيها فصلى الله على محمد وعلى آل محمد ، كما صلى على ابراهيم وآل ابراهيم ، انه حميد مجيد)[2] بهذا الأسلوب الواضح والمنهج الرائد يعلمنا الإمام الشافعي أن نغرس في نفوس الناشئة خاصة والأمة عامة حب الرسول ﷺ حبا يجعله ملىء القلب والسمع والبصر حتى نتخذه ﷺ القدوة ونجعله مثلنا الاعلى في كل حياته وأحيانه وأحواله فنعيشه ﷺ تشريعا وأدبا وعلما وفضلا وجهادا وعملا وخلقا وسلوكا ونتأسى به في مأكله ومشربه وملبسه وسيره وعيشه مع أهله وبيته ونوجه طاقات الحب والاكبار لشخصة فقد جعل الله عزوجل اتباع النبي وانتهاج نهجه الدليل الحق على حبه هو سبحانه وتعالى فقال (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾) آل عمران .

قال الامام الشافعي :

لو كان حبك صادقـــا لأطعتـــــه إن المحب لمن يحب مطيـــــــــع[58]

فالله عزوجل غايتنا والرسول ﷺ امامنا وقدوتنا شعار كل مسلم مخلص وكل مرب

---

(١) الرسالة ص١٦ .

(١) الرسالة ــ ص ١٧ .

ناجح ومعلم ناصح . إنها صرخة مدوية في أمة مستهدفه من كل اعدائها وهي غافلة لاهية .. أمة نسيت ربها فأنساها أنفسها .. واتخذت من دعاة اللهو وأرباب الغواية مثلها فشردت عن السبيل وضاعت وسط ضباب الحياة اللاهثة اللاغية .. أمة جعل شبابها مثله الأعلى الفنان الفلاني ... أو اللاعب أو الراقص الفلاني فقلده في مشيه وفي لبسه وفي حركاته حتى في ألفاظه الهابطة وكلماته الفاجرة ، فأصبحنا نرى من يتكسر في مشيته كالنساء ومن يتخنث في كلامه ويلبس لباس الفتيات أو يضع القلادة الذهبية في عنقة أو الدلايات من الحلى في يده وأصبح هناك من يطلق عليه الجنس الثالث .. شبابا يلبسون فعلا ثياب النساء ويتصنعون تصنع الخليعات ويتعلمون الرقص النسائي على يد الراقصات . ثم رأينا الجنس الرابع فتيات يلبسن البنطلونات ويحلقن الشعور ويقلدن الرجال في ملبسهم وهيئاتهم وكل تصرفاتهم مما ينذر بمستقبل خطير وشر مستطير . والعجب أن هذا كله يحدث تحت سمع وبصر المجتمع ، تعقد معهم اللقاءات ويتكلمون أو يتكلمن دون حياء أو خجل ... متمسكين بأوضاعهم في جرأة وصفافة معتبرين أن هذا المسلك يمثل حياتهم الخاصة التي يعيشونها أو يعشنها كما يريدون دونما تدخل من راع أو أب أو مرب . ألا سحقا لهؤلاء الذين يقول الرسول ﷺ فيهم وفي أمثالهم (لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء) [1] وقال ﷺ (لعن الله الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة التي تلبس لبسة الرجل)[2] وماذا ينتظر من هؤلاء ؟!! إنهم لا يقيمون دينا ولا ينصرون مبدءاً ولا يعيدون حقا مسلوبا .. وماذا ينتظر من هؤلاء حين يجد الجد ويتطلب الموقف رجالا يعتز بهم الدين وتنصر بهم المبادىء ؟.

هؤلاء الذين صار عودهم هشا وحياتهم فراغا وفيهم يقول الشاعر :

قطـــرات الـــنسيم تجرح خديـــه ومس الحريـــر يدمـــي بنانـــه

ألا ما أتفه وأضيع مثل هذه الاجيال . إن القدوة من اسس التربية الخطيرة التي تصنع الأجيال وتصقل الرجال ، الشباب مولع بتقليد البارزين على ان ذلك يمثل عنده سمة من سمات الرجولة التي إليها يهرعون وبها يعتزون ويتمسكون وخاصة في فترة المراهقة ، تلك الفترة التي يقترب بها الناشئة من مرحلة الرجولة فيولعون فيها بتقليد الكبار ، فإذا لم تصنع لهم القدوة السوية والأسوة المثالية ضاعوا ضياعا كبيرا وضاع بضياعهم أمة

---

(١)(٢) ص.ج.ص.ج٢ ٥١٠٠ ــ ٥٠٩٥ .

بأكملها ، فان شباب اليوم قواد ورجال الغد . ومن هنا ينبغي أن تتضافر الجهود وتتكاتف المؤسسات من أول البيت ، المدرسة الأولى إلى الشارع والمجتمع إلى المدرسة ، الحضانة ، فالابتدائية فالمتوسطة فالثانوية فالجامعة ، فالمؤسسات العملية فالمسجد فوسائل الاعلام والتثقيف من إذاعات مسموعة ومرئية إلى الصحيفة اليومية والمجلة الاسبوعية والشهرية إلى النوادى والمؤسسات الاجتماعية والرياضية .. يجب ان تتضافر هذه المؤسسات جميعاً في رسم صورة القدوة التي يحتذيها الجيل ويسير على منوالها الناشئة فالخطوة الأولى لإحياء أمة أصابها الوهن وانغمست في ركام التخلف إنما هي ايجاد القدوة الأولى والمثل الأعلى ، يجده الأبناء في الأباء ويتجسد صورة طيبة حية في المربين والمعلمين والقادة والحاكمين بحيث ينظر الابناء إلى هديهم وسمتهم ولبسهم وسلوكهم باعجاب وانبهار فيعيش ذلك في وجدانهم ويصور فكرهم فيقلدون سيرتهم وحياتهم بينهم وتضع الأمهات أجيالا تقتفي أثرهم وتنهج نهجهم ويأخذون طريقهم على نهج القدوة الأولى والانسان الكامل محمد بن عبدالله ﷺ فيقتبسون من هديه ويتمثلون سلوكه ويكون ﷺ بعد الله عزوجل مثار حبهم واعزازهم حتى يستطيعوا أن يعطوا الناشئة خلقا قويما وسلوكا عاليا مستقيما . إن نهوض أي أمة يتوقف على ايجاد القدوة الحية خاصة في محيط العمل التربوي ودائرة التعليم . في البيت للطفل قدوة وفي المدرسة وفي الحياة العامة ، كذلك يضرب لهم أروع الأمثلة في مواقف الحياة ويؤثر فيهم بفعله قبل قوله كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي عنه (أنتم إلى امام فعال أحوج منكم إلى امام قوال) يأسر بفعله شعور المحيطين به والملتفين حوله . ومن الحكم الصادقة (عمل رجل في الف رجل خير من قول ألف رجل لرجل) ولكى نرى أثر القدوة الفعلية نذكر ذلك الموقف الحكيم الحصيف لأم المؤمنين أم سلمة زوج الرسول ﷺ ففي يوم بيعة الحديبية وبعد أن انتهى رسول الله ﷺ من كتابة المعاهدة مع سهيل بن عمرو ممثل قريش ، عز على المسلمين الأمر ورأوا في رجوعهم مكة بدون أن يدخلوها فيعتمروا أمرا خطيرا صدمهم خاصة وأن في بعض نصوص المعاهدة التي رضيها رسول الله ﷺ ما أتعبهم وأذهلهم .. وأغلقت شدة الغضب فكرهم ، وحين أمرهم الرسول ﷺ أن يذبحوا الهدى ويحلقوا تثاقلوا من هول الموقف فدخل رسول الله ﷺ على أم سلمة مغضبا يقول كاد الناس أن يهلكوا كاد الناس أن يهلكوا . فقالت وما يهلكهم يارسول الله ؟ قال : أمرتهم أن يحلقوا وأن يذبحوا هديهم فلم يفعلوا . فقالت رضي الله عنها ! اخرج إليهم ولا تكلم أحدا منهم واعمد الى الحلاق فخذ من شعرك واذبح بيدك هديك فانهم إذا رأوك فعلت اسرعوا وفعلوا .

وخرج رسول الله ﷺ فحلق شعره ثم هديه فلما رأوه أسرعوا يحلقون ويذبحون . فانظر ماذا فعلت القدوة العملية حين استحكمت دواعي الغضب والحزن فتوقفوا وظنوا أن ليس عليهم حلق ولا ذبح حيث لم يدخلوا مكة ويعتمروا ! .. .

إن المعلم أكثر تأثيرا في حياة طلابه لأنهم يرون فيه المثل الذي يجب أن يحتذى والنبراس الذي يضيء حياتهم وكذلك العالم يرى الناس فيه الصورة التي يجب أن يقتدي بها . لذلك حذر الرسول ﷺ من عالم السوء ، فإنه يزل بزلته وتضل بفعله أمة . قال رسول الله ﷺ (مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ، وينسى نفسه ، كمثل السراج يضيء للناس ، ويحرق نفسه)[1] وقال ﷺ (إن علما لا ينتفع به ككنز لا ينفق منه في سبيل الله)[2] والسلوك الانساني تعبير عن الباطن كما أن الكأس الزجاجي الريق يخبر عما فيه يقول الامام الشافعي « والماء يخبر عن قذاة زجاجه » ويقول شوقي : « انما السائل من لون الاناء » .

وما أجمل قاعدة الامام الشافعي في تفسير السلوك الانساني حيث يقول (اذا ثبت الأصل في القلب أخبر اللسان عن الفروع)[3] وفساد السلوك دليل على فساد السريرة وإذا كانت القدوة من أنجح وسائل التربية وأنفع أساليب التهذيب والتأديب وأشدها خطورة وفاعلية فإن الشافعي يبين دور تلك التربية الفعلية والقدوة العملية بالنسبة لدرجات التعليم فيقول (من سمع بأذنه صار حاكيا ، ومن أصغى بقلبه كان واعيا ، ومن وعظ بفعله كان هاديا)[4] . ذلك أن الفعل القليل يغني عن العمل الكثير ، ويقول رحمه الله :

إن الفقيه هو الفقيه بفعله ... ليس الفقيه بنطقه ومقاله
وكذا الرئيس هو الرئيس بخلقه ... ليس الرئيس بقومه ورجاله
وكذا الغني هو الغني بحاله ... ليس الغني بملكه وبماله (٦٩)

ويقول :

ياواعظ الناس عما أنت فاعله ... يامن يعد عليه العمر بالنفس
احفظ لشيبك من عيب يدنِّسُهُ ... إن البياض قليل الحمل للدنس
كحامل لثياب الناس يغسلها ... وثوبه غارق في الرجس والنجس

(١)(٢) ص.ج.ص ج٢/ ٥٨٣١ ــ ج٢ /٢١١٢ .
(٣) الأصفهاني ــ حلية الأولياء ــ ج٩ ص١٢٠ .
(٤) د. أحمد الشرباصي ــ الائمة الأربعة ــ ص١٣٨ .

تبغـي النجـاة ولم تسلك طريـقتها إن السفينـة لا تجري على اليـبس
ركـوبك النـعش ينسيك الركـوب على ما كنت تركب من بغـل ومـن فرس
يوم القيامـة لا مال ولا ولـد وضمـة الـقبر تنسي ليلـة العـرس[٥١]

ويحذر الامام الشافعي من كل من يخالف قوله فعله وعلانيته سريرته فيقول :

ودع الذيـن إذا أتـوك تنسكـوا وإذا خلـوا فهـم ذئـاب خراف[٦٢]

وما أحكم قول الشاعر :

ياأيها الرجـل المعلـم غيره هلا لنـفسك كان ذا التعـليم
تصف الـدواء لذي السقـام وذي الضنـى كيمـا يصح به وأنت سقيم
ابـدأ بنـفسك فانهـها عن غيها فإذا انتهت عنـه فأنت حكيم
فهنـاك تعـذر إن وعـظت ويقتـدي بالقـول منك ، ويقبـل التسـليم
لا تنـه عن خلـق وتـأتي مثلـه عار علـيك إذا فعـلت عظيم[١]

جاء العبيد الى الحسن البصري رحمه الله يشكون ظلم سادتهم وقسوتهم عليهم ، ورجوه رحمه الله أن يخطب في الناس طالبا الرحمة بهم واعتاق رقابهم ، وانتظروا أن يتكلم في الجمعة المقبلة واعظا الناس بذلك ولكنه ترك هذا الأمر زمنا طويلا حتى يئس العبيد ، وفجأة تكلم في هذا الموضوع وأمر الناس بتحرير العبيد وفك رقابهم ، فاستجاب الناس واعتقوا عبيدهم فذهبوا الى الحسن رضي الله عنه يسألونه لماذا سكت هذه المدة الطويلة ؟ فقال رحمه الله لو أني أمرت الناس حين جئتموني لما استجابوا لي لأني آمرهم بما لم أقدر على فعله فانتظرت هذه المدة حتى تيسر لي مال فاشتريت به عبيدا ثم اعتقتهم فلما أمرتهم بذلك اسرعوا واستجابوا لأني أمرت بما فعلت .

وعنه رضي الله عنه أنه سمع رجلًا يقول لا يجب أن ينهى عن الشر إلا من لا يفعله ، فقال الحسن ببصره النافذ وعمق فكره : ود إبليس لو ظفر منا بهذه حتى لا ينهى أحد عن المنكر ، ولا يأمر بمعروف . لكن الأصل يبقى اصلا وصدق الله العظيم (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾) الصف وقد قيل ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الناس ولو كانوا على الكاس !! بيد أن المعلم إذا كان قدوة لطلابه أثمر تعليمه فيهم لا محالة يقول الشاعر :

أو كطبـيب قد شفـه سقـم وهـو يداوي من ذلك السقـم

---

(١) الماوردي ــ ادب الدنيا والدين ــ ص٢٢ .

ياواعـــظ النـــاس غير متعـــظ ثوبك طهـــر أولا فلا تلـــم[1]

وقال أحد الفقهاء (ياصاحب العلم انه لا يصلح الزرع الا بالماء والتراب كذلك لا يصلح الايمان الا بالعلم والعمل)[2] وقال الامام الشافعي (الايمان : قول وعمل واعتقاد بالقلب ، الا ترى قول الله عزوجل (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ) البقرة١٤٣ يعني صلاتكم الى بيت المقدس ، فسمى الصلاة إيمانا ، وهي قول وعمل وعقد)[3] (قال الربيع : سمعت الشافعي يقول : الايمان قول وعمل ، يزيد وينقص)[4] يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي .. لقد كان الامام الشافعي قدوة طيبة وأسوة حسنة لطلابه وأصحابه وهذا ما لاتجده عند كثير من علماء التربية قديما وحديثا ، وكان مثلا أعلى ومادة فكرية تربوية حية ونابضة في علمه وسلوكه قلما سطرت كتب التربية لها مثيلا .

(كانت حياة محمد بن ادريس الشافعي ملحمة معلمة ، بينت أن الدين ينصره علم وعمل ، وأن للعمل الجزاء الأوفى .. وكان الشافعي إماما دائم العمل ، يعلم الناس ويقدم لهم أدلة الأحكام . فقدم حياته ، بتمامها ، دليلا على الاجتهاد بالفقه ، والجهاد بفضائل الاسلام ، فصار مثلًا أعلى في العمل)[5] ولقد كان لتلاميذ الإمام الشافعي رأيهم في استاذهم وهو رأى يركز على الجانب العملي في حياته ، هذا الجانب الذي أثر فيهم تأثيرا كبيرا ورأوا ملامح العظمة وموطن القدوة تبرز من هذا الجانب ، يقول أبو عبيدة بن سلام (مارأيت أحدا أعقل ولا أورع ولا أفصح وأنبل رأيا من الشافعي وقال الزعفراني راوى كتب الشافعي القديمة مارأيت مثال الشافعي أفضل ولا أكرم ولا أتقى ولا أعلم منه وما رأيته لحن قط وكان يقرأ عليه من كل شعر فيعرفه وما حمل أحد محبرة إلا وللشافعي عليه منه ما كان الشافعي إلا بحرا وقال الكرابيسى ما كنا ندرى ما الكتاب والسنة والاجماع حتى سمعناه من الشافعي وما رأيت مثل الشافعي ولا رأى الشافعي مثل نفسه وما رأيت أفصح منه ولا أعرف)[6] قال الكرابيسي أيضا ما رأيت مجلساً قط أنبل من مجلس الشافعي كان يحضره أهل الحديث وأهل الفقه وأهل الشعر وكان يأتيه كبار أهل اللغة والشعر فكل يتكلم منه .

---

(١) الماوردي ــ ادب الدنيا والدين ص٦٣ .
(٢) سنن الدارمي ــ ج١ ص١٥٩ .
(٣) ابن عبدالبر القرطبي ــ الانتقاء ــ ص٨١ .
(٤) النووي ــ تهذيب الأسماء ــ ج١ ص٦٦ .
(٥) عبدالحليم الجندي ــ الإمام الشافعي ــ ص٢٦٥ .
(٦) النووي ــ تهذيب الأسماء ــ ج١ ــ ص٦١ ــ ٦٢ .

يقول البويطي رأيت الناس والله مارأيت أحداً يشبه الشافعي ولا يقاربه في صنف من العلم والله ان الشافعي كان عندى أورع من كل من رأيته ينسب الى الورع ..

وقال محمد بن عبدالحكم ما رأيت مثل الشافعي ..

وقال يونس بن عبد الاعلى (مارأيت أعقل من الشافعي ناظرته يوما في مسألة ثم افترقنا ، ولقيني وأخذ بيدى ، ثم قال : ياأبا موسى ، ألا يستقيم أن نكون اخوانا وإن لم نتفق في مسألة)[1] .

وقال سعيد بن هارون ما رأيت مثل الشافعي قط قدم علينا مصر فقالوا قدم علينا رجل من قريش فقيها فجئناه وهو يصلى فما رأيت أحسن منه وجها ولا أحسن منه صلاة فلما قضى صلاته تكلم فما رأيت أحسن منه منطقا ...

قال الربيع (رأيت الشافعي يوم أضحى واقفا على درجة له يأمر الذابح بذبح أضحيته ويسمى الله ويكبر)[2] وقال الربيع أيضا (قال الشافعي اسقنى قائما فإن النبي ﷺ شرب قائما)[3] ألا ما أعظم هذه الدروس العملية التي ربى عليها طلابه وكانوا عليها من الشاهدين ولقد حملت جنازته إلى السيدة نفيسة بنت الحسين ، وكانت فقيهة أديبة عالمة تدرس الفقه والعلم والأدب من وراء حجاب وكان للشافعي شرف التلمذة على يدها فصلت عليه صلاة الجنازة وقالت (رحم الله الشافعي إنه كان يحسن الوضوء)[4] فما أروعها وما أجلها من شهادة لهذا العالم الحبر الجليل من سيدة كريمة فقيهة تعرف عن جدها عليه الصلاة والسلام أنه قال (اسباغ الوضوء شطر الايمان)[5] وقال (اسباغ الوضوء في المكاره ، واعمال الاقدام الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، يغسل الخطايا غسلا)[6] ولاعجب أن يعرف هذا عن الشافعي رحمه الله ، ويتناقله الناس في الطرقات والمنازل وفي كل مكان .

ولقد كان رحمه الله مثالا للاقتصاد في كل أمر ومنه تعلم أصحابه وطلابه .. يقول أحدهم (مارأيت أحدا أقل صبا للماء ــ في تمام التطهر ــ من الشافعي)[7] .

وهكذا تكررت عبارة ما رأيت .. ومارأيت .. عشرات المرات في وصف الشافعي على ألسنة كل تلاميذه وفي ذلك دلالة قاطعة على ان طلابه أحبوه حبا كبيرا حتى لكأنهم

---

(١) الذهبي ــ سير أعلام النبلاء ــ ج١ ص١٦ .
(٢) البيهقي مناقب الشافعي ــ ج٢ ص٢٣٦ .
(٣) الرازى ــ مناقب الشافعي ــ ص٧٩ .
(٤) عبدالحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص٢٩٥ .
(٥)(٦) ص.ج.ص.ج١ ٩٢٥ ــ ٩٢٦ .
(٧) الرازى ــ مناقب الشافعي ــ ص٧٩ .

يرون كل خلاله وخصاله رأى العين .

ومثل الامام الشافعي جدير أن يحب فلقد أعطى بسخاء دروساً موفقة في القدوة فكان بحق مدرسة متكاملة في علمه وأدبه ، وفضله وخلقه وفي فقهه ونصحه ، ومناظراته ومساجلاته وصدقه وصداقاته وفي تحمله وصبره وجهاده وعبادته وورعه وتقواه مما يحتاج إلى أسفار ومجلدات ضخام .

ثانيا : التربيــة بإحيــاء الضمــير

الضمير ملكة راسخة واستعداد باطني نير ، يتربى في أعماق المؤمن بتربيته على الايمان القوي والخلق الفاضل السوي ، وعلى قوة اليقين في الله الذي يعلم ويرى ولا تغيب عنه غائبة في السموات ولا في الأرض المحيي المميت الخالق الرازق الذي إليه المرجع والمآب ، الرقيب الحسيب القائم على كل نفس بما كسبت والذي يقول جل علاه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ المجادلة والقائل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ق

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ الحديد (وهي كلمة على الحقيقة لا على الكناية والمجاز . فالله ــ سبحانه ــ مع كل أحد ، ومع كل شيء في كل وقت ، وفي كل مكان ، مطلع على ما يعمل بصير بالعباد . وهي حقيقة هائلة حين يتمثلها القلب . حقيقة مذهلة من جانب ، ومؤنسة من جانب . مذهلة بروعة الجلال . ومؤنسة بظلال القربى . وهي كفيلة وحدها حين يحسها القلب البشرى على حقيقتها أن ترفعه وتطهره ، وتدعه مشغولا بها عن كل أعراض الأرض ، كما تدعه في حذر دائم وخشية دائمة ، مع الحياة والتحرج من كل دنس ومن كل اسفاف)[1] .

ولقد كان من الوسائل التربوية التي استعملها الشافعي رحمه الله في تربية طلابه تربية الضمير واحيائه فإن الانسان إذا أحس بمعية الله وشعر برقابة الله استحيا من ربه أن يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره واستحيا من الملائكة الذين يسجلون عليه ما يعمل وعاش بضميره الحي اليقظان في صمام أمان فإذا هفت به هفوة أو كبت به كبوة أسرع ضميره إلى تعنيفه ومعاتبته ومؤاخذته ومحاسبته واشتد نزغه عليه اناء الليل واطراف النهار

---

(١) سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ ج٦ ص٣٤٨١ .

وحمله ان يبرع الى التوبة وان يسرع الى ملازمة الندم والاستغفار والأوبة (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾) الاعراف ، (ورقابة الله عزوجل وتقواه كان ولا يزال إسلوبا تربويا عميق الغور في النفس المسلمة ، حساسا مؤثرا كأبعد ما يكون التأثير ، حياة الضمير أن تجعل الله رقيبا عليك ، وأن تكون تقوى الله نبراساً لأعمالك وأحاسيسك وهواجس نفسك)[1] .

يقول الامام الشافعي :

من راقب الله رجـــــــــــــع ما طار طير وارتفـــــــــــــــع
الا كمـــا طـــار وقـــــع[57]

وإذا كان هناك من حاجة الى رقابة البشر وملاحقة الناس بسن القوانين التي تضبط الحياة فإن تلك الرقابة البشرية والقوانين تصبح كعدمها اذا خربت الذمم وماتت الضمائر فحينئذ ينقلب الأمين خائنا والحارس سارقا وقد قيل في المثل حاميها حراميها ! إن تقوى الله هي الرادع الزاجر يقول العلامة الشيخ سيد سابق (إن الانسان إذا خاف من الله : كف لسانه عن الهجر والكذب ، والغيبة والنميمة ، والسخرية ، والهمز واللمز .. وامتنعت العين عن النظرة الخائنة ، وطهر القلب من الغل والحسد ، والفسق والكبر والرياء ، والنفاق ، وسائر الصفات الذميمة ، التي يبغضها الله ويمقتها الاسلام . وقد يقال : إن القوانين يمكن أن تحل محل الخوف من الله . والحق .. ان القوانين مهما كانت صارمة . فإنها لا تنفع كما ينفع الخوف والخشية من الله . فإن الخوف يخلق الضمير الحي الذي يصحب الانسان في الخلوة والجلوة وفي كل حال.. بينما القوانين لا ترعي الا حيث يخاف الانسان من الوقوع في قبضة السلطة القائمة على تنفيذ القانون. فإذا وجد فرصة، أمن فيها المرء على نفسه، هتك حرمة القانون، وخرج عليه دون مبالاة. وان ما تعانيه الانسانية من نضوب معين الفضائل، وفساد الضمائر، وانتشار الجرائم والاستهتار بالقيم، إنما سببه الغفلة عن خوف الله، وعدم استحضار عظمته في القلب. ولهذا كثر في القرآن الدعوة الى الخوف من الله، ليستيقظ الضمير، ويصمد، وفي يقظة الضمير نجاة الانسان وسعادته في الدنيا والاخرة. ولا تقتصر ثمار الخوف من الله وخشيته على هذا، بل يدفع الخوف

---

(١) د. عجيل جاسم النشمي ــ معالم في التربية الاسلامية .ص ١٩٨.

الى السلوك الايجابي الذي يسمو بالنفس الى كل خير)[1] إن تقوى الله هي الرادع الزاجر وهي الحارس الحامي من قبل ذلك كله ومن بعده ، يقول الشافعي :

وذات الفتى والله بالعلم والتقى ... إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته[29]

ويقول :

ولولا خشية الرحمن ربي ... حسبت الناس كلهم عبيدي[40]

ويقول :

قلبي برحمتك الله ذو أنس ... في السر والجهر والاصباح والغلس

وما تقلبت من نومي وفي سنتي ... الا وذكرك بين النفس والنفس

إلى أن يقول :

وكن معى طول دنياى وآخرتى ... ويوم حشرى بما انزلت في عبس[15]

ويقول :

إذا ماخلوت الدهر يوما فلا تقل ... خلوت ، ولكن قل : على رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفى عليه يغيب

غفلنا لعمر الله حتى تراكمت ... علينا ذنوب بعدهن ذنوب

فيالیت أن الله يغفر ما مضى ... ويمنحنا من توبة فنتوب[2]

هذه الأبيات في جملتها وغيرها كثير وكثير في شعر الشافعي رحمه الله، ترسخ في النفس تقوى الله عزوجل وتجعل هذه التقوى رأس الأمر كله وتجعل معية الله والاحساس بها ومراقبه الله والايمان بها من خيرى الدنيا والآخر وإليهما أشار الحديث حين سئل ﷺ عن الاحسان (أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك)[3] هذا وينبغى ان يكون (إحسان الأعمال واتقانها رائدنا في كل شيء ، فالله يحب منا اذا عملنا عملا أن نتقنه، وإذا توخينا الاتقان في أعمالنا صار ذلك اسلوباً كاملًا لكل حياتنا وتولدت في قلوبنا الضمائر الحية التي لاترضى بالنقائص ولا توافق على الصغائر وعند ذلك لابد أن يتقدم المجتمع وتسعد الأمة وتزدهر الحضارة، وما نراه من ضياع وتخلف مرجعه إلى موت ذلك الضمير الواعي في قلوبنا لأننا لم نحسن التعامل مع ربنا ويوم أن نحسن هذا التعامل ونعبد الله كأننا نراه عند ذلك ستولد في قلوبنا الضمائر الواعية ونستأنف مسيرة الحضارة والرقى من جديد بإذن الله)[4] إنه لباس التقوى الذي يشمل الانسان فيجمل حياته

(١) اسلامنا ــ ص٨٩ ــ ص٩٠ .
(٢) الاسنوى ــ طبقات الشافعية ــ ج١ ص١٤ .
(٣) متفق عليه .
(٤) د. صديق عبدالعظيم ابو حسن ــ د. محمد نبيل غنايم ــ دراسات في السنة النبوية ــ ص ١٩٢ ــ ١٩٣ .

ويسعد أخراه، يقول الشافعي رحمه الله (رتبة العلماء التقوى)[1] ويقول (انفع الذخائر التقوى)[2] (صحبة من لا يخاف الله عار)[3] (من لم تعزه التقوى لا عزَّ له)[4] .

إن الهدف من التعليم والغاية من التربية عند الامام الشافعي غرس تقوى الله ومراقبته في قلوب الناشئة لتستقيم حياتهم ولتسعد دنياهم وليقبلوا على الحياة اقبال المجتهد النشط للعلم المهتم بالانتاج ، ينطلق من دافع داخلي يملى عليه اتقان العمل والاحسان في البذل ، فاذا لم يحقق العلم هذا ولم تصل التربية بالناشئة إلى ذلك الهدف فهي ضياع في ضياع يقول الشافعي :

إذا لم يزد علم الفتى قلبه هدى وسيرته عدلا وأخلاقه حسنا
فبشره أن الله أولاه نقمة يساء بها مثل الذي عبد الوثنا[5]

ويقول :

يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

وإذا ما استقرت التقوى في القلب وتمكنت منه كانت نبراسا للعمل تهذب النفس وتنير القلب وتحفظ الجوارح وتكف المؤمن عن محارم الله وتبعد به عن كل ما يسيء .. يقول الشافعي :

فدع عنك سوءات الامور فانها حرام على نفس التقى ارتكابها[21]

ومن ثمرات التقوى الراحة النفسية والطمأنية القلبية .. ومن أعظم تلك الثمار حب الله عزوجل وطاعته واتباع رسول الله ﷺ (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) آل عمران ٣١ ــ ٣٢ .

ويقول الشافعي :

تعصى الاله وأنت تظهر حُبَّهُ هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع
في كل يوم يبتديك بنعمة منه وأنت لشكر ذاك مضيع[58]

ويقول :

من صدق الله لم ينله أذى ومن رجاه يكون حيث رجا[6]

---

(١) ديوان الشافعي ــ اسماعيل اليوسف ــ ص٧٧ .
(٢) النووي ــ تهذيب الاسماء ــ ج١ ص٥٥ .
(٣) ابن عبدالبر ــ الانتقاء ــ ص ١١ .
(٤) النووي ــ تهذيب الاسماء ــ ج١ ص٥٥ .
(٥)(٦) ديوان الشافعي ــ نعيم زرزور ــ ص١٠٥ ، ص٤٩ .

ثالثا : الموعظة

الوعظ والموعظة نصيحة بعمل الخير واجتناب الشر باسلوب مفعم بالترغيب والترهيب يرقق القلب ويلهب العاطفة ويحرك النفس ويبعث الانسان على الاحسان في القول والعمل . وما أعظم فعلها وأقوى تأثيرها في ميدان التربية ومجال التأديب والتثقيف .

فكم من موعظة بليغة تغلغلت في أعماق القلوب وعملت عملها في النفوس فأحيت أمماً وأيقظت مجتمعاً وغيرت وجه الحياة وأصلحت عوجه وعدلت سلوكه وأكسبت خلقا وفضلا . ولا ريب في أن الموعظة لون عظيم من ألوان التربية ، واسلوب حكيم من أساليب التزكية والتأديب والتعليم وقد اختارها الله عزوجل نمطا للهدى واسلوبا للتغيير ، والقرآن الكريم في هدية للبشرية وهدايته للناس هو في مجموعه موعظة من الله لعباده جمعت فأوعت (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) يونس ٥٧ ، أنزله الله تبارك وتعالى ليربى به المؤمنين ويصل بهم إلى درجة المتقين (هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾) آل عمران إن العامل الواعى هو الذي يتأثر بالمواعظ فيقلع عما هو فيه من بُعد وانحراف ويقبل على مافرط ، اقبال الذي يحس بالتقصير وصدق الله (فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ) البقرة ٢٧٥ أما أولئك الذين لاتنفع معهم الموعظة فهم موتى القلوب عمى البصائر إنهم من الهالكين وقد أخبر الله عن أمثال هؤلاء من أقوام الرسل فقال على لسانهم (قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾) الشعراء

ولقد ذكر القرآن الكريم تلك الموعظة الجامعة التي قدمها من آتاه الله الحكمة ، يعظ ولده ، انها دستور للموعظة وللمناهج للوصية الكاملة يقول لقمان لابنه وهو يعظه بادءا له بنهيه عن الشرك بالله لانه ظلم عظيم ثم يعرض عليه وصاية الله عزوجل بالوالدين وفضلها ويبين له أن الله عزوجل لا تغيب عنه غائبة ولو كانت مثقال ذرة في السموات والأرض ويأمره بالصلاة والمواظبة عليها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم يبين له

ألوانا من الخلق والخلال الحميدة وينهاه عن بعض الخصال الذميمة كالكبر ورفع الصوت .. يقول عزوجل (وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾) لقمان ويستمر في سرد موعظته إلى أن يقول كما حكاه الله عنه (وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾) لقمان .

إن على الآباء والمعلمين والمربين أن يتخذوا من تلك الموعظة دستورا يخططون عليه حياة الناشئة ويسيرون بهم على هديه حتى يطبعوهم على كل خير نصت عليه هذه الموعظة وبذلك يخرجوا للحياة أجيالا قد اكتسبت إيمانا قويا وضميرا حيا ، وتربت عندها مناعة قوية ضد أمراض القلوب والنفوس . وعاشت حياة الاستقامة الكاملة والأخلاق الفاضلة .

وعلى كل مسلم ذاق حلاوة الايمان وسعد به أن يدعو الناس إليه وان يعظ بالخير وعلى الحكمة من حوله (ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ سورة النحل .

إن الموعظة من وسائل الدعوة واسلوب الاصلاح والتغيير والموعظة الحسنة هي (التي تدخل القلوب برفق ، وتتعمق المشاعر بلطف لا بالزجر والتأنيب في غير موجب ، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية . فإن الرفق في الموعظة كثيرا ما يهدي القلوب الشاردة ، ويؤلف القلوب النافرة ، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ)[1] .

وكان النبي ﷺ إذا وعظ فجر الأحاسيس وشحذ الهمم وأيقظ النفوس من غفوة الغفلة ورقق القلوب فسالت العبرات وفاضت العيون وصدق شوقي :

وإذا خطبت فللمنابر هزة تعرو الندي ، وللقلوب بكاء[2]

وحين يعظ النساء يبلغ التأثر منهن أن يسارعن ببذل ما يملكن .. يأمرهن بالصدقة فتنزع كل واحدة منهن قرطها أو قلادتها أو خاتمها فتضعه في حجر بلال .

ومن هنا رئى صفوة من الاصحاب كان الله عزوجل أحب إليهم من كل شيء وكان ما عند الله أبقى وأقوى يقينا مما في أيديهم وكانت الأخرى احب وآثر عندهم من الدنيا ، قدموا انفسهم وأهليهم وأموالهم وكل ما يؤثلون ويدخرون من أجل الله ورسوله

---

(١) سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ ج١ ص٢٢٠٢ .

وهان عليهم كل غال وثمين في سبيل مرضاة الله ونصرة دينه . فلا عجب أن كانوا إذا دعوا إلى الله أو وعظوا قومهم أثروا فيهم تأثيرا بليغا لأن ما يخرج من القلب يستقر في القلب . وها هو معاذ بن جبل يعظ الناس فيقول (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلم صدقة وبذله لأهله قربة لأنه معالم الحلال والحرام والأنيس في الوحشة والصاحب في الخلوة والدليل على السراء والضراء ، والزين عند الأخلاء . والقرب عند الغرباء يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخلق قادة يقتدى بهم وأئمة في الخلق تقتص آثارهم وينتهي إلى رأيهم وترغب الملائكة في حبهم ، بأجنحتها تمسحهم ، حتى كل رطب ويابس لهم مستغفر ، حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها لأن العلم حياة القلوب من العمى ونور الابصار من الظلم وقوة الابدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأحرار ومجالسة الملوك . والدرجات العلى في الدنيا والاخرة والفكر به يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام . به يطاع الله عزوجل وبه يعبد الله عزوجل ، وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال من الحرام ، إمام العمل والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء)[1] .

والحق أن الإنسان يحار وهو يسمع مثل هذه الموعظة النافعة الواعية الجامعة من هذا الصحابي الجليل ويعجب بقوته على الادلاء بهذه المعاني العظيمة والوفاء بتلك الدرر المضيئة النظيمة ، ولكن العجب يزول ونحن نعلم من أي نبع ارتوى ومن أي بحر اغترف ، انه تلميذ محمد ﷺ الذي اختاره رسولا لأهل اليمن وقاضيا فيهم وأعده لقيادتهم والصلاة بهم . لقد تخصص في الحلال والحرام إنه ابن الاسلام .

ومن مدرسة محمد ﷺ أمير المؤمنين هارون الرشيد ، ولقد وعظ الأحمر النحوي مؤدب ولده محمد الأمين موعظة تربوية رائعة تعكس مدى التقدم العلمي والتعليمي في ذلك العصر الذهبي ومدى حرص الخليفة ووعيه بالمسيرة التربوية .. قال هارون الرشيد (ياأحمر ! إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، اقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام وبدأه ، وامنعه الضحك الا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها ،

(١) أبو بكر الآجري ــ أخلاق العلماء ــ ص٤٧ ، ص٤٨ .

من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة)[1] .

أما الامام الشافعي فإنا نجد فيه مصلحا اجتماعيا وواعظا نادرا قويا ومربيا فذا عبقريا يخلب الألباب بنصحه ويستولي على القلوب بوعظه لأن وعظه يخرج من معين يعمل قبل أن يقول ومن قلب يخاف الله فيصدق قوله فعله وها هو يعظ محذرا من الظلم مبينا مصير الظالمين وأن الظلم مرتعه وخيم فيقول :

إذا ما ظالم استحسن الظلم مذهبا ... ولج عتوا في قبيح اكتسابه
فكله إلى صرف الليالي فانها ... ستدعى له ما لم يكن في حسابه
فكم قد رأينا ظالما متمردا ... يرى النجم تيها تحت ظل ركابه
فعما قليل وهو في غفلاته ... أناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح لامال ولا جاه يرتجى ... ولاحسنات تلتقى في كتابه
وجوزى بالامر الذي كان فاعلا ... وصب عليه الله سوط عذابه(٢٣ – ٢٤)

نعم إذا أفلت الظالم من أخذ الناس فلن يهرب من عقاب الله (**إن ربك لبالمرصاد**) الفجر ١٤ وما أسرع دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب وأنه سبحانه يمهل ولا يهمل فكما تدين تدان يقول الامام الشافعي :

ورب ظلوم قد كفيت بحربه ... فاوقعه المقدور أي وقوع
فما كان لي الاسلام إلا تعبداً ... وأدعية لا تتقى بدروع
وحسبك ان ينجو الظلوم وخلفه ... سهام دعاء من قسى ركوع
مريشة بالهدب من كل ساهر ... منهلة أطرافها بدموع(٥٧ – ٥٨)

وقال أحدهم :

لاتظلمن إذا ما كنت مقتدرا ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

وسيرا مع الموعظة يقول الشافعي محذرا من الزنا وداعيا إلى العفاف ومبينا أثر تلك الفاحشة وعاقبتها الوخيمة من هتك للعرض واعتداء على الحرمة وأن القصاص يعجل

---

(١) مقدمة ابن خلدون ــ ص ٥٠٨ ــ ٥٠٩ .

لصاحبه ويُنال من عرضه جزاءاً وفاقاً فيقول :

عفـــوا تعـــف نساؤكم في المحرم وتجنبـــوا مالا يليـــق بمسلـــم
إن الزنـــا ديـــن فإن أقرضتـــه كان الوفا من أهـــل بيـــتك فاعلـــم(٧٦)

ويقـــول :

ياهاتكـــا حرم الرجـــال وقاطعـــا سبـــل المودة عشت غير مكـــرم
لو كنت حرا من سلالـــة ماجـــد ما كنت هتـــاكا لحرمـــة مسلـــم
من يزن يزن به ولـــو بجداره إن كنت ياهـــذا لبيبـــا فافهـــم(٧٧)

ومن معين نفسه الأبية وشعوره بالعزة القعساء يعظ الشافعي مرغبا في السفر داعيا إلى الاعتزاز بالنفس والاحساس بالإباء ، فذلك شأن العلماء يقول في حكمة صادقة وموعظة بالغة :

ارحـــل بنـــفسك من أرض تضام بها ولا تكـــن من فراق الأهـــل في حرق
فالعـــنبر الخام روث في مواطنـــه وفي التغـــرب محمـــول على العنـــق
والكحـــل نوع من الأحجـــار تنظـــره في أرضه وهـــو مرمـــى على الطـــرق
لما تغـــرب حاز الـــفضل أجمعـــه فصار يحمـــل بين الجفـــن والحدق(٦٣)

ومن مواعظه في حكمة كتمان السر وحفظ الأمر وبيان حمق من يفشي سره :

إذا المرء أفشى سره بلسانـــه ولام عليـــه غيره فهـــو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الـــذي يستـــودع السر أضق(٦٥)

وما أقدره على صوغ الحكمة في عبارة رشيقة قصيرة ، وتلك قمة البلاغة يقول : (من نمّ لك نمّ بك ، ومن نقل إليك نقل عنك)(١) ويأمر بحفظ اللسان فيقول :

احفـــظ لسانك ايها الانسان لا يلدغـــنك إنـــه ثعبـــان
كم في المقابـــر من قتيـــل لسانـــه كانت تهاب لقـــاءه الاقـــران(٨٢)

المرء مخبوء تحت طى لسانه وطعنات اللسان أمض من طعنات السنان إذ هو يورد صاحبه موارد الهلكة ومن هنا يقول الشافعي :

والصمت أجمل بالفتـــى من منطـــق في غير حينـــه

ويقـــول :

وجـــدت سكـــوتي متجـــرا فلزمتـــه إذا لم أجـــد ربحا فلست بخاسر

---

(١) ديوان الشافعي ــ اسماعيل اليوسف ــ ص ٩٣ .

ومـــا الصمت إلا في الرجـــال متاجـــر وتاجـــره يعلـــــو على كل تاجـــــر[٤٦]

ويقـــول :

قالـوا سكت وقـــد خوصمت قلت لهم إن الجواب لبـــاب الشر مفتـــــاح
والصمت عن جاهـــــل أو أحمق شرف وفيـــه أيضا لصون العـــــرض اصلاح
أمـا ترى الاسد تخشى وهـي صامتـــة ؟ والكـلب يخسى لعمـــرى وهـــو نبـــاح

ويعظ تلميذه الربيع فيقول (ياربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك فانك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها)[١] وسئل رحمه الله عن أي الأشياء أوضع للرجل قال (كثرة الكلام وإذاعة السر والثقة بكل أحد)[٢]وقال (من كتم سره كانت الخيرة في يده)[٣] وقال ﷺ (عليك بحسن الخلق ، وطول الصمت ، فوالذي نفسي بيده ما تجمل الخلائق بمثلها)[٤] وقال ﷺ (من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه)[٥] وقد سئل الامام الشافعي (عن مسألة فسكت فقيل له ألا تجيب رحمك الله ؟ فقال : حتى أدرى أين الفضل في سكوتى أو في جوابى)[٦] ولو أنك ذهبت تحصى حكمه ومواعظه لوجدت جُل كلامه فصوص حكم ونجوم كلم ، ولرأيت درراً من القريض سامقة وغررا من البيان رائقة ولتولتك الدهشة وأنت تقف على بدائع القريحة وروائع السليقة وقوة البيان وزلاقة اللسان فهو كالبحر من أي النواحى أتيته ظفرت باللؤلؤ والمرجان ومتحت من معين الاحكام والاتقان .

يقول رحمه الله (استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكرة)[٧] واسمع منه عيون الشعر موعظة حية تنساب من فكرة :

صن النـــفس واحملهـــا على مايـــزينها تعش سالما والقـــــول فيك جميـــــل
ولا تولين النـــــاس إلا تجمـــــلا نبـــا بك دهـــر أو جفـــاك خليـــل
وإن ضاق رزق اليـــــوم فاصبر إلى غد عسى نكبـــات الدهـــــر عنك تزول
ولاخير في ودِّ إمـــــرىءٍ متلـــــون إذا الـــريح مالت ، مال حيث تميـــل
ومـــا أكثر الاخـــوان حين تعدهـــم ولـــكنهم في النائبـــات قليـــل[٧]

---

(١) النووي ــ الأذكار ــ ص ٢٩٨ .
(٢)(٣) عبدالحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص ٤٩ .
(٤)(٥) ص.ج.ص.ج٤٠٤٨١ ــ ٥٩١١ آ
(٦) ابن عبدالبر ــ الانتقاء ص ١٠١ .
(٧) ابن القيم ــ مفتاح دار السعادة ــ ج١ ص١٨٠

ومن روائعه في الموعظة :

ولا تمشين في منكب الأرض فاخرا ... فعما قليل يحتويك ترابها
ومن يذق الدنيا فانى طعمتها ... وسيق إلينا عذبها وعذابها
فلم أرها إلا غروراً وباطلا ... كما لاح في ظهر الفلاة سرابها
وما هي إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همهن اجتذابها
فان تجتنبها كنت سلما لأهلها ... وإن تجتذبها نازعتك كلابها
فطوبى لنفس أولعت عقر دارها ... مغلقة الابواب مرخى حجابها[٢٢]

وفي لحظة شعور بعظمة النفس مع التواضع الجم يعاتب ولده أبا عثمان (عاتب محمد بن ادريس الشافعي إبنه أبا عثمان وكان فيما قاله ، فوعظه به ، يابنى لو علمت أن الماء البارد يثلم مروءتى شيئا ما شربت إلا حاراً)[١] قال الربيع بن سليمان قال الشافعي (ياربيع ! رضي الناس غاية لا تدرك فعليك بما يصلحك فالزمه ، فانه لاسبيل إلى رضاهم ، واعلم أن من تعلم القرآن جل في عيون الناس ، ومن تعلم الحديث قويت حجته ، ومن تعلم النحو هيب ، ومن تعلم العربية رق طبعه ، ومن تعلم الحساب جل رأيه ومن تعلم الفقه نبل قدره ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه ، وملاك ذلك كله التقوى)[٢] لاشك أن هذه الموعظة موعظة تربوية رائدة ومقطوعة أدبية راقية وحكم رائعة صادقة ، جمع فيها الشافعي فقه التربية ومنهج التعليم ، فهي بحق تستحق أن تكون دستور الطالب أينما كان وفي أي زمان ، فهي وثيقة تربوية كاملة شاملة مختصرة معبرة (قال الجنيد كان الشافعي رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدنيا ، وعظ أخاً له في الله وخوفه بالله فقال ياأخى إن الدنيا دحض مزلة ودار مذلة عمرانها إلى الخراب صائر وساكنها إلى القبور زائر ، شملها على الفرقة موقوف وغناها إلى الفقر مصروف الاكثار فيها اعسار والاعسار فيها يسار فافزع إلى الله وارض برزق الله . لا تتسلف من دار فنائك إلى دار بقائك فإن عيشك في ء زائل وجدار مائل ، أكثر من عملك وأقصر من أملك)[٣] والجنيد رجل من كبار الصوفية يرى في أدب الشافعي ووعظه من روعة العاطفة وحرارة اليقين ، ولسان الحق ما يحيى موات القلوب ويبعث الروح في الجانب العاطفي في المؤمن .

---

(١) الرازي ــ مناقب الشافعي ــ ص٨٥ ــ ص٨٦ .
(٢) الاصفهاني ــ حلية الاولياء ــ ج٩ ص١٢٣ .
(٣) الغزالي ــ احياء علوم الدين ــ ج٣ ص٢٠٦ .

وكيف لا وكلماته من فيض القرآن ونبع سيد ولد عدنان فلا عجب أن تفيض الحكمة من جوانحه وتتفجر العظات من جنانه وقد أوتي قلباً حافظاً ولساناً لافظاً وعقلاً واعياً وعلماً وافراً وبصراً نافذاً .... حتى لكأن النبوة تتضوع بين جنبيه .

الموعظة الصادقة تظل أبد الدهر باقية ماضية .. والموعظة الصادقة من المعلم لتلميذه تجمع حرارة العاطفة ونور الحكمة ، خاصة إذا كانت وصية مودع وموعظة مفارق لهذه الدنيا ...

يقول المزنى أنه كلم استاذه الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقال (ياأبا عبدالله ـــ رحمك الله ـــ عظنى فقال لى اتق الله ، ومثل الآخرة في قلبك ، واجعل الموت نُصب عينك ، ولا تنس موقفك بين يدى الله عزوجل ، وكن من الله تعالى على وجل ، واجتنب محارمه ، وأدِّ فرائضه ، وكن مع الحق حيث كان ، ولا تستصغرن نعم الله عليك وان قلت ، وقابلها بالشكر . وليكن صمتك تفكرا ، وكلامك ذكرا ، ونظرك عبرة . اعف عمن ظلمك ، وصل من قطعك ، وأحسن إلى من أساء إليك ، واصبر على النائبات ، واستعذ بالله من النار بالتقوى . فقلت زدنى رحمك الله ياأبا عبدالله ، فقال ليكن الصدق لسانك ، والوفاء عمادك ، والرحمة ثمرتك ، والشكر طهارتك ، والحق تجارتك ، والتودد زينتك ، والكتاب فطنتك ، والطاعة معيشتك ، والرضا أمانتك ، والفهم بصيرتك ، والرجاء اصطبارك ، والخوف جلبابك ، والصدق حرزك ، والزكاة حصنك ، والحياء أميرك ، والحلم وزيرك ، والتوكل درعك ، وتكون الدنيا سجنك ، والفقر ضجيعك ، والحق قائدك ، والحج والجهاد بغيتك ، والقرآن محدثك ، والله مؤنسك . فمن كانت هذه صفته كانت الجنة منزلته)[1] .

ولنسمتع إليه يعظ أحد مريديه فيقول : (اعلم أن من صدق الله نجا ومن أشفق على دينه سلم من الردى ومن زهد في الدنيا قرت عيناه بما يراه من ثواب الله تعالى غدا ، أفلا أزيدك ؟ قلت : نعم . قال : من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الايمان . من أمر بالمعروف وائتمر ونهى عن المنكر وانتهى وحافظ على حدود الله تعالى . ألا أزيدك ؟ قلت : نعم فقال : كن في الدنيا زاهدا وفي الآخرة راغبا واصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج من الناجين)[2] .

ألست معى في أنه على نهج الرسول ﷺ سار ومن مشكاة الهدى اقتبس واستنار ؟

---

(١) البيهقى ـــ مناقب الشافعي ـــ ج٢ ص٢٩٥ .
(٢) الغزالي ـــ إحياء علوم الدين ـــ ج١ ـــ ص٢٦ .

موعظة الشافعي لهارون الرشيد

من الكلم المأثور الناس بزمانهم أشبه وحين يقرأ الانسان هذه الموعظة المؤثرة البليغة الرائعة الحكيمة ، الرادعة الزاجرة يروعه بحق ويعجبه بصدق ويستولى على قلبه وعقله تلك النماذج من الرجال والمعادن النقية من الأماجد الأبطال الامام الشافعي وهارون الرشيد ، عالم ورع وخليفة ورع . أمير المؤمنين الذي جاءت هذه الوثيقة وصية الشافعي لهارون الرشيد لتؤكد مع أمثالها أن هذا الأمير افترى عليه كثيرا وجنح الخيال ولج الخبال بكثير من الكتاب وخاصة من المستشرقين إلى أن يصفوا مجالسه بالاسراف والشراب والمجانة والرقص والقيان والغناء وهو المجاهد البكاء (إن الرشيد رجل مؤمن ، يتجلى الايمان في حاله ومقاله وأفعاله ، فقد ينتحب الساعات الطوال إذا وعظه أحد ، أو تجلت له حقيقة من حقائق الايمان ، حتى عد أحد البكائين ، وكان يعظم الرسول ﷺ في قوله ، فما يذكر عنده حتى يقول : صلى الله على سيدى ، وأما أفعاله فقد كانت منضبطة . بموجب الشرع ، لا يعمل بمسألة إلا وفتوى قاضى القضاة بين يديه حتى فيما يتعلق بحياته الزوجية وأموره الخاصة ، وقد وفقه الله بأبى يوسف صاحب أبى حنيفة الذي شهد أهل العلم والتاريخ له بالعدل والنزاهة ، ومحمد بن الحسن الشيبانى الذي يعد بشهادة الأحناف ناشر المذهب الحنفي في الأصقاع ، يضاف إلى هؤلاء القضاة كوكبة مباركة من خيرة علماء الدنيا والدين . وقد خلط كثير من المؤرخين وغيرهم بين أمرين ، بين شخصية الرشيد ، وبين الفترة التي عاش فيها . فالرشيد في سيرته الشخصية مثال العفة والطهر ، ومثال الاستقامة والغيرة على الدين ، وعدم الانسياق وراء الهوى ، والتقلل من الدنيا ، والاقبال على العلماء ، والاستفادة منهم ، رغبة بالآخرة ، وقربة إلى الله ، وقد قضى حياته بين الغزو والحج وقدر الله له الموت غازيا في سبيل الله .

ومن كانت حياته بين سنابك الخيل ، ورايات الجهاد ، وغبار المعامع ، وشدة الوطيس فلا مجال عنده للهو والترف والسرف)[1] يقول الفيلسوف المؤرخ عبدالرحمن ابن خلدون في مقدمته (.. وأما ما تُموِّه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر النّدمان ، فحاشا لله ما علمنا عليه من سوء ، وأين هذا من حال الرشيد

(١) محمد الزين ــ أحمد القطان ــ هارون الرشيد الخليفة المظلوم ــ ص٣ ــ ٤ .

وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة ، وما كان عليه من صحابة العلماء والاولياء ، ومحاوراته للفضيل بن عياض ، وابن السماك والعمرى ومكاتبته سفيان الثورى ، وبكائه من مواعظه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها ؟)[1] .

نعم . لقد كان رحمه الله يجاهد في سبيل الله عاما ويحج إلى بيت الله الحرام عاما فاذا حج حج على نفقته خلق كثير ، فلما كان في آخر حجة له حجها ماشيا على قدميه من بغداد بالعراق حتى دخل الحرم في مكة .

هذا الخليفة الذي جلس في حلقة مالك رحمه الله حين سمعه يقول عن رسول الله ﷺ أما بعد فلقد بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال من تواضع لله رفعه فيزداد تواضعا وخشوعاً ... وحين طلب من مالك أن يأتيه ليتعلم على يديه أرسل إليه يقول إن العلم يؤتى ولا يأتي وقد حمل ولديه حذاء مالك ينتظرانه على باب المسجد اجلالا للعلم وتوقيرا له . لقد سمع هارون موعظة الشافعي هذه وهو يبكي بكاءا مرا حتى وصل الشافعي الى حديث غل اليدين الى العنق فاذا به يجهش بالبكاء ، ذلك ان خوفه من الله وورعه يحملانه أن يطلب الموعظة طلبا للنجاة فاذا جاءته من رجل كالشافعي أصغى إليها وانفعل بها وأيقظته من سبات ونبهته من غفلة . وكما صح عن النبي ﷺ (من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة)[2] وكما جاء في الأثر من خوفك حتى بلغ بك الأمن خير ممن أمنك حتى بلغ بك الخوف . ولن تضيع أمة فيها عالم يعظ فيقول الحق ويؤدى واجب الجهاد وفي الحديث (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)[3] وفيها أمير يوعظ فيتعظ وينصح فيؤوب ، وكلاهما جدير بالتقدير والتجلة وفيهما صلاح الأمة .

وإذا كان كلا الموقفين جدير بالاحترام والاعزاز فان موقف الشافعي أقوى أثراً وأعظم خطراً وأشد احتراما وتوقيرا يقف القارىء موقف الاجلال والاكبار والاعجاب والانبهار وهو يقرأ موعظة الشافعي لأمير المؤمنين هارون الرشيد في شجاعة نادرة وجرأة فائقة لايخشى في الله لومة لائم .

ومثله كان يؤثر أن يكون موادعا وقد جيىء به للرشيد متهما وقتل الرشيد من معه وما أنجاه إلا صدقه وعظيم ثقته بالله في موضع كانت التهمة قاتلة مع ما في الموقف من

---

(١) مقدمة ابن خلدون ــ ص١٨ .
(٢)(٣) ص.ج.ص. ــ ج٢ / ٦٢٢٢ ــ ج١ / ١١٠٠ .

حساسية شديدة وما لأعدائه من قوة ودهاء وما للسلطان من فتك ومضاء ، ولكنه رحمه الله بقوة الحق الذي عرف على لسانه تحدر وبعظمة العلم الذي منه تفجر وبخوفه من الله أن يكون في موقف النصح ازور وقصر انطلق إنطلاق السهم المفوق ورعد رعود البرق المغدق وقال كلمة الحق الصادق الموفق . فأهدى للاسلام صورة ناطقة وعظة صادقة لما يجب أن يكون عليه العالم أمام السلطان حتى يؤدي الأمانة ويكون للحاكم عونا على دينه ودنياه ويجنبه الضياع الذي يلفه من فعل حاشية السوء وبريق السلطان .

وكم كانت الموعظة قوية وكم أثرت أثرها ليس في أمير المؤمنين فحسب بل انها عملت عملها في اخوانه من العلماء وجلسائه من الفضلاء حتى خافوا على الشافعي من غضبة أمير المؤمنين بل خافوا على أنفسهم قبل أمير المؤمنين فرجوه ان يسكت فصرخ فيهم قائلا اسكتوا أخرسكم الله لا تذهبوا بنور الحكمة ..

وهانحن مع الامام الشافعي وهو يعظ أمير المؤمنين هارون الرشيد ... وذلك حينما سأله أن يعظه فقال له الشافعي على شرط (أن تخلع رداء الكبر عن عاتقك ، وتضع تاج الهيبة عن رأسك ، وتنزع قميص التجبر عن جسدك ، وتفتش نفسك ، وتنشر سرك ، وتلقى جلباب الحياء عن وجهك ، مستكينا بين يدى ربك . وأكون واعظاً لك عن الحق ، وتكون مستمعاً بحسن القبول ، فينفعنى الله بما أقول وينفعك بما تسمع . فقال له الرشيد : أما انى قد فعلت وسمعت لله والرسول وللواعظين بعدهما ، فعظ وأوجز . فحل الشافعي عن إزاره ، وحسر عن ذراعيه ، وقال : ياأمير المؤمنين ! اعلم ان الله جل ثناؤه امتحنك بالنعم ، وابتلاك بالشكر ، ففضل النعمة أفضل لتستغرق بقليلها كثيرا من شكرك ، فكن لله شاكرا ولآلائه ذاكرا ، تستحق المزيد . واتق الله في السر والعلانية تستكمل الطاعة ، واسمع لقائل الحق وإن كان دونك تشرف عند الله ، وتزد في عين رعيتك واعلم أن الله سبحانه وتعالى يفتش سرك فان وجده بخلاف علانيتك شغلك بهم الدنيا ... واستغنى الله والله غنى حميد . وإن وجده موافقا لعلانيتك أحبك وصرف هم الدنيا عن قلبك ، وكفاك مؤونة نظرك لغيرك ، وترك لك نظرك لنفسك وكان المقوى لسياستك . ولن تطاع إلا بطاعتك لله تعالى ، فكن له طائعا تكسب بذلك السلامة في العاجل ، وحسن المنقلب في الآجل فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . واحذر الله حذر عبد علم مكان عدوه ، وغاب عنه وليه فتيقظ خوف السرى ، لاتأمن من مكر الله لتواتر نعمه عليك ، فإن ذلك مفسدة لك وذهاب لدينك وإسقاط للمهابة في الأولين والآخرين ، وعليك بكتاب الله الذي لايضل المسترشد به ، ولن تهلك ما

تمسكت به فاعتصم بالله تجده تجاهك ، وعليك بسنة رسول الله ﷺ تكن على طريقة الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ، وما نصب الخلفاء المهديون في الخراج والأراضين ، والسواد والمساكن والديارات ، فكن لهم تبعا وبه عاملا راضيا مسلما ، واحذر التلبيس فيه فانك مسؤول عن رعيتك ، وعليك (أن تعطى أولاد المهاجرين والأنصار حقهم من الفيء)[1] (وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ) الحشر ٩ ، فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم وآتهم من مال الله الذي آتاك ، ولا تكرهم على امساك عن حق ، ولا على خوض في باطل ، فانهم الذين مكنوا لك البلاد ، واستخلصوا لك العباد ونوروا لك الظلمة ، وكشفوا عنك الغمة ، ومكنوا لك في الأرض ، وعرفوك السياسة وقلدوك الرئاسة ، فنهضت بثقلها بعد ضعف ، وقويت عليها بعد فشل ، وكل ذلك يرجوه من كان أمثالهم لعفتهم طمع الزيادة لهم ، فلا تطع الخاصة تقربا إليهم بظلم العامة ، ولا تطع العامة تقربا إليهم بظلم الخاصة لتستديم السلامة وكن لله كما تحب أن يكون لك أولياؤك من العامة من السمع والطاعة ، فإنه ما ولى أحد على عشرة من المسلمين فلم يحطهم بنصيحة إلا جاء يوم القيامة ويده مغلولة إلى عنقه ، لا يفكها إلا عدله ، وأنت أعرف بنفسك .

فبكى هارون الرشيد ـــ وقد كان في خلال هذه الموعظة يبكى لايسمع له صوت ـــ فلما بلغ إلى هذا الفصل بكى الرشيد وعلا نحيبه وبكى جلساؤه فقال الوالى : ياهذا الرجل احبس لسانك عن أمير المؤمنين فقد قطعت قلبه حزنا ـــ والرشيد يبكى لايفيق ـــ فاقبل الشافعي على الجماعة فقال : اسكتوا أخرسكم الله لاتذهبوا بنور الحكمة يامعشر عبيد الرعاع وعبيد السوط والعصا ، أخذ الله لأمير المؤمنين منكم لتلبيسكم الحق عليه ، وهو يورثكم الملك لديه ، أما والله مازالت الخلافة بخيرما صدف عنها أمثالكم ، ولن تزال بشر ما اعتصمت بكم ، فرفع الرشيد رأسه وأشار إليهم أن كفوا .. ثم أقبل على الشافعي فقال : قد أمرت لك بصلة ، فرأيك في قبولها . فقال الشافعي : كلا ! والله لا يرانى الله تعالى قد سودت وجه موعظتى بقبول الجزاء عليها ، ولقد عاهدت الله عهداً أنى لا أخلط بملك من الملوك تكبر في نفسه وتصغر عند ربه ، إلا ذكرت الله تعالى لعله أن يحدث له ذكراً)[2] بتلك الدرر الغوالي قدم الشافعي هذه

---

(١) هذه الزيادة من .. البيهقي ـــ مناقب الشافعي ـــ ج١ ـــ ص١٣٦ .
(٢) الاصفهاني ـــ حلية الأولياء ـــ بتصرف ـــ ج١ ـــ ص٨٩ ـــ ٩١ .

الموعظة التي تعتبر بحق دستور الحاكم ومنهج حياة أولئك الذين ملكهم الله رقاب الناس ومكنهم من قيادهم ، وهي موعظة نفيسة أطنب فيها الامام الشافعي رحمه الله حيث يجب الاطناب فهو رجل مؤتى له يعرف متى يحسن الاطناب ومتى يجمل الايجاز فيقول (لولا أن يطول على الناس لوضعت في مسألة جزء حجج وبيان)[1] ويقول (واختصرت خوف طول الكتاب فأتيت ببعض ما فيه الكفاية دون تقصي العلم في كل أمر)[2] وليس من شك في أن الكلام يعمل عمله في النفوس ويكون تأثيره البليغ في الموعظة ، وما أنجح الواعظ المتمكن الفصيح يقول الشافعي (الفصاحة إذا استعملتها في الطاعة أشفى وأكفى في البيان وأبلغ في الاعذار . لذلك دعا موسى ربه ، فقال (وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾) طه . وقال (وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا) القصص ٣٤ لما علم أن الفصاحة أبلغ في البيان)[3] .

وتأمل هذا البيان الشافي من الشافعي يرد به على أحد المتعلمين ... (عن الربيع بن سلمان قال : قال رجل للشافعي ياأبا عبدالله ماالبلاغة ؟ قال : البلاغة أن تبلغ إلى دقيق المعاني بجليل القول . قال : فما الاطناب ؟ قال البسط اليسير في فنون الخطاب . قال : فأيما عندك أحسن الايجاز أم الاسهاب ؟ قال لكل من المعنيين منزلة الايجاز عند التفهم ومنزلة الاسهاب عند الموعظة ، ألا ترى أنه الله تعالى إذا احتج في كتابه كيف يوجز ، وإذا وعظ كيف يطنب في مثل قوله محتجا (لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ) الانبياء ٢٢ وإذا جاءت الموعظة جاء بأخبار الأولين وضرب الأمثال بالسلف الماضين)[4] .

(١) البيهقي ــ مناقب الشافعي ــ ج١ ــ ص١٧٨ .
(٢) الرسالة ــ ص٤٣١ .
(٣) أحكام القرآن ــ ج٢ ــ ص١٧٩ .
(٤) الفقيه البغدادي ــ الفقيه والمتفقه ــ ج٢ ــ ص٣٤ ، ص٣٥ .

وصيـــة الشـــافعـــي للخطيـــب

ولقد رسم الشافعي رحمه الله صورة صادقة لأدب الخطبة وما يجب أن يكون عليه الخطيب أثناء الخطبة ومايكره من الكلام والحركات فقال في كتاب الأم في آداب الخطبة (وإن لم يعتمد على عصا أحببت أن يسكن جسده ويديه إما بأن يضع اليمنى على اليسرى وإما أن يقرهما في موضعهما ساكنتين ويقل التلفت ويقبل بوجهه قصد وجهه ولا أحب أن يلتفت يمينا ولا شمالا ليسمع الناس خطبته لانه ان كان لا يسمع أحد الشقين إذا قصد بوجهه تلقاءه فهو لا يلتفت ناحية يسمع أهلها إلا خفى كلامه على الناحية التي تخالفها مع سوء الأدب في التلفت . وأحب أن يرفع صوته حتى يسمع أقصى من حضره إن قدر على ذلك وأحب أن يكون كلامه كلاما مسترسلا مبينا معربا بغير الاعراب الذي يشبه العى وغير التمطيط وتقطيع الكلام ومده وما يستنكر منه ولا العجلة فيه عن الافهام ولا ترك الافصاح بالقصد وأحب أن يكون كلامه قصداً بليغاً جامعاً)[1] وعلى الخطيب ، وعلى كل من يريد أن يتكلم في أمر هام أن يصدر كلامه ويستهل حديثه بالثناء والحمد لله رب العالمين يقول الشافعي :

(وأحب أن يقدم بين يدي خطبته وكل أمر طلبه سوى الخطبة حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله عليه الصلاة والسلام والوصية بتقوى الله)[2] والإمام الشافعي كمرب ناجح وإمام ناصح يضع بين يدي الخطيب الخطبة النموذجية التي يجب أن يسير على هديها ويجتهد في تطبيقها فيقول تحت عنوان (كيف استحب أن تكون الخطبة ؟) في كتابه الأم ... (عن ابن عباس أن النبي ﷺ خطب يوما فقال إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونستهديه ونستنصره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد غوى حتى يفيىء إلى أمر الله ...

ان النبي ﷺ خطب يوما فقال في خطبته ألا إن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر

---

(١) الأم — ج١ — ص٢٠٠ .
(٢) المزني — مختصر الأم — ص١٦٧ .

والفاجر ألا وان الآخرة أجل صادق يقضى فيها ملك قادر ، ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة ألا وأن الشر كله بحذافيره في النار ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر واعلموا أنكم معرضون على أعمالكم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)[1] لقد (كان الشافعي رحمه الله قوى الجنان وطيد الايمان بارعا في الخطابة حتى لقبه ابن راهويه خطيب العلماء)[2] (وكان خطيبا أى خطيب ، اذا أخذ في التفسير كأنه شاهد التنزيل كما يقول تلميذه يونس . قال تلميذه المزنى كان إذا تكلم كأن صوته صنج أو جرس من حسن صوته)[3] كما (كان خطيبا مؤثرا ومجادلا لايقارع)[4] ومثل تلك الصفات حين تجتمع في رجل كالامام الشافعي تعطى الموعظة بعدا قويا وشأنا كبيرا .

(١) الشافعي ــ الأم ــ ج١ ص٢٠٢ .
(٢) د. الشرباصى ــ الأئمة الاربعة ــ ص١٥٢ .
(٣) عبدالحليم الجندي ــ الامام الشافعي ــ ص١٨٢ .
(٤) د. فيليب حتى ــ صانعوا التاريخ ــ ص٢٤٩ .

رابعا : النصيحـــــــة

النصيحة من أعظم الوسائل المهمة في التربية ومن أنجح أساليب التعليم والتهذيب وهي من ناحية استخدامها في تربية الأجيال أكثر شيوعا وأوسع انتشاراً وأصل نصح الشيء أي نظفه وأزال ما فيه من وسخ ونصح العسل أي صفاه مما علق فيه من شوائب وكذلك النصيحة .

انها السبيل إلى ازالة الاعوجاج في القصد وإلى تنقية الخلل في العقيدة أو الأخلاق والعمل . ولقد جاءت النصيحة كثيراً على ألسنة المرسلين وسجلها القرآن كاسلوب لتربية أممهم وتأديب أقوامهم . يحكى الله على لسان نوح عليه السلام (أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾) الاعراف وعلى لسان هود عليه السلام (أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾) الاعراف ٦٨ وعلى لسان صالح عليه السلام (وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ الاعراف ٧٩ وعلى لسان شعيب عليه السلام (فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾) الاعراف وغير هذه الآيات كثير وكثير في القرآن الكريم .

والنصيحة تعليم وتوصية يغلب على اسلوبها الاقناع بالحجة والمخاطبة بالحكمة بخلاف الموعظة فانما يغلب على اسلوبها تحريك العاطفة وإلهاب الوجدان بفيض من الزجر والتخويف بالترغيب والترهيب ، مما يهز الانسان ويزلزل الكيان ويبعث على الخوف والبكاء ويؤيد هذا الامام الشافعي حيث يقول (الموعظة للعوام ، والنصيحة للاخوان والتذكرة للخواص منهم ، فرض افترضه الله على عقلاء المؤمنين ولولا ذلك لبطلت السنة وتعطلت الفرائض)[1] يقول الشافعي في النصيحة (الناس في غفلة من هذه السورة)[2] (وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾) العصر .

---

(١) البيهقي ــ مناقب الشافعي ــ ج٢ ص١٤٨ .
(٢) النووي ــ تهذيب الاسماء ــ ج١ ص ٥٤ .

يقول الشهيد سيد قطب (فمن لفظ التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة ــ أو الجماعة ــ المتضامة المتضامنة . الأمة الخيرة .. الواعية القيمة في الأرض على الحق والعدل والخير ... وهي أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة ... وهكذا يريد الاسلام أمة الاسلام .. هكذا يريدها أمة خيرة قائمة على حراسة الحق والخير ، متواصية بالحق والصبر في مودة وتآخ تنضح بها كلمة التواصي في القرآن . والتواصي بالحق ضرورة . فالنهوض بالحق عسير ، والمعوقات عن الحق كثيرة : هوى النفس ، ومنطق المصلحة وتصورات البيئة ، وطغيان الطغاة ، وظلم الظلمة وجور الجائرين ... والتواصي تذكير وتشجيع واشعار بالقربى في الهدف والغاية ، والأخوة في العبء والأمانة .. والتواصي بالصبر كذلك ضرورة . فالقيام على الايمان والعمل الصالح وحراسة الحق ، والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة . ولابد من الصبر على جهاد النفس وجهاد الغير . والصبر على الأذي والمشقة . والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر . والصبر على طول الطريق وبطيء المراحل ، وانطماس المعالم ، وبعد النهاية ... كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة (العصر) ثم يسلم أحدهما على الآخر .. لقد كانا يتعاهدان على هذا الدستور الالهي ، يتعاهدان على الايمان والصلاح ، ويتعاهدان على التواصي بالحق والتواصي بالصبر . ويتعاهدان على انهما حارسان لهذا الدستور ويتعاهدان على أنهما من هذه الأمة القائمة على هذا الدستور)[1] .

لقد كان السابقون رضوان الله عليهم يعتبرون النصيحة هدية من الناصح يسرون بها ورضي الله عن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إذ يقول « رحم الله امرءا اهدى إلينا مساوينا » . وفي منثور الحكم « ودك من نصحك وقلاك من مشي في هواك ». والنصيحة جماع الدين كله لقوله ﷺ (الدين النصيحة)[2] .

وفي سنن ابي داود كتاب الأدب عن النبي ﷺ انه قال (المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه) .

ويرى الشافعي ان النصيحة للمسلمين فريضة فيقول (والنصيحة لهم فرض لا ينبغي

---

(١) في ظلال القرآن ــ ص٣٩٦٨ وص٣٩٧١ بتصرف .
(٢) ص.ج.ص ــ ج١/ ٣٤٧ .

تركه)[1] (والنصيحة : لغة : الاخلاص والتصفية ، وشرعا : اخلاص الرأي من الغش للمنصوح وايثار مصلحته)[2] .

والنصح في الحقيقة (أصله من أعمال القلوب ، وفروعه من أعمال الجوارح ... فربما أجرى بالقلب ، ولربما لم يجر باللسان ، وربما لم يجر الا بالقلب واللسان والجوارح)[3] وبين النصيحة والفضيحة او بين النصيحة والتشهير خيط رفيع قد يعزب عن الكثير (فانها يشتركان في أن كل منهما ذكر الانسان بما يكره)[3] ويختلفان في نتائجهما وآثار كل منهما (والفرق بين النصيحة والتأنيب ان النصيحة إحسان الى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعليه فهو احسان محض يصدر عن رحمة ورقة ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والاحسان الى خلقه فيتلطف في بذلها غاية التلطف يحتمل اذى المنصوح ولائمته ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق للمريض المشبع مرضا وهو يحتمل خلقه وشراسته ونفرته ، ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن فهذا شأن الناصح . أما المؤنب فهو رجل قصده التعيير والاهانة وذم من أنبه وشتمه في صورة النصح فهو يقول له : يافاعل كذا وكذا يامستحقا للذم والاهانة في صورة ناصح مشفق ، وعلامة هذا أنه لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل هذا أو شر منه لم يعرض له ولم يقل له شيئا ، ويطلب له وجوه المعاذير فإن غلب قال : وأني ضمنت له العصمة ؟ والانسان عرضة للخطأ ومحاسنه أكثر من مساويه والله غفور رحيم ، فيا عجبا كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه ؟! وكيف كان حظ ذلك منك التأنيب في صورة النصح وحظ هذا منك رجاء العفو وطلب وجوه المعاذير ؟!

ومن الفروق بين الناصح والمؤنب ان الناصح لا يعاديك !! إذا لم تقبل نصيحته وقال قد وقع أجري على الله قبلت أم لم تقبل ويدعو لك بظهر الغيب ولا يذكر عيوبك ولا يبينها في الناس والمؤنب ضد ذلك)[5] ومن ثم كانت الخطورة في عدم دقة استخدام النصيحة كسلاح في الاصلاح ، فإن نصيحة الطلاب وارشادهم عمل لابد منه في

---

(١) الرسالة ص٥٠ .
(٢) شرح الأربعين النووية ــ د. مصطفى البغا ــ محيي الدين مستو ص٣٥ .
(٣) المحاسبي ــ آداب النفوس ــ ص١٣٥١ .
(٤) ابن رجب الحنبلي ــ الفرق بين النصيحة والتعيير ــ ص٧ .
(٥) ابن القيم ــ الروح ــ ص ٣٤٧ ــ ٣٤٧

العملية التربوية وتوجيه التلاميذ الى ما يجب أن يعملوا .. انها فن دقيق يجب على المربي الالمام به بعمق ووعي ويحتاج منه الى لباقة ومقدرة في توصيل تلك النصيحة حتى لا يكون مردودها عكسيا ونتيجتها سلبية .

يقول الامام الشافعي في آداب النصح :

تعمدني بنصحك في انفرادي وجنبني النصيحة في الجماعة
فان النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه
وان خالفتني وعصيت قولي فلا تجزع إذا لم تعط طاعة[٥٦]

ان الشافعي يوجب على كل مرب أو معلم أو أب .. أن يراعي الجانب النفسي والاجتماعي للمنصوح وألا يمس مشاعره وأحاسيسه بما ينفره ويؤنبه فيقدم له تلك الحكمة الموجزة ويقول (من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه)[١]

وعن مسعر قال (رحم الله من أهدى الي عيوبي في سر بيني وبينه ، فان النصيحة في الملأ تقريع) .

ان القاعدة التربوية العظيمة حصيلة التجربة الواسعة وهي تقول (لتكن نصيحتك أخيك تلميحا لا توضيحا ، تصحيحا لا تجريحا)[٢]

يقول ابن حزم (الاتساء بالنبي ﷺ في وعظ أهل الجهل والمعاصي والرذائل واجب فمن وعظ بالجفاء والاكفهرار فقد أخطأ ، وتعدى طريقته ﷺ وصار في أكثر الأمر مغريا للموعوظ بالتمادي على أمره لجاجاً وحرداً ومغايظة للواعظ الجافي فيكون في وعظه مسيئا لا محسنا ، ومن وعظ ببشر وتبسم ولين وكانه مشير برأي ومخبر عن خير بما يستفتح من الموعوظ ، فذلك أبلغ وأنجع في الموعظة . فان لم يتقبل فلينتقل الى الموعظة بالتحشيم وفي الخلاء ، فإن لم يقبل ففي حضرة من يستحي منه الموعوظ ، فهذا أدب الله في أمره بالقول باللين . وكان ﷺ لا يواجه لكن كان يقول : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ، وقد أثنى عليه الصلاة والسلام على الرفق ، وأمر بالتيسير ، ونهى عن التنفير ، وكان يتخول بالموعظة خوف الملل)[٣]

إن اول درس وعاه الامام الشافعي في أدب النصح كان على يد استاذه الامام مالك ،

---

(١) الغزالي ــ الاحياء ــ ج٢ ص١٨٠ .
(٢) السيمي ــ الطريق الى القلوب ــ ص٩٩
(٣) الاخلاق والسير ــ ص٦٤ ــ ص٦٣ .

وها هو يصف تجربته معه عندما ذهب لدرسه أول مرة فيقول : (فلما رأيته هبته مهابة عظيمة وجلست حيث انتهى بي المجلس فأخذت عودا من الأرض فجعلت كلما أملى مالك حديثا كتبته بريقي على يدي والامام مالك رضي الله عنه ينظر الي من حيث لا أعلم حتى انقضى المجلس وانتظرني مالك أن أنصرف فلم يرني انصرفت فأشار الي فدنوت منه ..)[1] وفي عزلة من التلاميذ وبعد انصرافهم أخذ مالك يلوم تلميذه الشافعي على ما كان يصنع وأوضح الشافعي لمالك أنه إنما فعل ذلك ليحفظ ما أملاه الاستاذ مخافة أن يضيع منه .

ومن تلك اللحظة فطن الشافعي الى أن هذا هو الاسلوب الأمثل والمسلك اللائق في توجيه النصح والتأديب والتهذيب فسار عليه حتى غلب على كتب الشافعي هذا الوصف الذي عرفت به .

لقد عرفت بأنها كتب نصح وارشاد . ففي تقريظ عبدالرحمن المهدي لكتاب الرسالة للامام الشافعي (لما نظرت في الرسالة للشافعي أذهلتنى ، لأنني رأيت كلام رجل عاقل فصيح ناصح)[2] .

من مدرسة الناصح الأمين معلم البشرية نهل الشافعي فكان بحق نعم التلميذ لهذه المدرسة حيث تربع على قلوب علماء عصره وبهرهم ومن جاء بعدهم حتى يوم الناس هذا . ولا عجب فله ولكل العلماء والآباء والمربين في محمد بن عبدالله ﷺ معلم البشرية الرحمة المهداة والنعمة المسداة أسوة حسنة . فلقد كان عليه السلام اذا نصح عَمَّمَ يقول : « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ... إني وجدت فلانا .. (بذلك الاسلوب المحبب في الخير المرغب في التأسى والاتباع أحبه أصحابه رضي الله عنهم حبا ملك عليهم القلوب فتأسوا به وساروا في النصيحة على هداه . يقول العلامة الشيخ محمد متولى الشعراوى (لنتأمل حديث رسول الله ﷺ الذي يقول مابال أحدكم يفعل كذا وكذا) ولنجد أنه لم يواجه الفاعل بفعله حتى لايحرجه .. وحين لايحرجه ، أو يخجله يكون حريصا على كرامته في المجتمع ، ويكفي ان يعلم نفسه أنه قصر لكى لايعلم غيره أنه هو الذي قصر .. وبعد ذلك يأتى الرسول ﷺ بالمنهج الاساسي في التربية وهو أن يحسن المربى كيف يأخذ المربى من أقصر الطرق إلى موقع الحق في أي قضية من القضايا .. وهذه القضايا قد تكون صعبة للعقل فيها وقفة .. ولكن لباقة المربى وحسن استعداده ، واتساع ثقافته تجعل من هذه كلها

(١) ابن حجة الحموي ــ ثمرات الأوراق ــ ج١ ص٢٣٧ .
(٢) الرسالة ــ ص١ .

أدوات تعينه على أن يصل بالمربى إلى الحقيقة التي يريدها من أيسر الطرق إلى الفهم وبأقل وسيلة للاقناع .. ذلكم هو الاسلوب الأمثل في التوجيه الكريم الذى علمنا خلاله ﷺ كيف تكون الكلمة الطيبة وماهو سحرها إنه المدخل الحقيقي لقلب وفطرة الانسان السوى .. أجل .. كلمة طيبة ومنطق قويم[1]) عن عائشة رضي الله عنها ، قالت كان النبي ﷺ (إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل : ما بال فلان يقول كذا ولكن يقول مابال أقوام يقولون كذا وكذا ....)[2] وكان الامام الشافعي يترفع عن الهمز واللمز ويتحرج من ذكر الأسماء فلا يعَين أحدا حين ينصح (ومن ذلك قوله الذي يتردد في كتبه خالفنا بعض الناس وغيره من أساليب اغفال الاسماء)[3] يقول دايل كارنيغى (إذا أردت أن تغير الناس من دون التسبب بالازدراء واثارة الاستياء ، إليك بهذه القاعدة : أشر إلى أخطاء الناس بشكل غير مباشر)[4] .

مجموع هذه الاساليب تعتبر من (أرفع أساليب التربية)[5] إذ هي تستخدم اسلوب النصح بالكلمة الطيبة وبطريقة تأنس لها النفوس وتستريح لها الأفئدة . فتهذب السلوك دون تجريح .

لقد كانت النصيحة ديدن الشافعي يسديها لمن حوله على كل حال في الدرس في المسجد في الطريق في الكتابة والتأليف ... يقول عمر بن نباته (فقعدت على الشط أتوضأ للصلاة إذ مرّ بى رجل فقال لي ياغلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك في الدنيا والآخرة .. فسألت من هذا فقالوا الشافعي)[6] وهكذا تكون الموعظة والنصيحة فمن يسمع ناصحاً يدعو له باحسان الله له في الدنيا والآخرة ثم لاينتصح ؟! إنه الأدب الرفيع الذي يبعث الانسان على الامتثال ويحبب إليه طاعة الناصح .

عن محمد بن ادريس الشافعي قال (رآنى أبى ـــ محمد بن ادريس ـــ وأنا أعجل في بعض الامر ، فقال : يابنى رفقا رفقا ، فان العجلة تنقص الأعمال ، وبالرفق تدرك الآمال)[7] وإذا توفر للناصح من أدب النصح ما تتغلغل به النصيحة في نفس المنصوح ثم

---

(١) الفتاوى ـــ ص٥٠١ ـــ ص٥٠٢ .
(٢) سنن ابى داود كتاب الادب .
(٣) عبدالحليم الجندي ـــ الامام الشافعي ص١٨٥ .
(٤) كيف نتعامل مع الناس ـــ ص١٧٦ .
(٥) د. مصطفي السباعي ـــ اخلاقنا الاجتماعية ـــ ص٦٢ .
(٦) الغزالي ـــ الاحياء علوم الدين ـــ ج١ ص٦٢ .
(٧) البيهقي ـــ مناقب الشافعي ـــ ج٢ ص١٨٩ .

وجد بعد ذلك نفوراً أو إعراضا وأن الأمر لم يستقم له كما كان متوقعاً فان الخلل حينئذ والعلة في جهاز الاستقبال عند من لم يقبل النصيحة ! يقول الامام الشافعي ما نصحت أحدا فقبل منى إلاهبته واعتقدت مودته ، ولا رد أحد على النصح إلا سقط من عينى ورفضته وهنا يصبح الاعراض عن الاصلاح إصلاح يقول الشافعي :

والصمت عن جاهل أو احمق شرف وفيه ايضا لصون العرض اصلاح(٣٣)

وهذا ما وصل إليه الغزالي حيث يقول (فان لم ينفع النصح وكان في الاعراض عنه تقبيح لبدعته في عينه تأكد الاستحباب في الاعراض)(١) .

وليحذر المربى والمعلم حين يسدى النصيحة أن يظهر بمظهر من يتتبع العورات أو ينقب عن الزلات فان هذا مرض عضال وداء قتال ، فقط عليه ان يعالج الاخطاء الظاهرة والتي هي بحاجة الى التصويب .

يقول الرسول ﷺ (اقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم ، إلا الحدود)(٢) ويقول ﷺ (إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أوكدت تفسدهم)(٣) والامام الشافعي يحذر من هذا فيقول :

المرء ان كان عاقلا ورعا أشغله عن عيوب غيره ورعه
كما العليل السقيم أشغله عن وجع الناس كلهم وجعه(٥٦)

ويقول :

ولا تأخذ بعثرة كل قوم ولكن قل هلم إلى الطريق
فإن تأخذ بعثرتهم يقلوا وتبقى في الزمان بلاصديق(٤)

ويقول :

واقلل عتابا فما فيه من يعاتب حين يحق العتاب(٥)

(١) الغزالي ــ احياء علوم الدين ــ ج٢ ص١٦٧ .
(٢) (٣) ص.ج.صح١ ١١٨٥ ــ ٢٢٩٥ .
(٤) حكمت صالح ــ دراسة فنية في شعر الشافعي ــ ص٢٦٩ .
(٥) ديوان الامام الشافعي ــ نعيم زرزور ــ ص٣٠ .

خامسا : المناظـــرة

تتميز آراء الشافعي في المناظرة بأنها حصيلة واقع وثمرة معايشة للامام مع تلاميذه في حلقات العلم فهو رحمه الله لا يعتمد على الكتب وحدها في مدارسة العلم ، ولكنه يتخذ من المناظرة طريقا لشحذ الهمم وإثارة الروح العلمية وتهيئة الجو العلمي النابض بالحركة الموارة بالحياة المتجددة الباعث على البحث ، وليس كالمناظرة من وسيلة تربوية علمية تصطرع فيها الأفكار وتتلاقى فيها روح التجديد والابتكار ويبذل كل مناظر غاية جهده لاثبات فكره والتدليل على رأيه وفي هذا إثراء للحركة العلمية ودعم للنشاط الفكري وإثارة لروح التنافس المحمود في ميدان يشرف بكل باحث ويتسع لكل طالب ، فتتقلب المعاني على وجوهها وتنضج الأفكار بترديدها .

ومن أجدر من الشافعي أن يلج هذا الميدان ويسبق في هذا المضمار وهو الفارس المغوار الذي لا يشق له غبار ؟ في عصر كان سمته العامة المناظرة وكانت مدارس التعليم في كل حلقاتها وعلى تنوع علومها تعتمد مثل هذه الطريقة ليتفاعل فيها ويبرز في محرابها الجميع من مدرس وطالب وعالم وراغب . تارة يخطيء وأخرى يصيب وفي كلا الأمرين يكسب العلم جهدا كبيرا ويحصل الطالب علما وفيرا وبصرا عظيما وفهما سليما هذا مع ما تنمي المناظرة في الطالب من مهارات علمية وما تربي فيه من القدرة على المواجهة والمجابهة والاستعداد الطيب على التفكير والتعبير وما تمنحه من الثقة في النفس في المناقشة والرد مما يصقل عنده القدرة على تأييد رأيه بالحجة القوية والدليل الصادق .

والحق أن حلقات العلم لم تصل إلى هذا المستوى الضحل من تردي في الفكر وضعف في تحصيل العلم إلا عندما حرمت من المناظرة وأصبح المدرس جهاز ارسال لا يستقبل ويتحدث بلا توقف ويخرج من الفصل دون أن يسمع فيه صوتا غير صوته .

من المسلم به أن المناظرة تقوم على الجدل في أمر من الأمور أو قضية من القضايا بين شخصين يسمى أحدهما في علم المناظرة السائل ويسمى الآخر المجيب ، ونظرا للحساسية المرهفة التي تصاحب ذلك النشاط الفكري والتي ربما أوقعت أحد الطرفين فيما لا تحمد عقباه شهوة في الغلبة وغضبا من النتيجة المترتبة وحب كل منهما للانتصار لرأيه أو إفحام خصمه فإن من المهم جدا حينئذ ان نسمع رأي الدستور التربوي العظيم القرآن الكريم في المناظرة ، يتحدث به الدكتور المطعني (ينظر القرآن الحكيم الى الجدل

بحذر شديد في مواضع . وفي مواضع أخرى يذكره على أنه منهج عقيم لم يصدر عن حق ، ولا يؤدي الى الخير . وفي مواضع يأمر به كضرورة لها ما يقتضيها ، ولكن هذا الأمر مشروط بأن يكون الجدل مهذبا رقيقا خاليا مما يدعو الى اثارة الأحقاد والفتن . فالجدل مثل المضادات الحيوية قد يحتاج اليه كضرورة من ضرورات العلاج ، ولكن مع اعطاء الجسم بعض « المقويات » التي تقيه خطر المضاد ، وتحفظ له حيويته اللازمة . وبذلك يتحقق الشفاء وتزول العلة) (١).

ولا شك أن الجدل الهادف الى طلب الحق والباعث على تمحيص الآراء بتجرد واخلاص يدخل في دائرة المأمور به شرعا لقوله عزوجل (وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) النحل١٢٥ (والمذاكرة والمناظرة في الحق محمودة وقد كان السلف رضوان الله عليهم يعيشون الساعات في المناظرة ولا يشعرون ، لذلك قال علي بن الحسن بن شقيق : « قمت مع ابن المبارك ــ ليلة باردة ليخرج من المسجد فذاكرني عند الباب بحديث فذاكرته فما زال يذاكرني حتى جاء المؤذن وأذن الفجر)(٢) .

أما الجدل العقيم الذي يهدف الى إظهار الخصم بالعى وظهور صاحبه بالغلبة حبا في الظهور وطلبا في الشهرة فذلك هو المراء المنهي عنه شرعا وفيه يقول صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الطبراني روى عن عدد من الصحابة قالوا خرج علينا رسول الله ﷺ يوما ونحن نتارى في شيء من أمر الدين فغضب غضبا شديدا ثم انتهرنا فقال : « مهلا ياأمة محمد إنما هلك من كان قبلكم بهذا ذروا المراء لقلة خيره ذروا المراء فكفى إثما ان لا تزال مماريا ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة ، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة رياضها ووسطها واعلاها لمن ترك المراء وهو صادق ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان المراء » .

ولقد اتسعت دائرة الجدل والمناظرة في عصرنا هذا فأصبحت تقام بين العلماء في كل مجالات العلم وانتشرت فأصبحت تقام بين علماء الاديان المختلفة وهذا من شأنه ان يعطي اوسع الفرص لاتاحة عرض الفكر الديني ويثري هذه المعارف التي لا يتيسر لكثير من الشعوب الاطلاع عليها ، ويبين أصالة وقوة بعض هذه القيم وزيف وضلال البعض الاخر حتى يصبح المجتمع البشري على بصيرة من أمره ثم هو من قبل ذلك ومن بعده

---

(١) الوصايا العشر للامام الشهيد حسن النبا . عرض وشرح د. عبدالعظيم ابراهيم مطعني ص٨٣ .

(٢) جاسم محمد مهلهل الياسين ــ العلم بين يدي العالم والمتعلم ــ ص٣٩ .

يمثل معجزة سماوية تطبق في عصرنا هذا هي وعد الله بتوالي حفظ الاسلام وتتابع حمله وابلاغه للناس مصداقا لقوله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾) الحجر .

وما أرحب صدر الاسلام حين يعتبر اقامة البرهان ومقارعة الحجة بالحجة من صميم مبادئه فيعلنها صراحة (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) البقرة١١١ وفي ميدان المناظرة يبرز الامام الشافعي ليكون فارسها المغوار وفيصلها البتار يخوض غمارها بثبات ويلج غبارها بصدق وقوة . بيد أن هدفه الذي يعتز به هو ظهور الحق ولو على يد غيره والوصول الى العدل والصدق ولو من معين سواه . قوي العارضة صلب العود ناصع الحجة فصيح البيان (وكان هارون بن سعيد يصور اقتدار الشافعي على كسب الظفر حين يناظر العلماء فيقول لو أن الشافعي ناظر على هذا العمود الذي من خشب لغلب لاقتداره على المناظرة . وقال محمد بن عبد الحكم ما رأيت الشافعي ناظر احدا الا رحمته ، ولو رأيت الشافعي يناظر لظننت أنه سبع يأكلك ، وهو الذي علم الناس الحجج . وقال الربيع : لو ناظر الشافعي الشيطان قطعه وجدله)[1] .

وليس أدل على ثبوت قوته ورسوخ قدمه في هذا الميدان من أن المناظرة كانت سببا في نجاته وانقاذ حياته من هلاك محقق حين جيء به من اليمن إثر وشاية المغرضين وسعاية الغلاة الحاقدين .. يقول العلامة ابن كثير (أنه ولي الحكم بنجران من أرض اليمن ثم تعصبوا عليه ووشوا به الى هارون الرشيد أنه يروم الخلافة فحمل على بغل في قيد الى بغداد فدخلها في سنة اربع وثمانين ومائة وعمره ثلاثون سنة فاجتمع بالرشيد ..)[2] .

وأظهر الشافعي الحجة الواضحة وكشف الأدلة الدامغة على براءته مما نسب إليه حتى أعجب هارون الرشيد بعلمه وذكائه وفصاحته وقوة حجته .

لقد كانت المناظرة سبب شهرته وبزوغ فجره وشيوع ذكره حيث (عرف الشافعي بالذكاء والحرص وفصاحة اللسان وقوة الحجة كما كان يتحلى بالخلق في الحوار والمناظرة وكان كثير المناظرات وجميع مناظراته تعلم الفقه والمنطق وأدب الحوار)[3]

وكانت المناظرات من الوسائل التي بلورت افكار الشافعي وأثرت علمه فعلم الأصول ــ اصول الفقه ــ الذي كان الشافعي بحق رائده الأول أرسى قواعده ووضع أركانه وصاغ قضاياه الكلية وتفريعاته الجزئية .. إنما ظهر (من معالجته لفقه المذاهب

(١) عبدالغني الدقر ــ الامام الشافعي ــ ص٢٣٧ بتصرف .
(٢) ابن كثير ــ البداية والنهاية ــ ج١ ص١٥٣ .
(٣) بطرس البستاني ــ ادباء العرب ــ ص١٨٢ .

المقارنة وتحقيقه الفروق الدقيقة في مسائله وكثرة مناظراته فيه)[1] .

لقد ناظر الشافعي اصحاب أبي حنيفة كما ناظر استاذه مالك وتلاميذه ، وكان له مع تلاميذه مساجلات مستمرة من المناظرة وخاصة تلميذه الورع أحمد بن حنبل وغيرهم وغيرهم كثير ، لقد كان الامام الشافعي لوفرة علمه وسعة نشاطه جامعة أصولية فقهية جعلت من المجتمع المسلم خلية نحل دائب الحركة في العلم والاستنباط . (وإن كثرة مناظرات الشافعي مع المخالفين له ، من شأنها أن تجعله ينظر الى آرائه دائما نظرة فاحصة ، فإن المناظر يريه عيوبها ، ويطلعه على مواضع النقص فيها أو يحمله على أن يزنها قبل أن يتورط في الجدل والمحاماة عليها ، وأن خشية سقوط القول تريه عيوب قوله ، فيدحضها ، وذلك يجعله فاحصا لآرائه دائما ، واخلاصه في طلب الحق يحمله على التغيير إن أوجبه الفحص)[2] وحسب الشافعي في هذا قول استاذه مالك رحمه الله (إذا عرض لك أمر فاتئد ، وعاير على نظرك بنظر غيرك ، فإن العيار يذهب عيب الرأي . كما تذهب النار عيب الذهب)[3] .

لقد ظل الشافعي رحمه الله فارس الحلبة في المناظرة حتى قيل أنه مات إثر مناظراته مع فتيان أوسعوه ضربا فمات متأثرا بتلك الضربات ، وإن كان المرجح أنه مات بسبب الدم المتدفق من البواسير التي لازمته في آخر حياته ، أو بهما معا وهو اقوى .

وصدق الشاعر :

والعلم بالفهم وبالمذاكرة والدرس والفكر وبالمناظرة[4]

(قيل للشافعي أخبرنا عن العقل يولد به المرء ؟ فقال : لا ! ولكنه يلقح من مجالسة الرجال ومناظرة الناس)[1] .

يضع الشافعي رحمه الله أهم الشروط التي يجب أن تتوافر في المناظرة والتي ينبغي على المناظر مراعاتها حتى تؤتي المناظرة ثمارها وتحقق أهدافها وتكون بحق طريقا تربويا ناجحا لتحصيل العلم واكتساب المعرفة فيقول :

إذا ما كنت ذا فضل وعلم بما اختلف الأوائل والأواخر
فناظر من تناظر في سكون حليما لا تلح ولا تكابر

---

(١) د. مختار القاضي ــ أثر المدنية الاسلامية في الحضارة الغربية ــ ص٢٦ .
(٢) محمد ابو زهرة ــ الامام الشافعي ــ ص١٨٣ .
(٣) د. أحمد الشرباصي ــ الأئمة الأربعة ــ ص٩٧ .
(٤) القرطبي ــ جامع بيان العلم ــ ص٢٣٢ .
(٥) الأصفهاني ــ حلية الأولياء ــ ج١ ص١٢١ .

يفـــدك من استفـــــاد بلا امتنـــــان من النـــكت اللطيفـــة والنـــوادر
وإيـــاك اللجـــوج ومـــن يرائي بأني قد غلـــبت ومـــن يفاخـــر
فإن الشر في جنبـــــات هذا يمنـــى بالتقاطـــع والتدابـــر(٤٥)

ان من شروط المناظرة الصادقة ان تقام في جو من الهدوء دون تشاجر وتناحر أو حماس زائد أو تصرف مقيت أو إنفعال مدمر أو تطاول وتهجم سافر ، كما ينبغي ان يكون المناظر سهلا هينا لينا في غير مذمة .

(قال أبو عثمان محمد بن الشافعي ما سمعت أبي يناظر أحدا قط فرفع صوته)(١) . ويقول الذهبي (وعلى كل تقدير إحذر المراء في البحث وإن كنت محقا ولا تنازع في مسألة أنت لا تعتقدها)(٢) .

نعم إن المراء آفة المناظرة إنه اعتداء على الحق وغمط له وتكبر عليه ، يقول الشافعي (المراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغائن) . فلا يسلم المرائي في شخصه أو محيطه من أضرار المراء .. وقال الشافعي أيضا (إن المناظرة تنكت في القلب)(٣) ويقول (ما ناظرت أحدا الا على النصيحة)(٤) ويقول ابو بكر الآجري مادحا لهذه الخصلة في المناظر إذ أنها من صفات المناظر العاقل (من صفات العالم العاقل المناصحة في مناظرته)(٥) .

ويوجز ابن قدامة رأي الغزالي في هذا الصدد (اعلم أن المناظرة الموضوعة بقصد الغلبة والمباهاة منبع الأخلاق المذمومة ولا يسلم صاحبها من كبر لاحتقار المقصرين عنه ، وعجب نفسه لارتفاعه على كثير من نظرائه ولايسلم من الرياء ، لأن جل مقصود المناظر اليوم علم الناس بغلبته ، واطلاق ألسنتهم بشكره ومدحه ، فهو يذهب عمره في العلوم التي تعين على المناظرة مما لاينفع في الآخرة ، كحسن اللفظ ، وحفظ النوادر)(٦) إن المجادلة المجدية والمناظرة بالحسنى (بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح . حتى يطمئن الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل ، ولكن الاقناع والوصول إلى الحق . فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها ، وهي لا تنزل

---

(١) النووي ــ تهذيب الأسماء ــ ج١ ص٦٦ .
(٢) ذم العلم ــ ص٣٨ .
(٣) البيهقي ــ مناقب الشافعي ــ ج١ ص٢٠٠ .
(٤) الذهبي ــ سير أعلام النبلاء ــ ج١ ص٢٩ .
(٥) اخلاق العلماء ص٤٤ .
(٦) مختصر منهاج القاصدين ــ ص٢١

الرأى الذي تدافع عنه إلا بالرفق ، حتى لاتشعر بالهزيمة . وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأى وقيمتها عند الناس ، فتعتبر التنازل عن الرأى تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها . والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة ويشعر المجادل أن ذاته مصونة ، وقيمته كريمة ، وأن الداعي لايقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء إليها في سبيل الله لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأى الآخر)[1] قال الحسن الكرابيسي قال الشافعي رضي الله عنه (ماكلمت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان وتكون عليه رعاية من الله وحفظ ، وماكلمت أحداً قط إلا ولم أبال بيَّن الله الحق على لساني أو لسانه)[2] ولقد مرت بنا مناظرة الامام الشافعي لتلميذه يونس الصدفي وشهادة يونس لاستاذه أنه ما رأى أعقل منه حيث لقيه فقال له ياأبا موسى الا يستقيم أن نكون اخوانا وإن لم نتفق في مسألة ، وتعليق الامام الذهبي عليها بأنها دليل على كمال عقل الشافعي وفقه نفسه . وكان الشافعي يمهد للمناظرة بإشاعة جو من المودة والمحبة والألفة ، ويأتي بما يلين القلوب ويزيل ما يرين عليها من الحقد بمزيد من الترحيب والحفاوة لمن يناظرهم يقول رحمه الله مصورا بدء إحدى مناظراته : (فلما سلما علي قمت إليهما وأظهرت البشاشة لهما وجلست بين أيديهما ..)[3] .

وهذا الاسلوب غاية في تهيئة النفوس لتلقي العلم وحسن الانتفاع بالمناظرة ، يوضح العلامة دايل كارنيغي ذلك في اسلوب تصويري جميل فيقول (إن قطرة عسل تجذب ذبابا أكثر من غالون علقم . والأمر كذلك بالنسبة للناس . فإن أردت أن تجذب الشخص الاخر الى وجهة نظرك ، اقنعه أولا أنك صديقه المخلص . وسيكون بعد ذلك قطرة العسل التي تجذب قلبه وبالتالي تفكيره)[4] .

ومن وصايا الامام ابي حنيفة رحمه الله (اعلم انك متى أسأت عشرة الناس صاروا لك أعداءاً ، ولو كانوا لك أمهات وآباءاً ، وأنك متى أحسنت عشرة قوم ليسوا لك بأقرباء صاروا لك أمهات وآباءاً)[5] .

يقول أمير الشعراء شوقي :

جامـــل النـــاس تحز رق الجميـــع ... رب قيـــد من جميـــل وصنيـــع

---

(١) سيد قطب ــ في ظلال القران ــ ج٤ ص٢٢٠٢ .
(٢) البغدادي ــ الفقيه والمتفقه ــ ج٢ ص٢٦ .
(٣) ابن حجة الحموي ــ ثمرات الأوراق في المحاضرات ــ ج١ ــ ص٢٤١ .
(٤) كيف نتعامل مع الناس ص١٤٥ .
(٥) د. احمد الشرباصي ــ الائمة الأربعة ص٥٢ .

عامـــــل الكـــــل باحسان تحب فقـــــــــــديما جمل المرء الأدب[1]

وقال أيضا :

أطـــلب الحق برفـــق تحمـــد طالب الحق بعنـــــف معتـــــد[2]

وقال الشافعي :

وأحسن الى الاحـــرار تملك رقـــابهم فخير تجارات الكـــرام اكـــتسابها[2]

أما المناظر فهو انسان اكتملت فيه القدرة البيانية مع الشجاعة الأدبية ، لا تخونه الالفاظ ولا تتعثر عليه المعاني في مجتمع الناس مشبوب العاطفة صحو البال عال الهمة ، يكبر الخصم في نظره ، وهدف كل من المناظرين الوفاء بالمطلوب واستقصاء موضوع البحث والمناظرة . ولقد سأل الربيع استاذه الشافعي (من أقدر الناس على المناظرة ؟ فقال (من عود لسانه الركض في ميدان الألفاظ ولم يتلعثم إذا رمقته العيون بالالحاظ ، ولا يكون رخي البال قصير الهمة فإن مدارك العلم صعبة لا تنال إلا بالجهد والاجتهاد ولا يستحقر خصمه لصغره فيسامحه في نظره بل يكون على نهج واحد في الاستيفاء والاستقصاء لأن ترك التحرز والاستظهار يؤدي الى الضعف والانقطاع)[3] .

ويقول الشافعي عن أحسن ألوان الاحتجاج (احسن الاحتجاج ما أشرقت معانيه ، وأحكمت مبانيه ، وابتهجت له قلوب سامعيه)[4] .

يذكر البغدادي ان أعرابيا وصف الشافعي بعد موته فكان مما وصفه به قوة الحجة والزام خصمه واضح المحجة (وما أحسن ما وصف به بعض العرب الشافعي في نظره فقال .. عن الربيع قال : كنا جلوسا في حلقة الشافعي بعد موته بيسير فوقف علينا أعرابي فسلم ثم قال لنا : أين قمر هذه الحلقة وشمسها ؟ فقلنا : توفي رحمه الله . فبكى بكاءاً شديدا وقال توفي رحمه الله وغفر له ، فلقد كان يفتح ببيانه منغلق الحجة ويبدي على خصمه واضح المحجة ويغسل من العار وجوها مسودة ويوسع بالرأي أبوابا منسدة ثم انصرف)[5] بعدما قطع القلوب !!

(١)(٢) الشوقيات ــ ج٤ ــ ص٣٨ .
(٣) الخطيب البغدادي ــ الفقيه والمتفقه ــ ج٢ ــ ص٢٩ .
(٤)(٥) الفقيه والمتفقه ــ ج٢ ــ ص٣٧ .

نماذج من مناظرات الشافعي

قليل هم الذين منحوا بسطة في العلم ووفورة في الفهم وفي المقدرة على البحث والاستقصاء ، إنهم في سماء الفكر والتربية والعلم والمعرفة نجوم ساطعة بل أقمار منيرة لامعة ، وأقل من هؤلاء أولئك الذين أوتوا المقدرة على جذب الناس الى هذا الميدان مع عطاء لا ينقطع ونشاط علمي ليس له حدود يأوى إليه القاصي والداني ويهرع إلى نوره عشاق العلم وأرباب الفضل وهؤلاء شموس تنير دنيانا وتحيل ظلام الجهل وليل الضلال نورا مبينا ونهارا مشرقا ، في واسطة العقد من هؤلاء كان الامام الشافعي رحمه الله انه بحق قطب الرحى ملأ الدنيا علما وأثار حوله حركة علمية عملاقة كان في مقدمة أساليبها المناظرة . وإليك نماذج منها تدلنا دلالة قاطعة على أن الرجل كان مناظرا عديم النظير (ذكر السبكي في طبقات الشافعية ان الشافعي وأحمد رضي الله عنهما تناظرا في تارك الصلاة . قال الشافعي : يأحمد أتقول أنه يكفر ؟ قال : نعم قال : إذا كان كافراً فبم يسلم ؟ قال : يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله قال الشافعي : فالرجل مستديم لهذا القول لم يتركه . قال يسلم بأن يصلى . قال صلاة الكافر لاتصح ، ولا يحكم له بالاسلام بها فسكت الإمام أحمد ، رحمهما الله)[1] يروعنا ونحن نعرض هذه المناظرة هذا الشموخ العلمي وذلك العمق الفكري وتلك القدرة الباهرة على إرخاء حبل الجدل مع الخصم وصولا الى اقناع المجيب ألا ترى الى الشافعي وهو يلقي في المناظرة أسئلة يجيب عليها الخصم ويستفهم استفهاما تقريريا يلزمه به الجواب مثل قوله أتقول إنه يكفر ؟ بم يسلم ؟ ثم يكر على الاجابة بالتصويب حتى يسلم الامام أحمد وهو معروف بالصلابة بالحق رضوخاً الى الحق ، واحتراما وتقديراً للشيخ وتلك شيمة العلماء الورعين وبخاصة أصحاب المذاهب الأربعة وانظر الى طابع المناظرة ترى أنها كانت في إيجاز بليغ يعمد الى أداء المعنى من أقرب الطرق دون تحذلق في الكلام أو استعراض لمواطن القدرة على الخصم . وباسلوب الاقناع الهادىء والاقتناع الواثق .. ذكر الشيخ ابوبكر الجزائرى في كتابه العلم والعلماء وتحت عنوان نافذة على كمال العلماء (حكى ان بشرا المريسى قال للشافعي رحمه الله : كيف تدعى انعقاد الاجماع مع أن أهل المشرق والمغرب لايمكن

(١) سيد سابق ــ فقه السنة ــ ج١ ص١٦٣ .

معرفة وجود اجماعهم على الشيء الواحد ؟ وكانت هذه المناظرة عند هارون الرشيد . فقال الشافعي : هل تعرف اجماع الناس على خلافة هذا الجالس (يريد هارون الرشيد) فأقر خوفا وانقطع) .

فانظر الشجاعة في الحق وانتزاع الدليل من الواقع واستغلال الحدث الجاري بذكاء ولباقة مع سرعة البديهة وقوة الحجة وكيف ان الشافعي سبق باعتبار الاجماع حجة وأقام الدليل العقلي بعد الدليل النقلي على ذلك .

وكيف كانت مجالس الحكام والامراء مجالس علم وفضل وأدب يرتادها العلماء والأدباء ... قال الربيع بن سلمان (سأل رجل من أهل بلخ الشافعي عن الايمان . فقال للرجل فما تقول أنت ؟ قال : أقول : ان الايمان قول . قال : ومن أين قلت ؟ قال : من قول الله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) فصار الواو فصلا بين الايمان والعمل فالايمان قول والاعمال شرائعة . فقال الشافعي : وعندك الواو فصل ؟ قال : نعم . قال : فإذاً كنت تعبد إلهين إلها في المشرق وإلها في المغرب ، لان الله تعالى يقول : (رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾) الرحمن فغضب الرجل وقال : سبحان الله !! أجعلتني وثنيا ؟ فقال الشافعي : بل أنت جعلت نفسك كذلك . قال : كيف ؟ قال بزعمك ان الواو فصل . فقال الرجل فانى استغفر الله مما قلت ، بل لا أعبد إلا ربا واحداً ، ولا أقول بعد اليوم إن الواو فصل ، بل أقول : ان الايمان قول وعمل ، يزيد وينقص . قال الربيع فانفق على باب الشافعي مالا عظيماً ، وجمع كتب الشافعي وخرج من مصر سنيا .)[1] .

أرأيت كيف قرع الشافعي الدليل بالدليل فدحضه وخصم صاحبه وغلبه ؟ أرأيت الى هذه الهمم العوالي فالرجل يعاني السفر في رحلة مضنية طلبا للعلم ؟ ثم أرأيت المسجد وهو يمثل مركزا علميا دائما لتواجد العلماء ؟ إن فهم السؤال نصف الجواب ، لذا أعطى الشافعي وقتا كافيا للرجل كي يطرح فيه سؤاله وطلب منه الدليل ثم تدرج معه حتى وصل إلى الحقيقة الواضحة في فقه رشيد وفهم عميق سديد لآيات الكتاب الحكيم ومراد الله العلي العظيم منها . إن العلماء هداة مهتدين ودعاة مصلحين يهتمون بالقضايا الكلية والمسائل العامة التي تمس الجميع وينزلون الى واقع الناس فيعالجون إعوجاجهم ويتلمسون جراحهم ويأخذون ويعطون معهم .. كل ذلك بصدر رحب

---

(١) الاصفهاني ــ حلية الاولياء ــ ج٩ ص١١٠ .

وفكر صائب ثاقب ، عن أبي حنيفة (أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى ، فقال لهم : دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة ــ مليئة ــ فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها ، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد فقالوا هذا شيء لايقوله عاقل ، فقال : ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلي وما أشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع ، فبهت القوم . ورجعوا إلي الحق فأسلموا على يديه)[1] (وجاء رجل إلى الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى ، فقال ما الدليل على الصانع؟ قال: أعجب دليل النطفة التي في الرحم والجنين في البطن ، يخلقه الله في ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة)[2] .

يقول القزويني (أول دليل على أَجَلِّ جليل ، قال الامام المطلبي ــ محمد بن ادريس الشافعي ــ رضي الله عنه « استقبلني سبعة عشر زنديقا في طريق غزة ، فقالوا : ماالدليل على الصانع ؟ فقلت لهم : إن ذكرت دليلا شافيا ، هل تؤمنون ؟ قالوا : نعم . قلت : نرى ورق الفرصاد ــ التوت ــ طبعها ولونها وريحها سواء ، فيأكلها دود القز ، فيخرج من جوفها الابريسم ــ الحرير ــ ويأكلها النحل ، فيخرج من جوفها العسل ، وتأكلها الشاة فيخرج من جوفها البعر ، فالطبع واحد وان كان موجبا عندك فيجب أن يوجب شيئا واحدا ، لأن الحقيقة الواحدة لا توجب الا شيئا واحدا ، ولا توجب متضادات متنافرات ، ومن جوز هذا كان عن المنقول خارجا ، وفي التيه والجا فانظر كيف تغيرت الحالات عليها ، فعرفت أنه فعل صانع عالم قادر ، يحول عليها الأحوال ويغير التارات ، قال : فبهتوا ، ثم قالوا : لقد أتيت بالعجب العجاب ، فآمنوا وحسن إيمانهم)[3] .

وبمثل هذا المنطق الاستدلالي المسلم الى التسليم والذي تكون نتيجته الحتمية الاذعان والقبول ، يقول الشافعي (رأيت قلعة حصينة ملساء ولا فرجة فيها ، ظاهرها كالفضة ، وباطنها كالذهب الابريز ، وجدرانها حصينة محكمة ، ثم رأيت الجدار ينشق ، فيخرج من القلعة حيوان سميع بصير مصوت ، فعلمت ضرورة ان الطبيعة لا تقدر على ذلك ،

---

(١) ابن كثير ــ تفسير القرآن العظيم ــ ج١ ــ ص٩٣ .
(٢)(٣) القزويني ــ مفيد العلوم ــ ص٢٥ ، ص٢٦ .

وأنه فعل صانع حكيم ، فالقلعة هي : البيضة ، والحيوان هو الدجاجة)[1] ومن نبع الفكر اليقظان والبصيرة المتفتحة والعقل الذكي يقول الشافعي عندما سأله هارون الرشيد عن التوحيد ؟ (اختلاف الأصوات ، وتردد النغمات ، وتفاوت اللغات ياأمير المؤمنين ، دليل على أن المحرك واحد . والنيران الموقدة المتضادة في تركيب آلادمي ، فيألف بعضها على بعض لمصلحة البنية ، وقوام البشرية دليل على الصانع)[2] .

ألا ما أروع هذه الثقة من معلم يأخذ العهد على من يناظره إذا استبان له الجواب شافيا أن يؤمن به ، إنه يقلب مظاهر القدرة في بديع صنع الله في تعبير مثل « نرى » و« انظر » و« فعرفت » ويكثر من رأيت ورأيت ليبرز صورة القدرة وهي تحول المادة الواحدة الى مواد مختلفة ، إنه حقا فعل صانع حكيم . ولعمر الحق لقد استطاع الامام الشافعي ببصره الواعي النفاذ وأسلوبه الراقي الاخاذ الوصول الى أعماق الزنادقة ومخاطبة الفطرة النقية فيهم فهتفوا قائلين لقد أتيت بالعجب العجاب ، وآمنوا عن بصر ويقين .

قال ابن المعتز[3] :

فيا عجبا كيف يعصى الاله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

وما أروع قول أبي نواس[4] :

تامل في نبات الأرض وانظر ... الى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقال الامام الشافعي :

في كل يوم يبتديك بنعمة ... منه وأنت لشكر ذاك مضيع[58]

(١)(٢) القزويني ــ مفيد العلوم ــ ص٢٦ .
(٣)(٤) ابن كثير ــ تفسير القرآن العظيم ــ ج١ ــ ص٩٣ ــ ٩٤ .

سادسا : الرحلـــــة

اتسم عهد الشافعي بأنه عصر ازدهار العلم وانتشار الترجمة والثقافة واتساع دائرة المعارف والآداب. ففي هذا العصر حظي المجتمع الاسلامي على رحابته وترامي أطرافه[1] برجال كان لهم ولعهم الكبير بالاطلاع على علوم الاخرين من الفرس والعجم ونهمهم البالغ الى دراسة هذه الثقافات والعلوم وشوقهم الزائد الى هضم تلك المعارف وتمثلها والتدوين والتأليف فيها ووضع بصماتهم المميزة عليها . فنهضت الترجمة ودراسة اللغات والتأليف والنشر نهضة ليس لها مثيل ، وساعد على ذلك أن الخلفاء كانوا علماء أسهموا بأنفسهم في تلك النهضة وشجعوا العلماء عليها وحسبك أن تعلم أن الأمراء كانوا يعطون المترجمين والعلماء وزن كتبهم ومؤلفاتهم وترجماتهم في الطب والفلسفة والنجوم والمنطق .. يعطونهم وزن كتبهم ذهبا تشجيعا لهم على ذلك وحذا حذوهم في ذلك المضمار وزرائهم وكبار رجال الدولة عندهم ومن ثم نشطت الرحلة في طلب العلم وانبرى العلماء والأدباء والشعراء ينطلقون في أرض الله شرقا وغربا طلبا للعلم في مظانه وللأدب في مواطنه ، وتميزت من هذه الرحلات رحلات رجال الحديث فلقد كان الرجل من هؤلاء يقطع القفار ويجتاز الفيافي ويجوب البحار طلبا لحديث واحد ، وربما قطع في سبيل الوصول إليه شهر أو يزيد ، ذلك أن هؤلاء الرجال ذوي العزائم القوية والهمم العالية الفتية لم تكن لتوهن من قواهم الاسفار ولا توهي منهم مفارقة الأهل والديار ، فلقد رأوا فيها راحة القلوب وطاعة وعبادة علام الغيوب . فتنافسوا في هذا المضمار طلبا لعيش الأبرار ، وكيف لا وقد طلب الاسلام إليهم الضرب في الأرض والانتشار رغبة في التأمل والاعتبار (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ) غافر٨٢ (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) العنكبوت٢٠ .

إن الاسلام يحث كل مسلم على السعى في الأرض والضرب في مناكبها لينظر بعين البصيرة المفتوحة إلى بديع صنع الله ، كما يحض المسلمين على أن يتفرغ نفر منهم للعلم

---

(١) كانت الدولة الاسلامية في ذلك العهد تمتد من سواحل البحر الأبيض المتوسط الغربية إلى الهند باستثناء بيزنطة التي كانت تدفع الجزية .

والرحلة فيه والسفر من أجل تحصيله وصدق الله اذ يقول (وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾) التوبة

وفي الحديث يقول ﷺ (ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم ، إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع حتى يرجع) ان الرحلة في طلب العلم من أعظم العوامل وأنجح الوسائل وأبقاها وأرسخها في تحصيله وأقدرها على تمكنه في القلوب واستيلائها على استعدادات التحصيل وأبقاها في حفظه وعقله ويكفي الجهد الكبير والمشاق المضنية التي يبذلها المرتحل في طلب العلم فان كل مايحصل عليه الانسان بالمجاهدة يعيش في الوجدان ويستقر في الجنان فمن مقومات اعداد الفرد عقليا وعلميا (السياحة والرحلة والتنقل في الأرض ، فان ذلك يفيد علما جديدا ومعرفة صحيحة)(١) ولقد أعد الله لنبيه موسى عليه السلام رحلة يتعلم فيها على يد عبد من عباده ... رحلة لقى فيها موسى عليه السلام من معاناة السفر ووعورة السير حداً جعله يقول لفتاه يوشع بن نون (ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾) الكهف ، وتبع موسى العبد الصالح هذا الذي رحل موسى ليتعلم على يده كما أمره ربه وحين لقيه عرض عليه أن يتتلمذ على يديه في أدب جم وخلق كريم واسلوب يفيض بالتعطف واللين (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾) الكهف ، ولما أخبره العبد الصالح أنه لن يستطيع معه صبرا قال موسى عليه السلام (سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾) الكهف وحين كان يتسرع فيعترض على معلمه ويرده المعلم يقول في ضراعة (قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾) الكهف ٧٣ ومرة أخرى يقول (قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا) الكهف

وهكذا ينتقل العبد الصالح بموسى عليه السلام من حدث ويفعل ما يفعل موسى على الاعتراض ويبين العبد الصالح لموسى مبررات ما فعل ثم يتركه بعد درس بليغ وعاه موسى عليه السلام فعاش في اعماقه وهيهات أن ينساه ، ثمرة هذا الدرس أن يرجع الامر كله وينسب الفضل جميعه والعلم من قبل ذلك ومن بعده لله رب العالمين وهذه الرحلة في مجموعها تعد بحق نموذجا فريدا ونبراسا مضيئا ينبغي أن يعيه طلاب العلم وعشاق المعرفة وأن ينتفع بمنهجها المعلمون والمربون وينهل منها أجيالنا علما وفضلا وتهذيبا وهذا حبر

---

(١) سيد سابق ــ اسلامنا ــ ص ٢٣٨ .

الأمة ابن عباس رضي الله عنه يذكر أنه خرج في رحلة في سبيل العلم وجمع حديث رسول الله ﷺ فيقول كماروى عنه الدارمي في سننه تحت عنوان الرحلة في طلب العلم واحتمال العناء فيه (عن ابن عباس قال : لما توفي رسول الله ﷺ قلت لرجل من الانصار يافلان هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فانهم اليوم كثير فقال : واعجبا لك ياابن عباس أترى الناس يحتاجون إليك وفي أصحاب النبي ﷺ من ترى ، فترك ذلك وأقبلت على المسألة فان كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل (اي نائم وقت القيلولة) فأتوسد ردائى على بابه فتسفى الريح على وجهى التراب فيخرج فيراني فيقول : ياابن عم رسول الله ما جاء بك ألا أرسلت إلي فآتيك ؟ فأقول أنا أحق أن آتيك فأسأله عن الحديث . قال فبقي الرجل حتى رآنى وقد اجتمع الناس على فقال : كان هذا الفتى أعقل منى)

ويذكر الامام البخاري في صحيحه في كتاب العلم باب الخروج في طلب العلم فيقول (ورحل جابر بن عبدالله مسيرة شهر إلى عبدالله بن أنيس في حديث واحد) وهكذا نجد أن الرحلة في طلب العلم كانت وسيلة تهوى إليها أفئدة العلماء والحريصين على الاسلام وجمع حديث رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام . انها وسيلة عظيمة الباعث عليها حب العلم والشغف به وبها وفيها تتبادل الآراء وتزداد الخبرات وتكتسب المهارات وتفتح للعالم والمتعلم آفاقاً علمية واسعة وثماراً تربوية نافعة تنقي الذهن وتصقل العقل (وكانت الرحلة في طلب العلم من التقاليد العلمية عند الطلبة المسلمين ، إذ كانت رغبة الطالب في تلقي العلم على يد شيخ مشهور تدفعه لتجشم متاعب الغربة والسفر ، وكذلك كان العلماء ينتقلون من مكان لآخر إستزادة في العلم ونشراً له)[1] .

ولقد سار الامام الشافعي على نهج أسلافه وخطى على خطى شيوخة عن المزنى : سمعت الشافعي يقول (إني كنت لأسير الليالي في طلب الحديث الواحد)[2] والحق أن حياة الشافعي كانت مثالا واضحا وصورة صادقة للحال المرتحل في طلب العلم منذ نعومة أظفاره فلقد أراد له والده أن ينشأ في طلب العلم فلما توفي حملته أمه وهو ابن السنتين إلى مكة حيث يشب وينهل ويتدرج في عالمها ويعيش بين علمائها وهي يومئذ

---

(١) د. محمد كمال يوسف وآخرون ــ الفكر التربوي ــ ص١٦٩ .
(٢) عبدالغني الدقر ــ الامام الشافعي ــ ص٢١ .

تموج برجال الحديث والفقه من التابعين وأبناء الصحابة ... ثم انتقل إلى المدينة فعاش هناك في هذا الجو العلمي الذي يقود ركبه إمام المدينة مالك بن أنس والذي يمرح في رحابه تلاميذ مالك رضي الله عنه ونهل الشافعي من هذا المعين حتى ارتوى فلما شب عن الطوق وأغرم بالحديث كان يقول لمن حوله (أنتم أعلم بالحديث والرجال منى ، فاذا كان الحديث صحيحا ، فاعلمونى ــ كوفيا كان ، أو بصريا ، أو شاميا : حتى اذهب إليه ، إذا كان صحيحاً)[1] ولقد تقلب رحمه الله وتنقل إلى مدن كثيرة وعواصم إسلامية عدة طلبا في العلم ورغبة في الحديث فلسطين ، مكة ، الكوفة بغداد بلاد فارس الأناضول مصر ... وهو الذي أطلق تلك الحكمة المأثورة والكلمة المشهورة(اطلب العلم ولو في الصين)[2] .

ومن اللافت للنظر أن الامام الشافعي أكثر من الحديث عن الرحلة في طلب العلم وبين في كثير من المواضع فوائد السفر وحفلت أشعاره بإبراز المعاني الجليلة والثمار العظيمة التي يجنيها المرتحل في طلب العلم ، ففي أسفاره فوق كونها وسيلة تربوية علمية ما لا يخفى من معرفة البلدان ودراسة أحوال الناس والتعرف على عاداتهم وتقاليدهم وفق لهجاتهم وفنونهم إنها في طلب العلا ولتفريج الكروب واكتساب العيش وصحبة الكرام من الناس .

انها تربي عند الانسان عدم ركونه الى الأرض واعتزازه بالتراب واعتبار الأرض كلها للانسان والناس كلهم له ، فالبلاد بلاد الله والعباد عباد الله . نعم لقد اكثر الشافعي من الحديث عن السفر حتى اصبح من مكونات فكره وركائز تصوره ومن أرفع همومه يقول رحمه الله :

تغرب عن الأوطان في طلب العلا ... وسافر ففي الاسفار خمس فوائد
تفريج هم واكتساب معيشة ... وعلم وآداب ، وصحبة ماجد[41]

ويفلسف الشافعي الرحلة في طلب العلم موضحا ان الحركة والنشاط هما دائما شأن الحياة وبخاصة الحياة العلمية فهى في حاجة دائمة الى الانطلاق والتجديد ومتابعة الانتاج والتأليف والتعلم من الاخرين وتعليمهم فالعلم ليس وقفا على بلد بل هو جهد انساني عام وتلك سنة الحياة .

---

(١) آداب الشافعي ومناقب الرازي ــ ص٩٥ .
(٢) البيهقي ــ مناقب الشافعي ــ ج٢ ــ ص١٣٨ .

يقول الشافعي :

ما في المقـــام لذي عقـــل وذي أدب ... من راحـــة فدع الأوطـــان واغتـــرب
سافـــر تجد عوضا عمـــن تفارقـــه ... وانصب فإن لذيذ العيش في الـــنصب
اني رأيت وقـــــــوف الماء يفسده ... إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب[٢٦]

وقريب منه يقول ابي تمام :

وطـــول مقـــام المرء في الحي مخلـــق ... لديباجتيـــــه فاغتـــرب تتجـــدد
فاني رأيت الشمس زيـــدت محبـــة ... إلى النـــاس ان ليست عليهم بسرمـــد[١]

وفي السفر اطلاق للفكر من قيود الحيز الضيق والمكان المحدود وفيه يتحرر الانسان من التفكير الرتيب بتغير البيئة والأمكنة ويتعرف على أصدقاء كرام وعلماء فضلاء ، فيفيد منهم علما وفضلا ويفيدون منه . ولقد كان هم الشافعي في رحلاته ان يقصد الأماكن التي تعج بالطلاب وتزخر بالعلماء كالمسجد النبوي والبيت الحرام بمكة وجامع عمرو بالفسطاط بمصر . وفي هذه الرحلات التقى بأشياخه وانتقى منهم من لزمه وتعلم على يديه ففي مكة تعلم الشافعي من سفيان بن عيينة .. وفي المدينة تتلمذ على يد مالك بن أنس وفي اليمن أخذ العلم على يد مطرف بن مازن وفي العراق درس على يد وكيع بن الجراح ومحمد بن الحسن .. وكانت الرحلة فرصة قيمة لكي ينهل الشافعي من علم هؤلاء حتى كتب من محمد بن الحسن حمل بعير . الا ما أروع العلم وما أكرم عطائه وأعظم ولائه يأخذ منه الانسان ويعطي فيجدد نفسه ويهب غيره وهو في هذا واسع المدى مترامى الأطراف ورحم الله امير المؤمنين علي إذ يقول كل اناء يضيق بما فيه الا وعاء العلم فإنه يتسع .

وفي الرحلات اعطى الشافعي كما أخذ وعلم كما تعلم وأفاد من علمه رجال بثوا في الناس فضله وحفظوا كتبه ونشروا علمه وحملوا مذهبه . كان منهم في بغداد ابراهيم بن خالد أبي ثور ، والزعفراني الكرابيسي وكان منهم في مصر الربيع المرادي والربيع الجيزي وكان منهم في مكة موسى بن ابي الجارود أبي الوليد المكي .. وكان الشافعي لقوة ذكائه وتوقد عبقريته وسرعة فهمه لأقدار الشباب من تلاميذه ومقدار استعداداتهم للفهم وتحصيل العلم سرعان ما يلتقط الذكي الحصيف القوي المنيف من طلابه فيضمه إليه ويحوطه بمزيد عناية وبالغ رعاية ويجعله موضع ثقته والمعبر عن رأيه فكان للبويطي تلميذه تلك

---

(١) انظر مقدمة نور الدين عتر لكتاب الرحلة في طلب العلم للبغدادي ص٢٨ .

المنزلة السامية والمكانة الرفيعة .. قال الربيع بن سلمان المرادي عن مكانة أبى يعقوب البويطي عند الشافعي (وكان له من الشافعي منزلة . وكان الرجل ربما يسأله عن المسألة ، فيقول سل أبا يعقوب ، فإذا أجابه أخبره ، فيقول هو كما قال ، وربما جاء الى الشافعي رسول صاحب الشرطة فيوجه الشافعي أبا يعقوب البويطي ويقول هذا لساني ، وخلف الشافعي في حلقته بعده ، قال الشافعي ليس : أحد أحق بمجلسي من أبي يعقوب)[1] .

فانظر كيف يكون الشيخ من تلميذه و كيف يربيه تلك التربية التي تؤهله للتصدي للفتوى تحت سمع الأستاذ وبصره ، وتدربه على الصدارة في الدرس بتوجيه الاستاذ وارشاده وكيف تعطي الطالب مزيدا من الثقة في نفسه والاستقلالية الشجاعة في الرأي .

لقد كان يمكنه أن يجيب السائل ولكنه يحيله الى تلميذه ليطبق اسلوب التربية السوية وفي نفس الوقت يعطي السائل الثقة واليقين في فتوى التلميذ ، فيقول كما قال . اية شخصية تربوية فاقهة تلك التي تطبق أرق أساليب التربية سابقة بها أربعة عشر قرنا ؟ انه الشافعي فحدث ولا حرج .

وكما كان يعطي مزيد اهتمام للطالب الذكي فقد كان يتسلح بمزيد من الصبر وقدر كبير من الحلم مع الطالب البطيء الفهم فيقبل عليه ويرعاه رعاية الأستاذ الفطن والمربي الفاقه حتى يرتقي لمستواه (قال القفال في فتاويه : كان الربيع (المرادي) بطيء الفهم ، فكرر الشافعي عليه مسألة واحدة أربعين مرة فلم يفهم وقام من مجلسه حياءا ، فدعاه الشافعي في خلوة وكرر عليه حتى فهم)[2] .

ألا ما أعظم الشافعي وما أقوى روحه وما أجمل خلقه وعلمه ونبله فانه لفرط حبه للعلم يأبى ان يتفلت تلميذ منه أو يهرب حياءاً من شعوره بتقصيره في الفهم فيقبل عليه اقبال الأب الشفيق ولا يزال به حتى يرفع من روحه ويزيل جهله ويوقفه على رجليه في طريق الرحلة العلمية والمسيرة الخيرة وقد استعاد الثقة بنفسه . ومن اقدر على ذلك وأجدر بتلك المنزلة إنها منزلة لايقدر عليها إلا أمثال الشافعي وصدق الله (وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾) فصلت

---

(١) طبقات الشافعية ــ محمد تقي الدين ابن قاضي شهبه ــ ج١ ــ ص٧١ .
(٢) المرجع السابق ج١ ــ ص٦٥ في الهامش .

في السفر متعة الروح ولذة النفس وغذاء الذهن وبلسم الجسم ، في السفر اتساع الثقافة وتنمية الفضائل واكتمال الجوانب الخلقية والنفسية والتمكن من الجوانب العلمية ، في السفر إزدهار العلم وانتشاره وكسب صداقات الرجال ومصاحبة العلماء فلا عجب أن يجوب الشافعي البلاد شرقا وغربا بحثا عن العلم وطلبا للمعرفة وكأنى به وهو يمتطي صهوة جواده ويرفع صوته وهو ينشد وقد لوى بعنان دابته متأهبا للانطلاق وهو يخاطب الأجيال ويقول :

ما في المقام لذي عقل وذي أدب ... من راحة فدع الاوطان واغترب
سافر تجد عوضا عمن تفارقه ... وانصب فان لذيذ العيش في النصب
انى رأيت وقوف الماء يفسده ... إن ساح طاب وان لم يجر لم يطب
والأسد لولا فراق الغاب ما افترست ... والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة ... لملها الناس من عجم ومن عرب
والتبر كالترب ملقى في أماكنه ... والعود في أرضه نوع من الحطب
فان تغرب هذا عز مطلبه ... وان تغرب ذاك عز كالذهب(٢٦ ٢٧)

ولله در القائل :

إن السفر
كنز العبر
فارحل ترى الآفاق أبهج منظراً
وترى الربيع البكر يرتاد القرى
وسنا الشباب بنبض روحك قد سرى(١)

وانظر الى الشافعي في تصميم يكاد يشبه الثورة على النفس وهو يعلن طموحه وعلو روحه فلله تلك النفس العالية الشموس :

سأضرب في طول البلاد وعرضها ... أنال مرادى أوأموت غريبا
فان تلفت نفسي فلله درها ... وان سلمت كان الرجوع قريبا(٢٧)

ألم أقل لك من قبل ان حب الاسفار قد سرى في دمه ؟ وعاش حيا في خياله ؟ وتربع على فكره واستولى على كل تصوره ؟ فأى عقبة تلك تقف أمام همة تطاول عنان السماء ، وعزيمة وثابة طموح تناطح الشم الرواسى وتسترخص كل غال وثمين أمام بلوغ المراد .

(١) انظر الرحلة في طلب العلم للبغدادي ــ ص٢٨ مقدمة نور الدين عتر .

من القضايا الخطيرة في الفكر الانساني وبخاصة الفكر الاسلامي الدس المتعمد والخلط المقصود ومحاولة تحريف الكلم عن مواضعه وذلك ليس غريبا على أعداء الاسلام وعلى رأسهم المستشرقون فتلك شنشنة نعرفها من أخزم فنحن نعرف عن المستشرقين أنهم جيش استعماري خطير حشدته دول الغرب كمقدمة للجيوش الاستعمارية المسلحة حين شنت الغارة على العالم الاسلامي . ولكنه جيش سلاحه الكلمة الماكرة والفكرة الخبيثة تبث بدهاء وسط جهد علمي كبير يراد به إفهام القاريء التمكن من العلم وسعة الفكر والسبق في الفهم والاستنتاج ... حتى إذا جاءت سهامهم وسط هذه الحياة العلمية الرائعة ظن ضعاف العقول أنه فهم سليم وفكر متطور .. ولكنه في الواقع دس للسم في العسل .. انهم ينسلون كما تنسل الرقطاء في غبش الظلام يكشف الاستاذ المفكر أنور الجندي في موسوعته ... الدوافع الحقيقية للاستشراق فيقول (يجمع المستشرقون في دوافعهم بين الدافع الديني والدافع السياسي وكلاهما معاً يشكلان تحديا واضحا يرمى إلى استدامة سيطرة النفوذ الغربي على البلاد الاسلامية وهم يستجيبون لغاياتهم ومطامعهم ولا ينسون عواطفهم)[1] .

ونظراً لأنهم يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة وذلك واقع حياتهم ومدى ايمانهم في الغرب ، فقد دأبوا على تفسير الاحداث الاسلامية على أنها وليدة ظروف بيئية أو اجتماعية أو مصالح اقتصادية ودنيوية وذلك بهدف تفريغ الاسلام من كل أثر في صنع الحضارة وتغيير الأجيال وقيادة الحياة وليس هذا بعجيب بل هذا شأنهم أن يفسر اليهودي المجرى جولد تسيهر وأن يتابعه في تفسير ذلك (ليون بورشيه) نقول ليس بعجيب ان يفسر أمثال هؤلاء الرحلات العلمية في سبيل العلم بأنها رحلات لأسباب اجتماعية أو سياسية وأعراض دنيوية كانت هذه الرحلات في نظرهم بقصد البحث عن المنصب والجاه أو لطلب الغنى والمال وهم يعلمون علم اليقين ان ذلك كلام ليس له في الواقع أدنى نصيب أو أضعف دليل وأنها رحلات أثرت الفكر ثراءا عظيما ونقلت البشرية نقلة عملاقة بهرت الغرب وفي مقدمتهم هؤلاء ، فأقبلوا على الفكر الاسلامي ينهلون منه في نهم . وحين انطلق الرحالة الاسلاميون من الشرق حبا في نشر الاسلام أوصلوا الاسلام الى أوروبا وجنوب فرنسا وايطاليا فجاء هؤلاء فتتلمذوا على يد المسلمين في الاندلس وفي جزيرة مالطا .. وفي غيرها ايام الاحتكاك الصليبي . انتشر الرحالة المسلمون في البلاد

---

(١) موسوعة مقدمات العلوم والمناهج المجلد الخامس ــ ص١٤٢ .

شرقا وغربا ولاهم لهم إلا نشر العلم وازدهار المعرفة وصنع الحضارة الاسلامية واقامة العدالة الاسلامية بالحق والخير والسلام .

لقد فند الاستاذ نور الدين عتر في مقدمة كتاب الرحلة للخطيب البغدادي شبهة هذا المستشرق وتابعه (ليون بورشيه) ونظر لأن إمامنا الشافعي من رواد الرحلة الأوائل في طلب العلم والذين جابوا البلاد حُباً في الارتواء من فضل المعرفة ، وكان لهم جهدهم الواسع في تحصيل العلم وتربية الأجيال به وقد يصيبه من رذاذ تلك الشبهة التي أثارها هؤلاء المستشرقون ، رأينا أن نسهم في تفنيد تلك الفرية مستهدين بسيرة الامام الشافعي رحمه الله العطرة وسلوكه الحميد في هذا الميدان . هذا الامام الذي يقول عن الملك والسلطان :

إن الملوك بلاء حثيما حلوا فلا يكن لك في أبوابهم ظل
ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا جاروا عليك وإن أرضيتهم ملّوا
فاستغن بالله عن أبوابهم كرما إن الوقوف على أبوابهم ذل

أين المطامع السياسية والأغراض الدنيوية عند رجل يرى مجرد الوقوف عند أبواب الملوك والأمراء ذل ، معاذ الله أن يكون الشافعي وأمثاله طلاب دنيا وهو الذي ما لان في الحق ولا داهن الأمراء ، ومواقفه مع الرشيد مشهورة . قال الشافعي (ثلاث خصال من كتمها ظلم نفسه العلة من الطبيب والفاقة من الصديق والنصيحة للامام . قال الربيع وسمعت الشافعي يقول لأمير مصر انظر من يكون حاجبك فإنه يحبك أو يبغضك وانظر من يكون كاتبك فإنه يعبر عن عقلك الظاهر الى الناس وعف عن أموال الناس يكثر شكرهم لك وإياك الانبساط الى رعيتك فتذهب بذلك هيبتك)[1] .

لقد عرف الشافعي الدنيا فطلقها وأقبل على العلم يتضلع منه بكل كيانه وهو القائل (لو كانت الدنيا كلها لي لبعتها برغيف لما أعلم من عيوبها)[2] زهد في الدنيا بقدر ما عرف الاخرة فأقبل عليها وعمل لها وكان مع زهده هذا سخيا جوادا وهذا جعله ينفق كل ما في يده ابتغاء مرضاة الله وطلبا لمثوبته في الاخرة .

(خرج الشافعي رحمه الله الى اليمن مع بعض الولاة فانصرف الى مكة بعشرة آلاف درهم فضرب له خباء في موضع خارجا من مكة ، فكان الناس يأتونه فما برح من

---

(١) ابن عبد البر ــ الانتقاء ــ ص١٠٠ ــ ١٠١
(٢) القزويني ــ مفيد العلوم ــ ص٢٩٥ .

موضعه ذلك حتى فرقها كلها)[1] .

كان الشافعي (على علمه وورعه متصفا بالزهد معروفا بالقناعة . وأما من ناحية كرمه فكان مثل الريح عطاءاً وكالبحر جودا .. فإننا لا نكون غالين أو مبالغين إذا ما قررنا أن شعر الزهد عند الشافعي ربما كان خير شعره . بل هو من خير ما أثر من شعر الزهد في الأدب العربي)[2] يتكلم فيه على سجيته وفطرته ويعبر فيه عن مكنون فؤاده وعميق ايمانه فهو شعر مطبوع غير مصنوع !!

وكيف يشغل حب الدنيا قلب رجل يقول :

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها ... وسيق إلينا عذبها وعذابها
فلم أرها الا غرورا وباطلا ... كما لاح في ظهر الفلاة سرابها
وما هي الا جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها ... وان تجتذبها نازعتك كلابها
فطوبى لنفس أولعت قعر دارها ... مغلقة الأبواب مرخي حجابها

اين المطامع السياسية والأغراض الدنيوية في نفس رجل يقول :

ان لله عبادا فطنا ... تركوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحي وطنا
جعلوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا[84-85]

بل أين الأطماع من نفس رجل يرى (أن من غلب عليه حب الدنيا وشهوتها ألزمته العبودية لأهلها ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع)[3] ويقول :

أمت مطامعي فأرحت نفسي ... فان النفس ما طمعت تهون
وأحييت القنوع وكان ميتا ... ففي احيائه عرض مصون
إذا طمع يحل بقلب عبد ... علته مذلة وعلاه هون

ان الشافعي يرى أنه (يكفي المرء للمعيشة في هذه الدنيا كسرة ، وبعد الموت حفرة)[4] كما يرى أن (الحرية الصحيحة مع القناعة ، والذل كل الذل في طلب السؤال)[5] (ولما عزم الشافعي سكنى مصر بدأ يدرس أحوالها وينظر في كيفية العيش

---

(١) الغزالي ــ إحياء علوم الدين ــ ص٢٥ .
(٢) د. مصطفى الشكعة ــ الامام محمد بن ادريس الشافعي ــ ص٧٩ باختصار .
(٣) ابن عبد البر ــ الانتقاء ــ ص١٠٠ .
(٤)(٥) ديوان الشافعي ــ اسماعيل اليوسف ــ ص١٦ ، ص٢٤ .

فيها . وتلك هي الحكمة بعينها . فلا ينبغي لعاقل أن يسكن بلداً لا يعرف عنه شيئا . وانطلاقا من ذلك فإن الشافعي يسأل عبدالله بن عبدالحكم في هذا الأمر فيقول له ابن عبدالحكم : اذا أردت أن تسكن مصر فليكن لك قوت سنة . ومجلس من السلطان تتعزز به . فيرد عليه الشافعي والعزة ملىء برديه قائلا : من لم تعزه التقوى فلا عز له . وقد ولدت بغزة وربيت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة وما بتنا جياعاً قط)[1] يقول الشافعي :

رأيت القناعـــــة رأس الغنـــــى فصرت بأذيـــــــــالها ممسك
فلا ذا يراني على بابـــــــــه ولا ذا يراني به منهمك
فصرت غنيـــــا بلا درهـــــم أمـــر على النـــاس شبـــه الملك[68]

لقد طلب الى الشافعي في آخر أيامه أن يؤمن حياة أولاده فيشتري بمال جاءه ضيعة له يأكل منها فتكون له في حياته ولأولاده بعد مماته فأبى واشترى بهذا المال بيتا لطلابه على عرفة يقيمون فيه في موسم الحج هم ومن يرد عليهم ضيفا في الموسم . فأي رجل يحرم نفسه وأولاده على هذه الصورة ثم يقال فيه وفي أمثاله أن هذه الرحلات التي اشتهرت عنهم كانت لأغراض سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية . ان العكس في ذلك صحيح تماما فالشافعي ما أن انفك من الولاية وترك السياسة حتى توجه للعلم الذي لم يتركه ، وتفرغ له وانكب عليه وكانت تجربته حين عمل باليمن أكبر حافز له على اخلاصه للعلم ومضائه فيه (فلقد تورط في علاقته بيحيى بن عبدالله العلوي صاحب الثورة بالديلم فبقي طول حياته بعيدا عن الحكم العباسي ورجاله)[2] . ولقد كانت هذه المحنة منحة ساقها الله لامامنا ليختبره في إيمانه . ولينصرف الى العلم ومدارسة الفقه واستخراج الاحكام لمعالجة مشاكل الحياة)[3] .

وما أصدق قول ابن خلدون (العلماء أبعد الناس عن السياسة ومطامعها)[4] (لم يكن للامام الشافعي ولاء سياسي يرتبط به ، ولكن كان ولاؤه لما يمليه عليه دينه . وقد كان دينه يملي عليه أن يحبَ أبا بكر ، وهو يعلم بأنه سيرمى من قبل الشيعة بأنه ناصبي ، وكان دينه أيضا يملي عليه أن يحب عليا ، وهو يعلم أن خصومه سوف يتهمونه بأنه رافضي ، وهذا لا يمكن أن يعد ميلا سياسيا . غير أن الشافعي لم يعط الفئتين أي اهتمام ،

(١) د. مصطفى الشكعة ــ الامام محمد بن ادريس الشافعي ــ ص١٠٤ .
(٢) د. شاكر مصطفى ــ دولة بنى العباس ــ ج٢ ص٧٣ .
(٣) عبدالعزيز البدري ــ الاسلام بين العلماء والحكام ــ ص١٨٦ .
(٤) د. حسن الساعاتى ــ علم الاجتماع الخلدونى ــ ص٨٣ .

وعمل بما يمليه عليه دينه وإيمانه ، ومن أقواله « لا سياسة إلا ما وافق الشرع »)[1] .

ومن مواقفه الصارمة في الصدع بالحق مما كاد أن يقتل بسببه .. (إمتنع أحد الأعيان من دفع الخراج وادعى ان الضيعة التي في حيازته هي ملك المنصور بن المهدي ولكن الشافعي لم يتراجع عن احقاق الحق وابطال الباطل فحكم على المدعى عليه بدفع الخراج فورا . فلم يكن من أمر الأعيان إلا أن سعوا به عند الرشيد فوضح له الشافعي أنه حكم بمقتضى الشرع الشريف ومن المعروف ان الرشيد كان قد أمر قاضي القضاه أبايوسف بأن يؤلف كتابا في الخراج فألف له كتابه المعروف ، إذا فالرشيد يعلم تماماً أن الامام الشافعي محق في موقفه هذا ، ولذا فقد عفا عنه)[2] إن كل من كتب عن الشافعي توصل الى ان الرحلات التي قام بها في حياته كانت من العوامل المهمة في اطلاعه الواسع لشتى العلوم وفي سعة آفاقه ، فلقد كانت أبرز أحداث الشافعي (رحلته تلك التي صنعت طريقه ، وصاغت فكره بين المدينة والعراق ومصر ..)[3] .

فما ترك الشافعي مالا ولا ترك قصورا ولا مات عن منصب وما كانت هذه الرحلات والاسفار تقربا الى الملوك ولاتزلفا إلى الأمراء والوزراء ... وماترك الشافعي من دنياه إلا ميراث الانبياء ... علم غزير وفقه كبير ... وكتب أغنت الفقه والأصول ولازال العلماء عيال عليها حتى يوم الناس هذا كما ترك طلابا تربوا في مدرسة الشافعي فصاروا مثلا أعلى في العلم والفهم وقدوة طيبة في التربية والأخلاق .

(١)(٢) عبدالحسين على أحمد ــ موقف الخلفاء العباسيين من أئمة أهل السنة الأربعة ومذاهبهم وأثرهم في الحياة السياسية في الدولة العباسية ــ ص٣٢٧ ، ص٢٦٥ .

(٣) انور الجندي ــ نوابغ الفكر الاسلامي ــ ص٧٦ .

سابعا : التـــربيـــــة بـــالعبـــادة

العبادة من أقوم مقومات التربية للنفس البشرية وانجح وسائل التزكية والاصلاح لبنى الانسان ذلك أن المدوامة على أداء العبادات المفروضة تربى الانسان على جملة من الأخلاق القويمة والسلوك الفاضل وتعده إعداداً كريماً متواصلًا يحفزه إلى عمل الخير ويحميه من الوقوع في الشر ويوجهه الى قيمة وجوده ومسؤوليته عن حياته ويدفع طاقاته وقدراته إلى الابداع والانتاج واعمار الكون والحياة منطلقا من أن الحياة كلها عبادة لله رب العالمين وإنه خليفة الله في هذا الكون وكل جهده وسعيه وعمله وكفاحه انما هو عبادة للعليم الخبير (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ١٦٢ الأنعام والقرآن الكريم يربط بين العبادة وبين أثرها خلقيا وتربويا على الفرد والمجتمع فيقول عن الصلاة (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ) العنكبوت ٤٥ ويقول عن الزكاة (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا) التوبة ١٠٣ ويقول عن الصوم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) البقرة ١٨٣ إن الاسلام يريد تطهير الانسان ظاهراً وباطنا والعبادات تتضافر كلها لتزكية النفوس وتطهير القلوب وحماية الانسان من الرذائل واعداده ليكون دائما موصولا بالله ، يحس بوجوده معه وهيمنته عليه ورقابته له وأنه يراه ويسمعه ويعلم عنه كل صغيرة وكبيرة وأن مرجعه ومآبه إلى الله وأنه سوف يحاسب بين يدى ربه عن كل ما جنت يداه إن خيرا فخير وان شرا فشر . وهذه الاعدادات انما يكتسبها من معرفته لربه وعبادته لخالقه وحين نحاول معرفة الاثار التربوية التي تطبعها الصلاة في المسلم نجد أنها فوق الحصر فإنها تربيه على الحفاظ على وقته وتنظيم حياته ودقة مواعيده وتعوده على النظام المتقن والطاعة الكاملة وتربيه على الاحساس بالانتماء للجماعة وتملأ قلبه بمشاعر البر والاحسان والرحمة والعطف والحنان . ان الصلاة هي أظهر مظاهر العبادة التي تكرر في اليوم خمس مرات يقف فيها العبد طاهرا بين يدى ربه خاشعا خاضعاً مخبتا متبتلا يرجو رحمه الله ويخشى غضبه فيكتسب من التقوى والصلاح ما يجعله متواضعا لخلق الله محساً بأنه ذرة في جسم المجتمع الاسلامي رحيما متواضعا لخلق الله . ومع كونها كذلك فهي تربى جسم المسلم على الرياضه البدنية الكاملة التي يتحرك فيها كل أجهزة وأعضاء البدن ما يمنحه من القوة وما يعطيه من المناعة ضد الكثير من الأمراض والعلل . ومن هنا

كان اعداد الأمة الاسلامية لتحمل الرسالة الخاتمة من مبدأ أمرها بالصلاة . وهي تملأ حياة الانسان وتشغل فراغة وتطوع وقته للخير فإن من طبيعة النفس إذا لم تشغل بالخير شغلتها غائلة الشر . والمنهج الاسلامي يوجه طاقات الانسان وقدراته للعمل ويحول بينه وبين الفراغ فيشغله في أوقات منتظمة بالذهاب إلى المسجد والاندماج في الجماعة والاجتهاد في الوقوف بين يدى الله طالبا عونه مستعينا به على الهدى والصراط المستقيم وفي هذا شغل لوقته وتدريب له على الحركة والعمل. إن مشكلة الفراغ خطيرة قاتلة تملأ قلب الانسان بالملل وتدفعه إلى الضياع خاصة إذا لم يوجد في بيئة تحوطه بالرعاية وتحفظه بالتربية انها نتيجة حتمية لعقم المناهج التربوية التي لا تعرف كيف تواجه خطر الفراغ فتتصرف في ملىء الأوقات واعطاء البدائل وتنسيق البرامج التي تنظم حياة الفرد وتلمؤها بما يعود عليه وعلى مجتمعه بالخير والسلام . وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (أحذركم عاقبة الفراغ فانه أجمع لأبواب المكروه من الخمر) وقال شاعر :

لقد هاج الفراغ عليك شغلا وأسباب البلاء من الفراغ

والتربية بالعبادة والانشغال بالطاعة تفرغ طاقات الانسان في الخير وتوجه قواه للانتاج وتستعلى بها على السقوط في الرذائل والانحراف بالآثام والمناكر حيث تحول نشاطه إلى ما يحقق الخير ويجني به ثمار النفع الدنيوي والأخروي . والتربية بالعبادة (عن طريق العبادات المفروضة لزاما ، والمندوبة استحبابا من صلاة تتكرر كل يوم وليلة خمس مرات هي للروح أشبه بالوجبات للجسم ، تجعل المؤمن دائما مع موعد مع الله تعالى كلما غرق الانسان في لجج الحياة اليومية ومشاغلها قام المؤذن ينادي الله اكبر ، حى على الصلاة ، حي على الفلاح فينتشل المسلم نفسه من دنياه ـــ دنيا الصراع والمتاع ـــ ليقف بين يدى ربه دقائق يفضى إليه فيها بذات نفسه ، داعيا بالخير لنفسه ولأمته ، مترقيا من المادية الى الروحية ، ومن الأنانية الى الغيرية سائلا ربه بلسان الجماعة كلها (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) الفاتحة ٦)[1] وفي الزكاة والصوم والحج كذلك . ولنقتصر في هذا البحث على الصلاة وخاصة قيام الليل فان ما ينسحب على الصلاة ينسحب على أخواتها من العبادات الأخرى من زكاة وحج وصيام ولأن الصلاة عماد الدين وفيها من الزكاة انفاق الوقت وهو أصل الكسب الذي تخرج منه الزكاة وفيها من الصيام شغل البدن بالكف عن الشرب والأكل والجماع وزيادة على ذلك الكف عن الكلام وفيها من الحج التوجه الى البيت الحرام في كل صلاة . ويذكر ﷺ قيام الليل

(١) د. يوسف القرضاوى ـــ الخصائص العامة للاسلام ـــ ص٢٨ .

وشرفه للمؤمن فيقول (أتانى جبريل : فقال : يامحمد ! عش ما شئت فانك ميت وأحبب من شئت فانك مفارقه ، واعمل ما شئت فانك مجزىٌّ به واعلم ان شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس)[1] .

وقال عليه الصلاة والسلام (عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى الله تعالى ، ومنهاة عن الإثم ، وتكفير للسيئات ، ومطردة للداء عن الجسد)[2] .

إن قيام الليل تربية للعقل والروح وتزكية للنفس والجسد فلا غرو أن كانت المدرسة الأولى التي درج عليها وتربى في كنفها رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، ولا غرو أن أعد للرسالة وتحمل الأمانة من قبل أن يؤمر بها وأن يعلم باختياره لحملها بهذه العبادة . لقد كان ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه وما أحوج المسلم الى تلك العبادة وما أحوجه الى قيام الليل ففيه شرفه وفيه قرة عينه وفيه يعذب اللقاء مع الحبيب الأعلى وتحلو المناجاة من القريب الودود والخلوة مع من يجيب الدعاء ويجزل العطاء وهو أحنى على عباده وأرحم من الأم بوليدها . وما أندى وأطيب وأروع قول الله تعالى وهو يصف فضل وثواب اولئك الذين كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالاسحار هم يستغفرون وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾) السجدة .

إن القلوب اليقظة والتي ذاقت لذة الوصال مع الله في سكون الليل وهدوء الحياة حين خلا كل حبيب بحبيبه . ووقفة اولئك في مناجاة ربهم تعصم قلوبهم من الغفلة في غمرات الحياة . تلك القلوب التي يحذوها الرجاء من نسمات المساء فتعيش على شوق اللقاء وقد ملئت حبا وولاءا لباريء الأرض والسماء فهي تنتظر المساء لتفرغ في ساحة الصفاء بأحر الدعاء ، في وقت التجلي والرجاء ، تفرغ في هذا الوقت همومها وتلقي بأعبائها على أبواب ربها لتستروح انسام الرضا وتذوق جمال المناجاة وتشعر باقبال الله عليها .

ان هذه العبادة تتعطش إليها حضارة القرن العشرين بعدما حرمتها أزمانا فغرقت في أوحال المادة وجرفها طوفان الالحاد والضياع . وعظماء هذه الأمة الاسلامية تخرجوا جميعا في مدرسة الليل فلا نكاد نسمع أو نرى اسما منهم لم يرد في ترجمته وسيرته احياء

---

(١) ص.ج.ص. — ج١ / ٧٣ .
(٢) ص.ج.ص. — ج٢/ ٤٠٧٩ .

الليل وطول التهجد .

(ووصل حبهم لقيام الليل أنهم كانوا يحزنون حين ادباره ، وإقبال النهار ، وها هو الامام الجليل سفيان الثوري يقول : اذا جاء الليل فرحت ، وإذا جاء النهار حزنت ويخبر عنه أبو يزيد المعنى بأنه كان « اذا اصبح مد رجليه الى الحائط ، ورأسه إلى الأرض كي يرجع الدم الى مكانه من قيام الليل » . كيف لا يعشقونه وفيه ينزل الرب سبحانه وتعالى الى السماء الدنيا ، فيزداد الشعور بالقرب ، وتزداد لذة المناجاة ؟ وكيف لا يعشقونه وهو أحد الطرق الموصلة للجنة بسلام ، وذلك لقوله ﷺ « ياأيها الناس افشوا السلام ، واطعموا الطعام وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » . وكيف لا يعشقونه وقد كان قدوتهم وحبيبهم ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه وهم الحريصون على الاقتداء به ليحشروا معه)[1] انها العبادة التي ينبغي أن يحرص عليها المؤمن ويحمل عليها زوجه وبنيه كي يقي نفسه وأهله نارا وقودها الناس والحجارة . يقول عليه الصلاة والسلام (رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح في وجهها الماء ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى ، فإن أبي نضحت في وجهه الماء)[2] .

تلكم هي الأسر التي تقوم بها المجتمعات وتشيد بها الحضارات ليس لها وقت لِلَّهو الجانح واللعب الجامح أنها تصل نهارها بليلها في عبادة الله ، فلا مكان فيها للتخاصم والشجار ، ولكنها خلايا حية تعمل في دأب وجهاد لغاية كبرى وحقيقة منشودة (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾) الذاريات ولكأن لسان أحدهم يخاطب الليل بقول الشاعر :

ياليـــــل قيـــــامك مدرسة ... فيها القـــــرآن يدرسنـــــي

معنـــى الاخـــلاص فألزمـــه ... نهجـــا بالجنـــة يجلسنـــي[3]

ويقول ابن المبارك :

اذا ما الليـــل أظلـــم كابـــدوه ... فيسفـــر عنهم وهـــم ركـــوع

أطـــار الخوف نومهـــم فقامـــوا ... وأهـــل الأمـــن في الدنيـــا هجـــوع

---

(١) عبدالحميد البلالي ــ واحات الايمان ــ ص٤٠ .

(٢) ص.ج.ص. ــ ج١ /٣٤٩٤ .

(٣) محمد أحمد الراشد ــ الرقائق ــ ص٣٣ .

لقد كان رحمه الله يغتنم الليالي ويسعد بالخلوات ويشغل من ليله كل ليلة وقتا كبيرا ، وهذا تلميذه الربيع يقول بت في منزل الشافعي رضي الله عنه ليالي كثيرة فلم يكن ينام الليل الا يسيرا ، وقال الحسن الكرابيسي بت مع الشافعي غير ليلة فكان يصلي نحوا من ثلث الليل .. ذلك أنه رحمه الله كان قد قسم الليل الى ثلاثة أجزاء جزء للعلم وآخر للعبادة وثالث للتأليف والكتابة والاعداد للتدريس ثم ينام بعد ذلك ، وكان يرغب من حوله في قيام الليل ويأمرهم به فيقول (ولسنا نحب لأحد ترك ان يتهجد بما يسره الله عليه من كتابه ، مصليا به ، وكيف ما أكثر فهو أحب إلينا)[3] . ويقول (وآخر الليل أحب إلي من أوله وان جزء الليل اثلاثا فالأوسط احب الي أن يقومه)[4] .

ومن العبادة الدعاء وهو مخ العبادة ولبها وجوهرها وروحها ، انها العبادة التي لا ترد بل هي دائما مقبولة مستجابة والله تعالى يقول (وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ) غافر٦٠ اي فور الدعاء تكون الاستجابة ويكون القبول ، فما أن يرفع العبد يديه حتى يكون الله أقرب إليه من حبل الوريد (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) البقرة١٨٦ وأقربها قربا وأسرعها استجابة مناجاة الليل ودعاء السحر إنها الأوقات التي يكون فيها التجلي اوسع والقبول أعظم حيث يتجلى الله فيها على عباده في الثلث الأخير من الليل فيستجيب للداعين ويغفر للمستغفرين ويعطي السائلين ، وها هو الشافعي يناجي ربه فيقول :

أنت حسبي ، وفيك للقلب حسب ... ولحسبي ان صح لي فيك حسب
لا أبالي متى ودادك لي صح ... من الدهر ما تعرض خطب[25]

ويستغفر ربه فيقول :

قلبي برحمتك اللهم ذو أنس ... في السر والجهر والاصباح والغلس
وما تقلبت من نومي وفي سنتي ... الا وذكرك بين النفس والنفس
لقد منت على قلبي بمعرفة ... بأنك الله ذو الآلاء والقدس
وقد أتيت ذنوبا أنت تعلمها ... ولم تكن فاضحي فيها بفعل مسى

---

(١) الرسالة ــ ص١١٦ .
(٢) الأم ــ ج١ ــ ص١٤٣ .

فامنـــن علي بذكـــر الصالحين ولا تجعـــل علي اذا في الديـــن من لبس
وكـن معـي طول دنيـاي وآخـرتي ويـوم حشري بما أنـزلت في عبس(٥٠-٥١)

وما أحر هذا التذلل وأندى هذه الاستغاثة وما أعذب هذه المناجاة الخاشعة المتبتلة من نفس تموج بين الخوف والرجاء :

بموقـف ذلي دون عزتك العظمـى بمخفـي سر لا أحيـط به علمـا
بإطـراق رأسي ، باعتـرافي بذلتـي بمد يدي ، أستمطـر الجود والرحمـى
بأسمائك الحسنى التـي بعض وصفهـا لعـزتها يستغـرق الـنثر والنظمـا
بعهـد قديم من ألست بربكـم بمن كان مجهـولا فعـرف بالأسما
أذقنـا شراب الأنس يامـن إذا سقـى محبـا شرابـا لا يضام ولا يظمـا(٧٧-٧٨)

(كان الشافعي قواما صواما . متعبدا ناسكا ، يعيش في محراب الحق مسبحا مناجيا ، يعبد الله بلسانه وقلبه ، ويعظ ويبشر ، وينصح ولا ينفر ، وقد عبر عن الكثير من دعائه وابتهالاته شعرا رقيقا ناصعا ، وصاغ ضراعته واستغفاره نظما نورانيا لامعا)(١) (إن الشافعي في ضراعته تلك كان يفرش لنفسه طريق الاخرة بالاستعبار والاستغفار ، وهو على يقين من أن الله سبحانه هو غافر الذنوب جميعا)(٢) (وكان الشافعي جالسا في مدينة الرسول بعد صلاة الصبح فدخل عليه رجل فقال له : اني خائف من ذنوبي أن أقدم على ربي وليس لي عمل غير التوحيد فطيب الشافعي خاطره ، وأذهب خوفه مستشهدا بقول الله تعالى : (وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ) وقال له : لو أراد الله عقوبتك في جهنم وتخليدك لما ألهمك معرفتك به وتوحيدك له)(٣) .

يقول الشافعي مناجيا ربه يرجو رحمته ويخشى عذابه :

خف الله وارجـوه لكـل عظيمـة ولا تطـع النـفس اللجـوج فتندمـا
وكـن بين هاتين من الخوف والرجـا وابشر بعفـو الله ، ان كنت مسلمـا
ولما قسى قلبـي وضاقت مذاهبـي جعلت الرجا منـي لعفـوك سلمـا
إليك ــ إله الخلق ــ ارفـع رغبتـي وإن كنت ياذا المنِّ والجود ــ مجرمـا
تعاظمنـي ذنبـي فلمـا قرنتـه بعفـوك ربي كان عفـوك أعظمـا
فما زلت ذا عفـو عن الـذنب لم تزل تجود وتعفـو منـة وتكرمـا

(١)(٢)(٣) د. مصطفى الشكعة ــ الامام محمد بن ادريس الشافعي ــ ص٨١ ، ص٨٣ ، ص٨٢ .

فلـولاك لم يصمـد لابلـيس عابـد ... فكيـف وقـد اغـوى صفـيك آدمـا
فيالـيت شعـري هل أصير لجنـة ... أهنـا وإمَّـا للسعير فأندمـا
فللـه در العـارف النـدب إنـه ... تفيض لفـرط الوجـد أجفانـه دمـا
يقيم إذا ما الليـل مد ظلامـه ... على نفسه من شدة الخوف مأتما
فصيحـا إذا ما كان في ذكـر ربـه ... وفي ما سواه في الـورى كان أعجمـا
ويذكـر أيامـا مضت من شبابـه ... ومـا كان فيها بالجهالـة أجرمـا
فصار قريـن الهم طول نهاره ... أخا السهد والنجوى إذا الليل أظلما
يقـول حبيبـي أنت سؤلي وبغيتـي ... كفـى بك للـراجين سؤلا ومـغنما
ألست الـذي غذيتنـي وهديتنـي ... ولازلت منانـا علي ومنعمـا
عسى من له الاحسان يغفـر زلتـي ... ويستـر اوزاري ومـا قد تقدمـا[1]

لقد كان الشافعي لشدة ايمانه بأثر الدعاء وثقته في قبوله ويقينه بسرعة الاجابة يدعو ربه ويطلب من غيره أن يدعو له (قال حرملة قال لى الشافعي : اذهب الى ادريس العابد ، فقل له : يدعو الله عزوجل لى)[2] أسوة بنبيه ﷺ الذي يقول لعمر رضي الله عنه لا تنسنى من صالح دعائك يا عمر لاتنسى من دعائك ياأخي .

ومن أدعية الشافعي رضي الله عنه وهي كثيرة (اللهم أمنن علينا بصفاء المعرفة وهب لنا تصحيح المعاملة فيما بيننا وبينك على السنة ، وارزقنا صدق التوكل عليك ، وحسن الظن بك ، وامنن علينا بكل ما يقربنا إليك مقرونا بالعفو في الدارين برحمتك ياأرحم الراحمين)[3] .

(اللهم انى لا أملك لنفسي نفعا ولاضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، ولا استطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني ، ولا أتقى إلا ما وقيتنى . اللهم فوفقنى لما تحب وترضي من القول والعمل في عافية) (اللهم انى أعوذ بنور قدسك وببركة طهارتك ، وبعظمة جلالك ، من كل عاهة وآفة وطارق الجن والانس ، الاطارقا يطرقنى بخير . ياأرحم الراحمين ، اللهم بك ملاذي فيك ألوذ ، وبك غياثي فيك أغوث ، يا من ذلت له رقاب الفراعنة ، وخضعت له مقاليد الجبابرة اللهم ذكرك شعارى ، ودثارى ونومى وقرارى

---

(١) ديوان الامام الشافعي ــ نعيم زرزور ــ ص٩٧ .
(٢) عبدالغني الدقر ــ الامام الشافعي ــ ص١٧٩ .
(٣) ديوان الشافعي ــ اسماعيل اليوسف ــ ص١٥ .

أشهد أن لا إله إلا أنت ، اضرب على سرادقات حفظك ، وقنى رعبى بخير منك يا رحمن)[1] ومن أشهر أدعية الامام الشافعي (اللهم يالطيف ، أسألك اللطف فيما جرت به المقادير)[2] كان الامام الشافعي يعيش ساعات الليل يتعاهد كتاب الله عزوجل حفظا وتدبراً وتعبدا ، وقد أنعم الله عليه بمزمار من مزامير داود فما أن يرتل القرآن حتى تنهمر الدموع من علماء مكة . ولقد كان يتفاعل مع القرآن حتى يملك عليه لبه ويهز كيانه ويرهف احساسه .. فقد سمع من يقرأ قول الله تعالى (هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾) المرسلات فبكى بكاءا مرا وتغير لونه واقشعر جلده واضطرب إضطرابا وخر مغشيا عليه فلما أفاق جعل يقول (أعوذ بك من مقام الكاذبين واعراض الغافلين ، اللهم لك خصعت قلوب العارفين وذلت لك رقاب المشتاقين إلهي فهب لي جودك وجللنى بسترك وأعف عن تقصيرى بكرم وجهك)[3] وكان رحمه الله إذا مر بآية فيها ذكر النار والعذاب تعوذ منها اسوة بالرسول ﷺ عن عائشة رضي الله عنها قالت كنت أقوم الليل مع رسول الله ﷺ ليلة التمام فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء ، فلا يمر بآية فيها تخويف إلّا دعا الله عزوجل واستعاذ ، ولايمر بآية فيها استبشار إلّا دعا الله عزوجل ورغب إليه . إستجابة لقول الله عزوجل (وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾) الاعراف .

يذكر الامام الغزالي هذه الحادثة التي يرويها الكرابيسى (قال الحسن الكرابيسى بتّ مع الشافعي غير ليلة فكان يصلى نحوا من ثلث الليل فمار أيته يزيد على خمسين آية فإذا أكثر فمائة آية وكان لايمر بآية رحمه إلا سأل الله تعالى لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ فيها وسأل النجاة لنفسه وللمؤمنين وكأنما جمع له الرجاء والخوف معاً)[4] والحق أنه قد جمعهما بالفعل معا . فلنتأمله كيف يجمع بين الخوف والرجاء فيقول :

خف الله وارجوه لكل عظيمة ولا تطع النفس اللجوج فتندما
وكن بين هاتين من الخوف والرجا وابشر بعفو الله ، ان كنت مسلما

فالخوف والرجاء (خطان متقابلان من خطوط النفس ، يوجدان فيها متجاورين

---

(١)(٢) عبدالغنى الدقر ــ الامام الشافعي ــ ص٣٨٤ .
(٣) الغزالي ــ احياء علوم الدين ــ ج١ ص٢٦ .
(٤) الغزالي ــ إحياء علوم الدين ــ ج١ ــ ص٢٥ .

مزدوجي الاتجاه . ان النفس ــ بطبيعتها ــ لتخاف وترجو هكذا ركب في فطرتها)[1] لقد كان الشافعي يدعو الله عز وجل ويناجيه بالمأثور عن رسول الله ﷺ فيستفتح الصلاة قائلا (وجهت وجهى للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتي لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين)[2] وفي الركوع يقول (اللهم لك ركعت ولك أسلمت وبك آمنت وأنت ربى خشع لك سمعى وبصري وعظمى وشعرى وبشرى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين)[3] وإذا رفع رأسه من الركوع قال (اللهم ربنا لك الحمد ملىء السموات والأرض وملىء ما شئت من شيء بعد)[4] فاذا سجد واقترب قال (اللهم لك سجدت ولك أسلمت وبك آمنت أنت ربى سجد وجهى للذي خلقه وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين)[5] فإذا ما انتهى من صلاته لهج لسانه بذكر ربه قائلا (لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ولا حول ولا قوة إلا بالله ولانعبد إلا إياه له النعمة والفضل وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون)[6] .

لقد عاش الشافعي رحمه الله مع هذه الأدعية يتمثلها ويتذوق معانيها ويتلذذ بها لسانه ويستعذبها جنانه ويحس بجمال القرب وحلاوة الوصال . ولقد حرص رضي الله عنه على تسجيلها في كتاب الأم لتكون نبراساً لكل مسلم إنها كانت سلوته وملاذه لله يستعلى بها على المشاكل وتهون معها الأزمات النفسية فيسمو بها صعداً وترتفع روحه المعنوية .

ألاما أعظم مدرسة الليل ففيها تتخرج خلاصة الرجال ، إنها تمنح الانسان (الانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفافسها ، والاتصال بالله ، وتلقي فيضه ونوره ، والانس بالوحدة معه والخلوة إليه ، وترتيل القرآن والكون ساكن ، وكأنما هو يتزل من الملأ الاعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلالفظ بشرى ولاعبارة ، واستقبال اشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته في الليل الساجي)[7] هذا هو زاد الشافعي وزاد كل مقيم لليل معتكف في محرابه . إن هذه العبادة تعطي النفس قوة (مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش ، بعد كد النهار ... ولكنها اعلان لسيطرة الروح واستجابة لدعوة الله ، وايثار للانس به ، ومن ثم فانها اقوم قيلا ، لان للذكر فيها حلاوته ، وللصلاة فيها خشوعها ،

---

(١) محمد قطب ــ منهج التربية الاسلامية ــ ص ١٥٥ .
(٢) الى (٦) الأم ــ ج١ ص١٠٦،ص١١١ ، ص١١٣ ، ص١٢٦ .
(٧) سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ ج٦ ــ ص٣٧٤٥ .

وللمناجاة فيها شفافيتها . إنها لتسكب في القلب أنسا وراحة وشفافية ونورا ، قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره .. والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه ، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً وتهيؤاً ، وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيراً فيه)[1] والحق أن أبشع جريمة وأشنع إثم إرتكبه الكثير من علماء التربية الحديثة انما هو اغفالهم دور العبادة في التربية ولكأن الانسان في نظرهم مادة جوفاء لاروح فيها ولا خير لها في صلتها بربها .

(١) سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ ج٦ ــ ص٣٧٤٦ .

ثامنا : التربيــة بالأحــداث الجــارية

من السمات البارزة في عصرنا الذي نحياه سرعة وقوع الاحداث وكثرة تتابع الوقائع ونزول الكوارث ، فهي تجري كجري السحاب وتنطلق انطلاق العقاب ويأخذ بعضها بحجز بعض فلا تتوقف بل تتنوع وتتشعب نتيجة حتمية وضرورة لازمة منطقية لسرعة المخترعات وظهور المهلكات والمدمرات فلا تكاد تمر ساعة إلا وتوافينا الأخبار بما وقع في العالم من انفجار في مستودع ذرى أو مختبر علمي أو زلزال خطير أو سيول تكتسح الأخضر واليابس أو هبوط في الأرض يبتلع قرى ووديانا أو عواصف تقلع أحياءاً وبلدانا ولعل من أهم وسائل التربية الحكيمة الاستفادة من الاحداث الجارية واستخدام هذه الأحداث بشكل فنى يخدم العمل التربوى ربطا للانسان بالعالم الذي يعيش فيه واستخلاصا للعبرة الحية في واقعه واستثارة لملكات الدراسين وحفزا لقوى التعليم وحواس الادراك والتربية لان هذه الأحداث تمثل بلاشك جزءا من عالم المتعلم يتأثر بها ويتفاعل معها وقد يؤثر فيها ويغير من مجراها . إنها صناعة موقف بالنسبة لاولئك الذين أوتوا حظاً من الخبرة الواعية والعزيمة المتوقدة القوية، فيتخذوا من آثار تلك الأحداث ونتائجها ما يكون منطلقاً للتغيير ذلك أن (من وسائل التربية الفعالة التربية بالأحداث.. أي استغلال حدث معين لاعطاء توجيه معين. وميزته على التوجيهات الأخرى التي تعطي للطفل باستمرار ، أنه يجيىء في اعقاب حدث يهز النفس كلها هزا فتكون اكثر قابلية للتأثير ، ويكون التوجيه أفعل وأعمق وأطول أمدا في التأثير من التوجيات العابرة التي تأتي على (البارد) والمربى لايستطيع بطبيعة الحال أن يفتعل الاحداث . فهي تجرى بقدر الله في الصغيرة والكبيرة سواء ... ولكن تطبيق المنهج يقتضى منه أن ينتهز الفرص المناسبة ليلقى دروسه التربوية في الأحداث التي تقع ــ بقدر الله ــ والتي يرى انها صالحة لتوجيه تربوى معين . سواء كان الانفعال بالحدث قائما في نفس الطفل بالفعل ، أو كان على المربى أن يثير ذلك الانفعال . بتعليقاته عليه ، حتى إذا علم ان التوهج الشعوري قد حدث داخل نفسه اعطاه التوجيه المطلوب)[1] وانظر إلى مربى البشرية محمد ﷺ يعرف ما للحدث الجاري من تأثير في نفوس الناس فيستغله في الوقت المناسب لتثبيت

---

(١) محمد قطب ــ منهج التربية الاسلامية ــ ج٢ ص١٥١ ــ ١٥٣ باختصار .

العقيدة ويوظفه لتقوية الايمان وقطع وساوس الشيطان وابعاد ما يلقى في النفوس من شرك في مثل هذه المواقف التي تتطلب يقظة من المربى وسرعة في التصدى . يموت ولده ابراهيم ومن قبيل المصادفة البحته تخسف الشمس في هذا اليوم ويربط الناس بين موت ابراهيم وبين خسوفها ويقول البعض ان الشمس خسفت لموت ابراهيم ــ اي حزنا عليه ــ ولكن المعلم البصير ﷺ يرى أن من الخطر أن يترك هذا الحدث بدون التصدى له فيعشعش الوهن والزيغ في نفوس الناس ، فيقف فيهم خطيبا ويقول أيها الناس ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم شيئا من ذلك فافزعوا إلى الصلاة .

وبهذا قضى ﷺ على خرافة يستغلها السذج توحى بصلة الكواكب والنجوم بالانسان وارتباطه بها . إن على المعلم أن يكون قريبا من طلابه فهو بالنسبة لهم الأب الحاني والطبيب الآسى ، يعرف كيف يعطيهم حاجتهم من الطعام والعلاج في الوقت المناسب إنه يهيؤهم ويوجههم إلى أمثل الطرق لتحصيل العلم والانتفاع به وبمقدار هذا القرب والتفاعل مع الطلاب تعرف مكانة الأستاذ ومنزلته عندهم ودرجة تأثيره فيهم واقبالهم عليه . ومن هنا كان مطالبا أن يمهد للدرس وأن يثير أشواق الناشئة ويجذب انتباهم ويرهف حسهم حتى يكونوا آذانا صاغية وقلوبا واعية مستعدة تمام الاستعداد فتتمكن قضايا العلم من قلوبهم أي تمكن وليس يقدر على ذلك إلامثل هذا الأستاذ الذي يعمل دائما على تجديد الانتباه وخلق اليقظة المستمرة عن طريق ربط الطلاب بمجتمعهم ومعايشتهم اليومية لقضاياهم وليس أنجح في ذلك من وسيلة استغلال الحدث واستهلال الدرس بشيء واقع أو حدث معايش. في إحدى الولايات الأميركية ذهب أستاذ كبير إلى دار لايواء الاحداث ليحاضرهم ويبصرهم تربويا إلى مايصلح أمرهم ويقوم شأنهم ويعدل سلوكهم ، فلما كان قريبا من قاعة المحاضرة تعثر فسقط على الأرض فأغرق الاحداث في الضحك عليه ... وعرف هذا الأستاذ النابه أن الجو غير مهيأ له بعد هذا الذي حدث لالقاء المحاضرة ، ولكنه أصر على الكلام معهم مستغلا هذا الحادث في لفت نظرهم إلى أليم واقعهم ووضعهم أمام حقيقتهم ... فقال لهم حين لم يجد إستعدادا للسماع عندهم كلمة كانت لها وقع مؤثر في نفوسهم ، قال أنا سقطت ثم نهضت ، أما أنتم فسقطتم ولكنكم لم تنهضوا .

إن المدرس الناجح هو الذي يعمد الى الحدث الجاري فيتخذه مادة تربوية في العملية التعليمية فاذا لم يجده اصطنعه واخترعه . أرأيت الى رسول الله ﷺ وهو يقوم بدعوة

الناس في بدء الرسالة يصعد على الصفا ثم ينادي يابنى عبدالمطلب يابنى كذا .. ثم يصور لهم حدثا يمكن وقوعه ليعدهم إلى سماع ذلك الأمر الذي أمر الله به أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ويشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وذلك لتمكين اليقين بصدقه فيقول صانعا للحدث أرأيتم لو أخبرتكم بأن خيلا وراء هذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا قط قال فانى رسول الله إليكم بين يدى عذاب شديد .

ولقد كان هذا الاسلوب هو منهج النبى ﷺ في التبليغ والتعليم والتربية من مثل قوله ﷺ أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرا .. أتدرون من المفلس .. ويل للعرب من شر قد اقترب ... كيف بكم إذا حكم جهالكم وولى سفاؤكم .. ألا ليذادن رجال عن الحوض يوم القيامة .. وغير ذلك كثير وكثير .. وهو اسلوب ينبع من الذكر الحكيم وأنت واجد في كتاب الله عزوجل استعمال الحدث في استثارة الايمان وتأصيل الخشية في القلوب من مثل قول الله .. أتى أمر الله .. اقترب للناس حسابهم .. اقتربت الساعة وانشق القمر .. أزفت الآزفة .. الغاشية ... القارعة ... والقرآن كله أحداث وقعت أو ستقع والهدف من ذكرها هو ان يفعل الحدث فعله فيهز النفوس ويملؤها بالخوف والرهبة من الله عزوجل ليصل الى نمط من التربية المهذبة والخلق الفاضل والسلوك الحميد ، بل ان القرآن يعمد إلى وضع الحدث الماضي أمام السامعين حتى يعتبروا بمن مضى ويعملوا على أن لايقعوا في مثل ماوقع فيه السابقون ... ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ ﴾ وما قص الله علينا نبأ الرسل مع أقوامهم إلا من قبيل تصوير الحدث السابق ووضعه أمام الحاضرين زجراً وتخويفاً من أن يحل بهم ما حل بالغابرين من مثل قوله تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ ﴾ ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ وما نزل القرآن الكريم منجما على مدى ثلاثة وعشرين عاما إلا ليتناسق مع الأحداث ويواكب الوقائع ويعالج قضايا وقعت في المجتمع .

فآيات القرآن المكى نزلت لترسى دعائم العقيدة وتصحح مفاهيم الناس في الخلق والحياة والرزق والأجل وتبين الهدف من صنع الانسان ودوره في صنع الحياة عابداً لله قائما بحقه في الخلافة وعمارة الكون ثم الايمان بالبعث بعد الموت والحساب والميزان والثواب والعقاب والجنة والنار الى غير ذلك من قضايا العقيدة واليوم الآخر ومصائر الناس فيه ولتبطل كيد الكائدين وترد المنحرفين عن الجادة وتردع أصحاب البدع والضلالات والتقليد والأهواء . والقصص في القرآن وجله نزل في العهد المكى انما جاء تطبيقا لتلك المبادىء الكريمة ولتلك الاحداث التي وقعت للانبياء وموقف الانبياء من أقوامهم ومعالجة أمورهم وفق منهج الله عزوجل ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ يوسف ١١١ أما في العهد المدنى فقد نزلت الايآت وفاءاً للأحداث وتشريعاً للاسباب ففصلت العبادات ورسمت الحدود وبينت قوانين البيع والشراء وعقود المعاملات وقوانين السلم والحرب وتحليل الحلال وتحريم الحرام وأوضحت صلة المؤمن بأهله وبمجتمعه وبالبشرية جمعاء ، وذكرت سنن الله الكونية وأسهبت في معالم الغزوات الاسلامية .

وهكذا كان القرآن الكريم كله علاجا لأحداث جرت في المجتمع الاسلامي وقد لعبت الأحداث الجارية دورها في حياة الامام الشافعي كأسلوب من أساليب التربية المهمة فاتخذها أداة صالحة للتعليم يفتح بها الدروس ويسوقها لطلابه لاعدادهم للاقبال على العلم وتهيئة الجو المناسب له . وإذا ذهبت تحصى مواقف الشافعي للتدليل على براعته في توظيف الاحداث الجارية لخدمة العلم والمتعلمين فانك ترى ان كل مواقفه وأيامه وتدريسه وتأليفه ومناظراته ومواعظه ونصائحه ... وهو مع تلاميذه أو في بيته أو في المسجد أو في السفر في كل أحواله كان نموذجا لاستغلال الحدث الجاري في التعليم واعطائه شحنة من الحياة وتسليط الأضواء عليه لاستخلاص الغاية التي تخدم الهدف منه (لما دخل الشافعي المسجد في بغداد لصلاة المغرب رأى غلاما حسن القراءة يصلي بالناس فصلي خلفه فسها الغلام في الصلاة ولم يعرف كيف يفعل .. فقال له الشافعي أفسدت صلاتنا ياغلام ثم بدأ من حينه في وضع كتاب في السهو في الصلاة وقد فتح الله عليه فجاء كتابا ، كبيرا اسماه (الزعفران) نسبة إلى ذلك الغلام الذي سها في الصلاة)[1] (وقال أحمد بن يحيى بن الوزير خرج الشافعي رحمه الله تعالى يوما من سوق القناديل فتتبعناه فاذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم ، فالتفت الشافعي إلينا وقال

(١) انظر محمد زهرى النجار ــ مقدمة كتاب الامام الشافعي ــ ص.ج .

نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به فان المستمع شريك القائل وان السفيه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم ولو ردت كلمة السفيه لسعد رادها كما شقى بها قائلها)[1] .

روى البيهقي بإسناده في مناقب الشافعي أن الشافعي بلغه أن عبدالرحمن بن المهدي رحمه الله مات له ابن فجزع عليه عبدالرحمن جزعاً شديداً ، فبعث إليه الشافعي رحمه الله : ياأخي عزِّ نفسك بما تعزى به غيرك ، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من فعل غيرك . واعلم ان أمضَّ المصائب فقد سرور وحرمان أجر ، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر ؟ فتناول حظك ياأخي إذا قرب منك قبل أن تطلبه وقد نأى عنك ، ألهمك الله عن المصائب صبرا ، وأحرز لنا ولك بالصبر أجراً وكتب إليه :

إنى معـــزيك لا لأنى على ثقـــــه من الخلـود ولكـن سنـة الديـــن
فمـا المعـزي ببـاق بعـد ميتـــه ولا المعـزى ، ولـــو عاشا إلى حين

والمدرس الناجح هو الذي يتخذ من الأحداث التي تمر في حياته نموذجاً لتوجيه التلاميذ وتعليمهم فمثلا إذا أراد أن يدرس لهم الصيام انتهز فرصة صيامه يوم الاثنين والخميس فدرسهم وهو صائم عن أثر الصيام في تربية النفس وتكوين الخلق الفاضل من الصبر وقوة الاحتمال والشعور بحاجة الغير ثم عن أثره الاجتماعي وما يعود ذلك على الطالب من أسوة بنبي الاسلام ﷺ الذي اقتدى بسنته. فإذا ما أراد أن يبين لهم قيمة الدنيا وأنها هي معبر إلى الآخرة الباقية الدائمة هون لهم أمر الدنيا وصنع لهم حدثا، فأخذهم في رحلة إلى المقبرة ليزوروا القبور ويروا النهاية الحتمية للانسان ، وان الجميع تحت التراب متساوون وقد انتهت بهم حركة الحياة وإذا أراد أن يبين لهم مدى قدرة الله تبارك وتعالى إصطحبهم في رحلة الى الخلاء فرأوا السماء الصافية والأرض الممتدة والزروع الخضراء والأشجار الباثقة ثم فتح أبصارهم على قدرة الصانع الذي أبدع هذا في كونه وهكذا يصطنع الاستاذ الحدث أو يحدد للحدث الوقت المناسب لتبصير الطلاب .

وصدق شـوقـي إذا يقول :

إنما الأيـــام والعـــيش كتـــاب كل يوم فيـــه للـــعبرة باب[2]

(١) الغزالي ــ إحياء علوم الدين ــ ج١ ــ ص٢٥ .
(٢) الشوقيات ــ ج٤ ــ ص٣٦ .

تاسعا : التربية بالترغيب والترهيب

من طبيعة الانسان أنه يفرح ويحزن وأنه يرضى ويغضب ، وأنه يسعد بالترغيب ويتألم ويشقى من الترهيب ، ليس في يقظته فحسب بل حتى في منامه ، فلو أن إنسانا رأى في منامه من يخيفه أو من يضربه لرأيته وهو في نومه يرتجف ولو سألته حين يستيقظ لوصف لك مقدار ألمه من الضرب واضطرابه من الخوف . وقد خلق الله الانسان هكذا ، وجعل له الجنة وما فيها من خيرات في الآخرة نموذجا للترغيب ونحن نجد في القرآن أمثلة كثيرة للترغيب بدخول الجنة ورفع الدرجات فيها ، ووصف ألوان النعيم التي يحظى به أبناؤها ، كما نجد صورا من الترهيب بما يحضر الانسان في موته وقبره وعلى الصراط والميزان ثم ما يلقى بعد ذلك من خوف العذاب في النار ومن ثم فان وظيفة الرسل جميعاً عليهم السلام تنحصر في هذين العاملين (فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) البقرة ٢١٣ والله العليم الخبير يعلم أن كثيرا من خلقه يعالج بالترغيب وأن منهم من لا يصلحه إلا الترهيب . والترغيب والترهيب كلاهما وسيلة من وسائل التربية وعامل من عوامل التعليم عليهما قامت الرسالات السماوية وبهما نهضت دعوات الاصلاح الاجتماعية ، إنه أساس بناء الأمم السابقة واللاحقة ولا تخلو أمة من معلم يقود الجيل فيذكر بالله ويبشر وينذر ويرغب في الخير ويرهب من الشر . والواقع أنه كما (تقاد النفس عن طريق الرغبة تقاد عن طريق الرهبة)[1] (وهذا الاسلوب يتمشى مع طبيعة الانسان ، فالانسان يتحكم في سلوكه ويعدل فيه بمقدار معرفته بنتائج سلوكه وما يترتب على هذا السلوك من منفعة أو ضرر . لكن اسلوب الترغيب أفضل من اسلوب الوعيد والترهيب لان الاسلوب الأول ايجابي واثره باق ، إذ يعتمد على استثارة الرغبة الداخلية للانسان ، في حين ان الاسلوب الثاني سلبي يعتمد على الخوف)[2] .

روى البخاري وأحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال . قال رسول الله ﷺ (علموا ويسروا ولاتعسروا ، وبشروا ولا تنفروا وإذا غضب أحدكم فليسكت) يقول الشافعي في الترغيب بترك المعاصى والالتزام بطاعة الله المنعم المستحق الشكر على

---

(١) محمد الغزالي ــ مع الله ــ ص٣٢٥ .

(٢) د. محمد كمال وآخرون ــ الفكر التربوي ــ ص١٦٦ بتصرف .

نعمائه :

تعصى الالـه وأنت تظهـر حبـه هذا محال في القيـاس بديـع
لو كان حبك صادقـا لأطعتـه إن المحب لمن يحب مطيـع
في كل يوم يبتـديك بنعمـة منـه وأنت لشكـر ذاك مضيـع[٥٨]

وفي ترغيبه لطالب العلم يقول ان العلم أصل لكل فضل واساس كل فخر واحذر ان يفوتك رجاء ان تنال الفخر والرئاسة به :

العلـم مغـرس كل فخـر فافتخـر واحـذر يفـوتك فخـر ذاك المغـرس
فلعـل يومـا إن حضرت بمجـلس كنت الرئـيس وفخـر ذاك المجلس[٥٢]

ويرغب في زيارة الأصدقاء والجيران والأقارب فيجعل في ذلك السيادة وطيب الذكر والاسراع في النجدة عند النوازل فيقول رحمه الله :

ومن يقض حق الجار بعد ابـن عمـه وصاحبه الأدنى على القـرب والبعـد
يعش سيداً يستعذب النـاس ذكـره وإن نابـه حق أتـوه على قصد[٤١]

ويرغب الامام الشافعي تمشيا مع اسلوب القرآن الكريم بالفردوس الأعلى ومعانقة الأبكار فيها ويبين أنها المتاع الباقي الخالد فاحرص على أن تعتز به وتترك من أجله المتاع الفاني الذي لابقاء له وأنت مفارقه لامحالة :

يامـن يعانـق دنيـا لابقـاء لها يمسى ويصبـح في دنيـاه سفـارا
هلا تركت لذي الدنيـا معانقـة حتـى تعانـق في الفـردوس أبكـارا
إن كنت تبغى جنـان الخلـد تسكنها فينبغـي لك ان لا تأمـن النـارا[٢٤٢]

وها هو سيد الخلق ﷺ يذكر المسلم مرغبا له في الحور العين المقصورات في الخيام كما ذكر القرآن الكريم وكان ﷺ يذكر لأصحابه رضوان الله عليهم نشيد الحور العين في جنان الخلد يقلن[١] :

نحن الخالـدات فلا يمتنـه نحن الآمنـات فلا يخفنـه
نحـن المقيمـات فـلا يظعنـه
نحـن الخـيرات الحسـان أزواج قـوم كـرام
ينظـرن بقـرة أعيـان
نحـن الحـور الحسـان نُحبئنـا لأزواج كـرام

---

(١) انظر ــ ص.ج.ص.ج١ ١٥٦١ ــ ١٦٠١ .

تنتهى التربية الحديثة عند موت الإنسان لكن التربية الإسلامية بشمولها وكمالها تستغل مابعد الموت باصلاح ماقبل الموت (وقد تدفع الناس الى الرضا بمكاره الحق ، واحتمال تكاليف الايمان بما قد ينتظرهم هناك ... في الدار الآخرة من نعيم مقيم ومنزل كريم ... ألا ترى الفارس المسلم جعفر الطيار يخوض غمرات الموت ويواجه حر الكفاح .. وهو يرتجز :

ياحبـــذا الجنـــــة واقتـــــرابها طيبـــــــة وبـــــــارد شرابها

إن الدنيا منقضية لا محالة ، إذ من الذي خلد فيها قبلنا ؟ كيف يمهد الانسان لنفسه حياة بعدها ؟)[1] وهكذا تمتد ، وسائل التربية الاسلامية الى ما بعد الموت وتتسع آفاقها لتشمل تربية الانسان وتهذيبه بالترغيب والترهيب حتى بعد الموت . ألا ما أتفه وأضيع هذه الأفكار التي تتبناها بعض وسائل الاعلام التربوية وهي تعمل على تحطيم هذه القيم الثابتة وتزدرى بوسائل الترغيب والترهيب فنجد في مجلة المعلم العربي وهي مجلة سورية قول الشاعر :

يلـــوذ بالغـــيب من هانت شمائلـــه ويـــــــركب الهول قلب لاذ بالشيم

ثـــم يقـــول :

تكشف الجمـــع عن صبر ومعـــــذرة إنى كفـــرت برب الصبر من حكـــم

(ومن العجيب ان تنشر هذه القصيدة مجلة المعلم العربي التي يدعى محررها أن هذه المجلة هي المجلة التربوية الوحيدة التي أنشئت لأجل غرس بذور الايمان والأخلاق والعلم في نفوس المعلمين والطلاب . وإذ تطالعنا بهذه القصيدة الملحدة التي يتقاطر منها الحقد واللؤم والخبث .. على عقائد الأمة ، ورسالات الانبياء !!)[2] حين اعتبرت التربية العربية ـــ الله والجنة والنار ـــ دمى محنطة في متاحف التاريخ جنينا النكسات الأربعة .

ما وراء الموت مدرسة لالهاب قلوب الرجال وتربية الأجيال على موازين القسط والعدل والميزان ، مدرسة تعلم فعل الخيرات واجتناب المنكرات ، مدرسة لايقاظ الضمير الحى ، مدرسة للهداية والاستقامة ، وكم من جاحد وفاسق عاد الى الرشاد حين تأمل حاله وتدبر مآله (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝) الكهف

ولسوف يسألون عما كانوا يفترون ! ولكن حينما لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم !.

---

(١) محمد الغزالي ـــ مع الله ـــ ص٣١٤ .

(٢) عبدالله ناصح علوان ـــ الاسلام والقضية الفلسطينية ـــ ص٥١ .

وكما رغب الشافعي في مثوبة الله وحسن جزائه وما أعده للمؤمنين من جنات وحور ونعيم وروح وريحان ورزق كريم فانه عمد الى الترهيب مكملا به فحين لا يجدي الترغيب يتجه الى الترهيب من عذاب الله عز وجل وما ينتظر اولئك المخالفين من أهوال الموت والقبر والعذاب والحساب والميزان والصراط والنار والوعيد . ولا يقتصر الترهيب على ما ينتظر الانسان بعد الموت بل إنه يرهب بآثار ونتيجة ما يقترف الإنسان من ذنوب وآثام في الدنيا فيرهب الشافعي الظالم ويخوفه من نهايته الفاجعة وعاقبته المحتومة في الدنيا قبل الآخرة فان الظلم مرتع مبتغيه وخيم فيقول :

فكم قد رأينا ظالما متمردا ... يرى النجم تيها تحت ظل ركابه
فعما قليل وهو في غفلاته ... أناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح لا مال ولا جاه يرتجى ... ولا حسنات تلتقى في كتابه
وجوزى بالأمر الذي كان فاعلا ... وصب عليه الله سوط عذابه(٢٤)

وفي ترهيبه في من يعيش على الأمانى الكاذبة مع مخالفة قوله لفعله ومظهره لجوهره يقول :

تبغى النجاة ولم تسلك طريقتها ... إن السفينة لاتجرى علي اليبس
ركوبك النعش ينسيك الركوب على ... ما كنت تركب من بغل ومن فرس
يوم القيامة لا مال ولا ولد ... وضمة القبر تنسى ليلة العرس(٥١)

ويرهب مقترف الزنا ومنتهك الحرمات المعتدي على الأعراض فيضع أمامه ميزان العدالة الذي يحكم بالقصاص منه في الدنيا في عرضه ثم ما ينتظره من عقاب في الآخرة إن لم يتطهر في الدنيا بالحد ثم يستغفر الله فيقول :

عفوا تعفف نساؤكم في المحرم ... وتجنبوا مالا يليق بمسلم
إن الزنا دين فان اقرضته ... كان الوفا من أهل بيتك فاعلم(٧٦)

وهذا أمر تنفر منه النفوس الأبية وتشمئز منه الاخلاق العالية . وبالاقناع المنطقي والترهيب الواقعي يتربع هذا الاسلوب على وسائل التربية ليهز أعماق الكرام وليكون أقوى وسيلة للتأديب والتهذيب والعفاف . وليس من شك في أن الشافعي وهذا نهجه في الإصلاح أمسك بزمام القيادة ودانت له الريادة ، وكان مرشداً أمينا وناصحاً فطنا استخدم فنون الترغيب والترهيب في شعره ونثره ، في قوة واقتدار . (قال الجنيد كان الشافعي رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدنيا ، وعظ أخا له في الله وخوفه بالله فقال : ياأخي إن الدنيا دحض مزلة ودار مذلة عمرانها إلى الخراب صائر

وساكنها إلى القبور زائر شملها على الفرقة موقوف وغناها الى الفقر مصروف الاكثار فيها إعسار والاعسار فيا يسار ، فافزع إلى الله وارض برزق الله ، لا تتسلف من دار فنائك الى دار بقائك فان عيشك في زائل وجدار مائل ، اكثر من عملك واقصر من أملك)[1] إنه الترهيب الذي يلهب النفوس فيملؤها بالخشية من الله ويبعث العزائم ويوقظ الهمم الراكدة ويجعلها متوثبة الى الخير وجلة من التوجه الى الشر . فمن شأن مثل هذه الكلمات الحية النابضة الناطقة بلسان الحق المشحونة بالكلم الطيب الزاجر ، أن تزيل الران عن القلوب وتنير البصائر وتجلوها من غبش الغفلة وركام الشرود ، ويستشعر القلب وهو يرى هذه الحقائق واقعة رأى العين ، وتلك وظيفة المعلم الناجح إن يعمل دائما على إيقاظ العقل وتنبيه الفكر ، ويهز أعماق المتعلم ويوقفه أمام حقيقته التي لا محيد عنها .

الموت حق ، ولكنه كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه (ما رأيت حقا أشبه بباطل من الموت) فلماذا ؟ (كل الناس يعلمون هذا ، ولكن حب الدنيا والاسترسال مع الهوى غطى القلوب ، وأعمى البصائر فصار الموت ورؤية الجنائز ، لاتزيد الانسان إلا غفلة ، ومشاهدته لها إلا قسوة وجفوة . نعم يعلم الانسان علم اليقين انه سيموت كما مات هذا ، ولكنه لايظن ان ذلك كائن من قريب ولا يحسب أنه منه غير بعيد ! ولهذا تكون الغفلة وتكون القسوة والجفوة)[2] .

ومن ثم كان على المربى الرشيد والمعلم الأريب ألا يتجاهل تلك الحقائق أو يتغافل عنها ، إن عليه أن يتعاهد التذكير بها وأن يوالى استحضار صورها أمام طلابه ومريديه بإسلوب الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى . يرغب الشافعي في السخاء والكرم ويبين أنهما يغطيان العيوب ويستران السخى من الذم فيقول :

(السخاء والكرم يغطيان عيوب الدنيا والآخرة بعد أن لا يلحقها بدعة)[3] ويقول رحمه الله :

وان كثرت عيوبك في البرايا ... وسرك ان يكون لها غطاء
تستر بالسخاء فكل عيب ... يغطيه ـ كما قيل ـ السخاء[16]

ويقول : (للمروءة أربعة أركان حسن الخلق والسخاء والتواضع والنسك)[4]

---

(١) الغزالي ـ إحياء علوم الدين ـ ج٣ ص٢٠٦ .
(٢) علي صالح الهزاع ـ التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة ـ ص٢ .
(٣)(٤) النووي ـ تهذيب الأسماء واللغات ـ ج١ ـ ص٥٥ .

وبرفق المعلم الرحيم ولين الاب الشفيق يرغب الشافعي طلابه الى اكتساب الخصال الحميدة والآداب العالية الكريمة فيقول (من أحب أن يفتح الله قلبه أو ينوره فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه واجتناب المعاصي ويكون له خبيئة فيما بينه وبين الله تعالى من عمل . وفي رواية فعليه بالخلوة وقلة الاكل وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب ويقول من أحب أن يقضي الله له بالخير فليحسن الظن بالناس)[1] ويجمع الشافعي اسلوبي الترغيب والترهيب فيرغب في صدر البيت في جنان الخلد وسكناها ويرهب في عجزه من النار مقدما الترغيب على الترهيب فيقول :

إن كنت تبغى جنان الخلد تسكنها فينبغى لك ان لا تأمن النارا[2]

والحق أن (عواطف البشر نحو الفضيلة والرذيلة مرتبطة بالترغيب والترهيب ، فتوجيه الانسان نحو حب الفضيلة خير تتحقق به سعادة الانسان في الدنيا والآخرة ، والرذيلة شر يؤدى إلى الهلاك في الدنيا والآخرة ، والمثوبة والعقوبة وسيلتان للترغيب والترهيب . فإذا إقترن فعل الفضيلة في ذهن الطفل بالمثوبة وادخال الفرح والسرور في نفسه ماديا أو معنويا نشأ على الفضيلة ، كما ان ارتباط الرذيلة بالعقوبة والحرمان والتأنيب وعدم الرضا ينشئه على كراهية الرذيلة)[3] ومن مواقف الشافعي التربوية في الترغيب إذكاء روح التنافس بين طلابه وتهييج ملكات التسابق بينهم ، يقول الحميدى تلميذ الشافعي (كان الشافعي ربما ألقى علي وعلى ابنه أبى عثمان المسألة ، فيقول أيكما أصاب فله دينار)[4] وتبدأ بعد ذلك المنافسة الشريفة لنيل الجائزة ، وكان رحمه الله لا يقصر وسائل التربية على مجلسه ودروسه أو بين أبنائه وطلابه فقط بل كان ذلك طابعه الذي لايفارقه ، يستثمر هذا في كل موقف يعرض له فكان إذا مرَّ في طرقات مصر نزل إلى واقع الناس يشاهد لهوهم ولعبهم كما شاهد جدهم ، فإذا رأى راميا يجيد الرمى شجعه بالكلمة الطيبة ورفع من روحه المعنوية وأسهم في تكريمه ماديا بقدر استطاعته فيكون هذا الاسهام تشجيعا للفائز وجزاء له ويكون لغيره حافزا . وباسلوب الترغيب درب ابنه محمدا على ركوب الخيل ثم اختبره فلما أجاد الكر والفر وأحكم سيطرته على الفرس أهداها له ترغيبا له وتشجيعا .

(١) النووي ــ تهذيب الأسماء واللغات ــ ج١ ــ ص٥٥ .
(٢) د. عباس محجوب ــ أصول الفكر التربوي في الاسلام ــ ص٣٠٢ .
(٣) الرازي ــ مناقب الشافعي ــ ص٩٧ .

عاشرا : الثـواب والعقـاب ودورهمـا في التـربيـة

الإنسان دائر بين أمرين لا ثالث لهما إما أن يفعل خيراً فيثاب عليه وإما أن يقترف شراً فيعاقب عليه ، هكذا خلقه الله جسدا يسعد بالتكريم والمكافأة ويتألم حين يعاقب ولو معنويا فتتألم نفسه ويتعب جسده ويشعر بالإحباط النفسي ومن هنا نجد القرآن الكريم يقابل دائما بين عمل الخير والثواب عليه وبين عمل الشر والعقاب عليه (فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾) الحج ومن هنا فللثواب أثره البليغ في رفع روح الانسان وجعله يشعر بسعادة غامرة وسرور كبير وراحة نفسية تضاعف من نشاطه وتزيد من جهده وتجعله أكثر إسراعاً وأقوى انطلاقا إلى الأعمال والإنتاج والتربية والتعليم خاصة وهو يجد الكلمة الطيبة والتشجيع المستمر والمكافأة المبذولة والتزكية المتوالية لجهده وعمله والاستاذ البصير هو الذي يتابع طلابه بالتكريم والتمجيد لأعمالهم واستغلال كل الفرص لتشجيعهم على التنافس ورصد المكافأة وعمل الاحتفالات التي يبرز فيها فوزهم وتقدمهم حتى ينشأوا وقد تربت عندهم الثقة في أنفسهم واستقلت شخصياتهم وعرفوا بفضل الرعاية التربوية من أساتذتهم مكانهم وتفردهم وبهذا تبنى الرجال وتصنع الأجيال ولا خلاف بين القدامى والمعاصرين من رجال التربية وأساتذة التعليم في كل جيل على تأثير الثواب في العملية التعليمية والتنشئة التربوية أما العقاب فهو اسلوب من أساليب التربية يلجأ إليه حين لايكون الانسان سوى الخلق بل يكون متحللا بليد الطبع متمرد السلوك ، ولا ينفع معه اسلوب التربية الهادىء ولا التقويم المتزن ، فبعد أن يفرغ المربى من أساليب الترغيب والترهيب والثواب ويعالج بحكمته وحنكته عوجه والتواءه حينئذ يأتى العقاب جزاءا وفاقا .

والله العليم الخبير جعل العقاب طريقا للتربية وسبيلا لاصلاح الفرد والمجتمع ففى تنشئة الطفل يؤمر بالصلاة لسبع سنين ثم يوالى أمره ويتابع تعويده عليها حتى يبلغ عشر سنين فاذا لم يستقيم على أدائها يأتى قول الرسول الله ﷺ (واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع)[1] .

(١) ص.ج.ص.ج٢ ٤٠٢٦ .

وكذلك في علاج المرأة يلجأ الى العقاب بالضرب بعد العلاج بتطييب الخاطر وارضاء النفس وحسن المعاشرة والتودد واظهار مشاعر العطف والرحمة وتحقيق الرغبات بالمعروف فاذا بقيت على تعنتها وأقامت على عوجها وتصلبت بنشوزها حينئذ يلجأ إلى الموعظة فيبين لها الميثاق الغليظ والرابطة الزوجية وحرص الاسلام على استدامتها وأن المرأة انما تفوز في الآخرة وتدخل الجنة برضا زوجها عليها ، وأنها إن أغضبته فلن تراح رائحة الجنة ، وأن واجب الوفاء والتذمم يقتضيها أن تكون نعم المرأة لزوجها فاذا لم ينفع ذلك لجأ الى الهجر في المضاجع لاشعارها بأنها حيث ركبت رأسها وغالت في بغضها أصبح زوجها لايهتم بها ، فاذا لم ينفع ذلك أيضا فحينئذ (وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا) النساء٣٤ إنه حين يجنح الغلام أو المرأة ولا يمكن علاجهما بالحسنى يلجأ الى الضرب كضرورة تزول حينما يزول موجبها ، أي فاذا صلى الغلام وصلح حال المرأة فلا ضرب لان الضرورة تقدر بقدرها ، وحين يصل الانسان الى أن يرتكب من الجرائم الشنيعة والمنكرات الفظيعة مايكون خطره جسيما وأثره وخيما فيعتدى على العرض ويعتدى على الحرمات أو ينال من المحصنات أو يشرب الخمر أو يتربص بالمجتمع الأذى يصل العقاب الى ان يكون زاجراً رادعا حافظا للمجتمع حامياً للاسرة والأفراد فيضرب الزانى غير المحصن مائة جلدة .. ولا مكان حينئذ للرأفة (فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢) النور٢ أما من يفترى على الحرائر ويقذف المحصنات (فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤) النور ويصل العقاب الى الموت بالرجم للزانى المحصن ولقاتل النفس عمدا وللمرتد عن دينه ولمن خرج على المسلمين أي حد الحرابة ، وذلك كله حفظاً لحدود الله وسداً لباب الجريمة وحماية المجتمع (وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧٩) البقرة أما التعزير فيمكن للحاكم وقد فوض الأمر في تقديره أن يضرب الحد منقصا منه جلده أي يضرب تسعاً وثلاثين جلدة وأقل من ذلك .. فالتعزير (عبارة عن التأديب دون الحد . وكل ماليس فيه حد مقدر شرعا فموجبه التعزير) [1] وصدق القائل :

فقسا ليزدجروا ومن يك راحما فليقس أحيانا على من يرحم

إن هدف (الشريعة في مسلكها في العقوبة ، إنما هو إصلاح النفوس وتهذيبها ،

(١) الموسوعة الفقهية ــ ج١٢ ــ ص٢٤٣ .

والعمل على سعادة الجماعة البشرية . وأنها لم تدع سبيلا لهذا الغرض إلا اتخذته ، وحثت عليه ، وأمرت بمراقبته وأنها لم تكن فيما وضعته من عقوبات إلا كطبيب حاذق رأى بعد بذل غاية وسعه في العلاج ، أن سلامة المريض وانقاذ حياته تستدعى بتر بعض الاعضاء ، فيسلم المريض ، أو كربان ماهر ، رأى أن إنقاذ السفينة من الغرق ، يستدعى إلقاء بعض الأمتعة في البحر ، فتنجو السفينة ومن فيها . وأنها لم تكن شديدة الحرص على الحكم بالعقوبة وتنفيذها ، إلا بقدر ما يتصل بها من صلاح ، وأنه إذا ما تحققت شبهة ما ، أو تحقق الصلاح المقصود ، أو تحقق العفو الذي حببته الى النفوس ، كانت في حل من اسقاط العقوبة)[1] .

والله عزوجل له الخلق والأمر (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) الملك ١٤ ولو أن المسلمين طبقوا تعاليم دينهم لاستقر الأمن وسعدت الحياة . بيد أن التربية بالعقاب قد اشتد فيها الإختلاف وتعددت فيها القوانين والآراء فمن مانع للعقاب كلية ومن مبيح له وقد وضعت قوانين تحرم الضرب وتعاقب المدرس الذي يلجأ إليه ثم عدلت ولأنها قوانين وضعية فالاختلاف طبيعي لان الذي يضعها ذو خبرة ونظرة قاصرة ينظر الى جانب واحد وينسى جوانب متعددة وصدق الله تعالى (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾) النساء تارة يعتبرون العقاب البدنى اسلوبا غير حضارى ويصفونه بالوحشية وأخرى يعتبرونه اسلوبا تربويا رشيدا ، حتى أضحت المراجع التربوية تتحاشى أن تخوض في هذا الموضوع لحساسيته وصعوبته رغم أهميته ، فهو يعالج ويمس حياة المعلم والمربى والأب والأم والأخ والابن بل ويمس الحاكم ، وطبيعي ان من لم تصلحه الكلمة الطيبة والترغيب في الخير والترهيب من الشر ، ثم الثواب والمكافأة مثل هذا يحتاج الى الرادع البدني فقد قيل إن العصا لمن عصا ، والناس معادن وقد أثبتت تجارب الواقع ان هناك صنفا من الناس لا يصلحه إلا الإيلام البدني ومثل هؤلاء من الخطأ معاملتهم بإسلوب غير هذا الإسلوب وقديما قال المتنبى :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وان انت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

والعجيب أن كثيراً من وزارات التربية والتعليم متناقضة في هذا المجال تناقضا عجيبا فتجيز اليوم ما تمنعه غدا ، يذهب بها بريق الفكر الغربي والأفكار الواردة في التربية

---

(١) محمود شلتوت ــ الاسلام عقيدة وشريعة ــ ص٣٠٢ .

فتمنع العقاب ، فإذا ما تعاملت مع الواقع إنكشف لها فشلها الذريع في العلاج والنتائج . والواقع أن اسلوب الاسلام في هذه القضية أقوم قيلا وأهدى سبيلا إنه يلتزم الوسطية التي يؤمن بها دائما فهو يجيز العقاب حيث يتطلبه الأمر ولكنه لا يسرف فيه ولا يتجاوز به الضرورة الداعية إليه، ويضع له من الضوابط ما يجعله أسلوباً تربوياً ناجحاً وفي أضيق الحدود يرى الاسلام أن البشرية جبلت على الخوف والرجاء وطبعت على الترغيب والترهيب وفطرت على حب الثواب وكراهية العقاب إنها تتكيف مع نفسها وتقترب مما يحقق لها الخير وتبعد عما يلحق بها الألم والضرر ، ولقد عوملت في بدء أمرها في شخص أبيها آدم عليه السلام باسلوب العقاب على مخالفته أمر الله عزوجل فحينما سكن آدم وزوجه الجنة وقيل له (وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾) البقرة فلما أكلا من الشجرة أهبطا من الجنة عقابا لهما على عدم إطاعتهما أمر الله تعالى ، وذلك يؤيد ان التربية بالعقاب حين الحاجة إليه مسلمة تربوية لا تحتاج الى برهان ، والمشكلة ناشئة عن عدم فهم معنى العقوبة ومتى تكون ، وكيف تكون ، يقول الرسول ﷺ (علقوا السوط حيث يراه أهل البيت)[1] وفي رواية (فإنه أدب لهم)[2] وهذا يشى بأن المراد التخويف بأن يرى المؤدَّب آلة التأديب والعقاب وأنه يمكن استعمالها في الوقت المناسب ويشى أيضا بأن العقاب البدني آخر وسيلة يلجأ إليها المربي وفي الحديث (واضربوهم عليها إذا بلغوا عشرا)[3]

مايفيد أن العقاب بالضرب إنما يكون بالمخالفة في الأمور العظيمة كترك الصلاة التي هي عماد الدين وتأبى المرأة على طاعةزوجها وأن الضرب إنما يكون في سن يحتمل فيه وهو سن العاشرة فما فوق وهناك ضوابط وشروط استنبطها العلماء لتطبيق هذه العقوبة كوسيلة تربوية .

(١ ــ ألا يلجأ المربى إلى الضرب إلا بعد استنفاذ جميع الوسائل التأديبية والزجرية

٢ ــ ألا يضرب ــ المعلم ــ وهو في حالة غضب شديد .

٣ ــ أن يتجنب الضرب في الأماكن المؤذية كالرأس والوجه والصدر والبطن لقوله عليه الصلاة والسلام كما روى ابو داود (ولا تضرب الوجه) ويدخل تحت قوله (لاضرر ولا ضرار) .

٤ ــ أن يكون الضرب في المرات الأولى غير شديد وغير مؤلم وأن يكون على اليدين أو الرجلين بعصا غير غليظة ، وأن تكون الضربات من واحدة الى ثلاثة إذا كان الولد

---

(١)(٢)(٣) ص.ج.ص.ج.٢ ــ ٤٠٢١ ــ ٤٠٢٢ ــ ٤٠٢٦ .

دون الحلم ، وإذا شارف الولد على البلوغ ورأى المربى أن الضربات الثلاث لا تردع فله أن يزيد حتى العشر لقوله عليه الصلاة والسلام (لايجلد أحد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله تعالى) .

٥ ــ ألا يضرب الطفل قبل أن يبلغ العاشرة من السن أخذاً بالحديث (مروا أبناءكم بالصلاة وهم ابناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر) .

٦ ــ إذا كانت الهفوة من الولد لأول مرة .. فيعطى الفرصة ان يتوب عما اقترف ، ويعتذر عما فعل ويتاح له المجال لتوسط الشفعاء ليحولوا ــ ظاهراً ــ دون العقوبة مع أخذ العهد عليه .

٧ ــ أن يقوم المربي بضرب الولد بنفسه ولا يترك هذا الأمر لأحد من الأخوة أو من الرفقاء حتى لا تتأجج بينهم نيران الأحقاد والمنازعات .

٨ ــ إذا ناهز الولد سن البلوغ والاحتلام ، ورأى المربى أن العشر ضربات غير كافية في الردع فله أن يزيد وله أن يوجع وله ان يكرر حتى يرى الولد قد استقام على الجادة . ومشى في الحياة على هدى وصراط مستقيم)[1] يتفق ابن خلدون والغزالي والقابسى في ان العقوبة بالضرب لاتستخدم الا في أضيق الحدود وحين لايجدى غيرها يرى ابن خلدون أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم (وذلك أن إرهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة . ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس في انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاه الى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من إنبساط الأيدى بالقهر عليه ،... فينبغي للمعلم في مُتعلِّمه والوالد في ولده أن لايستبد عليهم في التأديب)[2] ويرى الغزالي ان على المعلم أن يلجأ الى التخويف وأن يقلل الضرب ما أمكن فيقول (ويكون معظم تأديبه بالرهبة ولايكثر الضرب والتعذيب)[3] ويرى القابسي (ضرورة الرفق مع الصبيان ويقول إن العفو عن أخطائهم واجب لصغر سنهم وطيش أعمالهم وضيق عقولهم وقلة مداركهم ويستند في ذلك إلى قول الرسول ﷺ إن الله يحب الرفق في الأمر كله)[4] يقول الامام محمد أبو زهرة (إن التأديب

---

(١) عبدالله ناصح علوان ــ تربية الاولاد في الاسلام ــ ج٢ ص٧٦٩ ، ص٧٧٠ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ــ ص٥٠٨ .
(٣) ابو حامد الغزالي ــ الادب في الدين ــ ص١٨ .
(٤) د. على احمد السالوس وآخرون ــ دراسات في الثقافة ــ الاسلامية ــ ص٥٣٢ .

ضرورة ويجب أن يقوي إرادة الطفل لا هواه، وتقوية الارادة بتنبيهه بقوة إلى ما هو صالح ولو بشيء من الحزم من غير عنف واضح يجعله في حال رهيبة دائما ، حتى يقدم على ما يفعل وهو يعلم نتائجه ، وان الذين يرغبون من غير حزم ينشئون ضعيفى الارادة ..)[1] .

ويبين المربى الكبير الأستاذ محمد قطب رأيه في هذه القضية فيقول (وهنا كذلك وقفه عند التربية بالعقوبة سببها تلك (النظريات) التربوية الحديثة التي تريد أن تعتمد على التربية بالمثوبة وحدها دون التربية بالعقوبة ، وإذا لزم الأمر في الحالات القصوى على العقوبة المعنوية دون الحسية ، وما بنا من حاجة الى إعادة الحديث عن ميوعة الأجيال التي نشأت على هذه النظريات ورخاوتها وتحللها وتفككها .. ولسنا نقول أن العقوبة ينبغي ان تستعمل بغير حساب أو بغير ضرورة ولا أنها ينبغي ان تكون حسية في كل حالة ! كلا انما نتحدث فقط عن المبادىء العامة فنقول إن التربية بالعقوبة أمر طبيعي بالنسبة للبشر عامة والطفل خاصة . فلا ينبغي ان نستنكر من باب التظاهر بالعطف على الطفل ولامن باب التظاهر بالعلم ! فالتجربة العملية ذاتها تقول ان الأجيال التي نشأت في ظل تحريم العقوبة ونبذ استخدامها أجيال مائعة لاتصلح لجديات الحياة ومهامها . والتجربة أولى بالإتباع من النظريات مهما كانت لامعة ومغرية . والعطف الحقيقي على الطفولة هو الذي يرعى صالحها في مستقبلها لا الذي يدمر كيانها ويفسد مستقبلها)[2].

ويقول الشيخ محمد الغزالي (قال الاستاذ عادل عبدالله « إن مبادىء التربية الحديثة ترى ألا يضرب الأطفال عقابا لهم على ذنوب إرتكبوها ، أو ردعا لهم عن إتيان مثلها مستقبلا ، لأن ذلك يولد لديهم عقداً نفسية ضارة » لكن الاسلام يأمر بضرب الأطفال لحثهم على إقامة الصلاة إن هم تكاسلوا عنها بعد سن العاشرة . وغنى عن البيان ان الضرب الذي يأمر الدين به يجب ألا يكون مبرحا ، ولا مؤذيا ، وألا يلجأ المربى إليه إلا بعد استنفاد شتى وسائل النصح والترغيب وقد أثبتت التجارب والنتائج أن موقف الاسلام أرشد وأصدق ويسرنا أن يعلن الدكتور (بنجامين سبوك) ـــ وهو طبيب وعالم نفساني ـــ أمام الجمعية الأميركية : ان ضرب الاطفال أمر ضروري في تربيتهم . ولننقل هنا ماجاء بمجلة المعلم العربي (ابريل سنة ١٩٥٢) قالت : (و مع ان رجال التربية وعلماء النفس مجمعون على ان الضرب يولد عنده عقدة نفسية تجعله يكره

---

(١) تنظيم الاسلام للمجتمع ـــ ص١٧٩ .
(٢) محمد قطب ـــ منهج التربية الاسلامية ـــ ج٢ ـــ ص١٣٥ ، ص١٣٦ .

الناس ، أو يخافهم أو يبتعد عنهم ، إلا ان الدكتور سبوك يقول : ان هذا خطأ ولغو ، وان الذي يفسد الطفل هو ان يخطىء ، ومع ذلك لانضربه ، بل نكتفي بكلمة خشنة أو نظرة قاسية ويقرر أنه بحث حالة كثير من الشبان والرجال ، فوجد أن أقومهم أخلاقا هو الذي كان أبوه لا يتوانى عن ضربه في طفولته حين يخطىء ، وأن أفسدهم خلقا وأضعفهم شخصية هو الذي سلم من ضرب أبويه في سنيه الأولى)[1] .

آمن الشافعي وهو ابن القرن الثاني الاسلامي بقدرة العقوبة على التهذيب وضرورتها في التأديب ، فكان من سبقه في هذا المجال وتفرده فيه أن وفى هذا الموضوع من كل جوانبه وأكمل هذه القضية بحيث لم يترك فيها جابنا إلا ضبطه ، فلم يترك وصايا عامة أو اسلوبا يتبعه المربون والمعلمون فحسب بل إنه قنن هذا الموضوع تقنينا جعل المسؤولية ماثلة امام أعين المعلمين . ولو أنك ذهبت تقرأ ما كتبه في هذا المجال لرأيت أنك تقرأ لباحث بعيد الغور عميق الفكر واسع الخبرة عظيم النظرة سبر التجربة عن كثب وحالفه التوفيق فيما كتب . إنه يؤمن بأن العقوبة تكون على قدر الجرم وتطبق على قدر الإثم وحين استشرى علم الكلام فان الشافعي رأى أنه شغب على الحديث وفتق فتوقا للزيغ ، واضطلع به أصحاب الأهواء وهنا حكم في أصحاب الكلام (أن يضربوا بالجريد ويحملوا على الإبل منكسين ويطاف بهم في العشائر والقبائل ، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام)[2] .

والشافعي يقنن العقوبة في احكام فقهية ويضع لها ضوابط محكمة حتى لاتطبق العقوبة فتضرّ بهم فيقول (فإذا بلغ الغلام الحلم والجارية المحيض غير مغلوبين على عقولهما ، وجبت عليهما الصلاة والفرائض كلها وان كانا ابنى اقل من خمس عشرة سنة وأمر كل واحد منهما بالصلاة إذا عقلها وإذا لم يعقلا لم يكونا كمن تركها بعد البلوغ ، وأدباً على تركها أدباً خفيفاً)[3] ويرى الشافعي رحمه الله ان العتاب قبل العقاب والموعظة قبل الضرب أمر مطلوب سواء بين المعلم وتلميذه أو بين الرجل وزوجه يقول الشافعي تحت قول الله تعالى (وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ) النساء ٣٤ (يحتمل إذا رأى الدلالات في أفعال المرأة وأقاويلها على النشوز وكان للخوف موضع : أن يعظها فإن أبدت نشوزا هجرها فإن أقامت عليه ضربها . وذلك أن العظة مباحة قبل فعل المكروة إذا رؤيت أسبابه وأن لا مؤنة فيها تضرُّ بها وإن العظة غير محرمة عن المرء لأخيه فكيف لامرأته ؟!

---

(١) محمد الغزالي ــ مع الله ــ ص٣٢٧ ، ص٣٢٨ .
(٢) محمد أبو زهرة ــ الإمام الشافعي ــ ص١٣٦ .
(٣) أحكام القرآن ــ ج١ ــ ص٨٦ ، ص٢٠٩ .

والهجر لا يكون إلا بما يحل به لان الهجرة محرمة ــ في غير هذا الموضع ــ فوق ثلاث ــ والضرب لا يكون إلا ببيان الفعل . فالآية في العظة والهجرة والضرب تدل على ان حالات المرأة في العظة والهجرة والضرب على بيان الفعل تدل على ان حالات المرأة في اختلاف ما تعاتب فيه وتعاقب ــ من العظة ، والهجرة والضرب مختلفة ..)[1] وقد أشار رحمه الله إلى أن خير النساء من لا تضرب ، واستشهد بقول الرسول ﷺ (لن يضرب خياركم)[2] كما أشار إلى إتقاء الوجه أثناء العقاب واستشهد بقول الرسول ﷺ (اتقوا الوجه)[3] ويرى الشافعي أن الذي يخطىء للمرة الأولى ينبغي ألا يعاقب بل يعاتب ويسامح واستدل بقوله عليه الصلاة والسلام (تجافوا لذوى الهيئات عن عثراتهم)[4]

يقول الشافعي (وذووا الهيئات الذين يقالون عثراتهم الذين لا يعرفون بالشر فيزل أحدهم الزلة)[5] ويرى الشافعي أن يكون العقاب مناسباً للخطأ فلا يبالغ فيه فإن عواقب ذلك لاشك وخيمة فإن الشيء إذا زاد عن حده إنقلب إلى ضده ، وحينئذ تكون النتيجة عكسية ويصبح العقاب سببا للمتادى في العوج والاستمرار في الضلال والاستماتة على الباطل .

يعلم الشافعي تلميذه يونس كيف يعالج أخطاء الآخرين وكيف يعاقبهم فيقول (إن شئت كافأته بمثله من غير زيادة) ثم يستشهد بقول الله عز وجل (وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ) الشورى ٤٠ ثم يقول (فان نازعتك نفسك بالمكافأة ــ المعاقبة ــ فاذكر فيما سبق له لديك ، ولا تبخس باقي إحسانه السالف بهذه السيئة فإن ذلك الظلم بعينه . وقد كان الرجل الصالح يقول : رحم الله من كافأنى ــ عاقبني ــ على إساءتي من غير أن يزيد ولا يبخس حقاً لي)[6] وتلك قاعدة تربوية عظيمة وفائدة علمية جليلة غفل عنها الكثير من المربين وقد يجهلها الكثير من المفكرين . استخدم الإمام الشافعي العقاب بالهجران للتأديب لصديق لعب به بريق المنصب عن الوفاء للصحبة فتغير حاله وفشلت النصيحة في رده الى الصواب ، فحين ولى صاحبه واليا على بلد السيبين قال له :

إذهب فودك من فؤادى طالـــــــق أبـــدا ولـــيس طلاق ذات الـــبين

---

(١) احكام القرآن ــ ج١ ص٨٦ ، ص٢٠٨ ، ص٢٠٩ .
(٢)(٣)(٤) الأم ــ ج٥ ص١٩٤ ج٦ ص١٩٥ .
(٥) الأم ــ ج٦ ــ ص١٤٥ .
(٦) الأصفهاني ــ حلية الأولياء ــ ج٩ ــ ص١٢٣ .

فإن إرعـــــويت فانها تطليقـــــة ويـدوم ودك لى على ثنـــتين
وإذا امتنـــعت شفـــعتها بمثـــالها فتكـون تطليقـــتين في حيضين
وإذا الثـــلاث أتـــتك منـــى بتـــة لم تغـن عنك ولايـة (السيـبين)[1]

والتدرج في العقاب أنجح في التقويم وأجدى في التربية وله أثر كبير في نفسية المتعلم تهيىء له عنصر المبادرة لتصحيح اعوجاجه وليصحو من غفلته ويعود إلى رشده . في كتابه الأم أفرد الشافعي فصلا عن (جناية معلم الكتاب) ناقش في هذا الفصل دور المعلم في التربية بالعقاب وأن نهاية هذا العقاب ألا يحدث جروحاً ولا يكسر عظما ولا يترك أثرا أو تترتب عليه عاهة ومسؤولية المعلم في ذلك وعقابه إذا تجاوز الألم إلى مثل هذه الامور وقنن عقاب المعلم وجزاءه حينئذ ، وهذا إن دل فإنما يدل على سبق الإمام الشافعي وإكتمال منهجه ومعالجته لهذه القضية من كل جوانبها التربوية والنفسية والاجتماعية والقانونية فيقول الشافعي رحمه الله (ومعلم الكتاب والآدميين كلهم مخالف لراعى البهائم وصناع الأعمال فإذا ضرب أحدا من هؤلاء في استصلاح المضروب أو غير استصلاحه فتلف المضروب كانت فيه ديته على عاقلة ضاربه ولا يرفع عن أحد أصاب الآدميين العقل والقود في دار الاسلام إلا لإمام يقيم الحد فإن هذا أمر لازم ولا يحل له تعطيله ، ولو عزر فتلف على يديه كانت فيه الدية والكفارة وإن كان يرى ان التعزير جائز له وذلك ان التعزير أدب لا حد من حدود الله تعالى)[2] ويقول مدافعا عن رأيه في التفرقة بين الحدود والتعزير (فإن قال قائل كيف يسقط عن الإمام أن يقتص في الجرح ويقطع في السرقة ويجلد في الحد فلا يكون فيه عقل ولا قود ويكون الإمام إذا أدب وله أن يؤدب ضامنا تلف المؤدب قيل : الحد والقصاص فرض من الله عزوجل على الوالى أن يقيمه فلا يحل له ترك إقامته والتعزير كما وصفت إنما هو شيء وإن رأى بعض الولاة ألا يفعله لا يأثم بتركه)[3] .

وهكذا يرى الشافعي أن العقاب وسيلة للتربية تستخدم في أضيق الحدود وفق شروط محددة منضبطة إذا تجاوزها المربى أو المعلم تحمل مسؤولية الضرر المترتب على تأديبه . فانظر الى هذه العبقرية الدقيقة والاستاذية الفقهية السباقة كيف تضع الضمانات لئلا يجمح الغضب بالمربين فيحدث مالا تحمد عقباه . ولقد تفرد الشافعي بالقول بالمسؤولية

---

(١) ديوان الشافعي ــ نعيم زرزور ــ ص١٠٢ ، ص١٠٣ .
(٢)(٣) الأم ــ ج٦ ص١٧٣ .

الجنائية والضمان على المعلم أو المربى اذا أفضى تأديبه إلى الهلاك فقد جاء في الموسوعة الفقهية (فاتفق الأئمة الثلاثة أبو حنيفة ومالك وأحمد على أن الإمام لا يضمن الهلاك من التأديب المعتاد ، لأن الإمام مأمور بالحد والتعزير وفعل المأمور لا يتقيد بسلامة العاقبة .. وخلاصة رأى أبى حنيفة .. أن الواجب لا يتقيد بسلامة العاقبة والمباح يتقيد بها ، ومن المباح ضرب الأب والأم ولدهما تأديبا ومثلهما الوصى ، فإذا أفضى إلى الموت وجب الضمان ، وإن كان الضرب للتعليم فلا ضمان ، لأنه واجب والواجب لا يتقيد بسلامة العاقبة ... وذهب الشافعية إلى وجوب الضمان في التأديب وإن لم يتجاوز القدر المعتاد في مثله ، فإن كان مما يقتل غالبا ففيه القصاص على غير الأصل (الأب ، الجد) وإلا فدية شُبه العمد على العاقلة ، لأنه فعل مشروط بسلامة العاقبة ، إذ المقصود التأديب لا الإهلاك ، فاذا حصل به هلاك تبين أنه جاوز القدر المشروع فيه ، ولا فرق عندهم بين الإمام وغيره ممن أوتوا سلطة التأديب كالزوج والولى)[1] يقول الإمام محمد أبو زهرة (فنقول إنه بالملاحظة لما كتبه الفقهاء يستفاد أنه جائز (اي العقاب الجسمي) ، فقد تكلم الفقهاء في المؤدب : إذا ترتب على ضربه خطأ تلف عضو من الأعضاء أيكون عمله محل عفو فلا يؤاخذ عليه ، أم يكون عمله محل مؤاخذة ؟ ونرى أن كلمة فقهاء الحنفية تتفق على أن المعلم لا تجب عليه عقوبة ، لأنه أخطأ والخطأ في فعل مأذون فيه لا يوجب الضمان . ويجب أن نعلم أن ذلك إذا كان في سبيل التعليم لا سبيل غرض آخر كإنتقام وغيره)[2] .

هذه الأفكار والآراء فيما يتعلق بعلاقة المعلم بالمتعلم وبخاصة الجانب القانوني الضابط لوسيلة العقاب التربوي لو عرضت في جامعات الغرب بهذا الشمول والعمق والدقة والإنضباط لإعتقدوا أن هذه الآراء خلاصة توصيات مجمع قانوني عالمي اصطرعت فيه الأفكار وتبلورت فيه الآراء وعرضت في رحابه الأبحاث ، ولظنوا أنها من منجزات القرن العشرين !! والحق أن تناول هذه القضايا وتلك الموضوعات ومناقشتها بهذا العمق دليل على حضارة علمية راقية متكاملة لم تشهدها البشرية ولم تسعد بها إلا في ظلال أمة اعتبرت العلم عبادة .. وجدير بمفكرينا أن يعيدوا النظر في كيفية الإستفادة من النظرية التربوية في شخص رائد من روادها الأمجاد هو الإمام الشافعي رضي الله عنه ، فمازال ميدان العلم بحاجة إلى تلك التعاليم الثرة والوصايا التربوية الخالدة مثل قول الرسول ﷺ

(١) الموسوعة الفقهية ــ ج١٠ ص٢٥ ــ ص٢٦ باختصار .
(٢) تنظيم الاسلام للمجتمع ــ ص١٧٩ .

(عليك بالرفق ، إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه)[1]
وقال ﷺ (عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش)[2] .

(١)(٢) ص.ج.ص. ج٢ (٤٠٤١ ــ ٤٠٤٢).

الحادي عشر ــ دور القصة في التربية

الخيال المجنح والفكر الواسع والإحساس بالإفتقار إلى البطولة الفارعة والتهويم بشوق في الأحداث العجيبة وحبك العقدة الروائية وتحريك الأشخاص بتلقائية وتتابع على الميدان واستغلال عامل الزمن ، بهذا تتكامل عناصر القصة وكلها يملأ النفس بهجة ويأخذ بمجامع القلوب فيعيش الشخص متابعا السرد مندمجا فيه كأنه صانع أحداثه أو أنه أحد أشخاصه ، وذلك يرضي فضوله ويسعد خياله ويستقر في وجدانه . ومن هنا كانت القصة أقوى الوسائل التربوية جميعا في التأثير والتأديب حيث تشترك كل الإستعدادات والمدارك في متابعتها بيقظة تامة وحرص كبير على ألا تتفلت منها شيء فتتشرب المعلومات بطريق مباشر أو غير مباشر وتنسل الأفكار إلى النفس بسرعة وتتمكن من الأعماق بقوة .

وليس أدل على ذلك من بقاء القصص الذي كان يحكى للطفل وهو صغير في الذاكرة ، ولكم كان يؤنس أرواحنا ويفرح قلوبنا تلك الحكايات التي كان يقصها علينا الآباء والأمهات أو الإخوة والأصدقاء ، فكانت تستولي على مشاعرنا فنغيب عن أنفسنا ولا نشعر بالوقت يمر بنا ، نعيش فيها بكل كياننا بكل الشوق وبالغ اللهفة ذلك (أن الكلمات قد تنسى ولكن الوقائع قلما تنسى)[1] .

إن القصة أعون وأثبت في ترسيخ الفكرة في العقول والقلوب وأنفع من النصح والخطب لأن (الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع . فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حب الإستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس)[2] والواقع أنه (مما لاشك فيه أن القصة المحكمة الدقيقة تطرق المسامع بشغف ــ وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويسر ، وتسترسل مع سياقها المشاعر فلا تمل ولا تكد ، ويرتاد العقل عناصرها فيجني من حقولها الأزاهير والثمار . والدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل ، ولا تستطيع الناشئة ان تتابعها وتستوعب عناصرها إلا بصعوبة وشدة ، وإلى أمد قصير . ولذا كان الاسلوب القصصي أجدى نفعاً ، وأكثر فائدة ، والمعهود حتى في حياة الطفولة ــ أن يميل الطفل إلى سماع الحكاية ويصغي إلى

(١) د. يوسف القرضاوي ــ ثقافة الداعية ــ ص١٤١ .
(٢) مناع القطان ــ مباحث في علوم القرآن ص٣٠٥ .

رواية القصة ، وتعي ذاكرته ما يروى له ، فيحاكيه ويقصه . هذه الظاهرة الفطرية النفسية ينبغي للمربين أن يفيدوا منها في مجالات التعليم)[1] .

(والإسلام يدرك هذا الميل الفطري إلى القصة ، ويدرك ما لها من تأثير ساحر على القلوب ، فيستغلها لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم . وهو يستخدم كل أنواع القصة : القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها . والقصة الواقعية التي تعرض نموذجا لحالة بشرية ، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك النموذج والقصة التمثيلية التي لا تمثل واقعة بذاتها ، ولكنها يمكن أن تقع في أية لحظة من اللحظات وفي أي عصر من العصور)[2] (والقرآن يستخدم القصة لجميع أنواع التربية و التوجيه التي يشملها منهجه التربوي : تربية الروح ، وتربية العقل ، وتربية الجسم ، والتوقيع على الخطوط المتقابلة في النفس ، والتربية بالقدوة والتربية بالموعظة)[3] وهكذا نجد أن القصة لها (تأثير كبير في نفوس الصغار والكبار ولها القدرة على إثارة العواطف والإنفعالات والإقناع الواقعي والعقلي والتوجيه نحو التفكير والتأمل ، فالله سبحانه وتعالى إستعمل القصة في القرآن كثيرا ليتعظ الناس منها ، وليثبت الرسول ﷺ (وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) هود ١٢٠ (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) يوسف ١١١ وهي كما أنها للعبرة تدعو إلى التفكير (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) الأعراف ١٧٦)[4] . والسنة النبوية كذلك زاخرة بفنون القصص وألوانها (والقصص النبوي يعتمد على حقائق ثابتة وقعت في غابر الزمن ، وهي بعيدة عن الخرافة والأساطير ، وإنما هي قصص تبعث في الطفل الثقة بهذا التاريخ كما تضفي على روحه الإندفاع والإنطلاق ، وتبني فيه الشعور الإسلامي المتدفق الذي لا يجف نفعه ، والإحساس العميق الذي لا يعرف البلادة)[5] .

وحين تقرأ قصة أصحاب الأخدود تتجسد أمامك صورة غطرسة الطغاة وبغي الجبارين وصبر المؤمنين على البلاء وحقيقة الإبتلاء ، وهذه ضريبة الإيمان وهي لازمة لا

---

(١) المرجع السابق ص٣١٠

(٢) (٣) محمد قطب ــ منهج التربية الاسلامية ــ ص٢٣٧ ــ ص٢٣٩ .

(٤) د. عباس محجوب ــ أصول الفكر التربوي في الاسلام ــ ص١٠٣ .

(٥) محمد نور سويد ــ التربية النبوية للطفل ــ ص٣٢٩ .

محيد عنها لأصحاب الدعوات والرسالات وإذا قرأت قصة جريج العابد برزت أمامك صورة الزاهد الذي زهد في الدنيا المقبل على الله وكيف ينجو من كيد الشيطان ، ونصر الله للمؤمنين ونتيجة التقوى ودعاء الأم الذي لا يرد ثم إنطاق الغلام ليشهد بطهارة وبراءة جريج (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا) الطلاق٢ أما في قصة الأقرع والأبرص والأعمى فنجد خطر المال على الإنسان وكيف ينسيه حق الله وفضله عليه . وأن الناس معادن وإن شكر الله عز وجل يحفظ النعم ويديمها . أما في قصة أصحاب الغار فيصافح وجهك أن الوسيلة إلى الله إنما تكون بالأعمال الصالحة وأن بر الوالدين وحفظ حق الأجير وتقوى الله والخوف منه والعمل الصالح الخالص لوجه الله تعالى سبيل النجاة في الدنيا والفلاح في الآخرة .

وقد عرف سلف هذه الأمة أهمية القصة في التربية والتهذيب والتعليم حتى قال قائلهم : (الحكايات جند من جنود الله تعالى يثبت بها قلوب أوليائه . وشاهده من كتاب الله تعالى قوله سبحانه (وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ) وقال الإمام ابو حنيفة رضي الله عنه (الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب الي من كثير من الفقه لأنها آداب القوم) وشاهده من كتاب الله تعالى (أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ) الأنعام٩٠ وقوله سبحانه (لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ) يوسف١١١)[1] .

ومن هنا كان التاريخ مادة تربوية ثرية إذ هو مجموعة من المواقف والأحداث المترابطة في تسلسل ، وقصص البطولة في السلم والحرب يطوع المعلم مواقفه في خدمة دروسه ويستخرج من وقائعه العبر والعظات ويصنع من أمجاده صور البطولة للتأسي والإقتداء ويبث فيه الروح ليتملاها الناشئة وينهجوا عليها ويحذو حذوها يقول شوقي :

اقـرأ التـاريخ إذ فيـه العبر ضاع قوم ليس يدرون الخبر[1]

وعهدنا بالإمام الشافعي رحمه الله أنه فارس هذا الميدان ، فلقد كان في دروسه يعمد إلى القصص التربوية المعبرة ويستنطق التاريخ فيلتقط من ذاكرته الأحداث الهامة وما وعته من حكايات ويضفي عليها بحلاوة صوته ورخامة جرسه وجمال تعبيره ما يجذب إليه طلاب الحلقات في مسجد عمرو بن العاص ، فما إن يبدأ الشافعي درسه ، حتى يجتمع عليه الناس ، وقد إنفضوا من الحلقات ، فقد كان رحمه الله يأسر القلوب ويستولي على

---

(١) محمد نور سويد ـ التربية النبوية للطفل ـ ص٣٢٩ .

السامعين بحديثه العذب وعلمه الواسع وطريقته الأخاذة الساحرة . هناك علوم فيها من الجفاف ما يكد الذهن ويتعب العقل ويحمل الكثير من الطلاب على الفرار من الدرس .. منها الفقه وعلم أصول الفقه والقانون .. إنها علوم عقلية تجريدية ودور المعلم البصير الحاذق أن ييسر صعوبتها ويضفي عليها من روحه ما يحبب الدارسين فيها ويستثير شوقهم لدراستها ، يعبد العوائق ويوطن الشدائد فإنها حين تصاحب تلك المادة البعد الزماني والمكاني ومع الإعتماد على التجريد العقلي في التعامل مع معطيات هذه العلوم يجعل من الملل والسأم كابوساً يحيط بالمعلم وبموضوع درسه . فانظر كيف عالج الشافعي هذا الجفاف الفقهي في موضوع « القتل العمد » في كتابه الفقهي والقانوني « الأم » لم يهجم على الموضوع مباشرة ولم يدخل في تقنين قضاياه على الموضوع وفيه كلمتا القتل وما أثقلها من كلمة والعمد وما أشأمها وأتعبها على النفس ، شرع يروض الموضوع فيحكي ويختار الحكاية المشوقة والقصة الهادفة فبدأ بنبذة عن القتل وصوره في الجاهلية وأحداث ووقائع تلك الحروب التي عمرت بين القبائل والأبطال الذين برزوا فيها وكانوا وقودها وضحاياها ، وآثار تلك الحروب على هذه القبائل ثم دلف بروعة الإستهلال على الموضوع بعد أن عبّد له الطريق وأزال منه الوحشة والخوف ، طرح الإطار التاريخي لموضوع بحثه يقول الشافعي (وكان الشريف من العرب إذا قتل يجاوز قاتله إلى من لم يقتله من أشراف القبيلة التي قتله أحدها وربما لم يرضوا إلا بعدد يقتلونهم فقتل بعض بني شاس بن زهير فجمع عليهم أبوه زهير بن جذيمة فقالوا له أو بعض من ندب عنهم سل في قتل شأس فقال : إحدى ثلاث لا يغنيني غيرها ، قالوا وما هي قال : تحيون لي شأسا أو تملئون ردائي من نجوم السماء أو تدفعون إلي غنيا بأسرها فأقتلها ثم لا أرى أني أخذت منه عوضا . وقتل كليب وائل فاقتتلوا دهرا طويلا واعتزلهم بعضهم فأصابوا إبنا له يقال له بجير فأتاهم فقال قد عرفتم عزلتي فبجير بكليب وكفوا عن الحرب فقالوا بجير بشسع نعل كليب فقاتلهم وكان معتزلا)[1] .

وفي الجزء الأول من كتابه الأم يختار الشافعي موقفا تربويا رائعا ، غلام أساء الأدب حين سمع الأذان فأخذ يردده بصوت مرتفع يستهزيء به ولكن الرسول ﷺ في علاجه لهذا الغلام اتخذ موقفا تحول الغلام بعده من مبغض للرسول ﷺ يحتقر الأذان إلى أن يطلب من الرسول ﷺ أن يكون مؤذنا لأهل مكة وأن يكون الرسول ﷺ أحب إليه

---

(١) الأم ج٢ ــ ص٨ .

من نفسه ومن الناس أجمعين ، إنه لم يكرهه ولم ينهره ولكنه كافأه بصرة من المال مملوءة فضة . والقصة تبين كيف كان ﷺ وهو الرحمة المهداة يعالج الناس وكيف أقبل على الغلام فوضع يده على ناصيته ومررها على وجهه وصدره وتلك معجزة لرسول الله ﷺ إنها قصة حرية بأن تحكى ففيها الكثير من ملامح العظمة في شخص الأسوة والقدوة ﷺ ورفقه ولينه وعطفه ورحمته وطريقه جذبه للناس وقيادهم إلى الإسلام .

لقد كان موقف الرسول ﷺ أروع من ذلك كله وإختيار مثل هذه القصص وتدوينها في كتاب الأم وحرص الشافعي رضي الله عنه على تصنيفها تحت عنوان « باب حكاية الأذان » يدل على فقه الرجل وعلى مقدرته التربوية (أخبرنا الربيع قال أخبرنا الشافعي قال أخبرنا مسلم بن خالد عن ابن جريج قال أخبرني عبدالعزيز بن عبدالملك بن أبي محذورة ان عبدالله بن محيريز أخبره وكان يتيما في حجر أبي محذورة حين جهزه إلى الشام قال لابي محذورة أي عم إني خارج إلى الشام وإني أخشى أن أسأل عن تأذينك فأخبرني . قال نعم . قال خرجت في نفر فكنا في بعض طريق حنين فلقينا رسول الله ﷺ في بعض الطريق فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ فسمعنا صوت المؤذن ونحن متكئون فصرخنا نحكيه ونستهزيء به فسمع رسول الله ﷺ الصوت فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه فقال رسول الله ﷺ أيكم الذي سمعت صوته قد إرتفع فأشار القوم كلهم إلي وصدقوا فأرسل كلهم وحبسني . فقال : قم فأذن فقمت ولا شيء أكره إلي من رسول الله ﷺ ولا مما أمرني به فقمت بين يدي رسول الله ﷺ فألقى علي رسول الله ﷺ التأذين هو نفسه فقال : قل الله أكبر الله اكبر .. لا إله إلا الله . ثم دعاني حيث قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة ثم أمرها على وجهه من بين يديه ثم على كبده ثم بلغت يده سرة أبي محذور ثم قال رسول الله ﷺ بارك الله فيك وبارك عليك . فقلت : يارسول الله مرني بالتأذين بمكة فقال قد أمرتك فذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهته وعاد ذلك كله محبة للنبي ﷺ)[1] .

فما أعظم ما يستنبط من هذا الحديث من قواعد تربوية ولو أن كتاب « الأم » لم يحمل في طياته سوى هذا الموقف لكان حريا بكل إجلال وتقدير ، جديرا أن تحنى له الجباه إكبارا وتواضعا للشافعي ، فأعظم بتلك اليد الطاهرة التي حفظت فيما حفظت

---

(١) الأم ــ ج١ ــ ص٨٤ ، ص٨٥ .

السنة الطاهرة . حين يجهل المربي سنة رسول الله ﷺ ويهجر هديه المبارك ولا يستثمر تلك المواقف المربية في دروسه وحديثه وكتاباته يكون قد ابتعد بالناشئة عن نبع الحياة الثر ومهد العلوم ، الموجهة النافعة وموطن الفنون التي تخلق الفرد السوي والإنسان الفاضل وتربي فيه الشخصية المتكاملة بحيث ينشأ رجلا قويا وعضوا نافعا في المجتمع ، وحين يبعد بالناشئة عن الرحمة المهداة والنعمة المسداة ، يترك فراغا رهيبا لا يستطيع شغله وحينئذ ينشأ جيل خاوي العقل فارغ القلب لا يقوى على الصدام في معترك الحياة .

كان الشافعي رحمه الله إذا روى قصة كهذه أخذ في شرح الفوائد المستفادة والدروس المأخوذة والأحكام المستنبطة من هذه الرواية .. يروي الشافعي بسنده عن عبيدالله بن رافع قال (سمت عليا رضي الله عنه يقول .. بعثنا رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد ـــ فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (موضع بقرب حمراء الأسد من المدينة) فإن بها ظعينة (اي جارية في الهودج) معها كتاب . فخرجنا تعادي بنا خيلنا ، فإذا نحن بظعينة فقلنا أخرجي الكتاب . فقالت : ما معي كتاب . فقلنا لها لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب ؟! فأخرجته من عقاصها (اي شعرها المضفور) فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبر ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال : ما هذا ياحاطب ؟! فقال : لا تعجل علي إني كنت إمرءا ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها قراباتهم ، ولم يكن لي بمكة قرابة فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يدا ، والله ما فعلته شكا في ديني ولا رضا بالكفر بعد الاسلام . فقال رسول الله ﷺ إنه صدق . فقال عمر يارسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال النبي ﷺ إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم ونزلت (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ) الممتحنة١ قال الشافعي (في هذا الحديث طرح الحكم باستعمال الظنون . لأنه لما كان الكتاب يحتمل أن يكون ما قال حاطب كما قال من أنه لم يفعله شكا في الاسلام ، وأنه فعله ليمنع أهله ويحتمل أن يكون زلة لا رغبة عن الاسلام ، واحتمل المعنى الأقبح : كان القول قوله ، فيما احتمل فعله)[1] .

---

(١) احكام القرآن ـــ ج٢ ص ٤٨ .

كان الشافعي رحمه الله في ميدان التربية متكامل الفكر كما يهتم بالجانب العلمي يهتم على نفس المستوى بالجانب الجسمي فيحذر من كل ما يضعف الجسم وينهك العقل ويذهب القوة فيقول :

ثلاث هن مهلكـــــة الأنـــــام وداعيـــة الصحيـــح إلى السقـــام
دوام مدامـــــة ودوام وطـــــأ وإدخـــال الطعـــام على الطعـــام[٧٤]

وكان يرى التخمة شرا على الانسان لأنها مذهبة للنشاط مانعة للحركة داعية إلى الخمول وفيه ضياع للانسان فلا هو بالعامل المكافح ولا هو بالمتعلم المجتهد . يقول رحمه الله (ما أفلح سمين قط إلا أن يكون محمد بن الحسن . قيل له : ولم ؟! قال : لأن العاقل لا يخلو من إحدى خلتين ، إما أن يغتم لآخرته ومعاده ، أو لدنياه ومعاشه ، والشحم مع الغم لا ينعقد ، فإذا خلا من المعنيين صار في حد البهائم فيعقد الشحم)[١] وكان يعطي لطلابه القدوة من نفسه فيضع هذا المفهوم أمامهم حتى يعمقه في وجدانهم يقول : (ما شبعت من سبع عشرة سنة إلا شبعة طرحتها من ساعتي) .

ووصولا إلى هذه الغاية يعمد تربويا إلى القصة فيقول وهم حوله في الحلقة ينصتون وكأن على رؤوسهم الطير (كان في الزمن القديم ملك شديد السمن ، فذكر لبعض الأذكياء من الأطباء ذلك . وطلب منه دواءاً يقلل السمن . فقال : أصلح الله الأمير ، أنا رجل طبيب ومنجم وقد نظرت في طالعك فلم أجد في عمرك إلا شهرا ، ولا فائدة في هذا العلاج . فحبسه ليعرف أنه صدق أو كذب . واحتجب الملك عن الناس وإستولى عليه الحزن والفكر فقل سمنه . فلما انتهت المدة خرج الملك واحضر الطبيب . وقال ظهر كذبك وأنا أعذبك على هذا الكذب . قال الطبيب : أصلح الله الأمير ، أنا أهون على الله عزوجل من أن أعلم الغيب ولكن ما عرفت لتقليل السمن علاجا إلا الهم والحزن فلهذا السبب قلت : فأجازه الملك وأحسن إليه)[٢] .

كان الإمام الشافعي كريما سخيا ما يمسك مالا ولا يمنع الناس شيئا وكان يحث الناس على الجود ويبين لهم أنه من أزكى الخصال وأكرم فضائل الأعمال ، الجود والسخاء والكرم والعطاء وهو القائل :

أجـــود بموجـــود ولـــو بت طاويـــا على الجوع كشحـــا والحشا يتـــألم[٧٦]

---

(١) الاصفهاني ــ حلية الأولياء ــ ج٩ ــ صص١٦٤ .
(٢) عبدالحليم الجندي ــ الإمام الشافعي ــ ص٤٥ .

يقول محمد البستى السجستاني يصف الشافعي : (كان الشافعي قلما يمسك الشيء من سماحته) وقال غيره (كان الشافعي أسخى الناس عن الدنيا والدرهم والطعام) ويرى رحمه الله (الكرم والتقوى إذا إجتمعا في شخص فهو حي) من أجل تربية الطلاب على خلق الكرم والسخاء وبعد أن يضرب لهم المثل بنفسه يأتيه مال كثير فيضرب خيمة بخارج مكة ولا يدخلها حتى يفرغ من توزيعه على الناس ، ويجتمع له مال فيشتري دارا للناس ينزلون فيها في موسم الحج . يؤكد هذا المعنى ويثبته بحكاية قصص السخاء والجود فيقول (كان أبو حاتم الطائي يضع الأشياء في مواضعها . وكان حاتم مبذرا . فشكاه أبوه لأصحابه فاجتمع رأيهم على ألا يعطيه ، سنة شيئا .. ثم ذكر له عن إبنه حاتم ما فيه من الضر والضيقة فبعث إليه بمائة ناقة حمراء .. فلما وقفت عليه قال : من أخذ شيئا فهو له . فأخذوها كلها . فدعاه أبوه . فقال حاتم : والله ياأبت لقد بلغ مني الجوع شيئا لا يسألني أحد شيئا إلا أعطيته إياه)[1] لقد كان حاتم ذؤابة الكرم حتى كان مثلًا أعلى في هذا الخلق العظيم حتى صار إسمه علماً غلب على هذه الصفة فما يذكر إسم حاتم إلا وإنصرف التفكير إلى الكرم ولا يذكر الكرم إلا واقترن به في أذهان الناس ، وكان كرمه هذا سببا في رفع الذل والأسر عن إبنته فحين أسرت قال ﷺ (خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والله يحب مكارم الأخلاق)[2] .

ولقد كان للشافعي رحمه الله حظ وافر من الكرم والجود فلقد كان كثيرا ما يبيع ذهب زوجته وإبنته كي يعطي الناس وقد تعود الناس منه ذلك . كان الإمام الشافعي دائم التجديد والتشويق لطلابه ، كثير الحكاية للقصص بينهم فأحبوه والتفوا حوله وكان يزيل هذا الملل عنهم . ومن القصص التي رواها لطلبته (وقف اعرابي على عبدالملك بن مروان فسلم ثم قال : رحمك الله مرت بنا سنون ثلاث : أما إحداها فأهلكت المواشي . وأما الثانية فأنضت اللحم . وأما الثالثة فخلصت إلى العظام . وعندك مال . فإن كان لله فاعط عباد الله وإن كان لك فتصدق . فإن الله يجزي المتصدقين ، فأعطاه عشرة آلا ف درهم وقال ، لو كان الناس يحسنون يسألون هكذا ما حرمنا أحدا)[3] وهذه القصة يراد منها كيف يكون حسن العرض وجمال التصوير واستيفاء المعاني ، إن الأعرابي لم يترك لعبد الملك بن مروان عذرا ولم يدع له مبررا للخروج وقد أحاطه من كل أقطاره حتى

---

(١) الأصفهاني ــ حلية الأولياء ج٩ ــ ص١٣٤ .
(٢) ابن كثير ــ البداية والنهاية ــ ج٥ ص٦٣ .
(٣) البيهقي ــ مناقب الشافعي ــ ج٢ ص٢٣٣ .

ملك عليه نفسه فقال « لو كان الناس يحسنون يسألون هكذا ما حرمنا أحدا » وتلك البلاغة والبراعة .

إن الشافعي ابن البيئة كثير الأسفار والرحلات ومطيته في السفر الجمل وهي سفينة الصحراء ومن طبيعة السفر الحداء لتنشيط الإبل فانها تطرب واذا طربت خفت للسير وهذا من شأنه أن يترك في النفس آثاراً جميلة للرحلات ، فكان الشافعي يحكي هذا القصص ليكون فكاهة في المجلس وتجديدا لنشاط الطلاب ولأخذ الدروس والعبر منها يقول الشافعي (فأما استماع الحداء ونشيد الأعراب فلا بأس به قل أو كثر ، وكذلك استماع الشعر . أخبرنا إبن عيينه عن إبراهيم بن ميسرة عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : أردفني رسول الله ﷺ فقال هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء ؟ قلت : نعم قال : هيه فانشدته بيتا . فقال : هيه . فأنشدته حتى بلغت مائة بيت . قال الشافعي رحمه الله تعالى وسمع رسول الله ﷺ الحداء والرجز وأمر ابن رواحه في سفره فقال حرك القوم فاندفع يرتجز وأدرك رسول الله ﷺ ركبا من بني تميم معهم حاد فأمرهم أن يحدوا وقال إن حادينا ونى من آخر الليل . قال يارسول الله نحن أول العرب حداء بالإبل قال « وكيف ذلك ؟ » قالوا كانت العرب يغير بعضها على بعض فأغار رجل منا فاستاق إبلا فتبددت فغضب على غلامه فضربه بالعصا فأصاب يدهِ فقال الغلام : وايداه وايداه . قال : فجعلت الإبل تجتمع . قال : فقال : هكذا فافعل . قال والنبي ﷺ يضحك فقال : ممن أنتم ؟ قالوا : نحن معشر مضر . فقال ﷺ : ونحن من مضر . فانتسب تلك الليلة حتى بلغ في النسبة إلى مضر . قال الشافعي رحمه الله تعالى : فالحداء مثل الكلام والحديث المحسن باللفظ وإذا كان هذا هكذا في الشعر كان تحسين الصوت بذكر الله والقرآن أولى أن يكون محبوبا . فقد روى عن رسول الله ﷺ انه قال : (ما أذن لشيء أذنه لنبي حسن الترنم بالقرآن) وانه سمع عبدالله بن قيس يقرأ فقال : لقد أوتي هذا من مزامير آل داود . قال الشافعي رحمه الله تعالى ولا بأس بالقراءة بالألحان وتحسين الصوت بها بأي وجه ما كان وأحب ما يقرأ حدرا أو تحزينا)[1].

وهكذا يتبين لنا كيف أن الشافعي رضي الله عنه إستخدم القصة كوسيلة غاية في الأهمية في التربية لما لها من أثر أخاذ عجيب في التشويق والتقريب والتعليم والتهذيب إستخدم القصة الواقعية ذات الدلالات الأخلاقية والتربوية والعلمية والتاريخية ، وحين

---

(١) الشافعي ــ الأم ــ ج٦ ــ ص٢٠٩ .

تقرأ ما أورد من قصص تجد أن القصة عنده مترابطة مع الوسائل التربوية الأخرى وهي تتسم بالإيجاز والقصر لقوة بلاغته وروعة تمكنه وقدرته على توجيه القصة إلى خدمة الهدف المنشود وإبراز الغرض التربوي المقصود .

البـــاب الثـــامـــن

خـــاتمـــة

استقصينا في هذا البحث الكثير من آراء الإمام الشافعي في المجال التربوي ، وهدفنا من ذلك الإدلاء بدلونا في إبراز فلسفة التربية الإسلامية الماجدة والتي صنعت أعظم الأجيال وصاغت بحق على الخلق الفاضل والتربية الكريمة أمجد أمة في تاريخ البشرية وترك روادها الأوائل من المناهج التربوية ما يعد مفخرة لهذه الأمة ما بقيت على الأرض حياة . ولقد كان حافزنا لهذا التوجه أننا في عصر طغت فيه الأفكار التربوية الغربية نتيجة حتمية لبقاء دول الإستعمار في بلادنا حقبا طويلة صبغت فيها الحياة بأفكارها وعملت على تنحية الفكر الإسلامي الذي قاد هذه الأمة منذ أربعة عشر قرنا وحرصت على إظهار هذا الفكر بمظهر العاجز عن أن يقيم حضارة أو يصنع أمة ، ورمته بأنه سبب التخلف الذي ران على هذه البقعة من أرض الله حتى كان أبناء جيلنا يعلمون عن نابليون وأمثاله أكثر مما يعلمون عن خالد بن الوليد ، ويعرفون عن دور كايم ما يجهلون عن ابن خلدون ومن ثم كان الدافع لنا لخوض مثل هذا المجال في فكر رائد من رواد التربية الأول واعطاء مثل واقعي على نضج واكتمال الفكر التربوي عند الرعيل الأول من أبناء هذه الأمة وبالتالي حفز المشتغلين في حقل التربية أن يرتادوا أفكار المربين الأوائل ويكتبوا بإفاضة عن التربية التي مارسها المعلمون من تلاميذ المدرسة الإسلامية . وإذا كان الكثير من علمائنا قد كتبوا في هذا المجال ولهم فضل السبق وسجلوا من أمجاد السابقين وفكرهم التربوي فلا زال الميدان رحباً والفكر التربوي واسعاً يحتاج إستباق الجهود والأقلام حتى يمكن إثراء المكتبة وملء هذا الميدان وحتى تكون هناك صحوة تربوية أصيلة تكتسب عظمتها من أنها نتاج فكر علمائنا وقادتنا كأبي حنيفة ومالك وابن حنبل والغزالي وابن خلدون وغيرهم كثير وبالتالي فإن ذلك شأنه أن ينضح على الناشئة ويؤثر في الجيل تأثيرا تربويا إسلاميا .

بدأ البحث باستعراض سريع يبين أهمية الموضوع المطروح وتم إفراد مصطلحات البحث الرئيسية التي تمثل ركيزة البحث من تربية وشعر وديوان تعريفا ودراسة ، كما تم تحديد منهج البحث الذي قام على الإعتماد على الآثار المبثوثة عن الإمام الشافعي في كتب السير والأدب والفقه مع الإعتماد على كتبه وديوانه الشعري وإستخراج المباديء والأساليب التربوية منها سواء عبر عنها صراحة أو لمح إليها تلميحا أو أمكن فهمها من

فعله وهديه ضمنيا . كما تم تحديد أهم أسئلة البحث المتعلقة بإتجاهات الشافعي وآراءه التربوية ومقارنتها بالنتاج التربوي القديم والحديث مقارنة تخدم شرح هذه القضايا وتبين مدى تفردها وسبقها ورسوخ قدم الشافعي فيها .

النتـــائـــج

وأهم النتائج التي يمكن إستخلاصها :

أولا : إن الكاتبين في ميدان التربية لم يفردوا للشافعي كتبا متخصصة في المجال التربوي تبرز أفكاره وتبين آراءه . ولم تمتد أيدي الباحثين إلى الكثير من كنوزه العلمية . والتي مازالت حبيسة كتبه أو مبثوثة في سيرته وترجمته .

ثانيا : نجح الشافعي نجاحا كبيرا في أن يتخذ من الشعر مادة ثرية يخدم بها غرضه التربوي فجاء ديوانه الشعري صورة صادقة وتعبيرا واقعيا عن تجربته التربوية .

ثالثا : كانت نظريات الشافعي وآراؤه التربوية نبراسا هاديا ومنطلقا قيما لرواد التربية من بعده يقتبسون منه ، كالغزالي وابن خلدون وابن جماعة وغيرهم حتى كان هؤلاء إمتدادا طبيعيا لفكره التربوي ، وكثيرا ما كانت آراؤهم مجرد صدى لآراء الشافعي .

رابعا : تقوم فلسفة التربية عند الشافعي على أساس أن العلم النافع هو الذي يستطيع أن يحقق السعادة والإستقرار للإنسان وأن العلم في نظره عبادة .

خامسا : آراء الشافعي وافكاره التربوية ليست وليدة دراسات في الفلسفة أو في علم الكلام كما أنها ليست ترديدا لفكر قديم شرقي أو غربي إنما هي اقتباس من مشكاة النبوة من القرآن والسنة لذلك جاءت فكراً إسلامياً صافياً من الإلتواءات والشطحات .

سادسا : الوضوح الكامل مع الإيجاز غير المخل هما السمة الغالبة على كل آراء الشافعي في المجال التربوي .

سابعا : بلاغة الشافعي وقدرته الفائقة على الإيجاز تتطلب ممن يتصدى لشرح أقواله أن يعمد إلى الإسهاب والتوسع لكي يحيط بكل ما في كلماته من معاني باستيعاب ووضوح .

ثامنا : عالج الشافعي في آرائه التربوية الإنسان من كل جوانبه المادية والروحية في الحياة وبعد الممات وذلك يبين مدى ما في آرائه التربوية من شمول واكتمال .

تاسعا : المطلع على آراء الشافعي يرى أنها تعتبر في هذا العصر من معطيات العلم الحديث وكأنه يقرأ لمربي في القرن العشرين ، سواء في المجال التربوي أو النفسي أو الإجتماعي وتلك ميزة الفكر الأصيل كلما تقادم به الزمان إزداد جدة ونصاعة .

عاشرا : هناك الكثير من القضايا والموضوعات التي تعتبر من مشكلات الحضارة في القرن العشرين يروعك أن تجد علاجاً حكيماً في الفقه التربوي للإمام الشافعي .

حادي عشر : تدور العملية التربوية على محاور ثلاث (العلم والمعلم والمتعلم) وهذه المحاور هي الأصل في كل عملية تربوية ناجحة ومن ثم تجد الشافعي أسهب في التركيز عليها وبين كل شروطها ودقائقها .

ثاني عشر : التربية عند الشافعي ليس نظريات ولا هي من نوع الخيال الذي يمكن أن يكون واقعاً ، كلا كلا : فلقد ترجم الشافعي نظريات التربية وأساليبها ترجمة صادقة بحياته هو حيث عاش جل نهاره وجانباً كبيراً من ليله يعلم ويربي ويدرِّس ويطبق أنجح الأساليب لطلابه في المسجد وفي الشارع وفي المنزل وإذا كان الشافعي قد سجلها في كتبه فقد طبقها وعاش لها ومات عليها .

ثالث عشر : من عظمة هذا المفكر التربوي أنه قدم نظريات متكاملة يسعد من خلالها الانسان بحياة مستقرة هانئة ويتكيف مع من حوله .

رابع عشر : للإمام الشافعي فضل السبق بتفرده في توضيح المنهج العلمي للتفكير ورسم حدوده وإبراز معالمه قبل أن يظهر له أي أثر في الشرق أو الغرب .

خامس عشر : الآراء التربوية عند الشافعي رحمه الله تعتبر بحق أصولا للفكر التربوي المعاصر على المستوى العالمي حيث أعلن الغرب عن إفلاسه الفكري عن أن يقدم نظريات تربوية سليمة .

التـــوصيـــــــات

على ضوء ما تقدم واستخلاصا من معطيات هذا البحث ونتائجه نقدم هذه التوصيات للباحثين في هذا الميدان التربوي الخصب ، والقائمين على وضع المناهج التعليمية للأجيال حتى يعم النفع وتتم الفائدة .

أولا : النصوص الشعرية والنثرية التي يمكن أن تختار من تراث الشافعي ينبغي أن تدرس في المراحل التعليمية المختلفة ، وأن يحرص القائمون على شؤون التعليم أن يقرروها حفظا وتعليما فإنها مع دورها في التربية تنمى ملكة الحفظ وتكسب الأدب الرفيع في التعبير وتعطي القدرة على الأداء وقوة العارضة ، كما أنها أصول فقه وتربية وقانون وسياسة واقتصاد واجتماع .

ثانيا : مازال تراث الشافعي في التربية ميدانا بكرا لم تمتد إليه يد الباحثين في المجال التربوي وهذا يتطلب أن تتوجه الهمم وأن تحفز الجهود والأقلام للقيام بدراسات متواصلة أكثر عمقا وأعظم نفعا .

ثالثا : إن من الأمانة العلمية أن يكتب تاريخ الفكر التربوي وتطوره مع ابراز الرواد الاوائل الذين أسسوا الحركة الفكرية والتربوية لمن جاء بعدهم من أمثال الشافعي رضي الله عنه .

رابعا : الاستفادة من شعر وحكم الإمام الشافعي وغيره من الأوائل في تدعيم الأفكار التربوية وبخاصة وسائل الاعلام من صحف ومجلات وكتب ونشرات وفي البحوث التربوية حتى يتربى لدي الجيل اسلوب أدبي يرفع من مستوى الناشئة ، وحتى لا تتسم هذه الكتابات بجفاف المنطق ويصبح لها طابع الجذب والتشويق ثم الصقل والتأثير .

خامسا : كتابة أبحاث وقصص خاصة عن حياة الشافعي كمعلم ومتعلم كي تصبح نموذجاً للاقتداء .

سادسا : الفقه التربوي عند الإمام الشافعي له أصوله الثابته ومنهجه القويم وقد سبق إليه الشافعي بعد ممارسات عملية استغرقت جل حياته ومن ثم فهو مادة طيبة يمكن الاستفادة منها في دراسة الفكر التربوي الاسلامي ذلك أن الشافعي منح من المؤهلات العلمية والاستعدادات الذكية ما جعله من أقرب العلماء إلى روح هذا الدين العظيم ومعرفة مقاصده السامية .

سابعا : إن الحاجة ماسة إلى دراسة واعية لأعلام التربية الاسلامية وإحياء فقههم التربوى لبناء نظامنا التربوي على أساسه ، وكل مسلم غيور يهتم بأمر هذه الأمة المسلمة يطمع في تكوين موسوعة تربوية إسلامية على غرار الموسوعات الفقهية ، فياحبذا لو نشطت الجهود لهذا العمل الجليل حتى يتحقق هذا الأمل المنشود وما ذلك على الله بعزيز .

وتبقـــــي كلمـــــــة

من المسلم به أن الكمال المطلق لله عزوجل وأن العصمة إنما تكون للأنبياء فحسب وأن الخطأ إنما هو من عناصر النفس البشرية ، بيد أن هناك صنفا من الرجال هفواتهم من الصغائر التي لا تكاد تذكر وقديما قيل (كفي المرء نبلا أن تعد معايبه) ويقول النابغة الذبياني :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهـــــــــم بهن فلـــــول من قراع الكتـــــــائب

ومن المذهل حقا أنك تدرس شخصيته ما وتتبع أحوالها و تحلل سيرتها وفكرها وتطرح أراء الباحثين فيها ثم لاتجد لك مجالا يعطيك الفرصة لتعقد فصلا في النقد في تلك الشخصية .

إن الإمام الشافعي ذلك العملاق المجدد المصلح الفاقة الذي ملأ طباق الأرض علما وفضلا والذي يروعك من دراسته ألا تجد نقدا معتبرا يمس فكره وأصوله الفقهية والتربوية .

إنه جامعة تمشى على الأرض وموسوعة علمية عاشت بين الناس في عصر يعز فيه المثيل لشدة الحياة وتباعد الأقطار وصعوبة الرحلات نتيجة بطء وسائل المواصلات ، وفي عهد ليس فيه مطامع ولا مكاسب . وإذا كان كما قيل (إن الفضل ما شهدت به الأعداء) فلننظر فيما كتبه المستشرق الدكتور فيليب حتى في كتابه صانعوا التاريخ العربي وهو يضع الشافعي على الذروة من هؤلاء فيقول (لم يجد مؤرخوا سيرة الشافعي في خلقه وفي حياته ما يؤخذ عليه .

حتى لوأراد الناقد أن يجد نقصا أو عيباً لما إستطاع أن يجد ذلك في سجله ، هذا مع العلم أن لدينا ديوانا له من الشعر ، كما أننا نعرف رسائله وأدبه وكلها مصادر أولية تعكس لنا حياته وأخلاقه)[1] ويقول ابن خلكان (إتفق العلماء قاطبة من أهل الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو وغير ذلك على ثقته وأمانته وعدالته ، وزهده ، وورعة ، ونزاهة عرضه ، وعفة نفسه ، وحسن سيرته ، وعلو قدره وسخائه) والعجيب العاجب أن شخصية بتلك العظمة وذلك الشموخ يشهد لها العدو والصديق وينبهر بها القاصي والداني بلغ علمها الأقطار المترامية ويتمذهب بفكرها ويأوى إلى علمها الفقهاء والأصوليون وينحنى إجلالا لعلمها طلاب اللغة والأدب والبلاغة وغيرهم ، لماذا لم

تأخذ حقها تربويا وكيف غفل المعاصرون من رجال التربية عن هذا الجانب من تلك الشخصية الفارعة ؟ .

إن هذه الآراء التربوية التي أغفل دراستها وأهمل إظهارها علماء التربية الحديثة وتلك الشخصية الفريدة ، لو قدر لها أن تظهر عند غير العرب لاتخذوا منها مناراً هادياً ولفاخروا بها أهل الدنيا ولقاموا بالوفاء لذكرها وفكرها ولأقاموا المحافل المتتابعة تكريماً وتمجيداً لدورها وعطائها ولأطلقوا إسمها على الجامعات والأحياء والميادين كأحد عباقرة الإصلاح وكرائد سباق في ميدان الفكر والتعليم ولكن الأمر كما قيل (هكذا الشرق لا يستطيع أن يحتفظ طويلا بالكنز الذي يقع في يده)[٢] .

لكن بريق الفكر الوارد من الغرب وانبهار رجال التربية العرب به تحت تأثير شعور المغلوب بتقليد الغالب وظنهم أن تقدم الحضارة هناك سببه الأخذ بأساليب التربية المستوردة جعلهم ينسون أن هؤلاء تتلمذوا على فكر مربينا وأخذوا عن الأوائل من علمائنا ولازالوا حتى اليوم مدينين بشهادة المنصفين من علمائهم للفكر الإسلامي وللعلوم الإسلامية والحضارة الإسلامية وأن الأجدر بنا أن نتجه نحو تراث الآباء الذي رمى غيرنا هذا التراث الذي يتميز بالواقعية والشمولية والإكتمال والبناء لأنه في بوتقة من سماتها العصمة ومرجعها كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسوف يزال هذا الفكر غضا نديا كأنه نتاج اليوم وفكر الساعة .

ونحن بطرحنا لهذا الفكر الحى الواسع وهذه (المفاهيم العديدة التي تناولت المعلم صحة وبدنا ، نفسا ومزاجا ، خلقا وعادة ومنهجا وطريقة ، وعلاقة واسلوبا ، ونموا ، دراسة ولعبا ، ومعرفة وصنعة . بهذه المفاهيم نؤكد ماقلناه أولا من أن علماء ومفكرى المسلمين سبقوا في مجال علم النفس التربوي اقطاب التربية الحديثة من أمثال روسو وبستالوتزي ووليم جيمس وفي بيان اللعب وأهميته سبقوا فروبل ومدام منتيسوري ، وفي اعداد الطفل وتنشئته للحياة سبقوا سبنسر وغيره ، وفي ايجابية المتعلم وطريقة التعليم سبقوا جون ديوي وغيره . ولهذا ينبغي أن نعود إلى تراثنا العظيم ، وفلسفتنا التربوية الأصلية ، ندرسها ، ونستمد منها كل ما يحقق لنا شخصيتنا ويبرز ذاتنا المستقلة ، ثم نقوم بعد ذلك بتطوير ما تركه علماؤنا ، والإضافة لما خلفوا ، ولا مانع في ذلك أن نستفيد من تجارب الآخرين وجهودهم ، فالعلم ميراث الإنسانية ، وليس حكرا على

---

(١) ص ٢٤٨ .

(٢) روبير جاكسون ـ حسن البنا الرجل القرآني ـ ص٥ .

أحد)[1] .

والفرصة مواتية حقا لإبراز أعلام حضارتنا خاصة بعدما أعلن المئات من الباحثين في الميدان التربوي عن إفلاس النظم التربوية والعلوم الإنسانية عامة في الغرب عن أن تقيم حضارة مستقرة ينعم فيها الفرد بالسعادة أو تحقق حياة كريمة يشعر فيها بالإستقرار (فمثلا يذكر ــ ماسلو ــ في بحثه (الثورة غير المرئية) أن نظم التربية المعاصرة قد فشلت في تحقيق الذات لدى الدارسين ، وأن هذا الفشل أكثر ما يبدو في الجامعات المشهورة . ثم يخلص إلى القول : أنه سيتردد مرات في إرسال أبنائه إلى الجامعات التي توصف بأنها ممتازة) كتردده في إرسالهم إلى (بيت دعارة) ثم يضيف (إن الناشئة يتطلعون إلى حقائق مؤكدة كتلك التي تقدمها الأديان والتقاليد الراسخة . ولكن أثر الأديان والتقاليد الآن تداعي . فليس الإله وحده هو الذي مات في ضمائر الناشئة وإنما مات أيضا ماركس ، ومات فرويد ، ومات دارون ، وكل شخص في ضمائرهم أصبح ميتا . وليس لديهم مصدر للقيم يتبعونه) .

كذلك جاء في التقرير الذي وضعته اللجنة الدولية التي كونتها اليونسكو برئاسة ايدجار فور رئيس فرنسا الأسبق ووزير الثقافة مايلي (آن الأوان للقيام بالتجديد في مجال التربية . فالتربية ــ اليوم ــ أصبحت موضوع جدال حاد ، وبات لزاما علينا جميعاً أن نعيد النظر في التربية ككل)[2] (إن المربين الغربين أنفسهم بدأوا يحسون بالحاجة الماسة إلى تغيير شامل يقلب الأسس التي تقوم عليها نظرياتهم التربوية رأسا على عقب)[3] وهكذا يتزلزل الصرح التربوي الغربي ويتداعي وهو في طريقه لا محالة إلى الإنهيار التام والبشرية تتلهف وتتطلع إلى منقذ ولن يكون في الحقيقة إلا الإسلام وفكره المعصوم . والحقيقة المرة أن (التربية الحديثة في كل ما قدمت من نظريات لتربية الطفل والإهتمام به ، نراها في الواقع تقدم لنا جيلا فاشلا في أخلاقه وسلوكه ملأ الدنيا بالإنحرافات ، وامتلأت نفوسه بالقلق ، وأعصابه بالأمراض رغم تفوقه المادي الهائل في العالم المادة)[4] والمؤسف أننا تجرعنا هذه المرارة في تلك الحقبة الكبرى من حياتنا العلمية فسرنا وراء سرابهم واتبعنا خطوهم شبرا بشبر وذراعاً بذراع حتى أصبحنا مهددين بالوقوع في

(١) د. على أحمد السالوس وآخرون ــ دراسات في الثقافة الإسلامية ــ ص٥٣٤ .
(٢) د. ماجد عرسان ــ الفكر التربوي عند ابن تيمية ــ ص١٣٧ ــ ص١٣٨ .
(٣) محمد ابراهيم بخات ــ نظرات في التربية الإسلامية ــ مجلة حضارة الإسلامية ــ ص٢٢ .
(٤) محمد منير غضبان ــ من معين التربية الإسلامية ــ ص١٠٣ .

الأمراض النفسية والإجتماعية ... التي أصيبوا بها وظهرت علينا أعراضها (إن الدوائر التربوية المعاصرة في العالم العربي تبينت بعد تجربة طويلة في الميدان التربوي ضرورة الإعتماد على الأصول الإسلامية في بناء أنظمتها وأنشطتها التربوية)[1] وتلك نتيجة طبيعية وثمرة حتمية لانحسار المد الفكري الغربي وإنكسار موجاته إثر ظهور خلله وانحطاطه ، ونحن على يقين من أن علماء التربية في الشرق والغرب سوف يعيدون حساباتهم بعد ظهور هذه النتائج المدمرة الهائلة على أجيالهم والمهددة لحياتهم وسيعودن حتما للفكر الإسلامي التربوي متتلمذين على علماء المسلمين وعلى رأسهم الإمام الشافعي (تاج العلماء) بلا منازع . نعم سوف ينهالون على دراسة تراث هذا المربي المعلم وينهلون من فكره بحثا ودراسة وفهما واستنباطا وتصنيفا واستفادة وتطبيقا لآرائه القويمة وقواعده التربوية السليمة وذلك للإستفادة منها في بناء أسس ومناهج العلوم ووضع وتحديد أصول التربية الحديثة .

(١) د. ماجد عرسان ــ مرجع سابق ــ ص١٣ .

المراجع

القرآن الكريم

(أ)

١ ــ الأئمة الأربعة د. أحمد الشرباصي ــ دار الجيل ــ بيروت .

٢ ــ أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة ــ ط١ دار القلم ــ بيروت ١٩٧١م .

٣ ــ **أثر المدنية الاسلامية على الحضارة الغربية ــ د. مختار القاضي ــ جمهورية مصر العربية ــ المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ــ لجنة التعريف بالاسلام ــ يشرف على إصدارها محمد توفيق عويضة .**

٤ ــ أحكم القرآن ــ للشافعي ، جمعه البيهقي ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .

٥ ــ إحياء علوم الدين ــ الغزالي ، تقديم د. بدوي طبانه دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركاه .

٦ ــ أخلاق العلماء ، ابوبكر الآجرى ، قدم له الشيخ حسين حطاب ــ علق عليه وخرج أحاديثه فاروق حماده ط١ ــ مكتبة العرفان ــ دمشق ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م .

٧ ــ الاخلاق والسير في مداواة النفوس ، ابن حزم ــ ط٢ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

٨ ــ أخلاقنا الاجتماعية د. مصطفى السباعي ، ط٤ المكتب الاسلامي ــ بيروت ١٩٨٧م

٩ ــ **أدب الدنيا والدين ــ الماوردى ــ ط١ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .**

١٠ ــ آداب الشافعي ومناقبه ــ الرازي ، تحقيق وتعليق عبدالغني عبدالخالق ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت .

١١ ــ آداب النفوس ــ المحاسبى ــ دراسة وتحقيق عبدالقادر أحمد عطا ــ دار الجيل ــ بيروت ١٩٨٤م

١٢ ــ الأدب في الدين ــ الغزالي حققه وعلق عليه عبدالله أحمد أبو زينة ، دار الشروق ــ بيروت .

١٣ ــ **أدباء العرب ــ بطرس البستاني ــ دار مارون عبود ــ ١٩٧٩م .**

١٤ ــ الأذكار ــ النووي ــ دار احياء التراث العربي ــ بيروت ١٩٧١م .

١٥ ــ الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ــ الملا على القارى ، حققه وعلق عليه وشرحه محمد لطفي الصباغ ط٢ المكتب الاسلامية ــ بيروت ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

١٦ ــ الأسس النفسية للنمو ــ فؤاد البهى السيد ــ ط٤ ــ دار الفكر العربي ١٩٧٥م .

١٧ ــ الاسلام بين العلماء والحكام ــ عبدالعزيز البدرى ــ المكتبة العلمية المدينة المنورة السعودية ــ ١٩٦٦م .

١٨ ــ الاسلام الدين الفطري الأبدي ــ مبشر الطرازي الحسيني ــ ط١ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م .

١٩ ــ الاسلام الصراط المستقيم ــ د. محمد دراز وآخرون ــ ط٢ ــ دار مكتبة الحياة ــ بيروت .

٢٠ ــ الاسلام عقيدة وشريعة ــ محمود شلتوت ــ دار الشروق ــ بيروت .
٢١ ــ الاسلام والشعر ــ د. سامي مكي العاني ــ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ــ الكويت ١٩٨٣م .
٢٢ ــ الاسلام والقضية الفلسطينية ــ عبدالله ناصح علوان ــ ط٢ ــ مكتبة المنار الاردن ــ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .
٢٣ ــ الاسلام يتحدى ــ وحيد الدين خان ــ تعريب ظفر الاسلام خان مراجعة وتحقيق د. عبد الصبور شاهين ــ ط٢ ــ دار البحوث العلمية ــ ١٩٧٣م .
٢٤ ــ إسلامنا ــ سيد سابق ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت .
٢٥ ــ أصول البحث الاجتماعي ــ د. عبدالباسط محمد حسن ــ ط١ ــ مكتبة وهبة القاهرة ــ ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .
٢٦ ــ أصول الفكر التربوي في الاسلام ــ د. عباس محجوب ــ إعتنى بتصحيحه سمير أحمد العطار ــ ط١ ــ مؤسسة علوم القرآن ، عجمان ــ الامارات ــ ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م .
٢٧ ــ الأصول في علم الاجتماع ــ د. ابراهيم عيسى عثمان ــ ط١ كاظمة ــ الكويت ــ ١٩٨٣م .
٢٨ ــ الاعتصام ــ الشاطبي ــ تقديم محمد رشيد رضا ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .
٢٩ ــ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ــ مصطفى صادق الرافعي ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت .
٣٠ ــ الأم ــ الشافعي ــ أشرف على طبعه وباشر تصحيحه محمد زهرى النجار ــ دار المعرفةو للطباعة والنشر ــ بيروت .
٣١ ــ الأم ــ الشافعي ــ مصطفى عبدالرزاق ــ الدار المصرية للتأليف والنشر .
٣٢ ــ الامام الشافعي ــ عبدالغني الدقر ــ ط٣ ــ دار القلم دمشق ــ ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .
٣٣ ــ الامام الشافعي ــ محمد أبو زهرة ــ دار الفكر العربي ــ القاهرة .
٣٤ ــ الامام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول ــ عبدالحليم الجندي ــ دار المعارف ــ القاهرة .
٣٥ ــ الامام محمد بن ادريس الشافعي ــ د. مصطفى الشكعة ــ ط١ ــ دار الكتاب المصري ــ القاهرة ــ ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .
٣٦ ــ الانتقاء ــ ابن عبدالبر القرطبي ، دار الكتب العلمية ــ بيروت .
٣٧ ــ الانماء التربوي ــ د. أحمد الصيداوي وآخرون ــ ط٢ ــ معهد الانماء العربي ــ بيروت ــ ١٩٨٢م .
٣٨ ــ الايمان والحياة ــ د. يوسف القرضاوي ــ ط٧ ــ مكتبة وهبة ــ القاهرة ــ ١٩٨٠م .

(ب)

٣٩ ــ البداية والنهاية ــ إبن كثير ــ مكتبة المعارف ــ بيروت .
٤٠ ــ بروتوكولات حكماء صهيون ــ ط١ ــ الاتحاد الاسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ــ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

٤١ ــ البناء التربوي ــ د. عجيل جاسم النشمي ــ جامعة الكويت ــ الجمعية التربوية ــ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .
٤٢ ــ البيان والتبيين ــ الجاحظ ــ حققه وقدم له المحامي فوزي عطوى ــ دار صعب ــ بيروت .

(ت)

٤٣ ــ التاج الجامع للاصول ــ منصور على ناصف ــ ط٤ ــ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .
٤٤ ــ تاريخ الأدب العربي ــ أحمد حسن الزيات ــ ط٢٤ .
٤٥ ــ تاريخ الأدب العربي ــ د. عمر فروخ ــ ط٣ ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ ١٩٨٠م .
٤٦ ــ تاريخ الأدب العربي ــ (العصر الاسلامي) ــ د. شوقي ضيف ــ ط١٠ ــ دار المعارف ــ القاهرة .
٤٧ ــ تارخ بغداد ــ البغدادي ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت .
٤٨ ــ تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ــ أبو زيد شلبي ــ ط٣ ــ مكتبة وهبة ــ القاهرة ــ ١٩٦٤م .
٤٩ ــ تاريخ عمر بن الخطاب ــ عبدالرحمن بن الجوزي ــ قدم له وعلق عليه أسامة عبدالكريم الرفاعي ــ دار احياء علوم الدين ــ دمشق ــ ١٣٩٤هـ .
٥٠ ــ تحفة المودود في احكام المولود ــ ابن قيم الجوزية ــ ط١ ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ١٣٩٩ه ــ ١٩٧٩م .
٥١ ــ تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي ــ د. محمد جابر الأنصاري ــ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ــ الكويت ــ ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م .
٥٢ ــ التداوي بالقرآن ــ محمد ابراهيم سليم ــ مكتبة القرآن ــ القاهرة .
٥٣ ــ تذكرة الحفاظ ــ الذهبي ــ الناشر محمد أمين دمج ــ بيروت .
٥٤ ــ التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة ــ علي صالح الهزاع ــ ط١ ــ ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .
٥٥ ــ التراث والمعاصرة ــ أكرم ضياء العمري ــ كتاب مجلة الأمة ــ (١٠) ــ رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ــ قطر ــ ١٤٠٥هـ .
٥٦ ــ تربية الأولاد في الاسلام ــ عبدالله ناصح علوان ــ دار السلام ــ بيروت .
٥٧ ــ التربية العامة ــ رونيه أوبير ــ ترجمة عبدالله عبدالدائم ــ ط١ ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ ١٩٦٧م .
٥٨ ــ التربية عبر التاريخ ــ د. عبدالله عبدالدائم ــ ط١ ــ دار العلم ــ بيروت ــ ١٩٧٣م .
٥٩ ــ التربية عند العرب ــ محمد فوزي العنتيل ــ الدار المصرية للتأليف والنشر ــ القاهرة ــ ١٩٦٦م .
٦٠ ــ التربية قديمها وحديثها ــ د. فاخر عاقل ــ ط٢ ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ ١٩٧٧م .
٦١ ــ التربية المعاصرة ــ د. محمود عبدالرزاق شفشق وآخرون ــ ط١ ــ دار العلم ــ الكويت ــ ١٩٧٤م .

٦٢ ــ تصويبات في فهم بعض الآيات ــ د. صلاح عبدالفتاح الخالدي ــ ط١ ــ دار القلم ــ دمشق ــ ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .
٦٣ ــ التطور والثبات ــ محمد قطب ــ ط٥ ــ دار الشروق ــ بيروت ــ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .
٦٤ ــ تعليم المتعلم ــ الزرنوجي ــ تحقيق وتقديم صلاح محمد الخيمي ــ نذير حمدان ــ ط٢ ــ دار ابن كثير ــ دمشق ــ ١٩٨٧م .
٦٥ ــ التغير الاجتماعي والتنمية ــ د. حيدر ابراهيم على ــ ط٢ ــ مكتبة الامارات ــ ١٩٨٥م .
٦٦ ــ تفسير القرآن العظيم ــ ابن كثير ــ أشرف على تصحيحه على شيرى ــ ط١ ــ دار احياء التراث العربي ــ بيروت ــ ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .
٦٧ ــ التفسير القيم ــ ابن الجوزية ــ حققه محمد حامد الفقى ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .
٦٨ ــ التفسير الواضح ــ محمد محمود حجازي ــ ط٩ ــ ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .
٦٩ ــ تلبيس ابليس ــ عبدالرحمن بن الجوزي ــ ط٢ ــ دار الرائد العربي ــ بيروت .
٧٠ ــ تمام المنة في التعليق على فقه السنة ــ محمد ناصر الدين الالباني ــ ط٢ ــ المكتبة الاسلامية ــ عمان ــ ١٤٠٨هـ .
٧١ ــ تنظيم الاسلام للمجتمع ــ محمد أبو زهرة ــ دار الفكر العربي .
٧٢ ــ تهذيب الأخلاق ــ ابن مسكوية ــ ط١ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٤٠١هـ ١٩٨١م .
٧٣ ــ تهذيب الأسماء واللغات ــ النووي ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت .

(ث)

٧٤ ــ ثقافة الداعية ــ د. يوسف القرضاوي ــ الاتحاد الاسلامي العالمي للمنظمات الطلابية .
٧٥ ــ ثمرات الأوراق في المحاضرات ــ ابن حجة الحموى ، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت .

(ج)

٧٦ ــ جامع بيان العلم وفضله ــ القرطبى ــ تعلق عبدالكريم الخطيب .
٧٧ ــ الجامع لأحكام القرآن ــ القرطبى ــ دار الكتاب العربي ــ القاهرة ــ ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م .
٧٨ ــ جريدة المسلمون ــ مجلة سعودية اسبوعية .
٧٩ ــ الجواب الكافي ــ ابن قيم الجوزية ــ ط١ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

(ح)

٨٠ ــ حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ــ أحمد الصاوى المالكي ــ دار احياء التراث العربي ــ بيروت .
٨١ ــ حديث من القلب ــ عبدالحميد كشك ــ ط٤ ــ دار الاعتصام ــ القاهرة .
٨٢ ــ الحسد وكيف نتقيه ؟ ــ ابراهيم محمد الجمل ــ مكتبة القرآن ــ القاهرة .
٨٣ ــ حسن البنا الرجل القرآني ــ روبير جاكسون ــ ترجمة أنور الجندي ــ ط١ ــ المختار الاسلامي ــ القاهرة ــ ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م .
٨٤ ــ حصوننا مهددة من الداخل ــ د. محمد محمد حسين ــ ط٤ ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت ــ ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م .
٨٥ ــ حلية الأولياء ــ الاصفهاني ــ ط١ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م .
٨٦ ــ حوار لامواجهة ــ د. كمال أبو المجد ــ كتاب الأمة (مجلة العربي) (٧) ــ وزارة الاعلام الكويت ــ ١٩٨٥م .
٨٧ ــ حول التفسير الاسلامي للتاريخ ــ محمد قطب ــ ط١ ــ المجموعة الاعلامية ــ ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

(خ)

٨٨ ــ الخصائص العامة للاسلام ــ د. يوسف القرضاوي ــ ط٢ ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م .
٨٩ ــ الخطط والاثار ــ المقريزي ــ دار صادر ووارد ــ بيروت .
٩٠ ــ خلق المسلم ــ محمد الغزالي ــ دار البيان ــ الكويت ــ ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م .
٩١ ــ خلاصة التشريع الاسلامي ــ عبدالوهاب خلاف ــ دار القلم ــ الكويت .

(د)

٩٢ ــ دراسات في الثقافة الاسلامية ــ د. على السالوس وآخرون ــ ط٤ ــ مكتبة الفلاح ــ ١٩٨٥م .
٩٣ ــ دراسات في السنة النبوية ــ د. صديق عبدالعظيم أبو حسن ــ محمد نبيل غنايم ــ ط٢ ــ مكتبة الفلاح ــ ١٤٠٧هـ ١٩٧٨م .
٩٤ ــ دراسات في العلاقات الاجتماعية والدولية ــ د. محمد عبدالله دراز ــ دار القلم ــ الكويت ــ ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م .
٩٥ ــ دراسة فنية في شعر الشافعي ــ حكمت صالح ــ ط١ ــ عالم الكتب ــ بيروت ــ ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .
٩٦ ــ دع القلق وابدأ الحياة ــ دايل كارنيغي ــ ط١ ــ دار ومكتبة الهلال ــ بيروت ــ ١٩٨٤م .

٩٧ ــ دولة بنى العباس ــ د. شاكر مصطفى ــ وكالة المطبوعات ــ الكويت ــ ١٩٧٤م .
٩٨ ــ الدين في مواجهة العلم ــ وحيد الدين خان ــ ترجمة ظفر الاسلام خان ــ مراجعة عبدالحليم عويس ــ ط٣ ــ دار النفائس ــ بيروت ــ ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .
٩٩ ــ الدين والعلم ــ د. محمد حسن هيتو ــ ط١ ــ الغنايم ــ الكويت ــ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .
١٠٠ ــ ديوان أبى نواس ــ (خمريات أبى نواس) قدم له وشرحه ــ د. على نجيب عطوى ــ ط١ ــ دار ومكتبة الهلال ــ بيروت ــ ١٩٨٦م .
١٠١ ــ ديوان الامام الشافعي ــ محمد عفيف الزعبي ــ دار الجيل ــ بيروت .
١٠٢ ــ ديوان الامام الشافعي ــ جمعه وشرحه نعيم زرزور ــ قدم له ــ د. مفيد قميحة ــ ط١ ــ الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .
١٠٣ ــ ديوان الامام على ــ جمع وترتيب عبدالعزيز كرم ــ المكتبة الثقافية ــ بيروت .
١٠٤ ــ ديوان حافظ إبراهيم ــ ضبطه وصححه وشرحه ورتبه أحمد أمين وآخرون ــ دار العودة ــ بيروت .
١٠٥ ــ ديوان الشافعي ــ حققه وقدم له ــ اسماعيل اليوسف ــ دار الخير .
١٠٦ ــ ديوان المتنبي ــ دار صادر ــ بيروت .

(ر)

١٠٧ ــ رجال الفكر والدعوة في الاسلام ــ ابو الحسن الندوي ــ ط١ ــ دار القلم ــ الكويت ــ ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .
١٠٨ ــ الرحلة في طلب العلم ــ الخطيب البغدادي ــ حققه وعلق عليه نور الدين عتر ــ ط١ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م .
١٠٩ ــ الرسالة ــ الشافعي ــ تحقيق أحمد محمد شاكر .
١١٠ ــ رسالة الغفران ــ أبو العلاء المعري ــ قدم له وشرحه ــ د. مفيد قميحة ــ ط٢ ــ دار ومكتبة الهلال ــ بيروت ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م .
١١١ ــ الرقائق ــ محمد أحمد الراشد ــ ط٧ ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .
١١٢ ــ ركائز الايمان ــ محمد الغزالي ــ ط١ ــ دار القلم ــ دمشق ــ ١٤٠٥ ــ ١٩٨٥م .
١١٣ ــ الروح ــ ابن القيم ــ خرج أحاديثه وآثاره وحققه وقدم له وعلق على حواشيه عبدالفتاح محمود عمر ــ ط٢ ــ دار الفكر للنشر والتوزيع ــ عمان الأردن ــ ١٩٨٦م .

(س)

١١٤ ــ السلوك الاجتماعي ــ حسن أيوب ــ ط٣ ــ دار البحوث العلمية ــ الكويت ــ ١٩٨٣م .
١١٥ ــ السنة المفترى عليها ــ سالم على البهنساوي ــ ط٢ ــ دار البحوث العلمية ــ الكويت ــ ١٤٠١هـ ١٩٨١م .

١١٦ ــ السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ــ د. مصطفى السباعي ــ ط٢ ــ المكتب الاسلامي ــ دمشق ــ ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .
١١٧ ــ سنن ابن ماجه ــ حقق نصوصه ورقم كتبه وابوابه وأحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبدالباقي .
١١٨ ــ سنن ابى داود ــ تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ــ المكتبة العصرية ــ صيدا .
١١٩ ــ سنن الدارمي ــ طبع بعناية محمد أحمد دهمان ــ دار الكتب العلمية .
١٢٠ ــ سير اعلام النبلاء ــ الذهبي ــ ط١ ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ١٩٨٢م .

(ش)

١٢١ ــ شبهات حول الاسلام ــ محمد قطب ــ ط١٦ ــ دار الشروق بيروت ــ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .
١٢٢ ــ شرح الأربعين النووية ــ د. مصطفى البغا ــ محيى الدين مستو ــ ط٣ ــ مؤسسة علوم القرآن ــ دمشق ــ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .
١٢٣ ــ شمس العرب تسطع على الغرب ــ زيغرد هونكه ــ نقله عن الالمانية فاروق بيضون ــ كمال دسوقي ــ راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخورى ــ ط٨ ــ منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ــ ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .
١٢٤ ــ الشوارد ــ عبدالله بن محمد بن خميس ــ دار اليمامة ــ ١٣٩٤هـ ١٩٨٥م .
١٢٥ ــ الشوقيات ــ أحمد شوقي ــ ط١ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

(ص)

١٢٦ ــ صانعوا التاريخ ــ د. فيليب حتى .
١٢٧ ــ الصحة النفسية ــ د. محمد عوده د. كمال ابراهيم مرسى ــ دار القلم ــ الكويت ــ ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .
١٢٨ ــ صحيح الترمذي ــ بشرح الامام ابن العربي المالكي ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت .
١٢٩ ــ صحيح الجامع الصغير وزياداته ــ محمد ناصر الدين الألبانى ــ ط٢ ــ المكتب الاسلامي ــ بيروت ــ دمشق ــ ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .
١٣٠ ــ صحيح الكلم الطيب ــ ابن تيمية ــ تحقيق الألبانى ــ ط٤ ــ المكتب الاسلامي ــ دمشق ــ ١٤٠٠هـ .
١٣١ ــ صحيح مسلم .
١٣٢ ــ صفة صلاة النبي ﷺ ــ محمد ناصر الدين الألبانى ــ ط١١ ــ المكتب الاسلامي ــ بيروت ــ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .
١٣٣ ــ صيد الخاطر ــ عبدالرحمن بن الجوزي ــ ضبط وتحقيق وشرح وتعليق د. السيد الجملي ــ ط١ ــ دار ابن زيدون ــ بيروت ــ ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

(ط)

١٣٤ ــ الطب النبوي ــ ابن القيم ــ تحقيق ودراسة وتعليق السيد الجميلي ــ ط٢ ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م .

١٣٥ ــ طبقات الشافعية ــ الأسنوى ــ تحقيق عبدالله الجبوري ــ ط١ ــ الجمهورية العراقية رئاسة ديوان الاوقاف ــ ١٣٩٠هـ .

١٣٦ ــ طبقات الشافعية ــ محمد تقى الدين بن قاضي شهبه ــ اعتنى بتصحيحه وعلق عليه د. الحافظ عبدالعليم خان ــ دار الندوة الجديدة ــ بيروت ــ ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

١٣٧ ــ طبقات الشافعية الكبرى ــ السبكي ــ ط٢ ــ دار المعرفة ــ بيروت .

١٣٨ ــ الطريق الى القلوب ــ عباس حسن السيسى ــ ط١ ــ المؤسسة الاسلامية ــ بيروت ــ ١٤٠٦هـ ١٩٨٥م .

١٣٩ ــ الطريق من هنا ــ محمد الغزالي ــ ط١ ــ دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع ــ القاهرة ــ ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

(ظ)

١٤٠ ــ الظاهرة القرآنية ــ مالك بن نبى ــ الاتحاد الاسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ــ ط٣ ــ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

(ع)

١٤١ ــ عبقرية عمر ــ عباس محمود العقاد ــ جمهورية مصر العربية وزارة التربية والتعليم ــ ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

١٤٢ ــ العزلة ــ أبو سليمان بن محمد الخطابي البستى ــ حققه وعلق عليه ياسين محمد السواس ــ ط١ ــ دار ابن كثير ــ دمشق ــ ١٩٨٧م .

١٤٣ ــ العقد الفريد ــ ابن عبدربه الأندلسي ــ شرحه أحمد أمين وآخرون ــ ط٢ ــ مكتبة المثنى ــ العراق ــ ١٩٦٧م .

١٤٤ ــ العقيدة الاسلامية في مواجهة المذاهب الهدامة ــ د. محمد أبو الغيط الفرت ــ د. محمد رواس قلعه جي ــ ط٢ ــ دار البحوث العلمية ــ الكويت ــ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

١٤٥ ــ عقيدة أهل السنة والجماعة ــ محمد الصالح العثيمين ــ جمعية احياء التراث الاسلامي ــ الكويت .

١٤٦ ــ العقيدة الواسطية ــ ابن تيمية تعليق وتصحيح محمد بن مانع .

١٤٧ ــ علل وأدوية ــ محمد الغزالي ــ ط١ ــ دار القلم ــ دمشق ــ ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

١٤٨ ــ علم أصول الفقه ــ عبدالوهاب خلاف ــ ط٢ ــ دار القلم ــ الكويت ــ ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .

١٤٩ ــ علم الاجتماع التربوي ــ د. ابراهيم ناصر د. دلال ملحس ــ شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ــ الكويت ١٩٨٤م .
١٥٠ ــ علم الاجتماع الخلدوني ــ د. حسن الساعاتي ــ ط١ ــ دار النهضة العربية ــ للطباعة والنشر ــ بيروت ــ ١٩٧٢م .
١٥١ ــ العلم بين يدي العالم والمتعلم ــ جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين ــ ط٣ ــ دار الدعوة ــ الكويت ــ ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .
١٥٢ ــ علم النفس ــ جميل صليبا ــ دار الكتاب اللبناني ــ ١٩٧٢م .
١٥٣ ــ علم النفس ــ فاخر عاقل ــ ط٣ ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ ١٩٧٦م .
١٥٤ ــ علم النفس التربوي ــ د. رجاء محمود أبو علام ــ ط٣ ــ دار القلم ــ الكويت ــ ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .
١٥٥ ــ علم النفس الفسيولوجي ــ د. عزت سيد اسماعيل ــ ط١ ــ وكالة المطبوعات ــ الكويت ــ ١٩٨٢م .
١٥٦ ــ علم النفس في حياتنا اليومية ــ د. محمد عثمان نجاتي ــ ط١٢ ــ دار القلم ــ الكويت ــ ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .
١٥٧ ــ العلم والعلماء ــ أبوبكر الجزائري ــ دار الكتب السلفية ــ القاهرة .
١٥٨ ــ العلم ومشكلات الانسان المعاصر ــ زهير الكرمي ــ عالم المعرفة ــ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ــ الكويت ــ ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .
١٥٩ ــ الفتاوي ــ محمد متولى الشعراوي ــ أعده وعلق عليه وقدم له ــ د. السيد الجميلي ــ مكتبة القرآن ــ القاهرة .
١٦٢ ــ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ــ إبن حجر العسقلاني ــ مراجعة طه بعدالرؤوف سعد ــ مصطفى محمد الهوارى ــ دار الحديث ــ القاهرة ــ ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .
١٦٣ ــ حسن على عبدالحميد ــ ط١ ــ دار عمان ــ الأردن ــ ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .
١٦٤ ــ الفروق الفردية ــ د. رجاء محمود أبو علام ــ د. ناديه محمود شريف ــ ط١ ــ دار القلم ــ الكويت ــ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .
١٦٥ ــ فقه الزكاة ــ د. يوسف القرضاوي .
١٦٦ ــ فقه السنة ــ سيد سابق ــ دار البيان ــ الكويت ــ ٣٨٨هـ ١٩٦٨م .
١٦٧ ــ فقه السيرة ــ محمد الغزالي ــ ط٥ ــ دار الكتب الحديثة ــ القاهرة ــ ١٩٦٥م .
١٦٨ ــ الفقية والمتفقه ــ الخطيب البغدادي ــ ط٢ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .
١٨٩ ــ الفكر التربوي الاسلامي ــ د. محمد جواد رضا ــ دار الفكر العربي .
١٧٠ ــ الفكر التربوي أصوله وتطوره واتجاهاته د. محمد كمال يوسف عاليه وآخرون ــ ط٢ ــ الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب ــ ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

١٧١ ــ الفكر التربوي عند ابن تيمية ــ د. ماجد عرسان الكيلاني ــ مكتبة الكتاب الحديث ــ ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .
١٧٢ ــ الفكر الغربي ــ أنور الجندي ــ وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ــ الكويت ــ ١٤٠٧هـ .
١٧٣ ــ فن التعليم عدن بدر الدين بن جماعة ــ د. حسن ابراهيم عبدالعال ــ مكتب التربية العربي لدول الخليج ــ ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .
١٧٤ ــ فن الخطابة ــ دايل كارنيغي ــ ط١ ــ دار ومكتبة الهلال ــ بيروت ــ ١٩٨٥م .
١٧٥ ــ فهارس الأم ــ د. يوسف عبدالرحمن المرعشلي ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ لبنان .
١٧٦ ــ فهرس تاريخ ابن كثير ــ محمد سليمان الأشقر ــ ط١ ــ دار الأرقم ــ الكويت ــ ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .
١٧٧ ــ الفهرست ــ ابن النديم ــ تحقيق رضا تجدد ــ طهران ــ ١٩٧١م .
١٧٨ ــ الفوائد ــ ابن القيم ــ حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه بشير محمد عون ــ ط١ ــ مكتبة دار البيان ــ دمشق ــ ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .
١٧٩ ــ الفوائد المشوقة الى علوم القرآن ــ ابن القيم ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت .
١٨٠ ــ في ظلال القرآن ــ سيد قطب ــ ط٨ ــ دار الشروق ــ بيروت ــ ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م .

(ق)

١٨٢ ــ قراءات في الفكر التربوي ــ محمد ناصر ــ ط٢ ــ وكالة المطبوعات ــ ١٩٧٧م .
١٨٣ ــ قول على قول ــ حسين سعيد الكرمي ــ دار البنان ــ بيروت .

(ك)

١٨٤ ــ كيف نتعامل مع الناس ــ دايل كارنيغي ــ ط١ ــ دار ومكتبة الهلال ــ بيروت ــ ١٩٨٥م .

(ل)

١٨٥ ــ لسان العرب ــ ابن منظور ــ قدم له عبدالله العلايلي ــ اعداد وتصنيف يوسف خياط ــ نديم مرعشلي ــ دار صادر ــ بيروت .
١٨٦ ــ لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ــ شكيب أرسلان ــ دار مكتبة الحياة ــ بيروت ــ ١٩٨٢م .

١٨٧ ــ المأثورات ــ حسن البنا ــ المكتب الاسلامي ــ بيروت ــ ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .
١٨٨ ــ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ــ أبو الحسن الندوي ــ ط٧ ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ١٩٨٢م .
١٨٩ ــ ماذا يعنى إنتمائي للاسلام ــ فتحي يكن ــ ط١٣ ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .
١٩٠ ــ مباحث في علوم القرآن ــ د. صبحي الصالح ــ ط١١ ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٧٩م .
١٩١ ــ مباحث في علوم القرآن ــ مناع القطان ط١٩ ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .
١٩٢ ــ المجتمع العربي المعاصر ــ د. حليم بركات ــ ط٢ ــ مركز دراسات الوحدة القومية ــ بيروت ــ ١٩٨٥م .
١٩٣ ــ مجلة حضارة الاسلام ــ مجلة سورية (مؤسسها ــ د. مصطفي السباعي) .
١٩٤ ــ مجلة العلوم الاجتماعية ــ جامعة الكويت .
١٩٥ ــ مجلة المجتمع الكويتية .
١٩٦ ــ مجموع فتاوي شيخ الاسلام ابن تيمية ــ جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن القاسم وابنه محمد ــ مؤسسة قرطبة ــ مصر .
١٩٧ ــ مجموعة رسائل الامام الشهيد حسن البنا ــ ط٢ ــ المؤسسة الإسلامية ــ بيروت ــ ١٤٠١هـ ١٩٨١م .
١٩٨ ــ المختار من كتاب الكامل للمبرد ــ اختيار حسين نصار ــ مراجعة مصطفى السقا وزارة الثقافة والارشاد القومي ــ مصر .
١٩٩ ــ مختصر سيرة ابن هشام ــ اعداد عفيف الزعبي مراجعة عبدالحميد الأحدب ــ ط٦ ــ دار النفائس ــ بيروت ــ ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .
٢٠٠ ــ مختصر العقيدة الاسلامية ــ طارق سويدان مراجعة د. عمر سليمان الأشقر ــ ط٢ ــ دار الدعوة ــ الكويت .
٢٠١ ــ مختصر المزنى ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ لبنان .
٢٠٢ ــ مختصر منهاج القاصدين ــ ابن قدامة ، علق عليه شعيب الأرنؤوط ــ عبدالقادر الأرنؤوط ــ مكتبة دار البيان ــ دمشق ــ ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .
٢٠٣ ــ مدارج السالكين ــ ابن القيم ــ دار الحديث القاهرة .
٢٠٤ ــ مدخل إلى أصول التربية ــ د. عبدالمحسن عبدالعزيز حماده ــ ط١ ــ المركز العربي للاعلام ــ الكويت ١٩٨٣م .
٢٠٥ ــ المذهبية الاسلامية والتغيير الحضاري ــ د. محسن عبدالحميد ــ كتاب الأمة (٦) رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ــ قطر ١٤٠٤هـ .

٢٠٦ ــ مسند الامام أحمد بن حنبل .
٢٠٧ ــ مع الله ــ محمد الغزالي ــ ط٥ ــ المكتبة الاسلامية ــ القاهرة ١٩٨١م .
٢٠٨ ــ مع الرعيل الأول ــ محب الدين الخطيب ــ ط٧ ــ نشره قصي محب الدين الخطيب .
٢٠٩ ــ مع القرآن ــ أحمد حسن الباقوري ــ مكتبة الآداب ــ مصر .
٢١٠ ــ معجزة الاسلام التربوية ــ د. محمود أحمد السيد ــ دار البحوث العلمية ــ الكويت ــ ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م .
٢١١ ــ معجم الأدباء ــ ياقوت الحموى ــ دار المستشرق ــ بيروت .
٢١٢ ــ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ــ أي ونستك وآخرون ــ مكتبة بريل في مدينة ليدن ــ ١٩٣٦م .
٢١٣ ــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ــ محمد فؤاد عبدالباقي ــ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت .
٢١٤ ــ المعجم الوسيط ــ إخراج د. ابراهيم أنيس وآخرون ــ ط٢ ــ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت .
٢١٥ ــ مفاهيم قرآنية ــ د. محمد أحمد خلف الله ــ عالم المعرفة ــ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ــ الكويت ــ ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .
٢١٦ ــ مفتاح دار السعادة ــ ابن القيم ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت .
٢١٧ ــ مفيد العلوم ومبيد الهموم ــ القزويني ــ تحقيق محمود عبدالقادر عطا ــ الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .
٢١٨ ــ المقاصد الحسنة ــ السخاوي ، دار الهجرة ــ بيروت ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م .
٢١٩ ــ مقامات السيوطي ــ د. عبدالغفار سليمان البنداري ــ محمد الصديق بسيوني زغلول ــ ط١١ ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٩٨٦م .
٢٢٠ ــ مقدمة ابن خلدون ــ عبدالرحمن بن خلدون ــ دار الشعب ــ القاهرة .
٢٢١ ــ من الأصول التربوية في الاسلام ــ د. عبدالفتاح جلال ، المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي ــ سرس الليان ــ المنوفية ــ مصر ١٩٧٧م .
٢٢٢ ــ من محاسن الاسلام ــ محمد عز الدين البيانوني ــ ط٣ مكتبة الهدى ــ حلب ١٩٧٣م .
٢٢٣ ــ من معين التربية الاسلامية ــ محمد منير غضبان ــ ط١ ــ مكتبة الحرمين الرياض ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م .
٢٢٤ ــ من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية ــ د. محمد عبدالرحمن مرحبا ــ ط٣ ــ منشورات عويدات ــ بيروت ١٩٨٣م .
٢٢٥ ــ مناقب الشافعي ــ البيهقي ــ تحقيق السيد أحمد الصقر ، دار التراث : القاهرة ١٣٩٠هـ ــ ١٩٧٠م .
٢٢٦ ــ مناهج البحث في التربية وعلم النفس د. ديو بولد قالين ــ ط٣ ترجمة د. محمد نبيل نوفل وآخرون ــ مكتبة الانجلو المصرية ــ ١٩٨٥م .
٢٢٧ ــ المناهج المعاصرة ــ د. الدمرداش عبدالمجيد سرحان ط٣ ــ ط٣ ترجمة د. محمد نبيل نوفل وآخرون ، مكتبة الانجلو المصرية ــ ١٩٨٥م .

٢٢٧ ــ المناهج المعاصرة ــ د. الدمرداش عبدالمجيد سرحان ط٣ ــ مكتبة الفلاح ــ الكويت ١٤٠١هـ /١٩٨١م .
٢٢٨ ــ المنطلق ــ محمد أحمد الراشد ، ط٨ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م .
٢٢٩ ــ منهج التربية الاسلامية ــ محمد قطب ــ ط٢ دار الشروق بيروت .
٢٣٠ ــ منهج القرآن في تربية الرجال ــ د. عبدالرحمن عميرة ، ط١ ــ شركة عكاظ ١٩٨١م .
٢٣١ ــ المنهج في الجرح والتعديل ــ د. فاروق حمادة ــ ط١ ــ مكتبة المعارف ١٩٨٢ .
٢٣٢ ــ مواقف ذات عبر وكلمات في المنهج والطريق ــ د.عمر سليمان الأشقر ــ ط١ الدار السلفية الكويت ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م .
٢٣٣ ــ الموسوعة الفقهية ــ ط٢ ــ وزارة الأوقاف ــ الكويت ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٣م .
٢٣٤ ــ موطأ الامام مالك ــ تعليق وتحقيق عبدالوهاب عبداللطيف دار القلم ــ بيروت .
٢٣٥ ــ موقف الخلفاء العباسيين من أئمة أهل السنة ــ عبدالحسين علي أحمد ــ دار قطري بن الفجاءة ــ الدوحة ــ قطر ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م .
٢٣٦ ــ موقف الدين من العلم ــ علي فؤاد باشكيل ــ ترجمة أورخان محمد علي ــ دار الوثائق ــ الكويت .

(ن)

٢٣٧ ــ النبأ العظيم ــ د. محمد عبدالله دراز ــ ط٢ ــ دار القلم الكويت ١٣٩٠هـ ــ ١٩٧٠م .
٢٣٨ ــ النبوة والانبياء ــ محمد علي الصابوني ــ ط٣ ــ مكتبة الغزالي ــ دمشق .
٢٣٩ ــ نحو منهج اسلامي في التربية والتعليم ــ د. عباس محجوب ــ ط١ ــ مؤسسة علوم القرآن ــ الامارات ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٧م .
٢٤٠ ــ نظرات في التربية الاسلامية ــ عطية صقر ــ مؤسسة الصباح الكويت .
٢٤١ ــ نظرات في دراسة التاريخ الاسلامي ــ د. عبدالرحمن الحجي ــ ط٣ ــ الصحوة ــ الكويت ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م .
٢٤٢ ــ نظريات التعلم ــ جورج أم غازدا وآخرون ترجمة علي حسين حجاج ــ عالم المعرفة ــ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ــ الكويت ١٩٨٦م .
٢٤٣ ــ نقد الفكر الاجتماعي ــ د. معن خليل عمر ــ ط١ ــ دار الافاق الجديدة ، بيروت ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م .
٢٤٤ ــ نهج البلاغة ــ الامام علي رضى الله عنه ــ مراجعة الشيخ محمد عبده ــ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ــ بيروت .
٢٤٥ ــ نوابغ الفكر الاسلامي ــ أنور الجندي ــ دار الرائد العربي ــ بيروت ١٩٧٩م .
٢٤٦ ــ نيل الأوطار ــ الشوكاني ــ دار القلم ، بيروت .

٢٤٧ ــ هارون الرشيد الخليفة المظلوم ــ محمد الزين ــ احمد القطان ، ط١ ــ ابن قتيبة الكويت ــ ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م .
٢٤٨ ــ واحات الايمان ــ عبدالحميد البلالى ــ ط١ ــ دار الدعوة ــ الكويت ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م . ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م .
٢٤٩ ــ وحى القلم ــ مصطفي صادق الرافعي ــ ضبطه وصححه وعلق عليه محمد سعيد العريان ــ ط٨ ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت .
٢٥٠ ــ الوراثة والانسان ــ د. محمد سعيد الربيعي ــ عالم المعرفة ــ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ــ الكويت ــ ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .
٢٥١ ــ الوصايا العشر ــ حسن البنا ــ عرض وشرح د. عبدالعظيم ابراهيم المطعنى ــ دار الشروق ــ بيروت ــ ١٤٠١هـ ١٩٨١م .
٢٥٢ ــ الوصايا في الأدب العربي القديم ــ د. سهام الفريح ــ ط١ ــ مكتبة المعلا ــ ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .
٢٥٣ ــ وصايا ونصائح لطالب العلم ــ عبدالرحمن بن الجوزي ــ تحقيق محمد ابراهيم الشيباني ــ مكتبة الهداية ــ الكويت .
٢٥٤ ــ الوعي التربوي ــ جورج شهلا وآخرون ــ ط٥ ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ ١٩٨٢م .
٢٥٥ ــ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ــ ابن خلكان ــ حققه د. إحسان عباس ــ دار صادر بيروت .

الفهرست

الموضـــوع	الصفحة
ـ تقديم للدكتور عجيل جاسم النشمي .	٩
ـ الشافعي معلما ومربيا .	١١
ـ مقدمـــة .	١٣
الباب الأول	
ـ أصالة أم معاصرة ؟	١٩
ـ الشعر واللغة في حياة الشافعي .	٢٣
ـ البرنامج اليومي في حياة الامام الشافعي .	٣٠
ـ مصطلحات البحث (شعر ، ديوان ، تربية) .	٣٣
ـ هيكل البحث .	٣٩
ـ منهج البحث .	٤١
البـاب الثانـي	
ـ مكانة العلم وفضله .	٤٥
ـ حق العلم .	٥١
ـ طبيعة العلم .	٥٤
ـ طبيعة التعلم .	٥٨
ـ طبيعة عمل المعلم .	٦٢
ـ طبيعة التعلم .	٦٨
ـ محبة العلم .	٧٠
ـ الجد والمثابرة .	٧٣

ـــ تلخيص عام ٧٦
ـــ أهمية التربية في القدرة على التغيير ٧٦
ـــ ثمرة العلم ٨٠
ـــ بين العلم والعمل ٨٤
ـــ تلخيص عام ٨٦

الباب الثالث

ـــ منبع العلوم ومشكاة الهدى ٨٩
ـــ أهم العلوم ٩٢
ـــ المنهج العلمي في التفكير ١٠٥
ـــ عوائق التفكير العلمي ١٠٥
ـــ المنهج الصحيح للتفكير العلمي ١١٣

الباب الرابع

ـــ الاستعدادات الفطرية والاجتماعية لطلاب العلم ١٢٩
ـــ حفظ المعلومات ١٤٤
ـــ أثر التعليم في الصغر ١٦٠
ـــ مجاهدة النفس ١٧١
ـــ ترويح النفس ١٧٨
ـــ ضوابط الترويح ١٨٨
ـــ الترويح بالغناء ١٩٠

الباب الخامس

ـــ الصحة النفسية ١٩٧
ـــ أمراض القلوب ٢٢٣

الباب السادس

ـــ الصداقة ٢٣١
ـــ أخلاق المربين . .....

الباب السابع

ـــ وسائل التربية عند الشافعي ٢٧٩
ـــ اولا : القدوة ٢٨٠
ـــ ثانيا : التربية بإحياء الضمير ٢٩٠
ـــ ثالثا : الموعظـة ٢٩٤
ـــ موعظة الشافعي لهارون الرشيد ٣٠٢
ـــ وصية الشافعي للخطيب ٣٠٧
ـــ رابعا : النصيحة ٣٠٩
ـــ خامسا : المناظرة ٣١٦
ـــ نماذج من مناظرات الشافعي ٣٢٣
ـــ سادسا : الرحلة ٣٢٧
ـــ سابعا : التربية بالعبادة ٣٣٩
ـــ ثامنا : التربية بالأحداث ٣٤٩
ـــ تاسعا : التربية بالترغيب والترهيب ٣٥٤
ـــ عاشرا : الثواب والعقاب ودورهما في التربية ٣٦٠
ـــ الحادي عشر : دور القصة في التربية ٣٧١

الباب الثامن

ـــ خاتمة ٣٨٣
ـــ النتائج ٣٨٥
ـــ التوصيات ٣٨٧
ـــ وتبقى كلمة ٣٨٩

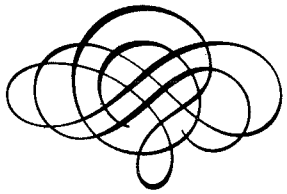

مطابع البلاغ التجارية
الكويت - الشويخ - شارع المطار
ت : ٤٨١٩٠٠٨ - ٨١٨٦٠٦ ع